



رواية

# أغزى سر

تأليف الفيكونت دوشاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير  
ويليها

## خلاصة كتاب تاريخ الإندلس

الى سقوط غرناطة

مترجم الرواية و مؤلف الكتاب  
اشهر كتاب العرب ، في التاريخ والسياسة والادب ، الامير  
مكيب ارسلون

ويليها

كتاب أخبار العصر ، في انقضاء دولة بني نصر  
لمؤلف شهد وقائع سقوط الاندلس بنفسه  
واثارة تاريخية رسمية ، في أربعة كتب سلطانية أندلسية

طبع في

طبعة المارمر

سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م

OUP—787—13-6-75—10,000.

# OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. <sup>ع</sup> ١٩٢٥٤٣ Accession No. A 84  
Author <sup>١٩٢٥٤٣</sup> <sup>شکب ١٩٢٥</sup>  
Title <sup>آفرینش و زندگی</sup>  
This book should be returned on or before the date last marked below.

---

رواية

# أخزى نهر

( تأليف )

الفيلسوف دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير

مترجمة ومذيلة بملخص من تاريخ الاندلس

الى سقوط غرناطة

بقلم صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان

( الكاتب المتفنن والمؤرخ الشهير )

طبعت اولاً بمطبعة الاهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٧

الطبعة الثانية في

مطبعة المياري بصرى

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٤ م

---

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه قصة لطيفة من نوع القصص المعروفة ، على أسلوب الوضع  
المألوف ، ألفها ( الفيكونت دوشاتوبريان ) الكاتب الفرنسي الشهير  
وسماها ( وقائم آخر بني سراج ) وأدارها على سباحة شاب تام الرجولية ،  
باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الفرناطيين ، من أكرم بيوتات  
العرب الباقيين ، كانوا بالاندلس لعمد خلوها من الاسلام ، ونبوّها عن  
حمر الاعلام ، هب من تونس حيث كان جالية الاندلس قد نزل  
أكثرهم سائحا الى وطنه القديم ، متعللا بالعظام الرميم ، طائعا هوى النفس  
في الذهاب اين ساقه التذكار والحنين ، هائما على وجهه في تلك الارض  
التي عمرها آباؤه مثين من السنين ، وبينما هو يجول في شوارع غرناطة  
مسكن أهله قبل الجلاء الاخير ، وثمالة ما كان بقي في يد الاسلام من  
ذلك النعيم والملك الكبير ، كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من  
سريات الاسبانيول فعاقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله فتعاشقا  
وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما اعجاب كل بدينه  
واخلاصه لربه ، ثم ما تبين لابن سراج بعد طول العشرة من كون  
معشوقته سلالة من آل ينفار الفاتكين لدن الجلاء بأبائه ، فرأى اختلاط  
دم القاتل بدم المقتول غير خليق بأبائه ، ولا ممتزج بشيمة وفاته ، بل



مضي كل من المتعاشقين بحبيبه صبا ، قد اختلطت مهجتهما حبا ، ولم  
يفرق بينهما الا الدين والا المودة في القربى  
أصبت هذه القصة في بعض المظان فاخترت نقلها الى اللسان  
العربي المبين ، للطف معناها ، وشرف مغزاها ، وما تضمنته من  
آداب المحبين ، وايتارآلها فيها من مكارم الاخلاق ، ومزايا الاشراف من  
الفرسان ، واطلاعا على كثير من الصفات الملسكية متزحزحة عن افق  
الملا العلوي الى عالم الانسان ، استدلالا على بديع صنع الله حين يجمع  
بين الحسن والاحسان ، ثم تعريفنا بحال الفروسية إذ ذاك ، وما انطوى  
من مكارم الاخلاق بين الالجام والاسراج ، وتلذا بذكري السلف ،  
واستقراء لآثار العرب ، على نحو الغرض الذي حدا بقية بني سراج ،  
ووصلتها بذيل من أخبار الاندلس اللازمة للقصة الزائدة في طلاوتها ،  
المساعدة في فهمها وتسوغ حلاوتها ، فجاء فيها من لطف الحقيقة ما لا يقصر  
عن لطف الخيال ، وأعيد بها كثير من صدى الاندلس قبل تأذن الله بالزيال ،  
والله سبحانه يرشدنا الى طريق الخير وهو المسؤول بحسن المآل ،  
آمين



﴿ القصة ﴾

لما اضطرَّ السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة آخر ملوك الاسلام بالاندلس الى مهاجرة ملك اجداده ، والجلاء عن بلاده ، وقف يبكي على الاحبة والمنازل من ذروة جبل (بادول) المشرف على البحر ، اذ كان هذا الملك المشؤوم الطالع يروم الاجازة الى بر العدو ، وكانت تبدو من هناك غرناطة ومرجها ( الفيحة ) ونهرها ( الشنيل ) على ضفتيه مضروبة قباب ( فرديناند ) طاغية الاسبانيول وقرينته الملكة ( ايزابلا ) فلما تأمل أبو عبد الله رونق ذلك المظر ، وسرَّح جواد الطرف في مسارح تلك الدحات ، وشاهد أشجار السرو الباسقة فوق مقابر المسلمين - أجهش بالبكاء والمويل ، واستعبر اذ اعتبر ذهاب ذلك الملك العريض الطويل ، فقالت له أمه عائشة ، التي كانت في صحبته مع كبار الحاشية « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » ثم هبطوا الساحل وغابت غرناطة عن أعينهم غيبة انقطاع

وأما مغاربة اسبانية الذين أصابهم ما أصاب ملكهم أبا عبد الله من فقد الملك ، وانتثار السلك ، فقد تفرقوا شامطيط في أقطار افريقية ، فنزل منهم بنو ( الزغري ) غمارة بأراضي فاس التي يقال إن أصلهم منها . أما البنغاز والعباس فانتشروا بسيف البحر من وهران الى الجزائر ، وأما بنو سراج فأقاموا بربض تونس واستعمروا هناك حيال دمن قرطاجنة محلة يمتاز أهلها عن سائر أهل المغرب بجمال الشارة ولطف الخلق

وقد احتملت هذه العشائر الى وطنها الجديد ذكرى وطنها القديم  
ملء القلوب ، ولم تزل جنة ( غرناطة ) مصورة أبدا في مخيلاتهم ،  
فالأمهات يلقن اسمها أطفالهن مع الرضاع ، ويهزّن بهم الاسرة بقصص  
بني الزغري وبني سراج ، وهم في كل خمسة أيام يقيمون في المسجد الصلاة  
والدعاء برجوع غرناطة الى يد الاسلام ، ويضرعون الى الله أن يعيد الى  
جزبه أرض السعادة وفردوس الدنيا ، لا يسلمهم عنها من تونس الخضراء  
خضرة خمائل ، ولا نضرة جداول ، ولا يانع ثمار ، ولا عذب نعيم ،  
ولا شمس هجير ، بل لم يكن عندهم خارجا عن أبراج الحمراء ثمار طيبة ،  
ولا عيون صافية ، ولا روض ولا غدير ، ولا أقاح ولا أزاهير ، ولا شمس  
تستحق أن يلتفت اليها أبدا ، ولا بلدة تؤتي أكهار غدا ، فاذا أطلع  
احد واحدا من جالية الاندلس على مريح ( بفرادة ) مثلا هز راسه ،  
وصعد أنفاسه ، وهتف « غرناطة »

وكان بنو سراج على الخصوص يحفظون لوطنهم أرق وأمتن  
تذكر ، ويحنون اليه ولا حنين الطير الى الاوكار ، فانهم كانوا فارقوا ميدان  
ذلك الجهاد ، فراق الارواح للاجساد ، وخلت منهم تلك الارجاء التي  
طلما تجاوزت أصداؤها بأصوات الشهامة والحب ، واذ لم يبق في إمكانهم  
هزّ عوالي المران في الصحراء ، ولا التقنع بالخوذ بين جالية من الاندلس  
متكسبين ، وغرباء في ارتياد الرزق منتشرين ، عكفوا على درس العقاقير ،  
مهنة معتبرة عند العرب تضاهي عندهم مهنة عمل السلاح ، وهكذا هذه  
السلالة الباسلة التي كان أفرادها فيما مضى من الدهر ينكأون الجروح ،  
ويفرجون الهموم ، أصبحوا في تاليه يدملون القروح ، ويبرثون الجسوم

وفي هذا أيضا لم تزل على شيء من شأنها الاول لان الفرسان كانوا بأنفسهم يضمنون جراحات الاقران، بعد ان يصرعوهم في ساحة النزال وبعد ان كان لهذا البيت الكريم السراجي القصور الشاهقة الى العنان، والصروح البالغة في تطاول البنيان، صار يأوي الى كوخ منفرد لم يكن في وسط قرية المهاجرين بسفح جبل ( مامليف ) بل كان قائما وسط أطلال ( قرطاجنة ) بسيف البحر في المكان الذي هلك فيه ( مار لويس ) ضجيم الرماد، وفيه الآن قتره ناسك من عباد المسلمين، وكان معلقا على حيطان الكوخ درقات من جلد أسد مصور عليها في رقعة زرقاء شكل وحشين مفترسين أمامهما دبوس قد سخرا به مدينة وبجانب هذه الصورة مكتوب هكذا « متاع قليل » وهذه كانت أسلحة سمة بني سراج — وكان مصفوا بجانب تلك التروس بين البواتر اللامعة والخناجر البراقة، اسنة معلة بإشارات بيض وزرق، وبرانس محررة من الاطلس الخالص، وهناك أيضا كنفوف حديدية، ولجم محلاة مرصعة بالجواهر، وركب ضخمة مفضضة، وسيوف طوال الشفار، موشيات الغلف بأنامل بنات الامراء، ومهاميز من ذهب قد اصطنعت في الغابر برسم خول الفرسان، وعلى موائد منصوبة بجانب هذه الآثار الدالة على مجد عريق، وحسب أصيل، أدوات حضرية، وآثار عيشة هادئة، منها حشائش مقتطعة من أعراف جبال الاطلس، ومنها مقتاتة من الصحراء، ومنها ما هو مجلوب من مرج غرناطة، بعضها يناسب آلام البدن، وبعضها ذو خواص تتناول نفريج هموم الانفس. وكان المعتمد عليه والمتنافس فيه عند بني سراج ما كان منها ذا مسكة في

تسكين الاشجان ، وتيسير السلوان ، والاخذ بالخواطر عن شديد  
التخيلات ، وكاذب الاماني التي تحيي الرجاء ولا تحققه ، الا انه لسوء  
البخت كانت تتلاقى في هذه الاعشاب خواص متناقضة ، فانه كثيرا ما  
كان عرف نبات عرفوه في وطنهم القديم أشد على هؤلاء المهاجرين  
الاشراف ، من السم الزعاف

وكان قد مضى على استخلاص غرناطة من يد المسلمين اربعة  
وعشرون عاما هلك في أمثائها من بني سراج اربعة عشر سريا من تأثير  
الاقليم الجديد في امزجتهم ، وتقلب احوال المهاجرة بهم ، ولا سيما شدة  
الحزن الذي لامثيل له في هذه القوى الانسانية الباطنة ، ولم يبق من هذا  
البيت الاثيل ، سوى فرع واحد كان رجاء آله الوحيد ، وسند قومه  
الوطيد ، واسمه ( ابن حامد ) وهذا هو ابن السراجي الذي رماه بنو  
الزغري بمغازلة الملكة فهيمة ، كان جامعا في نفسه الجمال الزاهر ، والاقدام  
الباهر ، والادب الغض ، الى كرم العنصر وشرف المنزاع ، مع الرقة في  
الابهة ، والتواضع في الجلال ، تلوح على معارفه ملامح الحزن اللامحة  
على من نجمل واعتزم في احتمال غدرات الزمان ، لم يكن له من العمر  
عند وفاة ابيه سوى اثنين وعشرين ربيعا ، فتوى السفر لزيارة بلاد  
آبائه قضاء لحاجة في نفس يعقوب ، وانما مآل امر اعتنى بكتمانه عن والده ،  
فأبحر من جون تونس ، وجرت الفلك به برريح طيبة حتى قرطاجنة الاندلس ،  
وهناك وطىء البر وشمرا قاصدا غرناطة ، وكان يعرف نفسه بانه نبأ مغربي  
جاء لانتجاع مساقط الغيث ، وارتياح التعاشيب التي بين صخور شلير  
وغيره من جبال الاندلس ، وكان ممطيا بغلة هادئة تسير به الهويناء حيث

كان آباؤه السراجيون يطرون على جياذ مطهمة ، وجر دمسومة ، وكان احد  
الادلاء يسير امامه بينغلين من فاره الحيوان ، عليهما الجلاجل وغزل من  
الصوف مختلف الالوان ، فجاز ابن حامد في مسيره غابات النخيل المشتبك  
في اراضي مرسية وتأمل في قدم تلك الاشجار ، حاسبا انها غرس آباؤه ،  
فاستشعر فؤاده الحزن وهاجت خواطره بلابل الاشجان ، ثم لم ينشب ان  
أبصر برجا عاليا كان يسهر فيه الحراس أيام حروب المغاربة والنصارى ،  
وآثار أبنية تدل صنعة بنائها على كونها عربية ، وهي أيضا محل آخر لشجن  
ابن سراج الذي ما زالت تلك المناظر تولمه وتشجيه ، حتى اضطر أن  
يترجل عن بغلته ، وأن يتوارى ساعة وراء تلك الرسوم ، بحجة التنقيير  
عن الاعشاب ليفسح مجال الجرى المدمع السجوم ، متمثلا بقول حبيب :  
ما في وقوفك ساعة من باس تبكي رسوم الاربع الادراس<sup>\*</sup>  
ثم استأنف السير وهو مستغرق في التمل والأتكار ، يطوي البلاد  
على صليل الجلاجل ، وتغني دليله المستمر على وتيرة واحدة ، لا ينقطع  
حداؤه الا لث البغال بأن يناديها تارة يا جيدة يا سريعة ، ويزجرها طور  
بقوله : عدس

وكانت على احد جانبي الطريق قطمان من الضأن يُسيمها راع في بقاع  
صفراء جرداء ، وقد عرض في اثناء الطريق بعض عابري السبيل ، وكأني  
بهذا الطريق قد ازداد لهم وحشة ووحدة ، بدلا من ان يزداد بهم حركة  
وانساء ، وكان كل واحد من هؤلاء المسافرين متقلدا سيفا ومتلففا في عباءة ،  
وعلى رأسه قبعة مسترخية تقنع نحو النصف من وجهه ، وكانوا في اثناء  
( \* ) كذا في الاصل ، وفي الديوان المطبوع : تقضي ذمام الأربع الأدراس

مرورهم يلقون السلام على ابن حامد رمزاً وهمساً بحيث لم يميز من سلامهم سوى لفظ الجلالة وكلمتي سيد وفارس . وعند المساء عرسوا في أحد الفنادق فجلس ابن سراج بينهم غربا يبدون أن يتكادهم قلة احتفالهم به وتظلمهم الى زيه ، وكونهم لم يسألوه عن شيء ولا شافوه بشيء ، وان عمامته وغنبازه ( ١ ) وشكته لم تكن لتحرك منهم ساكناً ، فحيث جرى قضاء الله بأن لا تبقى تلك المملكة الفيحاء للمسلمين لم يعد في وسع ابن حامد إلا أن يعتبر ما يراه من رصانة فأحياها ويمجب بما عليهم من السكينة والوقار

على أن غاية انفعالات الفارس السراجي لم تكن هناك بل كانت تنظره عند خاتمة مطافه ، وإلقاء عصا تسياره على باب غرناطة . وغرناطة الحمراء مبنية في سفح جبل ( سيار نيفادة ) الشارات ( ٢ ) على رابعتين مسترسلتين صعداً يفصل بينهما واد عميق والابنية ممتدة على الصبب من الجانبين وآخذة برقاب السفوح الى قعر الوادي على شكل يعطي البلدة للناظر هيئة الرمانه — ومنها اشتق اسمها اذ معنى لفظة غرناطة رمانه

وقد أحاط بالمدينة نهران أحدهما يسمى الشنيل والآخر الدورو ( او حدره ) وتحدرا الاول عن مثل سبائك المسجد ، وتصيب الثاني على مثل رمال اللجين ، وبعد أن تطهرت بياهما سفوح الآكام اجتمعوا وتماثقا ، ثم انفصلا وتفارقا ، وتكون كل منهما واديا يلتوي بجانبها التواء الشجاع ، وتطرد منه عيون واقنية يسقى بها مرج غرناطة الافيج ويطيب حفافها الانتجاع ، وهذا المرج الذي تشرف عليه غرناطة كارس من ملتف

( ١ ) لباس لاهل المغرب ( ٢ ) وجبل غرناطة هو شاي من سلسلة الشارات

الدوح، وفينان السرح، وأشجار الكرم والرمان، والتين والتوت والليمون،  
حلة خضراء سندسية وقد حفت به جبال مدهشة المنظر، شائقة الملمح،  
فاذا مر السائح من هناك قلب طرفه في صحو تلك السماء، وصفاء ذلك  
الماء، وتبسم ذاك الأفق واعتلال ذلك الهواء، لم يتمالك أن يستشعر قلبه  
الانحلال ونفسه الالتياث، بل يحس أن عواطف الرقة في هذه البلاد  
تغلب على حفاظ الشجاعة، وأن مناخها يحل عقود العزائم، وينكت  
مفتول الشكائم، لولا أن من لوازم العشق لكي يتحقق بوجوهه أن يكون  
دائماً بصحبة المجد وأن تكون الظبي خفراً لظباء الخفر، وتقوم شفا  
الاجفان، سياجادون شفار الاجفان

ولما شاهد ابن حامد عن بعد اعالي ابراج غرناطة بلغ خفقان قلبه  
واضطراب اعضائه أن اتزم الوقوف ببغلة ثم رديديه نحوزوره وشخص  
بصره نحو المدينة المقدسة والبلدة الطيبة وبهت حائراً صامتاً، فوقف  
الدليل لوقوفه. واذا كان الاسبانيول يستشفون بسهولة العواطف العالية،  
والخواطر السامية، لاح عليه أثر الانفعال وفهم أن المغربي قد قامت قيامته  
عند مارأى وطنه القديم، فالتفت نحوه ابن سراج وشرع في الحديث  
قائلاً سعديك أيها الدليل واصدقني المقال فلا ريب عندي لقد كان ميمونا  
يوم ميلادك : سكنت فيه العواصف، ودخل البدر في تمامه، قل لي رعاك  
الله ما هذه الابراج التي تسفر كالنجوم في سماء تلك الروضة الغناء؟ فأجابه  
الدليل هي الحمراء، قل ابن حامد وما هو ذلك القصر الاخر؟ قال  
الاسباني هو قصر الجنراليف ( ١ ) الذي فيه غيضة الريحان التي زعموا



أن ابن سراج فوجيء فيها مع الملكة فهيمة ، ثم هنالك محلة البيازين ومن  
الجهة الثانية الابراج الحمر

فكانت كل كلمة من كلمات الدليل سهما نافذا في فؤاد ابن حامد ،  
وما أشد على المرء من الالتجاء الى الاجنبي في الاستعلام عن منازل آبائه ،  
وأخذ صحاح الاحاديث عن سلفه ، ثم وقف الدليل بابن حامد عن  
زيادة الاستعبار والتأمل ، وهتف قائلا له هيا بنا أيها السيد المغربي هيا  
بنا ، هكذا قضى الله فاربط جأشك ، واستثر عزمك ، ألا ترى الى  
فرنسيس ملك فرانسة أسيرا اليوم في مادريد ( مجريط ) عاصمتنا ؟  
بذلك جرى حكم الله الذي لا ممق لحكمه ، ثم رفع قبعته ورسم اشارة  
الصليب على صدره وزجر بغاله ومضى ، وعندها حثث السراجي أيضا  
مطيعته قائلا « مكتوب » وانحدرا صوب غرناطة

وفي الطرق مرّا حذاء شجرة لسان الطير الشهيرة بالواقعة التي جرت  
تحتها بين موسى وبين صاحب كالاتراغا ( ١ ) في الكائنة الاخيرة عند  
خروج المسلمين من غرناطة ودارا حول البلدة متزهين ثم دخلوها من  
باب البيرة ( ٢ ) وصعدا الرملة ووصلا الى مكان تكتنفه من كل جهة  
ابنية عربية ، وكان هناك خان مفتوح لاجل نزول مغاربة افريقية الذين  
كانت تجارة الحرير في مرج غرناطة تحدهم الى هناك زرافات فذهب  
الدليل بابن حامد الى ذلك الخان

وكان ابن سراج سابحا في لجة الهوا جس سبحا طويلا وقد أقضت  
ذكرى الاوطان مضجعه ، وزادت رؤية الاطلال توجعه وتفجعه ، فلم

( ١ ) قلعة رباح راجم الدليل ( ٢ ) احدى كور غرناطة

يندق طعم راحة في نزله الجديد ، ولا اكتحل طرفه بأثم الكرى بل اتخذ  
مألفه التسهيد ؛ وعند ما عجز عن مقاومة نفسه ، ورائت على عينه يقظة  
حسه ، خرج في أواسط الليل هائما على وجهه في شوارع غرناطة ، وحاول  
أن يعرف بالمشاهدة أو باللامسة بعض الابنية التي كان مشايخه وصفوها  
له ، لعل ذلك البناء الشامخ الذي لم تكن نخفى عليه جدرانه مع اشتداد  
الحلاك كان في الغابر منزل بني سراج ؛ أو لعل ذلك المكان الممتزل كان  
معقدا لتلك الحافل التي تباهت باخبارها التواريخ ، وسمعت بمجد غرناطة  
الى المرنج ، أو أن من هناك كانت تطالع كواكب الفرسان عليهم الحلل  
المطرزة ، ومن هذا الشاطيء تتقدم الاجفان بالاسلحة والرايات ، فيها  
المقاتلة تقذف بالحرقات ، الى غير ذلك من تخيلات الخيلاء والتهيه والمرح  
ولكن والأسف ! لم يكن حول ابن حامد إلا السكوت التام بدلا من  
قرع الطبول ، كأن لم يبق بعد العرب عامر ، ولم يسمر بمكة سامر ، بل  
بدات تلك المدينة البكماء غير اهلبا ، وجلس الغالب مكان المغلوب خلى  
البال ، لا يبيت بأوجال ، لذلك قال النقي المغربي لنفسه استفهام انكار :  
أفنيام إذا هزلأء الاسبانيول الطفاة تحت السقوف التي طردوا من تحتها  
اجدادني ، وأنا ابن سراج آرق غريبا ذليلا ، وحيدا مجهولا ، على ابواب  
قصور آبائي واجدادني ؛ ان ذلك لخطب عظيم

ثم أخذ ابن حامد يتأمل في مصاير الامور البشرية وعثرات الجدود  
وسقوط الممالك وتصاريف الاحوال وفي شأن غرناطة هذه التي دهمها  
الاعداء أعظم ما كانت تمتعة ، وارفع عيشا ، وبدلها باكيل زهرها اصفاداً  
من حديد ، فامثل امام عينيهم أهلها مهاجرين أو طائهم بأثواب الاحتفال

كالمدعوين الى عرس حافل شبت في محفله نار فازدحموا للخروج وأفنتوا  
وهم يتعثرون بأذيال زينتهم

فكانت أشباه هذه الاشباح تزدحم في مخيلة ابن حامد ولم يكن له  
همٌ لما كان بالغاً به من الوجد والبث سوى اتمام المقصد الذي ساقه الى  
زيارة غرناطة. وبينما هو على هذه الحال اذ راعه فلق الصبح وهو يتعسف  
الجواد وقد بعد عن الخان وصار الى ربض متراخ عن المدينة ، والسكل  
رعود ، والابواب والمنافذ مغلقات ، ولا يحس في الشوارع ركز ، ولا  
تسمع نبأ الا صياح الديك ، فقد صار يرتفع من بعض بيوت الفقراء  
منبهاً الناس لمعاودة الكد والشغل

وبعد ان هام ابن حامد طويلاً لايهتدي الى الطريق ، ولا يأتس برقيق  
سمع حركة باب ينفتح ، واذا بغادة حسناء رائحة الشباب ، ناعمة الالهاب ،  
اشبه في ثيابها ببينات ملوك القوط المنقوشة صورهن على جدران اديرتنا القديمة  
لها منظرٌ قيد النواظر لم يزل يروح ويفقد في خفارته الحب  
متوشحة بصدارة من الخمل الفاحم قد شدت به رشيق قوامها ،  
وقصر سراويلها الضيق الخالي من الثنايا يكشف نعمة الساق ولطافة القدم ،  
وكان على رأسها عصاة تمسكها باليد اليسرى سوداء ملتفة دائرة الى  
ماتحت الذقن بحيث لم يكن يرى من وجهها كاه سوى احداقها النجيل  
وثغرها الالى ، وكانت معها مهبثها وتابع يحمل بين يديها كتاباً دينياً ،  
ووراءها اثنان من الوصفاء يتبعانها عن بعد ، وهي ذاهبة الى ضللة  
الصبح في دير قريب ابتداء قرع ناقوسه

بأبي من همت فيه سحراً يتهادى كنسيم السحر

اقبس الصبح ضياء ساطعاً فأضأ والفجر لم ينفجر  
 واستعار الروض منه نفحة ينها بين الصبا والزهر  
 ايها الطالع بدرأ نيراً لاحتلت الدهر الا بصري  
 فلما وقعت عليها عين ابن حامد خيل اليه انها الملك اسرافيل ، او  
 حوراء من قاصرات الطرف غفل عنها رضوان ، فقرت من الجنان ، وقد  
 حركها منه ما حركه منها ، ورأى يعينها ورات بعينه ، واخذت ترنو الى  
 ابن سراج وعمامة وطيلسانه واسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلته  
 رونقا وجلالا ، ثم ثابت من دهشها الذي اصابها لاول وهلة فأشارت  
 الى ذلك الغريب الديار ان يدنو منها وقالت له بلطافة وهشاشة تمازجها  
 نساء تلك الاحياء : ايها السيد المغربي يظهر لي انك قادم جديداً الى  
 غرناطة وربما كنت اضمت الطريق

فأجابها ابن حامد ايه يامليكة الجمال وملك الجنان ونعيم العميون والنصرانية  
 الحسنة التي فاقت عذارى الكرج لقد اصببت فاني غريب بهذه البلدة قد  
 ضللت الطريق ما بين هذه القصور فلم اهتد الى خان المغاربة اسأل الله بحرمته  
 محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ان يستعطف قلبك ويجزيك عن كلامك خيرا  
 اجابت الاسبانية ان المغاربة موصوفون بالكياسة والادب ، فأنا  
 لست مليكة الجمال ولا حسنة اتبعني ايها الفارس فاني ذاهبة بك الى  
 خان المغاربة . ثم تقدمته ومشيت الى ان وصلت به الى باب الخان ودلته عليه  
 باليد ثم رجعت من وراء مصنع هناك وتوارت عن العين

انتقلنا من الم الى الم آخر ولا راحة في الدنيا وانما هي سلسلة آلام .  
 الآن ليس الوطن وحده هو الشاغل قلب ابن حامد ، وغرناطة لم تعد

في عينيه كما كانت قفرة مهجورة عاطلة مهملة فهي الآن احب ما كانت  
الى قلبه ولكن قد ازدادت عنده حسناً جديداً تحات به آثارها ، وامتزج  
الآن بذكرى الآباء جاذب جديد من حب الحسان ، وكان ابن حامد  
قد اكتشف المقبرة التي فيها عظام بني سراج وقرأ وتوسل وانتحب ،  
وارسل الادمع كالسحب ، ولكن مع هذا كله خيل ان الاسبانية الحسناء  
لا بد ان تكون قد مرت بمض الاحيان بتلك المقبرة ، فان بقايا آباءه  
ليست من الشقاء بالمكان الذي كان يظنهم فيه . وقد اتى عزمه بأجمعه عن  
حصر رحلته في زيارة مراقداً بآئه ، والبحث على ضفاف الشنيل والحدرة  
عن الاعشاب والنباتات منذ طلوع الشمس الى ان تتوارى بالحجاب ، بل  
أصبحت الزهرة الوحيدة التي يسعى في التفتيش عنها هي النصرانية  
الحسناء ، وكم جده وذهب نعبه سدى في معرفة قصرها ، وكم مرة عاد  
أدراجه على الطرق التي هداه فيها ذلك الدليل النوراني ، وكم مرة خيل  
له سماع صوت الجرس وصياح الديك الذي كان سماعه صباح يوم مصادفته  
لها حتى كان ينمط بمنته ويسرة ويركض الى هنا والى هناك وجنة الحور  
العين لا يفتح له طريقها ، وكثيراً ما لاحت له بارقة الامل عند رؤية  
الغواني اللابسات مثلها ، اذ كل النصرانيات على بعد يتشابهن مع مالكة  
فؤاده ، ولكن ليس منهم من لها عن قرب باهر جمالها ، ولا ساحر  
لطفها ، ولم يري لقد طوّف ابن حامد في الكنائس للظفر بمحبوبته وما  
زال يستقصي حتى وصل الى قبر ( فرديناندوايزابلا ) وهو أعظم ما يجشمه  
الى ذلك الوقت من مشاق الحب  
ومن عجب اني احن اليهم واسأل شوقاً عنهم وهم معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو الذوى قلبي وهم بين أضلعي  
ففي ذات يوم كان يفتش عن الاعشاب في وادي حدره وكان  
قصر الحمراء وقصر الجنرايف الى جهة الجنوب على تلك الحزون الاريضة  
وعلى أكمة لجهة الشمال محلة البيازين برياضها النضيرة ، وكهوفها التي  
كانت في الماضي معمورة، وعلى الطرف الغربي من الوادي قباب نواقيس  
غرناطة قائمة بين أدواح السرو والسنديان، ونحو الطرف الآخر الى جهة  
الشرق تسرح العين في مشاهد مختلفة من رؤس صخور وأديرة ومناسك  
واخربة من بقايا البيرة القديمة . وعلى مسافة بعيدة من قنن جبل شلير  
ثم النهر المتسلسل عليه الطواحين والاشلة الثرارة ، وحنايا قناة رومانية  
دارسة وبقايا قنطرة من ايام العرب

وكان ابن حامد قد اصبح وسطا في حالته ، فلا هي شدة ولا هو  
رخاء، ولا هي سعادة ولا هو شقاء ، فلم يكن ممن يلتذ حينئذ بالانفراد  
فكان يتنزه على تلك الضفاف المربعة مرخبا للنفس عنانها في ميدان  
الخط ، وبينما هو يهيم بين الغياض تبع صفا من الاشجار ممتدا على  
رؤية ( البيازين ) واذا بببيت في البرية احتفت به غيضة نارنج قد عرض  
له في قرب منه حتى سمع صوت غناء وضرب آلة ، ولا يخفى ان بين  
اصوات الغيد وبين حركاتهن تناسبا لا يخفى على احد دله الغرام ،  
ففي الحال قال ابن حامد : هذه غادتي الحوراء ، ثم ألقى السمع والقاب  
مضطرب فسمع اسم « ابن سراج » مكررا فازداد خفقان قلبه ، وكانت  
تلك الناعمة تغني زجلا قشتاليا في تاريخ بني سراج وبني الزغرى فعندها  
استرخى ابن حامد وغاب عليه الدهش ثم وثب فوق سياج من الريحان

فوقم على سرب من ظباء الانس قد راعين بدخوله فجأة فنفرن من كل جهة وقد ارتفعت اصواتهم ، إلا الغادة التي كانت تذشد وفي يدها آلة الطرب فمرفته « وهل يخفى القمر » وقالت : هذا هو الشريف المغربي ودعت صاحباتها وسكنت روعهن وانقلب الذعر انسا

فقال لها ابن حامد : يا حبيبة الانس والجن لقد كنت افتش غنك كما يطلب البدوي في الصحراء نغير الماء ، واترقب طلعتك رقبة الساري قر السماء في الليلة الظلماء ، والآن استمعت نغمة عودك وانت تنشدين وقائع ابطال قومي فمرفتك برخامة الصوت وجئت واضعا بين يديك بل تحت قدميك قلب متيمك ابن حامد .

فقلت له الدونة بلانكه ( ادماء ) وكان هذا اسمها : وانا ايضا كنت انشد غناء بني سراج بذكرك إذ اني منذ شاهدتك تصورت ان أولئك الفرسان المغاربة كانوا اشبه بك . وعند هذه الكلمة توردت عراض ادماء ، وجال الخمر في الماء ، وتمشى السكر في معاطف ابن حامد فكاد يرنح عليه ويقع على اقدام الفتاة الاسبانية . مترفاهما انه هو ابن سراج ، لكنه ملك نفسه ، ولم يعزب عنه ادراكه ، ولم يتسلط حبه على حلمه ، بل كان ارق من الصباية ، وامتن من المهابة ، وانه ليعرف ان هذا الاسم الشهير في غرناطة يلقى فكر الوالي ولم تكن حرب الموريسك (١) بعميدة العهد وقدم مثل ابن سراج في ذلك الوقت خليق بأن يحدث عند الاسبانيول ظنة . ولم يكن ابن حامد بمن يتقي ( ١ ) المغاربة الذين فضلوا التنصر ظاهرا على ترك بلادهم ( راجع الذيل )

غائلة او يداري خطر الموت لكنه كان يرثش فرقا من الفراق، وتستهل  
دوعه اذا تذكر البعد عن سبللة (الدون لذريق )

للمحبين من حذار الفراق عبرات تجول بين المآقي

وكانت (الدونا ادماء) سلاله بيت يتصل نسبه بسيد (بيفار)  
وامراته (شمانه) ابنة الكونت (غو ماز دو غور ماس) وكانت سلاله  
فأتم (بلنسية) الغناء بما كوفئت به من الاعراض والغمط ونسيان الجليل  
من دار مملكة (فشتالة) قد وصلت الى حد الفقر، بل قد مسها الضر،  
حتى اختفى اثرها، وكدرس ذكرها، فظن انها انقطعت من شدة اهمالها  
في زوايا الخمول. لكن امهد فتوح غرناطة نال أحد حنطة آل بيفار  
يهو جد ادماء شهرة معظمها مكسوب غير منسوب، وأكثرها ثمره  
جده، لا بركة جده، فالملك (فرديناند) بعد إجلاء المسلمين أوسع له  
في الاقطاع من أملاك البيوت المغربية واقبه (بدوز صنتافي) فتمكن  
الدوق الجديد في غرناطة وتوفي في ريمان الشباب خلفا ولداً وحيداً  
وهو والد بلانكا أو ادماء

وكان هذا الولد الوحيد يسمى (لذريق) وقد تزوج بالدونة  
(تيريزه دو كسپرس) فولدت له غلاماً دعي (لذريق) أيضاً لكن لقبوه  
(بكارلوس) تميزا له عن أبيه، وتعرض (الدون كارلوس) منذ حداثة  
سنه لشهود الحوادث الكبار، وممارسة الخطوب الجلائل، وركوب  
أنباج الاخطار، فازدادت عنده بذلك رصانة طبع وصعوبة قياد مر كوزتان  
في أصل انقطة، فلم يكن تجاوز الرابعة عشرة من العمر حينما صحب  
(كورتيز) الى غزاة المكسيك وهناك اقتعد جميع النوارب، وحمل نفسه



على جميع المصاعب ، وشهد فخرهم تلك الغزاة التي تشيب من هولها  
الولدان ، وحضر انقراض تلك المملكة التي هي آخر ممالك ذلك العالم  
المجهول . وبعد تلك البطشة الكبرى بثلاث سنين شهد في اوربا وقعة  
( بافيا ) كأنه لم يحضرها إلا ليرى الشهامة والاقدام صريمين في الميدان  
امام القضاء والقدر ، وكان مشهد عالم جديد واختراق بحار لم تكن مطروقة  
بعد ومقارعة الاهوان وتصاريف الحدثان قد أثرت في مخيلة الدون كارلوس  
الدهنية ، وحالته المصبية ، فاندمج في نظام فرسان قلعة رباح وعدل عن  
الزواج رغماعن إلحاح الدون لدرىق والده وتخلي عن جميع ثروته لشقيقته ادماء  
وكانت ادماء البينارية شقيقة الدون كارلوس الوحيدة ، احدث  
منه سنا بمدة مديدة ، وكان والدهما مفتونا بها ووالدها قد توفيت وكانت  
دخلت في الثامنة عشرة من العمر لعهد قدوم ابن حامد الى غرناطة ، وكانت  
تلك الفتاة كلها فتنة وسحرا ، وطربا وسكرا ، ذات صوت يذم الارواح ،  
ويزيد برفته على البابل الصдах ، واذا رقصت فضحت الغصون اذا يلتها  
نسمات الصباح . كانت تارة تنزم عجلة كأنها ارميد (١) وطورا تسابق  
الريح على متن صافن من جياد الاندلس كأنها اجنية أو ساحرة فلوظهرت في  
أثينا لظنوها (سبازيا) أو في باريز لنشرت ديانة دوبواتيه (١) من قبرها ، جامعة  
بين الاضداد من رقة الفرائسيات ، الى شدة الاسبانيات ، ممزوجة الدعابة  
بالوقار ، والخلاعة بالحشمة ، والطرب بالادب ، فلا يتغلب هيام على قوة ارادتها

(١) اسم بطلة من بطلات « أورشليم المستنقذة » يجعلها الافرنج رمزا للجمال  
المقرون بالشجاعة (٢) اسم سيدة شهيرة في فرنسا ولدت في سنة ١٤٩٩ وأبوها  
جان دوبواتيه وتزوجت وهي بنت ثلاث عشرة سنة من لويس دوبريزه وكان  
منها قهرمانه عظيمة لعبت دورا في السياسة وكانت تلعب بهنري الثاني ملك فرنسا

ولما ذعر الفتيات الاسبانيات بمفاجأة ابن حامد لهن في الغيضة  
النارنجية لدى سماع الاخوان الشجبة لسرع الدون لذريق اليهن فقالت له  
ادماء يا أبتِ هاهو ذا الشريف المغربي الذي حدثك عنه لقد سمع صوتي  
فعرفه ودخل الروضة يشكرني على ارشادي ليأمر الى طريقه ذلك اليوم  
فلقي (دون صديقي) ابن سراج لواء قومه الاسبانيول بما اعتادوه من  
الرصانة في السذاجة، فانه لا يوجد عندها هذا القبيل شيء من أطوار التذلل  
ولا يسمع من أحد منهم كلام يدل على إسفاف الهمة وتسفل النفس ،  
بل اسان الصعلوك المسكين منهم أشبه بلسان السيد الشريف ، والهمام  
الغطريف ، والسلام واحد والعادات والاصطلاحات واحدة ، وعلى قدر  
ما عندهم من الامانة وحسن العهد وكرم الاخلاق والبر بالغريب ، تجدد  
عندهم من حدة الانتقام ولاخذ بالترات والجزاء على الاساءة والخيانة ،  
قومهم أولو بأس شديد ، وقلوب من حديد ، لا يتكسرون أمام البغث ،  
ولا يولون الادبار ، اذا لم تساءف الاقدار ، فلمهم الصدر أو القبر ،  
لا يتصفون بفرط الدهاء ، لكن أهواءهم الشديدة وقلوبهم المشبعة ،  
تقوم لديهم مقام الافكار الثابتة ، والآراء الصائبة ، فتغنيهم نار الحمية ،  
عن نور الاملية ، وقد يكون الاسباني قضى سحابة يومه لم يكلم انسي  
ولا رأى بشراً ولا مال الى الاطلاع ولا الى الاستماع ولا قرأ ولا تبهر  
ولا قاييس ولا استنبط ولكنه يجد في علوهتمته وسمو مقاصده وإبعاد  
مراميه المؤونة اللازمة لاستقبال طوارق الدهر

وكان ذلك في اليوم الموافق يوم ولادة الدون لذريق حيث احتفلت  
ادماء بعيد مختصر في ذلك المجلس الانيس بين الظل الممدود والماء العذب

والنسيم العليل، فدعا الدوق ابن حامد للجلوس بين اوائك الغيد اللاتي كنّ متعجبات من رأي الغريب وعمامته وجبينه، ثم جيء بطنافس حريرية يجلس السراجي عليها على عادة المغاربة، فأخذن يسألنه عن بلاده وعن رحلته وهو يجيبهن بهشاشة وبداهة، وكان يتكلم باللغة القشتالية الحرة حتى يظن انه أسباني لولا وضه الكاف موضع خطاب الجمع وكان لفظه بتلك الكاف من اللطافة والمذوبة بحيث كانت ادماء لا تتمالك من غير خفية ان خاطب بها احدي صواحبها

ثم جاء طائفة من الحشم يحملون ميجون القهوة بالسكر مع مربى الفاكمة وخبز السكر المائي، الناصع البياض كالثايج، اللطيف الرخص كالاسفنج. وبعد الطعام دعيت ادماء الى رقصة كانت تنفق فيها الجميع فأطاعت بحكم الضرورة اجابة لالتماس حبايبها فلزم ابن حامد السكوت لكن عينيه تكلمتا عن فمه فاختارت ادماء رقصة ذات رمز أخذها الاسبانيول عن المغاربة وشرعت احدي الغواني تضرب على العود لحن تلك الرقصة الغريبة فعند ذلك حسرت ادماء نقابها تماما واسدلت داجي شعرها على ناصع عنقها وعلقت بأنامها الببيض فقاعات من خشب الآبنوس تدق بمضها ببيض، هذا وثغرها وعيناها متساوية في الاتسام، ومنظرها بحرارة فؤادها. شرق القسم، فاندفعت تنشد الغناء المخصوص بتلك الزينة محاكية بصوتها نغمة العود وموافقة بين نغماتها واناء، رتمت على ذلك مدة، فله ما أرشق حركاتها، وألطف سكناها، تارة ترفم يديها بسرعة وطورا تخفضهما على مهل، وأحيانا تثب وثوب النشوان بمخمرة السراء، ثم تنثني الى الوراء انثناء من رده العياء، ثم تلفت رأسها

وتلوح كمن أرادت نداء غائب، ثم تميل بجيد الغزال الاعفر دانية بنجدها  
الوردي الى أن يخال امكان تقييله ، ثم تنهزم وقد صبغها الحياء بعندم ،  
وتعود ساطعة الوجه فتمشي مشية راسخ، وتتقدم كالجندي الباسل ، ثم  
تطير على ذلك المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها وأصوات  
العود ، وتجود بكل نغمة يترنم لها الجلود ، زد على هذا الموسيقى  
الاسبانية في طبيعتها بما اشتملت عليه من الايقاع المهيج ، والانشاد الحزن،  
والغناء المتقطع ، تجمع الاضداد من فرح وشجن ، وتقرن ورقاء ايك الى  
هزار فتن ، فكان في هذا العزف والرقص ما فيه كفاية لتوطين نفس  
ابن سراج على الغرام ، بل ربما أثرت تلك العشرة في أربط منه جاشاً،  
وأقل انتعاشاً ، وهوى ذلك الهوى بأثبت عزماً ، وأوفر حملاً ، وقد قيل :  
أنا ان لم أهو غزلان النقا أي فرق بين قلبي والجماد

وعند الاصيل عادوا الى غرناطة من طريق وادي حدره وقد فتن  
(الدون لذريق) من آداب ابن حامد وكياسته ورجاحته ما زاد تعلقه به  
وملازمته له ، حتى كان يرتاح جدا الى مجالسته لادماء ومسامرته لها  
في أحوال المشرق ( وكل بلاد الاسلام عند الاوروبيين مشرق ) وكان  
السري المغربي أحب شيء اليه اجابة دعوة الدوق ، بل ثاني يوم ذلك  
المجلس توجه الى الصرح ، الذي فيه ادماء أضوا في عيذه من الصبح  
واذا بادماء قد أخذ منها الهوى مأخذا شديداً مع ما كانت تظن من  
استحالة بلوغ الحب عندها الى هذا الحد ، فلقد كان يظهر لها ، ان الكاف  
برجل مسلم غريب الوطن مجهول الاصل من البعد عن الامكان ، بحيث  
لم تقا له بشيء من أسنة التوقي ولم تقم دونه شيئاً من استحكامات الاحتياط

فما راعها والا والحب جار مجرى الدم في مفاصلها ، فاذا أحست بسرّيانه في عروقها وامتزاجه بأجزاء روحها تحملت تحمل الاسباني الصابر ، وما قدرت وقوعه من الاوصاب والمصائب لم يقف بها على شفير الهلاك ، ولا طالت مشاحته لقابها ، بل قالت لنفسها « ليكن ابن حامد مسيحيا وليحبني ولو صرت في برك الغماد » \* عاقت معالقتها وصرت الجندب \*

كذلك السيد ابن حامد كان يشعر بقوة الهوى الذي تنشب في قلبه ، والصبوة التي ترجعت طواحتها بحمله ، فلم يحاول مدافعة تياره فاستسلم له ، وأصبحت حياته كلها فداء لادماء ، وذهب عنه ما لاجله قصد غرناطة ، نعم زادت عنده سهولة الاطلاع على ما قطع المراحل وأنضى الرواحل من أجله ، لكن كل هم غير حب ادماء عاد لديه تافها ، بل صار يحذر الوقوع على علوم ربما كان من شأنها أن تغير في حالة فؤاده التي يود أن لا تتغير ، فلم يكن يطعم في مطمح ولا يطمح نظره الى أمنية ، وكان يناجي نفسه « لتكون ادماء مسلبة ولتجني وأنا أقوم بخدمة لها الى آخر نفس من حياتي »

وكان كل من العاشقين بما هو عليه من العزم المعقود والاستعداد المتين يتوقع خاسة يبيع فيها ما في نفسه للآخر ، وكان الفصل ربيما فقالت ابنة الدوق لابن سراج أخالك الى الآن لم تنزه في الحمراء ، ويفهم من بعض الكلمات التي بدرت منك أن أصل عشيرتك من غرناطة فلامرية انك عظيم الاشتياق الى مشاهدة قصور ملوكك الاولين ، وها أنا ذا عصر اليوم أكون لك اليها دليلة

فأقسم ابن حامد بنبيه أنه لا يمكن أن تكون لديه فسحة أنزه من

هذه ولا ندحة أعز عليه منها.

وعند مجيء ساعة سيرهما الى الحمراء امتطت ابنة لذريق رمكة مطيعة سرية عودتها تسلق الهضاب وماس الجنادل اعتياد المعز وصحبها ابن حامد على جواد أندلسي مطهر مسروج ومزين على نمط الاتراك، وبينما كان يركض جواده كانت جيبته الحمراء تنتشر وراءه، وسيفه الاحدب يصلصل على صهواته السامية، والهواء يعبث بعذبة عمامته، والناس يقولون عند مروره بهم هذا أمير من أمراء المسلمين تريد الدوقة بلانكة أن تهديه الى النصرانية وأخذ بشارع طويل منسوب الى أحد البيوتات المغربية الشهيرة ينتهي الى سور الحمراء الخارجى فاخترقا غابة من ملتف الشجر وانتهيا الى عين ثم وصلا الى السور الداخلى قصر أبي عبد الله، واذا بجدار عليه أبراج وله شرفات ينفتح منه باب اسمه باب الحساب، فولجا هذا الباب، وتقدما في طريق ضيق يلتوي بين جدران عالية، وأطلال بالية، ومن هناك أشرفا على دار الجب الذي مرّده (شراكان) بجانبها صرحا، ومن قمة المنطقا نحو الشمال ووقفوا في ميدان أخلى من جوف المير حذاء حائط بسيط الصنعة أخنى على نضارته قدم الايام، فقفز ابن حامد على الارض ومد ساعده الى ادماء يمينها على النزول عن رمكتهما ثم قرع الخادم بابا عتيقا قد اعشوشبت عتبه فانفتح الباب وظهرت في الحال سرائر الحمراء، وانبسطت دخائل ذلك البناء

ففاض قلب ابن حامد حنيئا وتذكرا، وتذهبت عواطف الجنسية مع الحب، ووقف صامتا ساكتا يدير لحاظه في ذلك المكان الجني، فحيل له أنه نقل الى مدخل أحد القصور الواردة أوصافها في أقاصيص العرب

من رواقات لطيفة، وأقنية رخام بديمة، منقوش عليها زهر النارنج والاترج،  
وسوح متفرقة تعرض من كل جهة للنظر، وعقود أبواب مستطيلة الشكل  
ودهايز ذات لطافة ورونق يقصر القلم عن وصفها، وقد كانت زرقة  
لا زوردية تظهر خلال الاساطين المعقودة فوقها القناطر والجدران المزخرفة  
أشبه ما يكون بالحلل الشرقية التي تطرزها الحرم، وبالأجمال فكانت  
تتأق على تلك الاماكن السحرية، مسحة دينية، ممتزجة بهيئة عسكرية،  
وجلوة (?) غرامية أشبه بخلوة عشق ومنتبذ مناجاة كان ملوك المغاربة ينغمسون  
بها في الذات، ويسترسلون الى النعيم قبل أن خلت منهم الديار، وأجلوا  
الى ما وراء البحار

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الادم تمشى حول واقفة الدمي  
نجيب بها الهام الصدى ولطالما أجاب القيان الطائر المترنما  
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جمعا والحميس عرمرما  
فبعد هنيئة قضيا فيها العجب ولازما الصمت دخل العاشقان مركز  
تلك الدولة الماضية، والسعادة الخالية، فطافا أولا في بهو «المسوكار»،  
بين عرف أزاهر، وخرير نوافر

قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعاد الى المقام بصيرا  
واشتق من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحدث بالمظام نشورا  
لو أن بالايوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا  
أعيت مصانعه على الفرس الاولى رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا  
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ملوكهم شبيها له ونظيرا  
تجري الخواطر مطلقات أعنة فيه فتكبر عن مداه قصورا

بمخمس الساحات تحسب أنه فرش المهاد وتوشع الكافورا  
ومحصب بالدر تحسب تربه مسكا تضوع نشره وعبيراً  
تستخلف الابصار منه اذا أتى صبحاً على غسق الظلام منيرا

ثم دخلا قاعة الأسود الشهيرة وكانت رعشة ابن حامد تزداد كلما  
توغل في الدخول فقال لادماء : لو لم تكن سمادتي تامة بك لم يكن  
حزني يوصف عند اضطراري اسؤالك أنت أيتها الاسبانية عن تاريخ  
هذه الاماكن — أما كن بنيت لاجل النزهة ورياضة النفس وأنا ...

ثم أبصر ابن حامد اسم أبي عبد الله مرصعاً بالفسيفساء فصاح يامولاي  
ما ذا أصابك؟ كيف أجذك في حرائك وهي خاوية على عروشها؟ ثم  
انحدرت على خد، ده دموع الوفاء والامانة والشجامة . فقالت له ادماء :  
إن سلاطينكم الاولين أو ملوك آبائكم كانوا كافرين بالنعم قال : لا فرق  
فقد كانوا عاثري الجدود

وعند هذه الكلمات أخذته ادماء الى غرفة يظن أنها كانت هيكل  
الحب وهي خلوة لا تمثل في اللطافة والنية بسقفها مدهون باللازورد ومموه  
بالذهب ومزخرف بالنقوش العربية المقطعة النافذة الى الخارج بحيث كان  
النور داخلاً منها كأنه من خلا . نسيج من الزهر . وكان في وسط البناء حوض  
يتدفق ويتسلسل ومياهه تتساقط كالطل الشل في ودعة جوفاء من الرخام  
فقالت ابنة الدوق لاي ن حامد : نظر الى هذا الحوض فمدهست في رؤوس  
بني سراج وانك ترى الى الآن على الرخام نقطة دم المساكين (١) الذين  
أخذهم أبو عبد الله بمجرد الظلم والظاهر أنه هكذا يعلوون عندكم الرجال الذين



ينازلون السذج من النساء. فلم يصغ ابن حامد الى قولها وجثا على ركبتيه  
ولهم بمخشوع أثر دم آباه، ثم قام وصاح : يا ادماء ودم هؤلاء الابطال  
لاحبتك حب ابن سراج في ثباته ووفائه وحرارة فؤاده. قالت له :  
تجنبي اذن ؟ ثم ضمت إحدى كفيها الى الاخرى ونظرت الى السماء  
وقالت : أما إنه لا بد أن تتأمل انك رجل مغربي مسلم عدو، وأنا مسيحية  
اسبانية، قال ابن حامد : أيها النبي الكريم كن شهيداً علي فقطعت عليه  
ادماء الكلام وقالت له : أي ثقة لي في يمين من يعذب الهى (١) هلم تعلم  
ان كنت أحبك فن ذا الذي أعطاك الامان أن تخاطبني بكلام كهذا ؟  
فوجم ابن حامد ثم قال لها : حقاً ما أنا الا عبدك وأنت لم تختاريني  
فارساً لك . قالت : أيها المغربي خفف عنك فانما الحيلة في ترك الحيل  
وأنت قد قرأت فوق لحاظي سورة حبك وفهمت أن جنوني بك فوق  
كل حد، ألا فكن مسيحياً وأي مانع من أن أكون لك ؟ اكن اعلم أنه  
ان كانت كريمة (دوق صنتافي) تخاطبك بطلاقة كهذه فهي أيضاً اذا  
أرادت تمكنت من قمع شهوتها ولم تدع الهوى يتسلط على عقلها ودينها :  
ألا انه لن يمكن عدو المسيحيين أن ينال منها شيئاً. فعندها أخذ ابن حامد  
بيدها وقد استطار الحب لبه ووضعها أولاً على عمامته ثم على قلبه قائلاً :  
ان الله على كل شيء قدير وابن حامد سعيد. ثم قال : عرف أيها الرسول  
هذه النصرانية دينك القيم ونور قلبها بنورك ولا شيء يمكنه (١) ...

(١) هذا الكلام من مؤلف القصة الفرنسي مبني على ما يظن بالمسلمين من انهم  
يطلبون من النبي (ص) ما يطلب النصراني من المسيح عليهما السلام او من الفديسين.  
والحق ان المسلمين لا يطلبون الهداية لانفسهم ولا لغيرهم الا من الله تعالى القائل  
في كتابه لنبيه ( ليس عليك هدايم ولكن الله يهدي من يشاء \* انك لا تهدي من  
احببت ولكن الله يهدي من يشاء )

فقطعت عليه ادماء وقالت له : لنخرج من هنا  
ثم اتكأت على ذراع المغربي وتقدمت نحو حوض الاثنى عشر  
أسداً المنسوب اليه أحد ابهاء الحمراء

وضرا غم سكنت عرين رئاسة	تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشي النضار جسومها	وأذاب في أفواهاها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	أقامت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها	ناراً وألسنها اللواحس نوراً
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعمان غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعا فقدّر سردها تقديرا
ومصفع الابواب تبرأ نظروا	بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه	ابصرت روضاني السماء نصيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي	حامت لتبني في ذراع وكورا
وكأنما للشمس فيه ليقة	مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه محزم	بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاة	تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم قالت له أيها الغريب مارأيت نوبك وعمتك وشككتك وخطر  
في بالي الحب الذي بيننا الا وخيل لي ذلك السراجي الغيسان في هذه  
الخلوة مع سيئة البخت الفهيمة، فسر لي الكتابة العربية المحفورة على  
مرمر هذا الحوض فقرأ ابن حامد هذين البيتين  
من بنات الملوك تخطر في الروض كغصن عليه بدر تجلي

قلدت جبهها الآلي وما كا ن المحلى والله غير المحلى ( ١ )  
وهناك ابيات اخر ممحوة بتقديم العهد فقل ابن حامد كانت هذه  
الكتابة لاجلك يامليكة الحسن الباهر، وهذه القصور في شبابها لم تكن  
في الرونق التي هي عليه الآن في خرابها. اصغي الى خرير الماء الذي مال  
بمجرام الطحلب، انظري الى الجنات التي تلوح من خلال هذه الحنايا  
المتهدمة، والمحي كوكب الصبح الذي يغرب وراء هذه الابواب . تالله  
ما حلى الطواف معك في هذه المقابر التي تتعطر بانفاسك كما تتأرجح  
باعراف الورد ! ما ألد حديثك الذي أجد فيه بعض نغمات من اسان آبائي !  
مرور ثوبك على المرمر يحرك كل عرق في فؤادي . إني لأجد "نسيم" ارا  
بمس غداثرك، وأرى لك جمال الحور العين في هذه الجناز . لكن هل لابن  
حامد أن يتصرف بقلبك ؟ من تراه هو عندك ؟ لقد أنهم وانجد وعرف  
خواص أعشاب البرية لكن ليس مهاء : بة واحدة تشفيه من الجرح الذي  
جرحته . هو يحمل السلاح وليس بنارس . كنت أقول لنفسي سابقا  
ان ماء بحر الراكد في جوف صخرة بعيدة سالم من العواصف حال كون  
كل ما يجاور البحر الكبير العوبة للريح، فانت يا ابن حامد اعتزل الناس  
تكن ذاعيشة راضية، وتمش مجهولا في زاوية من الارض لا تتصرف بك  
الحوادث، حواشي الملوك تلمب بهم العواصف وتلقى ريمهم كل إعصار .  
كنت اناجي نفسي بمثل هذا يا اخت الروم لكن حققت لي أن الاعاصير  
تعصف أيضا بنقطة الماء المجهولة في جوف الصخرة البعيدة

وكانت أدماء كلها أذنا لهذا الكلام الذي لم تسمعه من قبل

وكانت أساليبه الشرقية ومناهجه العربية تتآخى في غرابة المنحى ولطافة الذوق مع المكان الذي كانا يدوران فيه اذ المصدر واحد، فالجتماع عندها الشرق كله بيانا، وبنينا، واتسقت لديها القريحة العربية مقاما ومقالا، وكان الحب يلج قلبها من كل جانب وينبع عليها بقوة حتى صارت تشعر باصطكاك ركبتيها ووهن عزمها عن القيام، وأخذت تميل بكل ميلها على حبيبها، فكان ابن حامد يحتمل بارتياح هذا الحمل اللطيف ويردد أثناء مشيه \* ياليتني كنت فتى سراج \* قالت له ادماء اذا لم تكن عندي كالיום بل كان عذابي أشد ابق مجهولا عندي وعش لاجلي فكم من فارس شهير نسي الحب لاجل الشهرة (وكم ممن نسي الشهرة لاجل الحب) وقدم المجد على الوجد. قال ابن حامد لا تخافي هذا. قالت وكيف كان يمكن أن تهواني لو كنت سراجيا؟ أجاب نعم كنت احبك حبا فوق المجد ولكن دون الشرف. وكانت الشمس آذنت بالغروب أثناء نزهة العاشقين بعد أن طافا بالجرأ كلها متخاصرين كما قال

ثم خاصرتها الى القبة الجمراء تمشي في مرمر مسنون  
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوة اص ميزت من جوهر مكنون  
واذا مانسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون  
فلاكم هاج مرأى تلك القصور من اشجان ابن سراج، واستورى  
من زند تذكاره شرر الالتهاب، خصوصا عند ما كان يتصور الملكة فلانة  
جالسة في هذا البهو يرتفع اليها من مخارم الرخام دخان مجامر الطيب  
ونوافج المسك، وفلانة الاخرى متبرجة بجميع حلي المشرق تتهادى بين  
الرياحين والازهار، هذا واداء التي يعبدها عبادة المسيحي للذواء كانت

هي نفسها تقص عليه تلك الاقاصيص

ثم طلع القمر فنشر حلقه البيضاء على تلك الابهاء، ورسمت أشعته الفضية على نبات الحدائق وجدران المقاصير تخريم الابنية واعطاف السواري، وظل الماء الجاري، وحركات الاغصان المائسة بمرور النسائم، وكان لذلك منظر يأخذ بالابصار، والهزار يفرد في رأس شجرة سرو باسقة فوق قبة مسجد بال والصدى يجاوب، فكتب ابن حامد في ضوء القمر اسم ادماء على مرمر مملى في قاعة الشقيةتين نقشه بأحرف عربية ليزداد الزائر المتنزه سرا على سر في هذا القصر الكثير الاسرار

فقالت ادماء : ما أشدهذه النزهة علي ! لنخرج من هذه الاماكن، آم ابن حامد لقد تقررت حاتي في هواك وقضى الله أمراً كان مفعولاً، فاحفظ مني هذه الكلمات : أنا حبيبتيك وخليعة فيك ولا أبالي ؛ فان تنصرت فأنا حليلة لك سعيدة بك ولا أبالي

اجابها ابن حامد : وأنا عبدك الحزين فان أسدت فأنا بملك المجيد ثم خرج العاشقان النبيلان من ذلك المكان الخطير ، وصار هوى ادماء يشتد يوماً عن يوم ، وغرام ابن حامد يتزايد بدرجة ، وكان في نفسه معجباً جداً بكونه معشوقاً لذاته لا لسبب آخر ، وان الذي أُمال من غصن كريمة ( الدوق صنتافى ) لم يكن ناشئاً عن علة خارجية فانه لم يكشف لها سر محته ، وكان يحمد لذة لطيفة أن لا يعرفها باسمه الشريف إلا بفتة يوم ترضى به بملا، لكن ما عثم أن ورد عليه كتاب من تونس ينبئ به أن والدته قد أصيبت بمرض معضل وقد أشفيت فتريد عناق ولدها والرضى عنه قبل مفارقة الحياة ، فجاء ابن حامد الى قصر ادماء وقال لها :

مولاتي ان والدني على شفا جرف الحياة وهي تدعوني لاجل أن أغمضها  
بيدي فهل أنت حافظة في المغيب ودادي ؟ قالت له ادماء : تفاروني أصفر  
اللون فهل أنا مشاهدتك بعد ؟ فقال لها ابن حامد : اتبعيني أبتغي منك  
يميناً لا يحل عقده إلا الموت ، نخرجاً ووصلاً الى مقبرة كانت للمغاربة  
وهناك أعمدة صغيرة مطروحة كأعجاز نخل منقر من أعمدة الخرائب  
على شكل عمائم العرب ؛ لكن الاسبانول تبدلوا الصليبان بالعمائم ، فجاء  
ابن حامد بمولاته الى ما بين هذه العمود وقال لها : ههنا مراقداً أبي أقدم  
لك بعظام أولئك العظام اني أحفظ حبك الي يوم يبعثون ، الى يوم  
يدعوني الملك الى الحساب الاخير ، أعدك أنني لا أدخل قبـي حب  
سواك ، واتي أتخذك زوجاً لي حالما يستنير قلبك بنور محمد صلى الله عليه  
و-لم ، وفي كل عام أعود الى غرناطة في مثل هذا الفصل لأعلم ما اذا  
كنت لم تسلي ودي ، ولم تخفري عهدي ، وكنت أفلعت عن ضلالك القديم  
قالت ادماء وأنا أنتظرك في كل عام وأحفظ لك الى الـرق الاخير  
من عمري الـهد الذي عاهدتك وأتخذك به لي حينما يكون رب النصاري  
الذي هو أشد حولا من حبيبتيك قد تمكن من جذب فؤادك  
ثم ودع كل منهما الآخر وللبكاء والـمويل حديث طويل ، وركب  
البحر فألقته الرياح على شواطئ افريقية

في كنف الله وفي حفظه      مسراك والـود بعزم صريح  
لو جاز أن تسلك أجفاننا      كنا فرشنا كل جفن قريح  
لكنها بالبعد مبتلة      وأنت لا تسلك الا الصحيح  
فوجد السيدة والدته قضت نحبها ، فأخذ يبكيها ويندبها ويقبل

نعمشها ، ومضت على ذلك الايام ودرجت الليالي وهو يهيم تارة بين  
أطلال قرطاجنة ويجلس طوراً مطرقاً فوق قبر مار لويس ملك الفرنسيين  
( دار ابن لقمان التونسية ) ولا يزال ينتظر أوان رجوعه الى غرناطة  
حتى جاء ذلك الموعد فالتطى ابن حامد ترى سفينة أدارسكاهم نحو مالقة  
فحدث ما شئت عن بهجته وطربه وخفقان فؤاده عند ما لاح  
له أنوف براسبانية فهل ياترى ادماء تترقب طلوعه على تلك الارياف ؟  
أو هل تذكر ذلك العربي الذي بقي متبها أثرها متبولاً تحت نخيل  
الصحراء ؟ نعم ان ابنة الدوق لم تخفر عهده بل سألت والدها أن يصحبها  
الى ثغر مالقة وكانت من أعالي الجبال المشرفة على البحر تتبع بأبصارها  
قاصي السفين والاشرعة التي تبدو آونة وتختفي ، فاذا هاج عاصف اخذت  
تراقب البحر بوجل الحب على المحبوب ، فكانت تود لو تتجلبب بحجب  
الغيم وتقتعد بساط الريح ، وتؤثر التعرض للخطر الا كيد ، وتهوى السباحة  
في ذلك البحر الهائج الذي يخشي منه على حياة الحبيب ، فاذا رات طائر  
البحر مصفقاً يرف على وجه المياه قاطعاً نحو افريقية حملته من كلمات  
الحب ودعاء الهيام ما لا يوزن بميزان ، وزودته من عبارات الغرام المرسله  
على السحبة ما لا يخرج منه معنى منتظم ولا يصدر الا عن قلب توقدت  
فيه نيران الجوى

وبينما هي ذات يوم تتنزه على الرمل اذ ابصرت من بعيد ، فليكا  
مستطيلة عالية الجؤجؤ مائلة الصاري ، عرفت من قلاعها ولطف صنعتها  
أنها من سفن المغاربة ، فأسرعت ادماء الى المرسى ولما بالملك المغربية قد  
دخلت الجون والبحر يرغي تحتها ويزيد من سرعة الجري ، وكان سيد

مغربي نبيه الثوب بادي السراوة واقفا على مقدم السفينة ووراءه زنجيان  
ماسكان بلجام جواد عربي كريم كان انتفاخ منخريه وانتشار معرفته دليلين  
على حدة طبعه وذعره من جلبة الامواج ثم وصلت السفينة وخفضت  
شراعها واصقت بالمرقا وهوت بأحد حرفيها فقفز السيد المغربي الى  
البر وقد سمعت صاصلة سلاحه، واخرج الزنجيان الجواد المتنمر يصل  
و يحجز عند وصوله الى البر، وتزل عبيد آخرون معهم زنبيل فيه ظبية  
عقراء بين سعفان نخل، ساقاها الدقيقان مربوطان ومطويان تحتها خوفا  
من ان تنكسرا من ارتجاج الفلك وكان في جيدها عقد من حب عود  
الند، وعلى قطعة ذهبية تصل بين طرفي العقد محفور اسم بالعربي وطلمسم  
فعرفت ادماء ابن حامدها لكنها لم تتجراً ان تدنو منه امام الجماعة  
لايلا يخونها عزها بل انفردت وارسلت ( دوروته ) احدي جواريتها تقول  
للسراجي انها تذاظره في قصر المغاربة، وكان ابن حامد في ذلك الحين  
يطلع حافظ البلدة على أوراقه. ثم اجتمع العاشقان فلا تسلم عن فرح كل  
بصاحبه ١٤ وعن بهجته برؤية محبوبه مقما على العهد ! وكم من عيّن تجددت  
على دوام العهد والارتباط . ثم قاد الزنجيان الحصان عليه بدلا من السرج  
جلد أسود مربوط بنطاق أرجوان، وأتي بالظبية فقال ابن حامد : يامليكة  
الحسن هذه عنز برية من بلادنا هي من الخفة واللفظ بدرجتك، فلت  
ادماء بيدها عقال ذلك الحيوان البديع ، وهو يرنو اليها كأنه يشكر  
صنيعها ، وكانت ادماء في غيبة ابن سراج قد ابتدأت بدرس العربي فلما  
نظرت الى طوق الغزالة قرأت اسمها عليه فبال عينها الدمع ، ولما فك  
عنها العقال ، كادت ساقاها لا تقياها من طول الاعتقال ، فاضطجعت



على الارض ، وأسندت رأسها الى ركبتى أدماء ، فناولتها سيدتها تمرآجديدا  
وأخذت تدل هذه العنز البرية التي كان جلدها الرقيق قد حفظ طيب  
الند وعرف الورد من تونس

ثم سافر ابن سراج والدوق صنتافى وابنته الى غرناطة وقضى  
الصاحبان أيامهما بالمسرات والرغد كالسنة السابقة ، وكانا يتنزهان  
كالمادة وأوقاتها بين حنين وندكار ، وأسف على أوطان وأوطار ،  
وحب دائم ، وغرام ملازم ، بل متفاقم

ومع هذا فكل منهما مشتد في دينه ، متين في اعتلاقه حبلى ملته ،  
فأدماء تقول لابن حامد : كن مسيحيا ، وابن حامد يقول لها : بل تحولي  
انى الاسلام ، ثم ينفصلان بدون أن يدعنا احدهما للآخر

وفي السنة الثالثة كانت عودة ابن حامد الى اسبانية اوبة قواطع  
الطير التي تؤوب الى بلادها حنيئا الى اوكارها ، نعم انه لم يجد ادماء  
على الشاطيء تترقب قدومه ، لكنه علم من كتاب بعثت به اليه ان  
والدها دوق صنتافى شخص الى مدريد وان الدون كارلوس شقيق ادماء  
وصل الى غرناطة وكان يصحب الدون كارلوس اسير فرنسي صديق  
له فلما قرأ النبيل المغربي الكتاب انقبض صدره وسار من مألقة الى  
غرناطة وهو كئيب سيء الظن في العواقب ، وكانت الجبال تبدو له  
اوحش من جوف حمار ، وهو يلتفت وراءه الى البحر الذي اخترقه

وكانت ادماء في غيبة ايها لا تحسن فراق اخيها الذي كانت تحبه  
حبا شديداً وهو يريد التخلي عن جميع تركته لها ، وكان مقدمه عليها  
بعد غيبة سبع سنين ، وكان في ( الدون كارلوس ) جميع اعراق بيتيه

من البسالة وحمية الانف وعزة النفس وكأنه يقول:

لي نفس لا ترتضي الدهر عمرا      وجميع الانام طرا عبيدا  
لو ترقى فوق السماك محلا      لم نزل تبتغي هناك صعدا  
أنا من تعلمون شيدت مجدي      في مكاني ما بين قومي وليدا  
فتاكا سفاكا نظير سائر فاتحي أميركا ، دينا متشدا كسائر فرسان  
الاسبانيول الذين استخلصوا الاندلس لانفسهم بانتزاعها من أيدي  
المسلمين ، شديد العداوة لاهل الاسلام تراثا عن جده الملقب بالسيد (١)  
وكان (توما دولو ترك) من آل (فواكس) البيت المريق ذي الحسب  
الصميم المشهور بشجاعة رجاله وجمال نسائه حلفاء عن سلف والاخ الثاني  
لكونتة دو فواكس وللمقدام الشهير الصريم (أوده دو فواكس) سيد آل  
لوترك هو الاسير الفرنسي الذي حضر بصحبة الدون كارلوس وكان  
توما هذا قد لقب فارسا وسلحه ييار البطل الفرنسي المشهور في تلك  
الغزاة المشؤمة التي هلك فيها ذلك البطل ، « غير هباب ولا وكل » ، وما  
لبث توما أن سقط في تلك الواقعة مشخنا وقيذا ، وأخذ الى (بافيا) أسيرا  
وهو يناضل عن ملك الفرسان أو فارس الملوك الذي باء وقتل بخسران  
كل شيء « عدا الشرف »

وكان (الدون كارلوس دو بيفار) شاهدا اقدام الشاب (لوترك) وخوضه  
غمرات الموت فاعتنى بتضميد جراحاته وتكون بينهما هذا الوداد المتين  
الذي قلما تحصف حباه الا بين مثليهما من الانجاد الابطال مبنيا على

---

(١) هو لدريق سيد آل بيهار ولد سنة ١٠٤٠ وتوفي سنة ١٠٩٩ صاحب شانه  
ملك قشتالة ثم الاذفنى السادس واشتهر في جهاد المغاربة وهو بطل رواية لورنيل

قاعدتي الشرف والفضيلة ، وكان فرنسيس الاول قد رجع الى فرانسة وأبقى شرلكان في ربة الامر سائر الاسراء ، وحصل للوترك نصيب من شرف صحبة سلطانه في النكبة والقيام على خدمته في الغربية ، وحيث بقي في اسبانية بعد سفر الامبراطور فقد سلم الى الدون كارلوس بمهد منه وحضر به الى غرناطة

فلما وصل ابن حامد الى قصر الدين لدريق وأدخل الى الغرفة التي كانت فيها كريمة دوق صنتافي استشعر قلبه ضجرا وانكماشاً لم يكن يعمدهما الى ذلك اليوم ، وذلك أنه رأى حذاء الدونة بلانكة شاباً جائلاً ينظر اليها صامت اللسان . نشرح الصدر وكان ذلك الشاب مرتدياً ثوباً من جلد الجاموس مشدوداً بمنطقة علق بها سيفاً من طبع بيت ملك فرانسة ومشتعلاً ببرنس حريري وقد تقنع بقبعة دقيقة الاطراف مظلمة بالريش ، ولبس وشاحاً محزماً محلولاً على صدره يظهر عنقه من ورائه ، وهو ذو سبال سود كالون الابنوس الحالك تستشف منها الرجولية والبسالة مع اللطف والركة ، وكان منتعلاً خفاً منشئاً حول رجله وله مهماز من ذهب شعار الفروسية

وهناك فارس آخر منتصباً على رجله متوكئاً على قائم سيفه وهو بزي الفارس الاول لكن الظاهر عليه أنه أعلى منه سناً وكانت تلوح على معارفه الحماسة والشدة مع التزمّت والوقار ، وكانت علامة الصليب الاحمر المسمى بقاعة رباح مطرزة فوق ثبانه مكتوباً بجانبها هكذا « له وللملك » فلما أبصرت ادماء ابن حامد صاحت من حيث لم تشعراً قائلة : أيها الفرسان ها هو ذا المسلم الذي طالما حدثكم عنه احذروا أن يكون له السبق فان بني

سراج الاولين كانوا كلهم من هذا الطراز ولم يكن أحد يفوقهم في  
الامانة والاستقامة والكياسة والشهامة ، فنقدم الدون كارلوس نحو ابن  
حامد وقال له : أيها السيد المغربي قد عرفت من والدي وشقيقتي اسمك  
واللائح عايك كرم المحتد وسراوة الاصل. وأنت بذاتك لك مزية اللطف  
والرقة ، فقريباً مولاي الامبراطور شريكاً يغزو تونس وهناك تتلاقى  
في مجال واسع للمجد ، فوضع ابن حامد يده في حجره وجلس محققاً في  
ادماء ولونرك ، وكان هذا كثير التطلع كطبيعة الفرنسيين ، فأخذ ينظر الى  
جبة الشريف المغربي واسلحته الباهرة ويرنو الى جمال طامته بابتهاج  
عظيم ، وأما ادماء فكانت في غاية الارتياح الى مرآه والاهتاش له وعيناها  
تترجمان عن ذات صدرها ، وكانت هذه الاندلسية الحسنة صادقة الوداد  
لا تحاول كتمان جواها ، ولا تداجي في سر هواها

وأفرطت من وجدي به فدرى بنا على ساعة اللقيان من لم يكن يدري  
وما الحب ما وريت عنه تستراً ولكنه ما ملت فيه الى الجهر (١)  
وبعد هنيهة من سكوت علا ذلك المحاس قام ابن حامد فاستوى  
أمام بنت الدون لنريق ثم انحنى وانصرف فأذهل لوترك ما رأى من  
حالة المغربي مع أدماء وخاصره عارض شك صار عن قريب يقينا  
فبقي الدون كارلوس منفرداً مع شقيقته فالتفت نحوها وقال لها :  
ادماء خبريني لماذا ظهر عليك التغير والاضطراب عند رؤية هذا الفارس  
الغريب ؟ قالت له : يا أخي اني أحب ابن حامد ولا أبالي وان صيماً عن  
ديانته وأنا حليمة له

قال كارلوس : ماذا نقولين؟ تهوين ابن حامد؟ فتاة آل ييفار تحب مغربيا مسلما غريبا عدوانحن قد طردناه من هذه القصور؟ فقالت ادما أيها الدون رويدك أنا أحب ابن حامد وهو يحبني وهو منذ ثلاث سنين يتركني ولا يترك دينه، رجل فيه الشرف والشهامة والفروسية وانني لمفرمة به مولهة عليه الى آخر نفس من حياتي

انك والاحتفال في عذلي غير مقيم زيني ولا مبلي  
بلى ان اسطعت أو قدرت نفذ من خابل سلوة المختبل  
وكان الدون كارلوس ممن يقدر عزم ابن حامد قدره وان كان في نفسه آسفا من هيامه في أخته، فقال لها : الى أين يسوقك هذا الحب فلقد كنت أملت أن صاحبي لو ترك يصير أخالي ،

قالت له ادماء : أخطأت فيما ظننت لا يمكن لي أن أحب هذا الغريب، وأما صبايتي بابن حامد فليس لاحد أن يناقشني عليها الحساب، وأما أنت فاحفظ عهد الفروسية مع صاحبك كما أحفظ عهد الحب مع صاحبي، لكن كن على يقين لاجل عزاء نفسك أن ادماء لا تنكح أبدا غير رجل مسيحي . قال لها كارلوس : اذا فأسرتنا تتلاشى من على وجه الارض قالت : عليك أنت باستحيائها، وبعد فماذا يهم ولد لا تراه عبيدك ولا تسري اليه خلاثك؟ اتني لا أخشى أن نكون آخر سلالة بيتنا، فاننا قريبو العهد بالطبقة العامة ولا أمل لي أن ينجب لنا نسل من بعد، لقد كان ( السيد ) مبدأ أسرتنا وربما كان السيد آخرها . ثم خرجت ادماء من حضرته

فمضى الدون كارلوس الى ابن سراج وقال له : يا مغربي دع عنك

أختي أو سر معي إلى البراز . قال له ابن حامد : هل أنت مكلف من جهة  
أخذك أن تستعيد اليهود التي آتتها لي ؟ قال كارلوس : حاشا هي أعظم ما  
كانت لك حبياً وبك ولها . فمتف ابن حامد : مهلاً أخا أدماء سأنشد ضالة  
سعادني كلها بين دمك ولحمك ، واضفر بأمني في منيتك ، فياسعد ابن  
حامد ويا يمن طائرته لقد كنت ظننت وبمعض الظن ثم ان أدماء خفرت  
ذمتي حياً بهذا الفارس الفرنسي . فصاح الدون كارلوس وقد كاد يخرج  
من ثيابه وهذا هو بلاؤك أيها الفريزان (لوترك) صديقي ، ولولاك كان الان  
أخي ، وأنا أريد أن أقتص منك عن الدموع التي استذرفتها محاجر أهلي  
قال ابن حامد : لبيك لكن مع كوني سلالة قوم ربما يكونون قد  
قاتلوا آباءك ، فليست من الفرسان ولا أجدهنا من يعطيني العلامة التي  
تجعل برازك ممي غير حطة في قدرك

فبهت الدون كارلوس من تنبيه المغربي ونظر إليه من طرف أخزر  
وقد اختلط منه العجب بالغضب وقال : ها أنا ذا أسلمك فارساً فأنت  
أهل لذلك فأنحنى ابن حامد أمام الدون كارلوس فعانقه وأمره صفحة  
سيده ثلاث مرات على منكبيه ثم قلده نفس هذا السيف الذي ربما أغمدته  
السراجي في أحشائه وهكذا كان الشرف القديم

ثم امتطى كل منهما جواده وخرجا من عمارة غرناطة قاصدين عين  
الصنوبر وكانت مبارزات المسلمين والنصارى قد جمعت لهذه المين  
شهرة وذكرها حقبة من الدهر

وهناك كان مالك المباس ( رحمه الله ) قد تبارز مع ( بونش ) دوليون  
وصاحب قلعة وباسم قد فتك بأبي يادوس ، وكانت لا تزال قصد وبقايا من

أسلحة الفارس المغربي معلقة بأغصان الصنوبرة ولم يزل ظاهراً على لحاء  
الشجرة بعض أحرف كتابة قديمة فدل الدون كارلوس ابن سراج على  
قبر أبي يادوس وقال له : اقتدي بهذا المسلم الفحل وخذ النصرانية أو الموت  
من يدي . أجابه ابن حامد أما الموت فربما أخذت وأما النصرانية فلا  
إله إلا الله محمد رسول الله

ثم تحفزا وتواثبا كأنهما ليشان حردان ولم يكن في أيديهما غير السيوف  
فكانا كما قيل

إذا لرأيت ليشاً رام ليشاً هزبراً أغلباً لافى هزبراً

وكان ابن حامد أقل مرانا على النزال من الدون كارلوس لكن  
مضاء نصاله المشحوذة في الشام وخفة جواده العربي الصريح جعلاه  
البرجحان على دون كارلوس فرمى بجواده على عادة المغاربة وقطع بركابه  
العريض الحاد جنب حصان الدون كارلوس الايمن من تحت الركب  
فلما جرح الحصان هوى نمت فارسه كالبناء المشمخر اذا سقط فنهض  
الدون وتقدم نحو ابن حامد والسيوف مشهور في يده فقفز ابن حامد عن  
ظهر جواده وصدم الدون كارلوس صدمة عنترية متلقيا ضربات الفارس  
الاسباني الاولى الى أن تكسرت نصاله على النصال الدمشقية وصار  
الفارس المغربي هو الاعلى وانقلب الدون يحرق الارم غيظاً ويبكي حنقا  
وهو يصيح بقرنه : ضربا أيها المغربي ضربا يطير فراش الهام . الدون  
كارلوس أعزل يدعوك تزال أنت وكل قومك

قال ابن سراج : لو تمكنت لما أبقيت علي أما أنا فحاشا أن يربالي  
أن أدمي فيك جرحا

وقال له يعز علي أني أراك معفراً شطراً فشطراً  
 واستحيي المروءة أن تراني قتلت مناسبي جلداً وقهراً (١)  
 ولذلك أمسكت ، وقصاري ان أفهمك أني جدير بأن اكون  
 أخاك ، أن لا أظل صغيراً في عينك ، فلم يكن كلا ولا حتى أبصرا عن  
 بعد عجاجة سوداء واذا بلوترك وادماء ممتطين عتيقين من خيل فارس  
 تسابقان الغزلان قد أقبلتا على عين الصنوبرة وقد كف القرنان وارتفع  
 النزاع ، فقال الدون كارلوس : أنا المغلوب وحياتي من عند هذا الفارس  
 املك يا ادماء أسعد مني حالا ؟ فقال لوترك بدون عنف ولا كبر : ان  
 جراحاتي تأذن لي أن أرفض البراز مع هذا الفارس الكريم ، ثم قال  
 وقد علت الحمرة وجهه : لا أريد أن أقف على سبب ضعيفتكما واستطلع  
 سرا ربما كان فيه حتمي بل قريبا يكون غيابي عنكم داعيا للسلام فيما  
 بينكم ، هذا اذا لم تأمر ادماء بأن أبقى بين يديها

قالت له ادماء : أيها الفارس ابق ما شئت عند أخي وأنا أختك  
 ان جميع من حوام هذا المكان منطوو الجوانح على سل فتعلم منا احتمال  
 آلام هذه الحياة الدنيا

وكان مقصود ادماء أن تصلح ذات بين الفرسات الثلاثة  
 فرفض كل من ثلاثتهم الصلح وصاح دون كارلوس : لا أحب ابن  
 حامد ، وقال لوترك : أما أنا فأغبطه ، فقال ابن سراج : أما أنا فأحترم  
 الدون كارلوس وأرثي للوترك ولا أحب الاثنين

قالت ادماء : لنبق معاً والاحترام جالب الحب . وأسأل الله أن



يجعل سبب اجتماعنا هنا منسيا الى الابد في غرناطة  
على أن ابن حامد منذ الآن كما لا يخفى صار أحب الى ابنة دوق  
صنتاي ألف مرة من ذي قبل فان العشق يمشق الشجاعة وأحب الناس  
الى الغواني الفارس الا يتم كما قيل وقد ظهر أن ابن حامد فحل بين الفحولة وانه  
كريم بالغ الكرم قد استجيا الدون كـارلوس بعد أن كانت حياته في يده  
وكان ابن حامد بآشارة خفية من اداء قد انقطع عن القصر ريثما  
يكون جأش الدون قد سكن وكانت نفسه نهبا مقسما بين خواطر  
المسرة والغم فانه من جهة على ثقة من حب من لا يساويها عاشق في  
الثبات والوفاء ، ولا تحاكي فؤادها غضاة في اللوعة والاحترق ، ولكنه  
من اخرى على يقين ايضا بأنه لا يبلغ امنيته الا بالصبر عن دين قومه  
مما كانت تنحط تحنه عزائم ابن حامد خصوصا وانه كان قد مضى مدة  
سنوات بدون ان يجد لسقمه دواء ولا من علمه شفاء ، فكان يخشى ان  
تمضي كذلك سائر ايامه

وبينما كان مرة سابحا في لجة المموم وقد شفه الوجد إذ سمع قرع  
الناقوس ابذا نابصلاة النصرارى فخطر في باله أن يدخل هيكل رب آدماء  
ويستشير مرشد الطبيعة أن يفعل

فخرج فوصل أمام مسجد قديم كان النصرارى قد حولوه كنيسة  
فثارت فيه نوازع الدين وأطبق على قلبه الحزن ثم دخل تلك الكنيسة  
التي كانت في غابر الزمان معبد ربه ومسجد قومه ، وكانت الصلاة قد  
انتهت ولم يبق في الكنيسة احد ، وخيم الظلام فوق تلك الاعمدة  
القائمة كأصول ادواح غابة متناسقة الفراس ، وكانت الهندسة العربية

قد زاوجت في ذلك المكان فن البناء القوطي ولم تفقد شيئاً من  
 طلاوتها بل زادها هذا الاقتران فخامة وضخامة تقضيان بزيادة التأمل،  
 ولم يكن سوى مصابيح معدودات تنير زوايا الدهاليز الا ان المذبح لم  
 يزل لامعاً بأشعة الشموع وقد تلاًلاً بالذهب وما رصع به من الجواهر،  
 ولا يخفى ان الاسبانول يبذلون جميع ما تملك ايديهم ويجردون انفسهم  
 من كل نفيس لاجل زينة اما كن عبادتهم، فتجد صورة الاله منصوبة  
 وراء السجوف المحزومة البديعة بين اكاليل الدر واطاميم الياقوت

ولم يكن يوجد كرسي واحد في وسط الحظيرة بل كان مقعد من  
 المرمر مغطى به بعض التوابيت لاجل جلوس الكبار والصغار، فتقدم  
 ابن حامد رويدا رويدا في صحن الكنيسة الذي كان صدهاء يجيب حركة  
 مشيه وكان خاطره مقسماً بين الذكر والحنين بما تهيجه فيه رؤية هذا  
 الاثر القديم البافي عن المغاربة وبين الاتحساس الذي كانت ديانة المسيحيين  
 ابتدأت تولده فيه

ثم وقعت منه التفاته نحو احدي الاساطين وأبصر حذاءها شبحاً  
 ساكناً جامداً ظنه تمثالاً فوق ضريح فدنا منه فاذا بفارس غص الشباب  
 ريان الاقتبال جاثياً على ركبتيه يدهاء مشتبكتان على صدره . فلم ينبض  
 دنو ابن حامد منه عرقاً ، ولم يخالج طرفاً ، وكان من استغراقه في الصلاة  
 لا يلتفت ولا ينعطف ، وسيفه بجانبه على الارض . وقبعته المراشة  
 موضوعة على الرخام قريباً منه . وكان يخال انه راكز على هذه الصورة  
 بفعل سحري ، وكان هذا الفارس هو لوترك بعينه فقال السراجي عند  
 رؤيته في نفسه : لا بد ان يكون هذا الشاب الفرنسي ضارعاً الى الله

في استجداء بعض النعم فهذا الفارس المغرار المشهور في الوقائع خاشع  
قلبه امام رب القبة الزرقاء كأضف خلته فلنضرع اذا امام رب الفرسان  
والفروسية وآله العز والمجد

ولم يكده يستتم فكره حتى أبصر على ضوء صباح احرف عربية وآية  
من القرآن ظاهرة على الرخام تحت جبس متناثر فما أبصرها حتى وخزه  
ضميره ، واظلم جو خاطره ، واسرع الى الخروج من المبد الذي هم فيه  
أن يخون ديانته وقومه

وكانت المقبرة المحيطة بهذا المجد القديم روضة من النارج  
والسرو النخيل تسقيها عينان نضارتا و بهار وراق ، فعند ما أراد  
ابن حامد الخروج من أحد الابواب أبصر امرأة داخلة الى الكنيسة ومع  
كونها متتعبة عرف ابن حامد منها حبيبته ابنة دوق صنداي فاستوقفا  
قائلا : هل أنت آتية للتفنيش على (لوترك) هذا المعبود ؟

قالت له ادماء : يا مغربي يا مغربي دين عليك هذه البيرة التي لامني  
لها . اذا عدت عن حيات صرحت لك فاني أعل من أن أغشك ، وما  
جئت الى هنا إلا مصالية لا بلبل ، قائلة برحمتك انك تحب آملتي ، وانني  
لذاهلة عن نفسي التي بين جنبي من اجل ، وقد دراك احدي خصاتين  
لما أن لا تسكرني بسلاف حبك ، ولما ان تبتد الرب الذي اعبدته ، فانت  
سبب قلق اسرتي كلها ، وأخي يفضلك ، أبي كبر بغير دالمتناعي  
عن الزواج ، وانت أفلا تنظر الى صحتي كيف تغيرت وكيف أصبح  
جسمي ضئيلا كلال الشك ، انظر الى هذا القبر فهو لي سكن قريب  
ودار أمم ، ان لم تسارع الى قبول عهدي خالصا لدن مذهب النصراني .

لن النزاع الذي طي جوانحي يهدم اركان وجودي ، وإن هوالك الذي  
وله فؤادي لا يقوى على احتماله نحيف جسمي ، فانظر رعاك الله أيها  
المغربي وائق الله في أعز الناس لديك ، إن النار التي تشمل الجذوة هي التي  
تجعلها رماداً منشوراً

ناهيك من حرق أيت اقاسي      وجروح حب مالمهن أواس  
لما لحظت فانت جؤذر رملة      واذا صددت فانت ظبي كناس  
قد كان مني الحزن غب تذكر      اذ كان منك الصبر غب تناس  
تجري دموعي حين دمعت جامد      ويلين قلبي حين قلبك قاس  
اسمعت عاذلة فهل طاوعتها      ورأيت شائنة فهل من باس  
ثم دخلت ادماء الى الكنيسة وغادرت ابن حامد مطرقاً أسفاً من  
كلماتها الاخيرة ، ولقد هم مرة اخرى أن يصبأ عن معتقده ، وظالماً نازع  
نفسه وشاغب عزمه ، إلا أن حرصه على حياة أدماء كان في نفسه فوق  
كل حرص ومن دونه كل عزيز ، وكانت عنده علق الاعلاق ، ثم كان  
يناجي نفسه قائلاً: لعل رب النصاري هو الحق وعلى كل الاحوال هو  
معبود نفوس شريفة عالية كأدماء والدون كارلوس ولوترك

وكان ابن حامد تائها في بيداء الافكار ينتظر بأمر الصبر انبلاج الصباح  
ليأتي ادماء فيكاشفها بما عقد عليه نيته ويتبدل بحياة غم دائم ، ودمع سائل ،  
عيشة راضية ، وحالة هادية ، فلم يتمكن من الذهاب الى قصر دوق صنتافي  
إلا في المساء ، فاخبر أن ادماء ذهبت الى قصر الجنراليف حيث كان  
( لوترك ) قد أعد وليمة فهاجت ابن حامد خواطر جديدة وجد في أثر  
حييبته حتى اذا أقبل عليهم توردت وجنة ( لوترك ) وهجس في ضميره

وأما الدون كارلس فتلقى السري المغربي بمحشمة وافرة خالية من الاهتزاز لكنها شافة عن الاعتبار

فاحضر لو ترك على المائدة من أطيب فاكهة الاندلس وافريقية، ومد المائدة في أحد أبهاء الجنراليف المسمى بمجلس الفرسان وقد علق فيه من الجهات الاربع صور الامراء والفرسان الذين غلبوا المغاربة بمثل ييلاج والسيد وغوتزلاف القرطبي، وكان سيف آخر ملوك غرناطة معلقاً تحت تلك التصاوير، فلما رآها ابن حامد كظم غيظه وقال هذه العبارة فقط وهو ينظر الى هذه الصور: نحن قوم لا نعرف التصوير

ولحظ (لو ترك) أن عيني ابن سراج تحملقان على الرغم من نفسه الى سيف أبي عبد الله فقال له: لو عرفت أيها السيد المغربي إنك مشرفي بقدومك الى هذه المأدبة لما كنت استقبلتك هنا، أما وان فقد السيوف ليس بعادة جديدة في الدنيا: قد رأينا أخل ذوي التيجان يسلم حسامه في الحرب الى خصمه الظافر فتتنفس المغربي الصعداء وقد لقع وجهه بطرف ثوبه ثم قال: يجوز أن يفقد ملك حسامه مثل فرنسيس الاول أما كأبي عبد الله ... فلا

ولما اقبلت جيوش الظلام جيء بصفوف المصاييح وتبدل نسق الحديث ورغبوا الى دون كارلوس أن يحدتهم باكتشاف المكسيك فأفاض عن أحوال ذلك العالم المجهول بفصاحة الاسبانول واطنابهم المعهود وروى من مصائب موتيزوما عجباً واخبر عن اخلاق الاميريكين وعن باهر إقدام القشتاليين وعن فظائع اعمال بني جلده غير متهرض لها بمدح ولا جرح. وكان ابن حامد لدن سماع هذه الاحاديث يدس فيه عرق العربية من حب الاخبار والاسمار فيترنم طرباً ثم وصلت النوبة في السمر

اليه فأخذ يصف لهم الدولة العثمانية التي كانت وقتئذ حديثة عهد بالاستواء على كرسي القسطنطينية وأه لو تركت تتكلم عن قصر فرانسيس الاول وحاشيته الرقيقة وخاصته دكياس نوذكر نبيع المعارف والفنون من وسط الهمجية، وانبلاج الانوار من بين انذالمت وازاج الشهامة والشرف والفروسية من بضائع العالم القديم، بالاذب والكياسة ورقة الحضارة من نتائج العصر الحديث، ومثل الاراج الوسية الغربية مشرقة بشموس اليونان، والغواني الجليقيات يزودن نفاسة تبرجهن وزينتهن بالزي الاغريقي

وبعد أن تجاوزوا أهداب المسامرات أراد لو ترك لهورية المجلس فأخذ آلة وغنى بها هذا الزجل على الناحين المعروف في جبال بلاده

لله كم عندك من الذكر لشباب عمري في ذرى وكري  
لله يا أحتاد ما أحل أيام أنس فرنسة تجلي  
كوني بلادي علفي الاغلى

والام تجذبنا الى النار منها تقبل أبيض الشعر  
هل تذكرين ليالي النصر يا حسنه قصرآ على النهر  
والبرج ذك البالي العربي نافوسه المسموع عن كشب  
بني بفجر غير ذى كذب

هل تذكرين بحيرذ تجري قد ظل يمسح وجهها الخدري  
تلوي اليراع الريم اذ عمري يملو غروب الشمس في البحر  
من ذا يرد على اترابي تلك الجبال وسرحمة الغاب  
تذكارها شجني وأوصاني

لاغرو في بني من الهجر وطني به وطري مدى العمر (١)

(١) اصله شعر فرنسي حوله المغرب الى شعر عربي

ولما أتم لو ترك غناء البيت الأخير كيفك بقفاز يده عبرة استذرفتها  
من عينه ذكرى بلاده الطيبة، وأوطانه البهجة، وابن حامد يقدر الوطن  
قدره، ويفهم معنى فراقه، بما يقبسه على نفسه، اذ كلاهما غريب، وكلاهما  
شاعر بألم فراق الاوطان، فطلب منه الغناء والضرب على العود فاعتذر  
قائلاً إنه لا يعرف إلا زجلاً واحداً ربما لا يحلو سماعه عند النصارى. فقال له  
الدون كارلوس ان كان غير المؤمنين يئنون ويتوجعون من غلبنا عليهم  
فلك أن تغني فان للمغلوب رخصة في البكاء  
قالت ادعاء نعم ولذلك ترك لنا آباؤنا الاولون الخانعون لسلطان  
العرب كثيراً من المراثي

فغنى ابن حامد هذه الموشحة التي حفظها من أحد شعراء بني سراج (\*)  
انما الطاغى (جوان) قدما طالما من فوق اجرى فرس  
ارتقى فوق الرياض علما فرأى غرناطة الاندلس

\*\*\*

بلدٌ قال له اذ خطبه للولا يا حبذا من بلد  
لجعل المهر لديك قرطبة واوليك فؤادي ويدي  
وكذا اشبيلية وشاطبه وسواها من حلى وعدد  
زينة فاخرة وانما درراً زاهية في الملبس  
كلُّ ذا ابغى به مقدما للهوى وحلية للعرس

\*\*\*

جاوبت غرناطة قولاً متين أيها الاعظم تملك المغرب  
كن على علم باحوالي يقين اني قرينة للمغربي

(١) روعيت مطابقة الشعر الاصل بقدر الامكان

دع هدايك مع الحلي الثمين      الموشى والطرّاز المذهب  
 اني اغنى وامنى منما      وطرّاز من نفيس انفس  
 ان لي ابناء صدق كرما      وحوالي نطاق الحرس

\*\*\*

قد كذبت وحنثت في الدين      وجمعت خيبة في نفس راج  
 وتركت اليوم ذا العلاج اللعين      حاكما في ملك ابناء سراج  
 هكذا قدّر رب العالمين      ليس فيما قدّر الله علاج  
 لن ترى بعد النيق الرّسما      في طريق الحرم المقدّس  
 حاملات الحاج عادوا للحمى      وهو من أوبتهم في انس

\*\*\*

حقا العلاج قد استولى على      ارض ابناء سراج غلبا  
 ايدى يا حمرأ يا أفق العلى      أيها القصر المسامي الشهبأ  
 جنة العيون والعين ولا      مثل نهر بالاجين انسكبا  
 ان علاجاً مارقاً لج وما      زال حتى صار وسط المجلس  
 نال ميراث سراج قسما      خطّ ذافي اللوح باري النفس  
 فرق لهذا الرّثاء حتى قلب الدون كارلوس التارز رغما عما تضمنه  
 من لعن الاعلاج وكان يتمنى اعفاءه من الغناء لكن تأدبا مع لو ترك التزم  
 الاجابة فأخذ العود من يد ابن حامد وانباع يترنم بمديح (السيد) جده الاعلى  
 تأهب السيد يبغى      في العرب غزو السواحل  
 وقد تلاًّلاً      بدرأ في مطلع البدر كامل



امسك عوداً يغني	امام شيان زاجل
شعراً غدا وحيه من	سما الشهامة نازل
أوحته شيان قالت	للغرب فاذهب وقاتل
قاتل عداتك وارجم	للنصر والغنم نائل
لو كنت آثرت حبا	على العلى والفضائل
لكنت تعبد حسني	ولست تسمع عاذل
هات الاسنة والبه	يض وزرق المناصل
سيعلم القوم قلبي	وما به من شواغل
وفي القتال اذا ما	ضججت بالسيف صائل
يكون صوتي لمرضي	وللعلى اذ انازل
يامغربيا تباهي	برقة في الشمايل
ضجيج صوت النصاري	على لحونك دائل
يكون يوما لاهل اسـ	بانينة أي خابل
فالجب والمجد فيه	كلاهما بات مائل
غدا باعطاف واذي	اندلس في المحافل
تري شيوخ النصاري	يروون غني الجلائل
جعلت روعي فداء	اوردت عمري الفوائل
لله والملك والنجـ	د وتاج العتائل
فقل ألا في سبيـ	ل الكمال ما أنافاعل (١)

وكان الدون كارلوس عند انشاده هذه الابيات معجباً مترنماً بصوت  
جهوري رنان حتى كأن السيد بعث من قبره. وأما (لوترك) فشاطر  
صاحبه تلك الخيلاء وهاتيك الحماسة، وامتقع لون ابن سراج عند سماعه  
اسم السيد ثم قال ان هذا الفارس الذي يلقبه النصاري بزهرة الوقائع  
هو مشهور عندنا بالقسوة والجسوة فلو كان حمله على مقدار رأسه لكان ...  
فقطم عليه كارلوس الكلام قائلاً : حمله كان يفوق رأسه ولم يكن  
إلا لمغربي مثلك أن يهجو بطلاً اليه منتمى أسرتي وعشيرتي  
فقال ابن حامد وقد قفز عن المقعد الذي كان مضطجماً عليه : هل  
تعد السيد من أجدادك ؟

قل الدون كارلوس : إن دمه لي يجري في عروقي وإني لأعرف  
نفسي من هذا الدم الزكي الظاهر بما أحس به من الشنآن لأعداء الهي وديني  
قال ابن حامد لأدماء : إذا يا أخت الأسبانيول أنت من بقية آل  
بيفار الذين بعد فتح غرناطة أغاروا على منازل بني سراج المساكين وفتكوا  
بفارس منهم مسن كان يذب عن قبور أجداده

فصاح الدون كارلوس وقد كاد يتميز من الغيظ : اعلم أنه لا سبيل  
لسؤالي وإن كان في يدي الآن سبب بني سراج فإن أهلي ملكوه  
بشمن النجم الاحمر ، ولم يجنوه إلا من ورق الحديد الاخضر ، قال ابن  
حامد : أستهزئك علماً لقد جهلنا مكاننا من البعد والتغريب أن آل بيفار  
تلقبوا في غيبتنا بصنفاي ، وهذا ما أدخل علي الوهم

قال الدون : نعم وإن بيفار هذا غالب بني سراج هو الذي منحه  
فرديناند الكاثوليكي هذا اللقب

فأطرق ابن حامد بين الدون كارلوس ولوترك وادماء وهم في دهشة  
منه ثم انحدرت سيول الدموع من ماقيه على الخنجر المعلق بنطاقه ثم  
قال لهم : عفوا آليس الرجال ذرف الدموع ، ولن تستعبر عيني بدماء ،  
وان بقي عليها بكاء كثير ولكن اصغوا لمقالي :

ادماء حي لك يحكي حرارة المأموم الهابة في بادية العرب . كنت  
متجانبك لا أقدر على الحياة بدونك ، وما كان بالامس من رؤية هذا الفارس  
الفرنسي مصليا خاشعا ومن كلماتك لي عند المقبرة كاد يحملي على الاعتراف  
بربك وتأدية يمين الامة بين يديك

فلم يتم ابن حامد هذه الفقرة حتى تهال وجه ادماء سرورا ، وظهر  
الدهش على دون كارلوس ، وحجب لوترك وجهه بيديه ، فعرف السيد  
المغربي كنه حركته وهز رأسه وتبسم ابتسام اليأسين الذي يحرق الفؤاد  
ويقطع الاكباد

ثم قال : أيها الفارس لا تصرم حبل رجائك ، وأنت يا ادماء انديني  
الى الابد آخر بني سراج

ففي الحال رفع كل من ادماء والدون كارلوس ولوترك جميعا أيديهم  
الى السماء وهتفوا : « آخر بني سراج » ،

ثم علت السكينة المجلس وأخذت عراطف الخوف والامل والبنفس  
والحب والدهش والحسد كلها تتناهب قلوب الحاضرين . ثم جثت ادماء  
على رجليها وقالت : أيها الرب الكريم لقد عرفت عدالة قاي ونبل حيي  
فما كنت ممن يعشق الا سلالة الابطال

فصاح الدون بأخته وقد أحفظه قولها : اذكري أنك بحضرة لوترك

فقال له ابن حامد : كارلوس ! سكن جأشك فأنا وحدي منقذك مما أنت فيه ، ومريحك مما تعانيه . ثم انعطف نحو ادماء وكانت جلست ثانية وقال : يا حوراء الجنة وجنية الحسن سيكون ابن حامد تيماً لك الى آخر نسمة من حياته . لكن اعلمى شدة مصابي وعظيم خطبي ، فان الشيخ الذي أجهز عليه جدك — وهو يناضل دون عقر داره ، ويذب عن حريمه — هو جدي . ثم اعلمي سرا آخر أخفيته عنك أو أذهلتني عنه وهو أنني عندما جئت لأول مرة زائراً هذا الوطن كان من جملة عزمي الاستقصاء عن أحد بني ييفار أداقه الحساب عن دم آبائي الذي أهرقه آباؤه

قالت له ادماء بصوت حزن وورنة كآبة لم يكن مع جلد النفس الكبيرة : وما هو قصدك الآن ؟ قال ابن حامد : العزم الاجدر بك أن أرد لك عهدك ومواثيقك ، وأوفي بغيثي المنقطة حقوق العداوة بين قومي وقومك ووطني ووطنك . لكن ان اتحت صورتي من فؤادك ، أو أخني على ذكراي الزمان الذي يخني على كل شيء ويذهب بكل شيء ، فيكون هذا الفارس الفرنسي ... ويكون هذا الفداء كله من أجل أخيك

فقام لو ترك وألقى بنفسه بين ذراعي الشريف المغربي قائلاً له : يا ابن حامد لا تظن أنك تغلبني في المروعة والكرم ، أنا فرنسي قلدي بيار سيف الفراسة ، سفكت دمي أمام مليكي ، وسأكون مثل مولاي وأميري لا أخاف الموت ، ولا أرضى العار ، فان شئت أن تبقى في هذه الأرض رجوت لك من الدون كارلوس أن يزوجك أخته ، وان رحلت عن غرناطة فان يزعم محبوبتك مني أنة حب ولا زفرة جوي ، فلا تذهب

ظانا أن (لوترك) لقله احتفاله بالمرودة ومبالائه بالهدد طمع في الاستفادة من بلائك ، وعمد الى الاتصال بما قطعه عنك حسن ولائك

وأخذ هذا الفارس يعانق ابن حامد ويضمه الى صدره بجميع ما ركب في طباع الفرنسيس من اللجاج والحرارة

قال الدون كارلوس : أيها الفارسان الكريمان ما كنت لا تتظر صدور أقل من هذا عن مثل سلالتكما السرية ، وأعراقكما الزكية ، لكن يا ابن حامد بأي علامة أوقن أنك حقاً <sup>أخيراً</sup> قوم سراج ؟

قال ابن حامد : تعلم ذلك من سيرتي

ومن يستبين أصلي وتبحري فدونه      خلائق مثل الروض كلل بالزهر  
نقاء كماء المزن في صلب سيرتي      وعفة نفس دونها عفة الزهر  
وان حياتي كيف حاولت كلها      لمترك بين الشهامة والفخر  
فذا بحر أنسابي فعالي دليله      وليس يكون الدر الامن البحر (١)  
قال الدون : انني لمعجب بها جدا لكن هل لك ما عدا ذلك أن تطلعي على اشارة أخرى الى نسبك الكريم ؟

فأبرز ابن حامد من تحت نطاؤه شجرة نسب بني سراج التي يحملها معه معلقة بسلسلة من ذهب

فعندها مد الدون يده وصافح ابن حامد قائلاً : أيها السيد الفارس الخطريف أنت عندي الرجل الصادق ، سلالة الملوك ، وثمالة الأبطال ، ولقد شرفني بما كاشفتني به من أفكارك ومطوى عزمك في حق بني ييفار أسرتي ، وها أنا ذا أقبل البراز الذي كنت آتيا في طلبه فان خرجت

من البراز مغلوبا كان لك ملكا جميع أملاكى وأموالى التى كانت من قبل  
أملاكك وأموالك ، فان لم تقبل البراز فاقبل أمرا آخر وهو النصرانية  
مع الزواج بشقيقة التى يتركها لو ترك لك

فكانت التجربة عظيمة ، والاختيار عبثا ثقيلا ، لكنها بعد ظهور  
ما ظهر لم تعد فوق عزائم ابن حامد ، فانه وان كان الحب من جهة مستويا  
على قلبه بجميع سلطانه القاهر ، فن اخرى كانت تأخذه الرعدة عند  
تخيله المزاوجة بين الغالب والمغلوب ، والخلط بين دم القاهر ودم المقهور ،  
كان يمثل خيال جده قد نشر وخرج من بين الاموات وقام يوبخه على  
هذا الزواج المحرم ( ربما كان محرما في شرع العداوة واما ديننا فهو جائز  
في المذاهب الاربعة ) ثم احرقه الوجد فهتف : آه يلزم ان اكون وجدت  
هنا أكرم الاخلاق ، وأعظم الانفس وأزكى الارواح ، وأشرف الخصال ،  
لكي أشعر بما شعرت به من ألم هذا الفراق ، لتقل ادماء كلمة عما يجب  
أن أفعل ليكون ذلك أخلاق بحبها

صاحت ادماء . عد الى الصجراء . ورنم عليها

فقال نحوها ابن حامد وتأمل فيها ساعة عكوف الوثني على الصنم  
ثم خرج لا يلوي على شيء ولا ينطق ببنت شفة . وفي تلك الليلة نفسها  
انزعج الى مائة وأبخر في مركب متوجه ناحية هيران وعند وصوله  
الى هذه المدينة وجد قافلة الحاج على عزم المسير الى مصر فالحجاز فانتظم  
في سبط الحاج

وأما ادماء ففي بادىء فراقه أوشك ان يقضى عليها غمما ووجدا ، ولم  
يبق فيها لا ذملاء لكن عاد اليها الرممق من بعد . وحفظ لو ترك العهد الذي

ماهد عليه ابن سراج فابتعد عنها، ولم تسمع منه نبسة الم ولا أمل تثير عليها  
كامن أشجانها، وكانت كل عام تذهب هائمة في جبال مالقة في الفصل  
الذي كان حبيبها يعود فيه من افريقية وتجلس على الصخور ناظرة الى  
البحر والى الفلك البعيدة، وهي تنسم نفحات الغرب وتنشق الريح الهابة  
من أرض الحبيب

أقلب طرفي في السماء تردداً      لعلني أرى النجم الذي أنت تنظر  
وأستعرض الركبان من كل وجهة      لعلني بمن قد شم عرفتك أظفر  
وأستقبل الأرواح عند هبوبها      لعلني نسيم الريح عنك يخبر  
وأمشي ومالي في الطريق مأرب      عسى نعمة باسم الحبيب ستذكر  
والمح من ألقاء من غير حاجة      عسى لمحة من نور وجهك تسفر  
ثم ترجع الى غرناطة وتقضي سائر أيامها بين بقايا الحمراء، ثم انقطعت  
عن الشكوى والنحيب والكلام عن ابن حامد وربما ظننها الغريب سعيدة  
الحال في ذاتها، وبقيت وحدها من آل بيتها لان أباه مات غما وأخاها  
دون كارلوس توفي قتيلا في براز كان (لوترك) له فيه عضداً

وأما ابن حامد فغاب غيبة القارظ العنزي ولم يؤثر عنه بخبر ولا عرف  
أحد ماذا جرى عليه

عند خروجك من تونس من الباب المؤدي الى اطلال قرطاجنة  
تجد مقبرة وتجد في زاوية من تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد  
أرشدت اليه يقال له هناك قبر آخر بني سراج ليس فيه شيء يستحق  
الصفة سوى ان في وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة

حسب عادة مدافن المسلمين وماء المطر يجتمع في هذا الجرن الصغير  
فترتوي منه مت تلك السماء المحرقة طير السماء

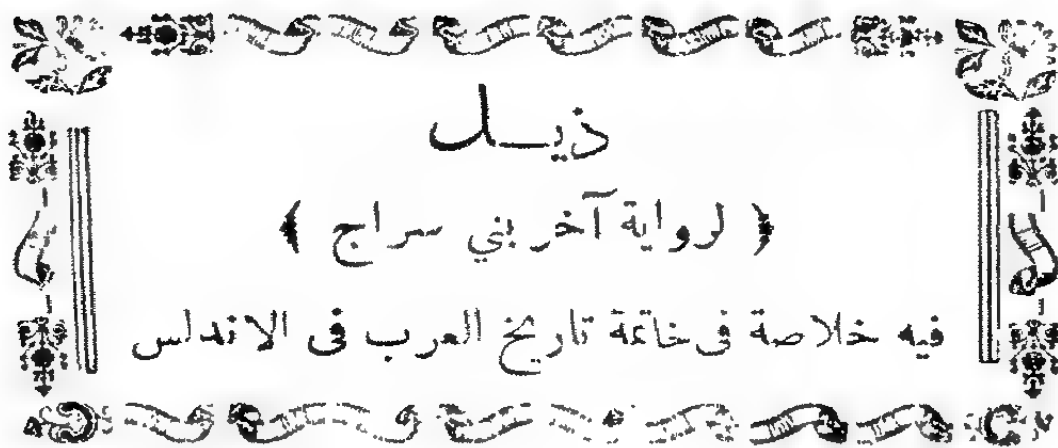
اقصر سراج لا عزاء لمغرم	ولا قصر عن دمع وان كان من دم
أفي كل عام لا تزال مروّعا	بفدّ نعيّ تارة أو بتوأم
مضى أهلك الأختيار إلا أفلمهم	وبادوا كما بادت أوائل جرحهم
فصرت كعش خافقه فراخه	بعلياء فرع الاثلة المتهمش
احب بنوك المكرمات ففرقت	جماعتهم في كل دهية صيلم
تدانت منايهم بهم وتباعدت	مضاجعهم عن تربك المتنسم
فشكل له قبره غريب ببلدة	فمن منجد نائي الضريح ومُتهم
قبور بأطراف البلاد كأنما	مواقعها منها مواقع أنجم
بتونس الخضراء قبر ابن حامد	بعيدا عن الباكين في كل ماتم
تشق عليه الريح كل عشية	جيوب الغمام بين بكر وأيّم (١)
انتهت القصة ويتبعها الذيل	

---

(١) الايات للبحثري وانما بدلت فيها بعض الفاظ بما يوافق المقام







ذيل

( لرواية آخر بني سراج )

فيه خلاصة في خاتمة تاريخ العرب في الاندلس



## تمهيد

انما حدا بي الى تذليل هذه الرواية أمران : الاول إعانة القاريء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع بما تفقد بدونه لذة المطالعة ، والثاني ما رأيته من اختصار جرم الرواية فأثرت إردافها بذيل يطيل من قدما ويزيد في حجمها ، ويكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية ، ما لا يقصر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية ، فجاءت روايتنا ذليلا وان لم نرج أن تكون طاووسا ، وايست هذه أول مرة جرت فيها الروايات أذيانا ، واتخذت القصص عصا عص طوالا

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الاندلس الاجالي الا ما اضطر اليه مساق الكلام ، فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ، كما أنما اعده تكرارا لسابق أو إعادة لصدى ، وخلوا من كل براعة . وأخبار الاندلس مستفيضة في التواريخ شرقا وغربا ومعروفة عند الادباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب ، وانما يستحب الانشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الاعلام ، فاذا قرأته العامة بل الخاصة سقطت منه على جديد ذي طلاوة ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الاخرى مدارس كتب القواعد التي لا تتغير

فأشد الاقسام عوزا الى البحث من تاريخ هذه البلاد — التي لا

أنزال نحسبها عربية لتكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها -  
لأنما هو القسم الأخير واحوج طائفة من أخبارها الى التدوين ما تعلق  
بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة  
سنة، لأن هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الاسلام  
وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة  
عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى اقحاط البلاد بالدمغة المتوقدة ،  
وعقم الامة عن الرأس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه  
ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة فإنه لا عطار بعد عروس  
نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)  
للعامة المقرئ هو من أوفى الكتب بأخبار الاندلس وآدابها : حقيقة  
أنباء ، ووقطر حوادث وخزانة آداب ، وكشكول لطائف وديوان أشعار ،  
وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي الاندلس وامتصاص  
سؤر الكأس وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها بحيث أمكن  
لصاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الاسبانيول على الجميع  
وختم الدولة الاسلامية في تلك الديار ، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو  
مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الاشياء ، ولا ينتبهون الى قاعدة أن  
الحسن انما هو تناسب الاعضاء ، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث  
العمم بحثا هو دون حقه بدركات ، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة  
البال من الوقائع التي أشار اليها في بطن كتابه واستوعبه في أوراق  
يسيرة كانت لطافتها في كشافها ، فإن التناسب يقضي باعطاء كل مقام من  
المقال ما يكفيه ويقوم بحقه ويحيي على قدره . ولو فسح الفاضل المقرئ

رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة وحادث انقراض أمر الاسلام بالاندلس ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير الذي يغني عن كله بعضه من الخطابات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب أو وجهت اليه أو الى غيره، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول اناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم الى السماء، - لكن ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعا، وكانت الناس قد شفت غايلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهلها وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي، ولكفينا مؤنة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الأحمر وعمه الزغل وذهاب تلك المملكة وما جرى في ضمنه من الحروب وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان الى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع ابرد ما فيه مع طوله انه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالاندلس على يده بأن الخطب غير نادر المثال وان بغداد دار خلافة بني العباس قد اصابها ما اصاب غرناطة، فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله، او مما ترتاح الانفس الى قبوله، على فرض صحة تمثيله؟ وان كان العذر في ذلك ما يقال من ان صاحب النفح قد ألفه وهو نضو اسفار خال من الاسفار، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة والاخذ بالاطراف، فسبحان الله كم يتأهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعلق ما ينفع؟ وهذا الفاضل المقرئ قد املئ عن ظهر قلبه اربعة مجلدات كبار اودعها من

التاريخ الجغرافية والقصص والنكات وحشاها من الشعر والنثر والتراجم  
والتصوف غثا وسمينا . لا اظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغيه ،  
وتركنا في التاريخ المهم . من تفصيل الوقائع الشداد والمعارك التي سالت  
فيها انهر الدماء في دور المنزع الاخير عيالا على الافرنج مضطرين الى  
الاخذ عن مصنفاتهم ، فكنا ولما هم في اخذ تاريخنا عنهم كما كنا في اخذ  
لغتنا عن صحاح الجوهري (١)

ولا نشك ان في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الاندلس  
الاخيرة ما يستر في شرحها ، ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير (نفع  
الطيب) . من متأخر تتأليف وهذه الحال معه ، ولا عجب ان ساقنا حب  
الاستقصاء واقتفاء اثر ابناء الجلدة الى اخذ اخبارنا عن الاجانب وتلوينا :  
(هذه بضاعتنا ردت اليانا)

## الفصل الاول

﴿ في ذكر بني سراج الذين تنسب الى آخرهم هذه الرواية ﴾

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الاندلسيين عند الافرنج وأبعدم  
صيتا وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الاحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية  
للاسرة المالكة ويعزون اليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات  
ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علفت بحب أحد

---

« ١ » يعنى أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النسب ولكنه  
صار من العرب لغة وأدبا ودينا وكتابه الصحاح احد معاجم اللغة وقد ألف  
العرب قبله وبعده معاجم تغنى عنه وليس فيه شيء لا يوجد في غيره

شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال وضربت له موعداً للقاء في إحدى خلوات القصر الشهير بالجرء فاجتمعوا ساعة هي بالعمراجم « وقد كانت كذلك » يتناجيان ويتغازلان ولكنهما بغتا وهما على تلك الحالة ونمي امرهما الى السلطان فاستشاط غضبا واستحضر لديه اكثر رجال بني سراج وأمر بضرب اعناقهم في المكان المسمى بقاعة الاسود من جرء غرناطة فقتلوا جميعا، ومن خرافات الاسبانيول أنه لم يزل يسمع لرؤسهم صدى عند خفوت الاصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغيا وظلما ( ١ )

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الاحمر نصر و محمد الاعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ١٤٢٧ قتل بقسم من بني سراج فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً الى ملك قشتالة وقد أشارت الى واقعة قتلهم بمض الاغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في اعضاء المغاربة وبكوها طويلا . اهـ  
وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن انه تحريف عن بني الزغبي نسبة الى قبيلة زغبة وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية وفي التحريف المعتاد في اسماء

---

« ١ » في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يعيل الى ان هذه الاسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظن ان واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٢

الاندلس بين عربها وعجمها مالا يجعل هذا التحريف بعيداً  
وأما الذي بإيدينا من كتب العرب فلا يشير الى شيء من هذه القصة  
ونظن انها لو كانت واقعية لم يسبق اليها أحد صاحب تفح الطيب الذي  
ينبغي أن لا تقوته حكاية غرامية كذه في كتاب استوفى أمثالها وهكذا  
قرر المرحوم ضيا باشا الاديب الشاعر المشهور من وزراء الدولة العثمانية  
في تاريخه للاندلس باللغة التركية فانه أشار الى هذه الحكاية المتداولة عند  
مؤرخي الافرنج وبين استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتاب العرب  
وتشتهر عندهم ورجح انها من اوهام الاسبانيول وخيالاتهم  
وأنا اذهب الى انها ان كانت ذات أصل فلا بد أن يكون ضميماً جداً  
نظراً لتعامس المؤرخين عنها وياليت شرى ماذا كان يقول ابن خلدون لو  
أحياء الله في المائة التاسعة بدل الثامنة اذا وقف على حكاية الداهية الاميرة في  
الجرم مع الشاب السراجي وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الأحمر  
لبنى سراج أفلا يخطر ذلك بباليه قصة العباسية مع جعفر بن يحيى بن خالد  
البرمكي ونكبة الرشيد للبرامية من أجل تلك القصة (١) لا جرم انه كان  
ينتهج هذه المرة من الخطة في البرهان على عدم صحة الرواية ما انتهجه في تبرئة  
شرف العباسية وتنزيه جانبها عن خرس القصاصين ووضع المؤلفين. على  
انه ان كانت قصة اخت هارون عديمة الصحة مع اشتهاها في كتب  
العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقتناعهم بها، فما ظنك بهذه وهي عربية  
ولم يعرفها العرب ولا حكاها غير الافرنج فيما نعلم

(١) أي على القول بأنها سبب النكبة والصواب ان سببها سياسة البرامية  
الفارسية المراد بها نزع الملك من العرب

وبالاجمال فكثير من هذه الاحاديث الغرامية في الشرق وفي الغرب  
هو من اوضاع أهل النصص خصوصا الجانحين منهم لهذه المشارب لما  
هو مركز في فطرة القراء ولا سيما العشاق المستهترين من الميل الى  
مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسيكاً بما فيها مما هم عليه من التهلك والمجون  
واسترسالاً بعدها الى الشهوات ولولم تكن قصص العشق أعلق الكلام  
بالقلوب وأميل الاحاديث بالنفوس لما كان السواد الاكبر يؤثر من مطالعة  
الاقاصيص الغرامية في هذه الايام حال كونهم يعرفونها من اوضاع  
القرائح وخيالات الازهان والفرق بين هذه وبين تلك في لذة المطالعة  
فرق مدين الواقع ولموهوم

وأما ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد وردني النفع  
عند ذكر انساب الاندلس وأصول القبائل التي نزلت بها جاية عن المشرق  
قوله: قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى  
مذحج ولم يقل انهم من غرناطة فلمعلمهم انتقلوا الى غرناطة بعد انتقال  
قرطبة الى الاسبانيا ولذكر صاحب مطمح الانفس رجلاً يقال له ابن  
سراج في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد قال انه كان  
من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن المصاحبة في أعلى مراتب التبيان،  
وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من ايرادها وهي انه كان  
له بياب الصرصة من الجامع موضح لا يفارقه أكثر نهاره بخس فيه لمة  
سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه، هم يقتطفون من نخب آدابه  
واذا بحارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريرها من يسترها ويوارئها،  
وأماها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خائفة ترتاد موضعاً لما جاة



ربها ، وتبتغي مكانا لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت  
سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشيب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلم يغب  
عنها تواريتها شيئا لانه حال ما نظرها ، قال قولا فضحها وشهرها ، وهو :

وناظرة تحت طي القناع دعاها الى الله للخير داع

سمعت خفيسة تبتغي منزلا لوصل التبتل والانقطاع

وجالت موضعا جولة فحل الربيع بتلك البقاع

أتنا تبخرت في مشيها فلت بواد كثير السباع

وريت حذارا على طفلها فنادت يا هذه لا تراعي

غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه كامة المصاع

فوات وللمسك من ذبابها على الارض خط كظهر الشجاع (١)

وورد في المطمح أيضا في ترجمة الاديب أبي بكر عبد المعطي انه كان

مرتسما في عسكر قرطبة وكان ابن سراج يتأني له في كل ما يبتغي خيفة

من لسانه ، ومحافضة على احسانه ، فلما خرج الى اقلش خرج معه ؛ وجعل

يساير من شيعه ، فلما حصلوا بفحص سراج ، وهو موضع توديع المفارق

للمفارق ، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه ، وانشده في تفرق

الشملى انصداعه :

ثم رحلوا عنا لامر لهم عذنا فما أخدم منهم على أحد حنا

ومارحلوا حتى استعادوا نفوسنا كأهمهم كانوا أحق بها منا

فيا ساكني نجد لتبعد داركم ظننا بكم ظنا فأخفتم الظنا

غدرتم ولم أغدر وختم ولم أخن وقلتم ولم أعتب وجرتم وما جرننا

« ١ » الشجاع اسم نوع من الحيات

وأقسمتم ان لا تخونوا أخا الهوى      فقد وزمام الحب ختمت وما خنا  
 ترى تجمع الايام بنى وبينكم      ويجمعنا دهر نعود كما كنا  
 ومما ورد أيضاً في النفع من ذكر بنى سراج عند ترجمة الوزير الرئيس  
 العلامة ابن عاصم الغرناطي انه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم  
 ابن سراج وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضاً ومما خاطب به  
 شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طاب الاجتماع به  
 زمن فتنة فظن انه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الايات  
 فديتك لا تسأل عن السر كتاباً      فتلقاه في حال من الرشد عاطل  
 وتضارعه إما لحالة خائن      أمانته او خائض في الاباطل  
 فلا فرق عندي بين قاض وكاتب      وشي ذا سر أو قضي ذا باطل  
 وورد أيضاً عند ذكر العلامة ابن مرزوق ان من تأليفه العديدة  
 (المعراج، في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف أجاب  
 به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية  
 ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين ان بني سراج  
 الذين تكثروا من انتويه بهم الكتب الافرنجية هم قديم الاستاذ المذكور لكونه  
 من أهالي لمائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الاخير الذي اشتهر روايته عند  
 الافرنج، على اني لم أعهد الا ما ندد عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت لبني  
 سراج الغرناطيين المتأخرين، وأنت ترى انهم هناك من حملة السيف وهنامن  
 حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعوا في البيوتات العريقة، وتقارنا في العشائر  
 النبيلة، وبنو سراج ممن قرنوا السيف الى القلم، وجمعوا الحكم الى الحكيم،  
 فاحرزوا كثيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بمطرفيه،

## الفصل الثاني

( في ذكر مملكة غرناطة محل وقوع الرواية )

قال المقرئ : ومن أشهر بلاد الاندلس غرناطة - وقيل ان الصواب  
أغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانية - وكفاها شرقاً ولادة لسان الدين بها  
( هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وزير بني الأحمر أشهر من  
أن يعرف به ) وقال الشقندي : أما غرناطة فهي دمشق بلاد الاندلس ،  
ومسرح الابصار ومطمح الانفس ، ولم تخل من أشرف أمائل ، وعلماء  
أكابر وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج  
طويل العريض ونهر شليل لكفاها . وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته :  
وما لمصر تفخر بنيلها ، والفس منه في شنيها . ولا يخفى أن الشين في جم  
المغاربة عددها ألف . وفي غرناطة قال الشاعر :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق  
ما هي إلا العروس تجلي وتلك من جملة الصداق

وقال صاحب منهاج الفكر : إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى  
دمشق قيل لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل لشبهها بدمشق في  
غزارة الانهار ، وكثرة الاشجار ، وقال : لما استولى الفرنج على معظم بلاد  
الاندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصير المقصود ، والمقل الذي تنضوي  
اليه العساكر والجنود . وقال ابن بطوطة وهو الاولي لكثرة ترحاله أن لا  
تزدحم به بلاد : فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر  
موفور للساكن والثواب منخور للمقيم والظاعن ، الى أن قال عند ذكره

غرناطة مانصه - : قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير  
له في الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يحترقه نهر شاييل المشهور، وسواه من  
الانهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنات والرياضات والقصور والكروم  
محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه  
الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها. وقال ابن جزى مرتب رحلة ابن  
بطوطة : لو لا خشية أن أنسب الى العصبية لاطلت القول في وصف  
غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لا طالة  
القول فيه، والله در شيخنا أبي بكر بن محمد بن شربين السبتي نزيل غرناطة  
حيث يقول :

يسر حزيناً أو بحير طريه أ	رعى الله من غرناطة متبراً
مسارحها بالثلج غدن جليداً	تبراً منها صاحبي تند ما رأى
وما خير ثغر لا يكون بروداً	هي الثغر صان الله من أهلت به

كانت ثغراً في زمان شيخنا أبي بكر أما الآن فوسط من بلاد  
الاسبانيول وقال صاحب منهاج الفكر : يشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها  
وفي قبليها جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وفيه  
سائر النبات الهندي لكن ليس فيه خصائصه. وقال غيره : يشقها نهر  
حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يزول عنه الثلج شتاء  
ولاصيفا ويحمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفي أعلاه الازاهر الكثيرة  
وأجناس الافاويه الرقيقة . وفي شلير يقول الشاعر وأصله من البلاد الحارة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم	وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فانها	أخف علينا من شلير وأرحم

وذكر بعض المتأخرين : أن قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية (١) ومن أعمالها قطر لوشة وهو قطر عظيم يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع وقاعدته لوشة وبينها وبير غرناطة مرحلة وهي مبنية على نهر الشنيل أيضا ونحف بها البساتين والرياض، وإلى لوشة ينسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي يقول ابن خلدون فيه — وناهيك به من شاهد — : إنه كان الصدر المقدم في الشعر والكتابة في عصره.

ومن أعمال غرناطة باغة وعامة الاندلس يقولون بينة وهي بلدة طيبة غزيرة المياه كثيرة النمار، منها وادي آش ويقال وادي الاشات وهي مدينة جليلة قد أحقت بها البساتين وجرت فيها الانهار ولاهلها مزية في الادب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن تزار:

وادي الاشات يهيج وجدى كلما      اذكرت ما أفضت بك النعماء  
لله ظلك والهجير مساط      قد بردت لفحاته الاندواء  
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة      منه فتطرف طرفها الاقياء  
والنهر ييسم بالحباب كأنه      سلخ نضته حية رقشاء  
فلذاك نحذره الغسوت فيلها      أبداً على جنباته الخلاء  
ومن أعمال وادي آش حصن جليانة وهو مدينة واليه ينسب

التفاح الجلياني المشهور

وحيث كان مقصدنا هنا أن نذكر من بلاد الاندلس ما يتعلق بالرواية

(١) من جملة قرى غرناطة التي ورد ذكرها في الاحاطة لسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس هذا العاجز حارة اسمها العمروسية فليتأمل القاريء الى وحدة العربية شرقا وغربا مع تباعد الديار.

أو ارتبط بالحوادث التي استوفيناها في الذيل تاريخنا لجلاء المسلمين عن ذلك القطر العظيم نقول على وجه الاجمال

إن علماء الجغرافية من العرب قسموا تلك البلاد الى موسطة وشرق وغرب أما الموسطة فهي ذات القواعد المهمة التي كل منها مملكة مستقلة مثل قرطبة وطليلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة، فمن اعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها. ومن اعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها. ومن أعمال جيان ابذه وبياسة وقسطلة وغيرها، ومن اعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وباعة وغيرها. ومن اعمال المرية أندرش وغيرها ومن اعمال مالقة باش والحامة وغيرها

هذه أواسط الاندلس فأما الشرق ففيه من القواعد مرسية ودانية وبلنسية والسهلة والشفر الاعلى فمن اعمال مرسية أوربولة والقوننت ولورقة وغيرها. ومن اعمال بلنسية شاطبة الذي يعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر. ومن اعمال الشفر الاعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة نطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانية وكورة باروشة. وفي كل من هذه الكور مدن وحصون وقرى لا تحصى ولدانية والسهلة اعمال واسعة أيضاً.

وأما غرب الاندلس فهو اشبيلية وماردة واشبونه وشلب. فمن اعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبله. ومن اعمال ماردة بطليوس وبابرة ومن اعمال اشبونة شنترين. ومن اعمال شاب شنتريه ويلحق بعمل اشبيلية جزيرة قادس.

هذا وقد انطوى تحت كل عمل من الحصون والقرى والدساكر  
ما نترك وصفه لمؤرخي الاندلس ونجتزئ عن تفصيله بما قررناه من أن  
طول الاندلس نحو ثلاثين يوما وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهراً  
كباراً وبها من القواعد الكبار ثمانون ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلثمائة  
وفيها من الحصون والأبراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر حتى  
قيل أن عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنتا عشر ألف قرية  
وحيث قد ذكرنا هذا على وجه الإجمال نقول إن المدن التي كانت  
باقية في بد الاسلام حين الجلاء أهمها بعد غرناطة المرية ووادي آش  
ولوشة ومالقة وبلش مالقة والحامة واندرش وشلوبانية ورندة والمنكب  
ما عدا الحصون والقلاع التي تربو على المئين

ولما كنا قد ذكرنا وصف غرناطة كان لا بد من وصف المرية المدينة  
الثانية لمملكة ابن الأحمر فهي على ساحل البحر وفيها دار الصناعة للمراكب  
ولها القلعة العظيمة المنسوبة الى خيراق مولي المنصور بن أبي عامر الذي  
كان قد تولاها وفي كورتها معادن الحديد والرخام، وطول واديها أربعون  
ميلاً، وكله جنات وبساتين، ولم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالا ولا أوسع  
تجارة من أهل المرية وقيل أنه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف  
وقيل كان بها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج  
الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية والاصفهانبة وللمعاجر البديعة والستور  
المسكلة الوف من الانوال، وكان يصنع بها انواع آلات الحديد والنحاس  
ويصنع بها لزجاج الانيق وبمحسن شنش على مرحلة من المرية التوت  
الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحصى المرية كالدر في رونقه يحمل الى  
١٠ - خلاصة تاريخ الاندلس

البلاد وكانوا يضمونه في كيزان الماء ولابي جعفر بن حاتمة تاريخ شامل  
سماه ( مزية المرية ) اسنوفى فيه اوصافها وخصائصها

ومن تلك البلاد مالقة وهي من اكبر الثغور واوسمها تجارة واحفائها  
عمارة وقد ورد في رسالة ابي الوايد الشقندى في وصف مالقة ما يأتي :  
واما مالقة فانها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالسكروم المتصلة  
التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابت نجوم  
السماء ، كثرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادى الزائر لها في فصلي الشتاء  
والربيع في سرر بطحاتها ، وتوشيعه لخصور أرجائها ، ومما اختصت به  
من بين سائر البلاد التين الربى المنسوب اليها لان اسمها في القديم ربة  
ولقد اخبرت أنه يباع في بغداد على جهة الاستطراف . وأما ما يسفر منه  
المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما  
يحصره ، ولقد اجتزت بها مدة وأخذت على طريق الساحل من سهيل  
( عمل بغربي مالقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل  
بالاندلس الا منه ) الى أن بلغت ( بلش ) قدر ثلاثة أيام متعجبا فيما حوته  
هذه المسافة من شجر التين وان بعضها ليجتني جميعها الطفل الصغير من  
لزوقها بالارض وقد حوت ما يتعب الجماعة كثرة . وتين بلش هو الذي  
قيل فيه لبربري كيف رأيته ، فقال : لا تسلى عنه وصب في حاقي بالقنة  
( قال ) وقد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل  
بالشراب المالح وقيل لاحد الملوك وقد أشرف على الموت أسأل ربك المغفرة .  
ففع يديه وقال : يا رب أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيب  
اشبيلية . وفيها تنسج الحلال الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور



المجبية المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم وساحلها محط تجارة لمراكب  
المسامين والنصارى . (قلت) وما زال تين مالقة مضرًا للامثال حتى قيل  
انه يجلب الى الهند والصين وحتى جعله أبو الحجاج يوسف البلوي المالقي  
حياته فقال :

مالقة حبيبٌ يا تينها      السفن من أجلاك ياتينها  
نهى طبيبي عنه في عاتي      ما لطبيبي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة : مالقة إحدى قواع الاندلس وبلادها الحسان  
جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب  
يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمائها المرسى الياقوتي  
لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى  
بلاد المشرق . المغرب . وبمالقة يصنع الفخار المذهب . المجيب ويجلب منها  
الى أقاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرة وصحنه لا  
نظير له في الحسن وفيه أشجار النارج البديعة اهـ

وأما باش مالقة فعليها مساحة من مالقة في طيها وهذه أمهات مدن  
غرناطة ودرر سلكها ولو شئنا استقصاء أعمالها وتقري جهازها بالوصف  
والتنويه وحاولنا تتبع كبر الصقم وبقاعه والدخول في ثايا حصونه وقلاع  
لضامات علمنا الكتب برحبها كيف لا والاندلس جنة العرب وفردوس  
نعيمهم ومرمى غايات خيالهم ، وقد جرى في وصفها من المدد ، ما لو توزع  
لوسع سائر البلاد ، وردن . منها ارم ذات العماد ، وحديث أن هذه المدن  
الاخيرة كانت مؤرمافي الكان ، بخصاصة ما في الكرم ، ومع ذلك فلتدرد  
أسباب دفاعها ، بآلة حكام ملق أقناعتها وغزار : مواد أجلا بها لم يزل أمل

الاسلام فيها وطيداً، والرجاء بثباتها . معقوداً، قال ابن سعيد: في حضورها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لا امتناع معاقبتها ودربة أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطمع والضرب، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها فنما ما يطول صبرها عليها نحو ما من مائة سنة ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن، وان كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقية منعة عظيمة، فارض بقي فيها مثل اشيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الرجاء فيها قوي بحول الله وقوته انتهى .

قال المقرئ: قلت قد خاب ذلك الرجاء وصارت تلك الارجاء للعدو مرجاء، ونسأل الله الذي جعل لهم فرجا وللضيق مخرجاً، أن يعيد اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهلها منه فيها الرجاء انتهى  
(قلت) هذا كان منذ نحو ثلثمائة سنة والعهد بالخروج حديث ، والدم على أسوار غرناطة طرىء، والعادة المستمرة راسخة التأثير، ولدنو زمن الخروج في أمل الرجوع حق كبير فأما الآن ولم يكتف العدو باسترداد أرضه حتى هم بالتجاوز الى ما وراء البحر، واعترض من بلاد الاسلام ما بين السحر والنحر، فلو نشر المقرئ في هذا العصر رأياً ما رأى من التكاثر المحيط لقنع بحفظ الموجود، ولم تنماد به الاماني الى استحياء ما في الاحود، والله الامر من قبل وبعد (١)

(١) لانا عند ما حررنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الاقصى سقط في أيدي الفرنسيين والاسبانيول، على ان الله تعالى بعث على هؤلاء جنده من بواسل ريف مراکش بقيادة بطل الاسلام الامير عبد الكريم فنكوا بهم وناروا لعرب الاندلس منهم ، ونسال الله حسن العاقبة لهم

وأما تاريخ فتح غرناطة فينتهي الى فتح سائر الاندلس على يد طارق  
ابن زياد فان طارقا لما هزم لندريق ومزق جموعه وحاز أمواله وتسامع  
الناس من بر العدو بالفتح الذي تم على يده اقبلوا اليه من وراء البحر  
وتكاثفوا حوله فارتفع الاسبانيول عند ذلك الى الحصون والقلاع، ولحقوا  
بالجبال، فغرق طارق حصونهم فاستنزلهم منها قسرا، أرهقهم ذلا وعسرا،  
وأوغل في البلاد فغذف الله الرعب في قلوب الاسبانيول، فلم يثبتوا في  
موقف، وصمد طارق الى طليطلة قاعة ملكهم، وأرسل غيثا ولى الوليد  
ابن عبد الملك الى قرطبة. وسرح جيشا الى مالقة وجيشا آخر الى غرناطة  
مدينة البيرة فافتتحوا مالقة ولاد علوجها بجبالهم التي صارت في الدهور  
الالية لاجل الله مسلمين وترجعوا الى البيرة فحصرها. ينتهي غرناطة فافتتحوها  
عنوة وضموا اليهود الى قصبهم، من ذلك لهم سنة في كل بلد يفتحونه  
أن يضموا يهوده الى القصبه مع قطعة من المسلمين استثناء اليهم من  
دون الاسبانيول لما بينهم من العدوان، ثم لما العرب أخذوا بالرحيل الى  
لاندلس والوفود على تلك البلاد من كل قبيلة ولا سيما عرب الشام  
فلما كانت ولاية أبي الخطاب بن هشام بن زرار الكلبي من قبل حنظلة  
ابن صفوان عامل افريقية سنة خمس و عشرين بعد المائة كثروا عنده  
في قرطبة فلم يحملهم المصير فقرعهم في البلاد وكان شديد الرأي وافر  
الحزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل  
حمص اشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيازا وسماها قنسرين، وأهل  
الاردن رية ومالقة وسماها الاردن، وأهل فلسطين شربش وسماها فلسطين،

وأهل مصر تدمير وسماها مصر، وقيل إن بها نهرا له شأن كشأن النيل في الفيضان في فصل مخصوص .

ولما أفلت عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الاموي الملقب باداغل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدا من المشرق واقتطع الاندلس عن المنصور العباسي نزل بساحل المكب بادىء بدء، وهناك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الاموية من أشبيلية وريّة بالبيعة وأخلصوا المناصحة وانضم اليه اليمانية فهد إلى قرطبة مقر الوالي يوسف ابن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا في الجلالة فأسرع الاوبة وزحف اليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ إلى غرناطة ونحصر بها ثم تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قرطبة أميرا ثم نكث يوسف العهد واستؤثقت الحرب فانهمز الفهري واحتز رأسه ووجيء به إلى عبد الرحمن واستوسق له الام ودانت لطاعته البلاد ولمن بعده من أعقابهم، على تزايد في صولاتهم، وتآمل من ساطعهم، وكانت غرناطة كغيرها من الامصار يخفق فوقها اللاواء الاموي حينما لم يكن غيره راية، ولادونه خلافة، إلى أن اضطرب حبل امره انين بالاندلس وانتزى عليهم المنصور ابن أبي عامر كافل الخلافة ( ١ ) واعنابه وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا

( ١ ) هو الملك الاعظم المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن بدير بن عبد الملك المعافري من أجل ملوك الاسلام، وامضى بيوف محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرو عن أحد زيادة عماروي منه من الهمة في الجهاد والاعمال في الغزو وتردد السرايا إلى الامور، انال الله غزا ستا وخمسة من غزاة لم تنالكس له فيها راية، ولا قل له جيش، وما أصعب له مآثر وما هلك له سرية. وقيل انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الفار، غرمانية كالأخضر يأخذونها عنه بالمداديل حتى -

صنهاجة من قبائل البربر واتخذوهم عضداً في مواقفهم من دون العرب وكان

اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتسييرها بجنوطه وكان يحملها معه في أسفاره وغزوانه مع أكفانه توقفاً لحلول الأجر. وفرات ما يشبه ذلك عن سيف الدولة ابن حمدان العدوي من انه اجتمع له من هذا الغبار ابنة كبيرة عهد بوضعها تحت رأسه في قبره، وجد المنصور هو عبد الملك المعاقري الوافد على الابدلس بصحبة طارق وأصله من قرية تركش رحل الى قرطبة وتادب بها ثم افتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من خدام التتير الى ان احتاجت السيدة صبح ام المؤيد الاموي من يكتب لها فعرها به من يعرفه فكتب عنها وترقى في خدمتها الى ان رغبت الى الخليفة في توليته القضاء فولاها فظهرت منه محابة فترقى الى ولاية الركا والمواريث بأشبية كانت مداً لظهوره وناصح في خدمة المصحفي حاجب الخليفة وصار له شأن فلما توفي الحكم وتولى بنو هشام المؤيد وهو حدث جاشت الافرنج فرماهم المصحفي بن ابي عامر فاصغر عليهم وتمكن حبه من القلوب وأخذ يزداد جاهاً وعلاوا حتى تاب له رأي بالاسنيداد فكر بأهل الدولة وضرب بينهم وقتل بعضهم ببعض فنكب الصنادلة الخصيان بالنصر بالمصحفي ونكب هذا بغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ونكب غالباً بمجمر بن حمدون قائد الشيعة وممدوح ابن هاني وجعفر أيمالة ابن عبد الوود وابن جهور وابن ذي النون ثم استعان على اولياء الدولة كلهم بالهند من زبالة والبربر واصطنعهم وحجر على هشام المؤيد ولم يبق له من الامر الا الاسم وامر بالدعاء باسمه على الممار عقب اسم الخليفة وصار شابه معه شأن ابن بويه مع المظيع او الطائع العباسي بل أعظم من ذلك واجاز الى العدو وضرب بين رؤساء البربر فاستوثق له ملك المغرب وملك العدوتين وقهر جميع الاعداء وله الغزاة المشهورة في بلاد غابسية الى شنت ياقيب (سان جاك) التي وصل بها الى مالم نطاء رجل مسلم من بلاد الافرنج وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم وهو منصرف من العزو وحكي أنه مكتوب على قبره هذان البيتان

آثاره تنبيك عن اخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الرمان مثله كلا ولا يحمي الثغور سواء

وكان ملكه سبعا وعشرين سنة

واخباره ونوادره تحتمل مجادلات وأكبرها مسند في التواريخ وكتب الأدب وقد افرد ابن حيان لآثاره في الحزم والكيده والجد تالفاً وخلفه ولده عبد الملك المظفر ابو مروان وكان مفتقياً اثره في الجهاد وملك سبع سنين وخلفه أخوه عبد الرحمن وكل منهم حجر على هشام لكن هذا لا خبر أحب ان يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة وأجبر هشام على ان يولييه عهده واكنه قتل وانتهى به ملك العامرين كما اشرنا اليه

عميد صنهاجة لوقته زاوى من بني حبوس فكان هو وقومه من صنهاجة وزناته مادة لاولاد المنصور بن أبي عامر إلى ان همت القرشية ومن اليهم من المضرية باعادة الملك إلى نصابه وتمخضت الحال بالفتنة وثار اهل قرطبة على ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من اعقاب الخلفاء ولقبوه بالمهدي بالله وكان عبد الرحمن بن المنصور بالشعر فنقل إلى الحضرة وانقض عنه جمعه وخذله حزبه حتى البربر انصار دعوتهم بما تقوموا عليه من سوء تدبيره، ثم ثب عليه ثلثا ثلثين واحتز رأسه وحمله إلى المهدي وانقرضت دولة العامريين كأن لم تغر بالامس

وبعد أن ادبل ثانية لبني امية تذكر اشياهم من انتصار العامريين بالبربر وتسليحهم بهم ما اسخبل على هؤلاء القلوب وثار بهم الدهماء فتهبوا دورهم وانقموا منهم فذكروا ما أصابهم إلى المهدي وكان واجداً في نفسه مثلما وجد الناس فغض الشرف عن اسماءهم فتمشت رجالاتهم بالتحريك وامروا النجاري في تقديم هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر ففشا الامر وعوجلوا عن تصديقهم وأحضروا هشام وأخوه وبكر بن يدي المهدي فضربا عنقهما وزعن ببربر عن قرطبة فنحى بهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر وبايعوه واقتبوه بالمستعين بالله واجتمعوا حوله بظاهر قرطبة ثم نهضوا إلى طليطلة واستجاشوا بابن الاذفونش ونهضت البرابرة والنصرانية إلى الواحد إلى قرطبة فبرز المهدي إلى لقائهم في جمهورها فانهمز ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ولحق المهدي بطليطلة واستجاش بابن الاذفونش أيضا وكانت القضية

بالتناوب وكان هذا عدد منهم كل من استجاش به توسيعاً للزكاة فجاء بينهم،  
وكر المهدي على قرطبة بكشف عنها المستعين ومنه تفرقوا في البلاد للبيث  
والفساد، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابنه، لاذفونش فاجتمعوا لهما وكرروا  
عليهما ما كان من معهما من الاسلام والصراية، ودخل المهدي قرطبة  
مدحوراً ويؤس من الفوز، فأخرج هشام المؤيد الخليفة كان قبل الفتنة،  
وأقام في حجابته ظناً بأن ذلك يجمع الكلمة ويقال من غرب أمته فلم يقف  
ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم وأداموا الحصار فقام عامة قرطبة وقتلوا  
المهدي بحجة أنه هو سبب الفتنة فلم يجدهم ذلك في التنفيس عن خناهم وبقي  
المستعين بمصر حتى دخل قرطبة ومن معه وقتل هشام سرّاً، وعاث  
البربر في الخسرة ونهبوها، انزلوا المعركة بذوي الصون والسترة ببولتها،  
ثم وثب البربر على هذا الغلب على المدن العظيمة فولوها ونزلوا في المقدم  
الذكر بغرناطة من القواعد وهي محل الشاهد، اتخذها داراً ومعتصماً له  
ولقومه ثم خشي ثورة الاحقاد ووثب أهل الاندلس على البربر فقتلوا  
المغرب ولحق بقومه في القيروان واستخلف على غرناطة ابنه فثبت بينه  
وبين الغرناطيين ما اوجب انقضاءهم عليه فبايعوا حبوس ابن عمه فتأثر  
أمره وصار من اعظم ملوك الطوائف الاندلس وبعد وفاته سنة تسع  
وعشرين واربعمائة ولي ابنه باديس واقب بالمظفره زحف اليه العاصري  
صاحب المربة لقيه باديس بظاهر غرناطة فمزقه وقتله وتمت شوكرته  
وعظم ساطته حتى خلب نصرته جميع ملوك عاصره واستنجد به محمد بن  
عبد الله البرزالي في دفاع ابن عباد واستمدد النادر بن ذي النون في  
ما صبه أيضاً وشاد باديس في غرناطة القصور ومرتد الصروح . وسنة

تسع وأربعين عند انقراض بني حمود أصحاب مالقة أضافها الى عمله وتوفي سنة سبع وستين وحلفه حافده عبد الله بن بلكين بن باديس وعقد لآخيه تميم على مالقة وكانت ظهرت دولة المرابطين وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الاندلس ونزل بقرطبة سنة ثلاث وثمانين فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم ونفاها الى بر العدو وانزلهما السوس الاقصى فهلكا وانقضت بهما تلك الامارة

### رجع الى أخبار قرطبة

لما استقام الامر للمسلمين بوساطة البربر خرج علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس من المغرب وأجازا الى الاندلس وادعيا الخلافة واعصوا صب حولهما البربر وانصروهما على المستعين الاموي صاحبهم الاول فقتلوه وثلوا عرش بني امية سبع سنين ، وجرى بينهم اثناء هذه المدة حروب ووقائع ليس هنا محل شرحها وتلقبوا بالقبائل الخلفاء وتغلبوا على الامصار ، لكن لم تطل مدتهم فان آخرهم كان الواثق توفي سنة خمسين وكان أهل قرطبة أعادوا الخلافة الى نصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ولقبوه بالمستظهر وبعد شهرين من خلافته ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر واتبعه العامة ففتك بالمستظهر واقام مكانه ولقب بالمستكفي وهو والد ولادة الادبية الشهيرة صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله . وبعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفي رجع الامر الى المعتلي يحيى ابن علي بن حمود وكان أهل قرطبة أكثر الناس تشغيبا



وأقلهم ثباتاً على الأمور فخلعوا المعتلي وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد ابن جهور كبير قرطبة لهشام بن محمد الاموي أخى المرتضى وكان في (لاردة) عند ابن هود ولقب بالمعتمد بالله ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام قضى أكثرها متردداً في الثغر حتى خلعوه سنة ٤٢٢ وانطوى بساط الدولة الاموية وانتثر سلك الخلافة وصار الامر الى رؤساء وزراء وقضاة استقل كل منهم بما أمكنته يده وصار يتظاهر بعضهم على بعض بملوك الافرنج ويستجيشون بهم في الاحايين ويمكنونهم من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار وإيثاراً لهوى الانفس على مصلحة الملة

ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقبوا بملوك الطوائف بنو عباد من سلالة المنذر بن ماء السماء الاخمي كانوا ملوكاً بأشبيلية وغرب الاندلس وانتزعوا قرطبة من يد بني جهور أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتمد بن المعتضد الشهير بالادب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في آخر أمره أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان قد استفحل أمره بالاندلس وعلت يده على بقية ملوك الطوائف وخطبوا نصره وغلوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد وجدده في صعوده، حتى أسره بن تاشفين في خبر سيأتي ونكبه النكبة التي ضل بمثلها التاريخ بعد نكبة البرامكة وتوفي مسجوناً باغصات سنة ٤٨٨ ومن ملوك الطوائف بنو ذي النون أصحاب طليطلة وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الاستفحال والترف وجاهدوا في الثغور جهاداً كان الصبر مقامه وغلبوا المعتمدين عباد على قرطبة وقتلوا ولده أباعمر ووزعوا بلنسية من يد ابن أبي عامر الى أن أدرك دولتهم الضعف بعد القادر بن ذي النون، واستلم بن الاذفونش منهم طليطلة

مقر ملكهم وشرط المظاهرة عز أهل بالذسية فأجابوه: تغلب الاسبانبول  
على الارض واكتدحوا بسائدها، وقادوا أنبيها، وأذلوا عتبتها، وفي ذلك  
قول بعضهم يندب طيطة :

لشكك كيف تبدسم الثغور	سرور آبد ما تمست ثغر
أما وابي مصابته منه	تبير لادين فانصل اشير
لاند مصمت ظهور حين قالوا	أدير الكاشحين له ظرر
ترى في الدهر سرور بعيش	مضى عنا لطيته السرور
أبس بها أبي النفس ثم	يدور على الدوائر إذ تدور
أقد خضعت رقاب من لبا	وزل عثوها مضي "نفور
وهان على عزيز القوم ذ	دسامح . الحريم فني غر
طابطة أباح الضد منها	حماها از ذ نبا كير
فبس مثالها وار كسرى	ولامنها الخورنق والسدير
بمينة محنة بعيد	تمامها و طابها عير
ألم تلك مة لا لادين صعبا	فذاله كما ماء السدير
وأخرج أهلها منها جربا	ففساروا حيث ما بهم
مننت دار اياز و لم	ما اتي طاست قير
مساكها كئاس أي قاب	على ما بير و بير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا	يكر ما تكررت الدهر
ينتر كل - و ايس يعلى	لى يوم يكون به السور
أدبات قاصات الطرف كانت	مصونات مساكنها القور
أدركها فتر	السرب في لوانها وتور

وكان بنا وبالقيننا ، ألى  
لقد سخطت بالذين عين  
لئن غبنا عن الاخوان اذ  
نذور كان الايام فيهم  
غان قلنا العقوبة أدركتهم  
فانا منهم وأشد منهم  
ومنها

خذوا مار لديانة وانصروها  
ولم تهنوا واصلوا كل عضو  
وهوتوا كلهم فالمرت ألى  
أصبراً بعد بي دامت جان \*  
فام للصبر مذكور بلود  
ومنها

كفى حزنا بأن الناس قلوا:  
انترك دورنا هتتر سنها  
ولاشتم الشياخ زروف حسدا  
وظل وارغب وخبر ماء  
ويؤكل من فرا كهاطري  
يؤدي مكرم في كل شهر  
لقد ذهب اليقين فلا يقين  
رشدنا بالرق بالله ما ذا

لو انضمت على الكل القيور  
وكيف يصح مغلوب قريور  
بأحزان وأشجان حضور  
بهماسكم فقد وفت النذور  
وجاءهم من الله النكير  
نجور وكيف يسلم من يجور

فتدحامت على القتلى النصور  
تهاب ضاربا عنه النحور  
بكم من أن تجاروا أو تجوروا  
يلا م عليهم العلب الصبور \*  
وام الصقر مغلاة زور

الى أين النحول والمسير  
وليس لنا وراء البحر دور  
نباكرها فيعجبنا البكور  
فلا فرق هناك ولا تحرور  
ونشرب من جداولها غير  
ويؤخذ كل صائفة عشور  
زغر القوم بالله الغرور  
رأه وما أشار به مشير

مضى الاسلام فابك دما عليه      فما ينفي الجوى الدمع الغزير  
ونح وان دب رفاقا في فلاة      حيارى لا تحط ولا تسير  
ولا تنجح الى سلم وحارب      عسى أن يجير العظم الكسير  
أنعمى عن مرشدنا جديما      وما ان منهم الا بصير  
ولو أنا ثبتنا كان خيرا      وليكن ما لنا كرم وخير  
اذا ما لم يكن صبر جميل      فليس بنافع عدد كثير

ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود أصحاب سرقسطة واشهرهم  
المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وكان المزمع قائما على العلوم الرياضية وله  
فيها تصانيف وابنه المستعين أحمد هو الذي هزمه الافرنج في واقعة (وشقة)  
وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف واستشهد المستعين بظاهر  
سرقسطة سنة ٥٠٣ وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة وهو الذي اجلاه العدو  
عن سرقسطة سنة ٥١٢ وولي ولده سيف الدولة وله في الجهاد الموقف الذي  
لا يخفى . ومنهم بنو الافسط ملوك بطليوس الذين منهم المظفر صاحب  
التأليف المسمى بالمظفري في خمسين مجلداً وهم المرثيون برائية ابن عبدون  
المشهوره التي مطلعها

الدهر يفجع بمد العين بالانثر      فما البكاء على الاشباح والصور  
وذلك عند فتك البربر بالملوك البطاليوس . ومنهم بنو صامح بالمرية  
ومنهم مجاهد العامري بدانية والجزائر ومنهم بنو حيوس بقرناطة مكان  
الحاجة من الاستشهاد هذا ولما تكالب الاسبانيول على بلاد المسلمين في  
الاندلس واهتبلوا الغرة بما كان من افتراق الكلمة وتشعب السلطنة  
وملكوا بلنسية وطليلة وسرقسطة وغيرها وسار طاغيتهم حتى وقف

بفرضة المجاز من طريف وضرب على ملوك الطوائف انواع الجزى فأدوها واعطوه المقادة وكان اضخمهم ملاكا المعتمد بن عباد اللخمي صاحب اشبيلية يؤديها وهو صاغر فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد المعتاد فلم يقبله هاتيك المرة وأرسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة وتبقى السهول للمسلمين وإلافه ويرحف الى قرطبة، وكانت الرسالة مع جم وافرنحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعاً واعتزم القيام ففرق الجماعة على قواد عسكريه وأمرهم بأن يقتل كل من عنده وتولى هو بنفسه صفح عميدهم حتى خرجت عيناها وافلت منهم ثلاثة نفر فعادوا الى الاذفونش واخبروه بالخبر فرجع عن قرطبة الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويحلب بالقوة الكافية وهذه رواية ابن الاثير

وروى صاحب (الروض المعطار في ذكر المدن والاقطار) ما يخصه أن المعتمد تأخر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية فلما أرسلها استشاط الاذفونش غضبا وأرسل يطلب منه بعض الحصون وأمن في التجني وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب اشارة القسيسين والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة والزهراء، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وأمن في بنائها وجلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور الخ ذلك لتلد الاذفونشة بين طيب نسيم الزهراء فضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهوديا هو زير الاذفونش فأبى ابن عباد اجابة التماسه فراجعه وألح عليه حتى أياسه بما غاظله من القول فضربه المعتمد بحجرة كانت بين يديه فانزل دماغه

في حلقه وأمر به فصل منكوساً بقية ملية واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء فبادر  
 محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لعدم الرسل حدود الرسالة  
 واحتج بأنه إنما يادر بذلك خوفاً من أن يكسل المستد من منة العدة وبلغ  
 الخبر الاذفونش فأنهم : له اغزونه باشبيلية وليحصره في عقر داره  
 وجرد له جيشين أحدهما زحف الى كورة باجة فلباة تاشبيلية : الثاني تولى قيادته  
 بنفسه حتى التقى الجيشان تحت لوائه تبة قنسر ابن عباد على ضفة النهر  
 الاعظم وفي أيام قامه هناك كتب الى ابن عباد زارياً « كثر بطول مقامي في  
 مجلسي الذباب واشتد عليّ الحرقا تخفني من قصرك : وحتار برح بها على  
 نفسي واطرد بها الذباب من وجهي » فوتم له ابن عباد بخبره في ظهر  
 الرفة « قرأت كتابك وفهمت خيالك : استجابك رسائلك في مراوح  
 من الجلود اللطيفة تروح منك لا تروح منك ان شاء الله تعالى » وشاع  
 توقيع ابن عباد وفشا في الناس زومه على استنثار البربر لجماعة اعدوه فلما  
 علم بذلك امراته ملوك الدار ففهموا وتصوروا الامر ومنهم من  
 كاتبه ومنهم من شافه قائلاً : الملك عظيم والسيفان لا يجتمعان في غمد  
 واحد فأجابه ابن عباد بكلمته السائرة « رعي الجمال خير من رعي الخنازير »  
 أي أن يكون أكل ليويسف ابن تاشفين رعي جماله من الصعراء خير  
 من كونه ممزقاً للاذفونش أسير أعنه رعي خنازيره في قشلة وقال  
 لعذاله قولا آخر يا قوم اني من امري نلّي حالين حالة يقين وحالة شك  
 ولا بد لي من احدهما ما حالة الشك فان استندت الى الاذفونش أو  
 الى ابن تاشفين فمن الممكن أن يني لي ويكن أن لا يفعل وأما حالة اليقين  
 فاني ان استندت الى ابن تاشفين ارضي الذوان استندت الى الاذفونش

استخبط الله وهذه حالة يقين فلماذا ادع ما يرضى الله الى ما يسخطه  
ولما عزم المعتمد على الاستجاشة امر كلا من المتوكل بن الاقطس  
صاحب بطليوس وعبد الله بن حيوس صاحب غرناطة أن يوفدا قاضي  
الجماعة بحضرته واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن  
ادم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف اليهم  
وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن  
تاشفين وترغيبه في الجهاد وأسند الى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه  
في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية ( وقد وفى يوسف بالاولى  
ولم يف بالثانية )

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الاندلس لم تزل  
تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر مستعطفين مجهشين بالبكاء فما وفدت  
رسل ابن عباد حتي اسرع الاجابة وحشد العساكر وانزلها بالجزيرة  
الخضراء وأجاز على أثرها وامتألت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة وعلى  
رواية ابن خلكان انه أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع  
رغاؤها الى عنان السماء لم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم فصارت  
الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغاؤها وكان ليوسف في عبور الجمال رأي  
مصيب فكان يحدق بها عسكره عند الحرب وكانت خيل الفرنج تجمع منها  
ولما نزل يوسف بمحشوده في الجزيرة وبلغ الاذفونش تألب امراء  
المسلمين لمناهدته استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع  
القسييسون والاساقفة صلبانهم واجتمع له من الافرنجة والجلالقة مالا  
١٢ - خلاصة تاريخ الاندلس

يحصي عدده ، ويبحث الاذفونش الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف نجشم  
المشقة وخاض البحار وأنا أكفيه لعناء فيما بقي والقام في بلادكم رفقا بكم  
وكان مقصده في الدلوف الى ديار المسلمين انه ان دارت عليه الدائرة كان  
له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم وان كانت عليهم كان أقدر على  
النكاية فيهم في عقرتهم. ومما قيل انه كتب الى يوسف كتابا انشأه له بعض  
غواة المسلمين يغلظ له في القول ويتوعدده فأمر ابن تاشفين ولم يكن اعلم  
بالربية من الاذفونش كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه وكان كاتبا  
بدأ فكتب وأجاد فلما قرأه يوسف استطاله وأخذ كتاب الاذفونش  
كتب على ظهره الذي يكون ستره. وأخذ المعتمد وامراء الاندلس  
ابون لجيوش المرابطين الاقوات والضيافات

ولما قرب أمير المسلمين من اشبيلية خرج ابن عباد للقائه في  
وجوه اصحابه وعنده اتلاقيا صاحبا وتعانقا ثم شكرا انعم الله وتواصيا بالصبر  
والرحمة وتوسلا الى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه. ووافقت الجيوش كلها  
بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ولما تدانى الفريقة ان اذكى المعتمد  
عيونه في محلات الصحرا وبين خوفا عليهم من المكائد لجهلهم المكان وكان  
يوسف قد كتب الى الاذفونش يدعوهم الى احدى الثلاث وهي الاسلام  
أو الجزية أو السيف كما هي السنة فامتأ الاذفونش غيظا وقامت الاساقفة  
ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ووعظوا  
وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع السكتاب ، واصبح يوم  
الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول له غداً يوم الجمعة وهو عيدكم  
والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فاعلم ابن عباد السلطان



يوسف بذلك وإنها خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة فانتبه الجيش الاسلامي طول ليلة الجمعة واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحاً مسروراً يقول إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والشهادة فتأهب ودعا وتضرع وودهن رأسه بالطيب وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الاذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش وصيليل الاسنة وجاءت البيون من داخل محلتهم يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لاصحابه ابن عباد مسمر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب فهم جاهلون البلاد فاقصدوا ابن عباد واصدقوه الحملة فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين وقيل ورود الجواب غشيته جنود الاذفونش من كل جهة وهاجت الحرب وحى الوطيس وتبايع الناس على الموت وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد واستبطأ يوسف في النجدة وانكشف بعض اصحابه وأثنى جراحات وعترت تحت ثلاثة أفراس

ويئنا هو على تلك الحال أقبل عليه من قراد المرابطين داود بن عائشة وكان من الابطال فنفس عن خنافه وأقبل يوسف بجموعه وأصوات طبوله قدملاّت الفضاء فنهده اليه الاذفونش بمعظم جيشه فصدمهم ابن تاشفين بجندة فردهم الى مراكزهم، وانتظم بيوسف شمل ابن عباد وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد فتزلزلت الارض بحوافر خيلهم واطلم الجو من العثير وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد ونجدت الحملة

فانكشف الاذفونش وقيل بل تصادم الجمعان وتناوبا الكر والفر الى أن أمر يوسف حشمه من السودان فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق للمط وسيوف الهند ومزاريق الزان وأدرك الاذفونش اسود لصق به وقبض على عنانه وانتضى خنجر اثبته في فخذه فهتك حلق درعه، وهبت ريح النصر وأنزل الله السكينة على المسلمين وانكشف العدو من كل جانب وقد فشا فيه القتل والاسر واعتصم الاذفونش بخمسمائة فارس من قومه بربوة عالية انسابوا منها بعد تحميم الظلام وقد أباد القتل من الاسبانيول امة وجعل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشره النبي صلى الله عليه وسلم وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصودي وغيرهما من الاعيان

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم فنعنف عنها أمير المسلمين إشاراً لأهل الاندلس وعادوا جميعاً الى اشبيلية وحضرت الكتب من بر العدو الى ابن تاشفين تفتضي عزمه بالرجوع فعبّر البحر وودعه المعتمد. وهذه وقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الاسلام والنصرانية وقد استوفينا خبرها بمكانها من صدور الحوادث ووجدنا اختلافاً في تعيين عامها فابن خلدون يقول سنة احدى وثمانين (بعد الاربعماية) وابن علقمة يقول ان طليطلة أخذت يوم الاربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ وكانت واقعة الزلاقة التي نشأت في السنة بعدها. ولما قفل ابن تاشفين الى المغرب خف وراءه بالاندلس الامير سيري بن أبي بكر أحد قواده الكبار و معه جيش برسم الجهاد وابن خلدون يقول انه خاف محمد المعروف بابن الحاج فزحفت عساكر

المرابطين صوب بلاد العدو فاثخنّت وسبت وتوغلت في البلاد وكتب  
الى يوسف قواده: ان الجيش مقيم على مراس العدو وهو في أضيق العيش  
وأنكده وأن ملوك الطوائف متقاعدون يجرؤن ذبول الترف والترفة،  
وقيل بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم وتلاحق المكوس على  
رعيّتهم فأمر برفع الكثير منها فانقبضوا عنه الا ابن عباد في الاول فأمر  
ابن تاشفين بنقلهم الى بر العدو وقتال من عصى منهم فابتدأ ببني هود  
وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم وقتل ابن ذي النون صاحب بلنسية  
وملكها ونزل بني ظاهر بشرق الاندلس فاجلاهم وألحقهم بالمغرب، وقصد  
بطليوس وفيها ابن الافطس فانتزع منه جميع أعماله وأخذ غرناطة من  
بد عبد الله بن بلكين بن باديس ومالقة من يد أخيه تميم، ولم يبق عليه  
لا المعتمد بن عباد في اشبيلية وكان النعمان قد أفتوا أمير المسلمين بخلع  
لجميع لما رأوا من فرقته وسوء أحوالهم من تشعب أمور الملة، فكالب  
لعدو ووردت الفتاوى على يوسف من اعلام الشرق مثل الامام الغزالي  
والطارطوشي بوجوب ذلك

وكان ابن تاشفين لما ورد على المعتمد حضرته اشبيلية بعد الزلافة  
ورأى ما رأى من ترف المعتمد وسرفه في قصوره واسترساله الى  
حظوظ نفسه مما كانت ترغب عنه نفس ابن تاشفين الناشيء في  
الصحراء أنكر ذلك الامر وقال: ان هذا الرجل مضيع لما بيده  
وحكم بأن توفر هذه الاموال بين يديه لا بد أن يكون نتيجة المظالم  
والمغارم. والظلم وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعية، فأرسل سيري  
فأثمه يطالبه بالطاعة فلم يجبه فنأزله وحصر اشبيلية واستعجاش المعتمد

بالطاغية فلم ينفعه لما كان المرابطون قد فلوا من غربه فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعا مشهورا وخرج حاسرا عن مفاضته والسيوف في يده فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه فبادره بضربة أزهق به أروحه ولقي ثانيا فقصمه شطرين أنى أن وجد ابنه مالكاً مقتولا وبئس من الثبات فطلب الأمان فأجيب اليه وحمل على السفين منفيا إلى بر العدو فأسكنه يوسف اغيات وبها مات سنة ٤٧٠ ومن قوله عند ما خلم

ان يسلب القوم العدي	ما كي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	أن لا تحصني الدروع
وبرزت ليس سوى القم	ص على الحشى شيء دفع
أجلي تأخر لم يكن	يهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتال	وكان من أمني الرجوع
شيم الالى أنا منهم	والاصل تتبعه الفروع

والمعتمد بن عباد ينتمى إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي وفي ذلك يقول أحد الشعراء

من بني منذر وذاك انتساب	زاد في نخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي (١)	والمعالي قليلة الاولاد

ولم نعرفنا كتب الادب العربي بيت قيل فيه من الشعراء دار على أيام انسه ثم ادوار نحسه من المحاضرات. مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة

(١) وإلى هذه الشجرة ايضا ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بني غم أقوام كثيرون في الغرب والشرق ولا سيما بصعيد مصر

راجت فيها بضاعة الادب والفصاحة، وتناهت اليها غايات الكرم والسماحة  
أكثر من دولة بني عباد؛ حتى قال ابن اللبانة أن الدولة العبادية بالاندلس  
أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل ولذلك ألف  
فيها كتابا مستقلا سماه (الاعتماد في أخبار بني عباد) ولا يلتفت لكتاب  
عقور نبح بقوله

مما يزهدني في ارض اندلس      ألقاب معتمد فيها ومعتضد  
اسماء مملوكة في غير موضعها      كالحريحي انتفاخا صورة الاسد  
لان هذه مقالة متعسف كافر للنعم، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر، وما  
زالت الاشراف تهجي وتمرح انتهى. وأخبار المعتمد واشعاره وامداح  
الشعراء فيه، وفريقات القصائد في مراثيه، ملء كتب المحاضرات، وهي  
غرر قصص المسامرات

غزا يوسف بن تاشفين الاندلس أربع مرات اخرهن سنة ٩٧٠م وانتظمت  
جميع ديار الاسلام فيها بملكه وانقرضت ملوك الطوائف  
واتسع سلطانه بالعدوتين وورد له التولية من الخليفة المستنصر العباسي  
وتوفي على رأس المائة الخامسة وقام بالامر بعده ابنه علي بن يوسف وسلك  
سنن أبيه في الغزو والجهاد وأجاز الى الاندلس سنة ثلاث ونازل طليطلة  
وانحن في ديار العدو وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس وأجاز معه  
الزبير بن عمر في جيش وعقد لابي بكر بن ابراهيم المسوقي على شرق  
الاندلس وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراء الاندلس شعرا ومخدوم  
الحكيم المعروف بابن الصائغ وولي ابن غانية الجزائر الشرقية ميورقة  
ودانية ولاربعة عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت القائم بدعوة

الموحدين آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر والتفت عليه المصادمة وتوفي سنة ٢٤ وقام بالامر بعده عبد المؤمن بن علي كبير اصحابه وانتسبت الدولة اليه فقبل دولة بني عبد المؤمن فلم يزل يسعى في تقويض خيام ملتونة ومحو آثار المرابطين حتى ملك اكثر المغرب منهم وكان علي بن يوسف قد مات وخلفه ابنه تاشفين فصعد الى الموحدين بكهف الضحالك بين الصخرتين من جبل تيطري فانهمزمت صنهاجة وفر تاشفين الى وهران لاجتباب ابن ميمون قائد البحر ومات سنة ٤١ وبويع في حضرتهم مراکش لابنه ابراهيم وكان ضعيفاً عن حمل الامر فأدبيل منه لعمه اسحق بن علي بن يوسف وعلى تفيئة ذلك نازل الموحدون مراکش وملكوها وقطعوا دابر المرابطين وانعطفوا نحو الاندلس سنة ٥٥١ فانزعوها من أيدي عمالهم مدينة مدينة وحصنا حصنا بمد حروب تساجلت بها فئة المرابطين والموحدين وانتهت بالفتح لهؤلاء

وطالب الثوار الامان من عبد المؤمن وتلاحقوا به فصفح عنهم ونهض الى سلا سنة ٤٥ واستدعى أهل الاندلس فبايعوه جميعاً وكان ميمون ابن بدر اللامتوني في غرناطة فنزل عنها له ولحق بمراكش ونازل السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن المريّة وكانت يومئذ في يد الاسبانيول فاستنزلهم منها وتولى ابنه الآخر السيد أبو يعقوب اشبيلية بطالب اشياخها وزحف صاحب طليطلة الاسبانيولي بجميع الاكفاء لها الى قرطبة فسرّح جيوش الموحدين الى مقابلته فارتحل عنها

وكان الامير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش قد ثار عليه بشرق الاندلس فكتب الى عماله بالاندلس بما يتيسر له من فتح

افريقية وأنه عابر اليهم وكان ولداه أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة  
 زائرين فانتهاز الفرصة ابن همشك من اشباع اللمتونيين واستولى على  
 غرناطة وانحصر من فيها من الموحدين بالقصبة فنهض عبد المؤمن الى  
 سلا وارسل ابنه سعيداً وضم اليه ابن أبي حفص عامل اشبيلية من قبله  
 لاجل استنقاذ غرناطة فهزمهما ابن همشك ورجع أبو سعيد الى مالقة  
 فأعادها الى غرناطة وعززها بثالث هو ابنه الآخر السيد أبو يعقوب  
 في سواد من الموحدين فوصلوا الى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيس  
 مدداً لابن همشك وظاهرها النصاري فازدلف الفريقان بعضهم الى بعض  
 بفحص غرناطة فدارت الدائرة على ابن همشك وأحلافه ففر ابن مردنيس الى  
 الشرق مكانه ولحق ابن همشك بجيان ودخل السبستان ولد عبد المؤمن قرطبة  
 سنة ٨٥٥ توفي عبد المؤمن بن علي رأس الموحدين وقام بالامر بعده  
 ولده أبو يعقوب وبايعوه كافة وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيس قرطبة  
 ومعه جموع من زغبة وغيرها فارسل السيد أبا سعيد صاحب غرناطة  
 والسيد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدين لمنازلته فالتقوا بفحص مرسية  
 فانهزم ابن مردنيس وأولياؤه من الاسبانيول وأقر أبو يعقوب أخاه  
 أبا سعيد على غرناطة وجعل أخاه السيد أبا اسحق على قرطبة وزحف  
 الاسبانيول على مدن المسلمين فخرج أبو حفص من راكمش سنة ٦٥٠ ومعه  
 جموع الموحدين وأخوه أبو سعيد فوصل الى اشبيلية وأرسل أخاه أبا سعيد  
 الى بطاليوس وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانهقد الصلح مع الاسبانيول  
 ونهض الموحدون الى مرسية لتأديب ابن مردنيس الثائر ورافقهم ابن  
 همشك حليفه بالامس لوحشة وقعت بينهما حملات هذا على أن يبعث الى

أبي حفص بطاعته وتوحيده فخرصر ابن مرداس في مرسية وأطاع أهل  
الورقة وخضع ابن عمه صاحب المرية فخصه بالجناحه وتوافت عند  
الخليفة بمراكش جموع العرب فقبض بها إلى اندلس واحتل قرطبة سنة  
٥٧٠ هـ ثم اشبيلية وكان ابن مردنيش قد هلك في الحصار فادعن أولاده  
للخليفة وقربهم إليه وصهر لطلال بن محمد بن دنيش في بنته وأقرأه  
أبا سعيد على غرناطة وخرج "توماس" إلى  
اليهم وأوقع بهم في قلعة رباح ورجع إلى أشب  
عليه وتوغل في بلاده وفرق جموعه وقبض على  
من إجازته إلى الاندلس ونوي السيد أبو سه  
لابي زيد بن أبي حفص على غرناطة وأخيه  
وسنة ٧٥٠ عقد لقائم بن محمد بن مردنيش  
ورجع وانتقض الاسبانيول شنة ٨٠٠ نزلوا قرد  
غرناطة ومالقة وصددهم الموحدين من الاند  
أخو الخليفة فكدهم أجاز الخليفة ثانياً لآل  
سنة ٨٠٠ فغزا سنتمر بن وائلاء صارها أو  
سهم أصابه من جهة العدو ورجع إلى مرسية  
يزل في الجهاد وأختر في العدو وأجاز في مرسية  
العدو وإيقاعه بالمسلمين وتغلبه على شنب ٥٨٠ هـ  
مصودة ومنها أجاز إلى طريف وحصر شاب  
فاقتحها ودانت له البلاد فقل إلى المغرب  
ابن غانية الذي كان والياً في ميورقة فلم تكده به تستقر هناك حتى بلغه





عظيما وقطع طريق البحر على الافرنج وهو السلطان الذي يروى انه زهد في آخر حياته وترك الملك وساح في الارض حتى وصل الى الشام ومات ودفن في البقاع والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب والمحققون على أن هذه الحكاية لا اصل لها وجزم ببطلانها الشريف الغرناطي وقال انها من اوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور

وتولى الامر بعد المنصور ابنه محمد ولقب بالناصر وفي أيامه خرج الاذفوناش وعثا في بلاد الاسلام فجمع الناصر جموعا لا قبل بها لاجل الجهاد قيل نحو ستمائة الف مقاتل والتقى بالافرنج فيهم ابن اذفوناش وصاحب برشلونة فكانت الوقعة المسماة بالعقاب التي لم يبق بعدها للمسلمين في تلك البلاد البلاد قائمة بدماء وهلاك فيها اكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرخين فقليل لم ينج منهم غير الالف وهو بعيد عن التصديق وكان وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره وزعم أن الافرنج بعد الكائنة أغاروا على بلاد المسلمين فاقبضهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فزمرهم وانتعش الاسلام

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر وكان حديث السن فانصرف عن تدبير الامور الى العبث واللهو وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة

وتوفي المستنصر فبويع عبد الواحد اخو المنصور ولم يكن يحسن التدبير فانتهز عليه العادل المذكور وبايعه اخوته الذين كانوا على مدن الاندلس وتم له الامر ولكن زحفت اليه الافرنج وأطلقوا الغارة

في البلاد فتصاف معهم فانهزم وأصيب المسلمون فأجاز الى المغرب وخلف على الاندلس أخاه أبا العلاء ادريس

ثم خنق العادل بمراسكش وبويع يحيى ابن الناصر وهو صغير فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور وبويع بالاندلس ثم في المغرب لكن انتقض عليه المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ودعا لبني العباس فقال اليه أهل الاندلس وأجاز أبو العلاء الى المغرب ينازع يحيى بن الناصر وتعاضمت الفتنة بينهما واستبد ابن هود بما وراء البحر ودخل الوهن دولة الموحدين ومات أبو العلاء وكان يلقب بأماون سنة ٦٣٠ وتولى بعده ابنه الرشيد وفي مدته ظهر ابن الأحمر صاحب غرناطة وأرسل اليه بالبيعة وتوفي سنة ٤٠٠ وقام بالامر أخوه السعيد فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٦٤٠ وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناتة واعصوب حولهم البربر واجتمع العرب علىبيعة عمر بن ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي ولم تمض مدة من خلافته حتى انتقض عليه ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لخاف تمكن بينهما وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران ولحقا يمعقوب ابن عبد الحق المريني الثائر على دولتهم وما زال النزاع قائماً حتى غاب أبو العلى المذكور وكان يكنى بأبي دبوس على مراسكش ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولاً ثم قتله واستقل بالامر وثلث بالوفاق ونهض اليه يعقوب بن عبد الحق ببني مرين وحزبهم فخرج أبو دبوس من مراسكش لدفاعه فاصطادت الحرب في وادي أغفر وانهزم الموحدون وقتل أبو دبوس ودخل بنو مرين

مراكش وانقرض ملك بني عبد المؤمن وكان ملكاً كبيراً وذلك عام ٦٦٨  
والبقاء لله

أما يعقوب هذا فهو ابن عبد الحق بن محيو بن محمد بن حمادة بن  
محمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين من بني واسين. كان جده  
محيو زعيماً لبني مرين وحضر وقعة الأرك مع الموحدين وأصابته فيها  
جراحة توفي منها فتم بالرياسة بعده ابنه عبد الحق فوافق ظهوره دخول  
الضعف على دولة بني عبد المؤمن فسمت نفسه إلى انتزاع ملكهم وتأذن  
الله بنصره في جملة مواطن إلى أن هلك في إحدى وقائعهم وأمره لما  
يستم وخلفه ابنه يحيى فلك فاس في خبر ليس هنا شرحه ومهدلاً عتابه  
القواعد وخلفه أخوه يعقوب المذكور فدخل مراكش حضرة الموحدين  
واستأصاهم ومن هناك استقل بالأمر بنو مرين

وأما الأندلس فعند ما الناث أمر الموحدين بالمغرب تمتشت فيها  
رجال العرب باخراج السادات الموحدين واستبد بالأمور ابن هود  
وابن مردنيش وخرج على ابن هود رجل يقال له محمد بن يوسف من  
بني نصر ويعرف بابن الأحمر بخاذبه الجبل وكانت أسكن منهما دولة أورثها  
أعقابها وأسكن آل الأمر أخيراً إلى انحصار تراث الإسلام بالأندلس في  
ذرية ابن الأحمر على ما سيأتي

## الفصل الثالث

في دولة بنى الأحمر اصحاب غرناطة

قال ابن سعيد: الضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان أو جوادا يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبير في عاقبة الأمر إلى يوم يؤمل. بعد أن يكون الملك في مملكة قد توورت وتداولت يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاة قدمه وملكه في حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطالبه، وأهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقتضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع. ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له (أرجونة) ويعرف الرجل بابن الأحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة إلى أن طار اسمه في الأندلس وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم حبس فملك قرطبة العظيم وملك أشبيلية وقتل ملكها الباقي وملك جيان أحسن بلد بالأندلس وأجله قدرا في الامتناع وملك غرناطة ومالقة وسموه بأمير المسلمين فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه انتهى (أرجونة) حصن من حصون قرطبة كان فيه قوم يعرفون ببني نصر

بقتسبون الى سمد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله عنهم وكان عميدهم الآخر درلة بن عبد المؤمن محمد بن يوسف بن نصر ويكنى بأبي دبوس ويقال له الشيخ وغلب عليه لقب ابن الاحمر وكان له أخ اسمه اسماعيل وكانت لهم وجاهة وكلمه عالية في تلك الجهة فزال يتقدم من حالة الى حالة حتى أحس من نفسه الكفاءة للاستقلال فثار على ابن هود سنة ٦٢٩ وأطاعته جيان وشريش واستفحل امره ثم اصهر الى الرؤساء بني اشقيلولة فتعزز بهم ، ثم لما خرج ابن هود من اشبيلية الى مرسية ثار بأشبيلية ابو مروان الباجي فداخله محمد بن الاحمر على ان يزوجه ابنته فأطاعه ودخل ابن الاحمر اشبيلية فلما تمكن فكك بابن الباجي واستولى مكانه غير ان اهل اشبيلية رجعوا الى طاعة ابن هود واخرجوه منها فتغلب على غرناطة اذ كان فيها ابن ابي خالد الذي ثار بدعوته وارسل اليه بيده فقدم عليها ولا ابن اشقيلولة وجاء على اثره فنزل بها وابتنى لنزوله حصن الحمراء التي لم يبن مثلها في البلاد وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥ وغلب بعدها على مالقة وبايعه اهل لورقة وتناول المرية من يد ابن الرميمي عامل ابن هود واخذ يضم الاطراف ويكتب السكتائب ويحصن الثغور ويؤوي المشردين واتخذ لقب الغالب بالله وضرب على سكتته وكتب على رايته ( لا غالب الا الله ) وصار ذلك علما لدولته فيما بعد وفي ذلك الدهر وهو القرن السابع للهجرة كان الاسلام اخذ يتقلص ظله عن الاندلس واصبح المغرب بما ادرك اموره من الاختلال وما اصاب اهله من اليأس من نصرة اندلس خصوصا بعد وقعة العقاب عاجزا عن امدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين

والموحدين هاتيك الدول الكبار فتقدم الاسبانيول من كل جهة وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية وجيان وغيرها وصاروا يقطعون كل يوم كورة ويحذفون من مملكة الاسلام حصنا الى ان ألجأوا المسلمين الى سيف البحر من رندة من الغرب الى الشرق نحو عشر مراحل فقط وتكلم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم :

حنوا رواحكم يا أهل أندلس	فما المقام بها إلا من الفلـط
السلك ينثر من أطرافه وارى	سلك الجزيرة منثور آمن الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف الحياة مع الحيات فى سـفـط

والذي يلاحظه القاريء من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الاخير بنحو القرن وكان يشير الى مآله بمشاهدة مقدماته وابن الخطيب الذي من جملة وصيته لاولاده عدم الا كثار من تملك الارض واعتقاد المقار في بلد مثل الاندلس دار قلعة ومنزل غربة—ان عتلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان لتكالب الاسبانيول على البلاد من كل جهة وظهور الفرقة بين أمراء الاسلام وانقطاع مدد المغرب شيئا فشيئا كما سيتضح من مجرى الحوادث

وكان بقية السيف من المسلمين والذين قد غلب على ديارهم العدو صائرين الى احدى ثلاث خصال: اما أن يلبثوا في ديارهم خائعين لسلطانهم على شروط قررهما مع بعضهم في البداية وقيل لهؤلاء «المدجنون» من التدجين أي التأليف والتأديس—واما أن يجهزوا الى بر العدو فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاءوا—واما أن ينحاشوا الى مملكة غرناطة لتكونها أندلسية ومجاورة لمساقط رؤوسهم ومنابت أسلهم حيث

لم تنزل آمالهم بالكرة منوطة ، وعزائهم على ادراك الاوتار مشدودة ،  
 وحب الوطن من الابدن . وقد كان في احياس المهزمين الى أعمال ابن  
 الاحمر منعة لسلطانه وشدة لازره بسطة الملك ، فأمكنه الكرة المنصورة  
 على العدو والاثمان في بلاده كما يقول صاحب نفح الطيب من انه لما  
 أخذت القواعد الانداسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية نحاز  
 أهل الاسلام الى مائة وغرناطة والمرية ونحوها ، وملك هذا النذر  
 ملوك بني الاحمر فلم يزانوا في تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن  
 عاصم قريباً وربما اتحنوا في العدو كما علم من أخبارهم وانتصروا بملوك  
 فارس في بعض الاحايين وقال : لما قصد ملوك الافرنج السبعة في المائة  
 الثامنة غرناطة لباخذوها اتفق أهلها على أن يمشوا لصاحب المغرب من  
 بني مرين يستجدونه وعيوا الرسالة انشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي  
 والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم  
 نازل الافرنج غرناطة بخمسة عشر ألف فارس ومائة ألف راجل ولم  
 يوافقهم سلطان المغرب مضى الله ببركة المشيخ الثلاثة فكسر الافرنج  
 في الساعة التي كسرها في حياضهم سلطان المغرب وكانت بذلك كرامة  
 لسيد أبي عبد الله الطنجالي انتهى

وزعم بعض المؤرخين أن سبب فشل الريمح بالاندلس تقاطع  
 المسلمين من أهلها واقبالهم على لذات واهملهم أمور الجهاد في كثير  
 من الاماكن حتى نفاك ابن الافرنج لما قصدوا بالندسية سنة ٤٥٦ خرج  
 للقائهم أهلها بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر لفومه :  
 لبسوا الحديد الى الوغى وابستهم حلال الحرير عليكم ألوانا



ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن يبطئة ما كانا  
وقالوا انه لما تغلب العدو على طيطلة من جملة اغمه الفرنج  
من الجيش الذي حاربهم الف غفارة نفيسة خارجا عما سواها من الحلل.  
ولما ذكر ابن حيان تغلب العدو على بربشتر القريبة من مرقسطة بالشعر  
الاعلى سنة ٤٥٦ وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة  
التي تقطر لها القلوب دما وتذير العيون من مطاميرها في التواريخ قال قد  
أشفينا بشرح هذه الحالة القادمة بحساب جارية مؤذنة بوشك القلعة، وقال  
من جملة تغلب أهل الاندلس ان العدو أحاط عليهم بجوس خلال الديار  
ويكتسح البسائط ويقطع كل يوم طرقا ويبدأه والباقيون منهم صموت  
عن ذكر اخوانهم، لهامة عن شهر، ما يسمع بمسجدهم، ساجدهم مذكر لهم  
أو داع، فضلا عن نافر انهم أو ماش. قال حتى كأهم ليسوا منا أو كأن  
بشقمهم ليس بمفض اليها انتهى

بلى والله لقد أفضى بشقمهم الى الجميع وهذا قول ابن حيان في القرن  
الخامس وما مضى على ذلك قرن حتى أفضى البقي الى قرطبة وطنه والله  
الامر أجمع وأخذ الاسبانيل تطيلة واختها طرشونة سنة ٥٢٤  
ومكنهم المسلمون انفسهم بسبب اختلاف ملوك الدوائف من بالنسية  
المره الاولى سنة ٤٨٨ الى ان استردها يوسف بن تاشفين بعد سبع  
سنين من اخذها وقدم عليها يحيى بن غانبه الملقب، وفي المائة السادسة  
صارت الى يد ابن مردنيش ابي عبد الله ملك شرق الاندلس فقدم  
عليها اخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ولما تكالب العدو على  
الاندلس في اواخر دولة بني عبد المؤمن كان المدافع عن بالنسية

الامير زيان بن ابي الحملات بن ابي الحجاج بن مردنيس فاضطر الى  
الاستغاثة بصاحب افريقية ابي زكريا بن ابي حفص من دولة الموحد بن  
واوفد عليه بالرسالة ابا عبد الله بن الابرار القضاعي الحافظ الكاتب  
الشهير فقام بين يدي السلطان بنونس وانشدته قصيدته السينية الفريدة .  
أدرك بخيلك خيل الله أندلسا      ان الطريق الى منجاتها درسا  
وهب لها من عزيز النصر ما التمت      فلم يزل منك عز النصر ملقعا  
وحاش مما تعانيه حشاشتها      فطالما ذافت البلوى صباح مسا  
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا      للحادثات وأمسى جدها تمسا  
في كل شارقة إمام بارقة      يعود مأتمها عند العدى عرسا  
وكل غاربة اجحاف نائبة      تثني الامان حذارا والسرو رأسي  
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم      الا عقائلها المحجوبة الانسا  
وفي بلذسيه منها وقرطبة      ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا  
مدائن حلها الاشرار      جذلان وارحل الايمان . بتمسا  
وصيرتها العوادي المائشات بها      يستوحش الطرف منها ضف ما أنسا  
يا للمساجد عادت للعدى ريسا      وللنداء يرى اثماءها جرسا  
لحفي عليها الى استرجاع قائتها      مدارسا للثاني أصبحت درسا  
وأربما نعمت أيدي الرقيم بها      ماشئت من حلال . وشية وكسا  
كانت حداثق للاحداق . ونقة      فصوح النضر من ادواحها وعسا  
وجال ما حولها من منظر عجب      يستوقف الراكب او يستركب الجلسا  
سرعاناءات جيش الضدوا حربا      عيث الدنيا في . مغانيها التي كبسا  
وابتز بزتها مما تحيفها      تحيف الاسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها نضراً  
 محاسنها طاعاً أتيح لها  
 ورج أرجائها لما أحاط بها  
 خلا له الجو وامتدت يداه الى  
 صل حبيلها أيها المولى الرحيم فما  
 واعي ما طمست منها العداة كما  
 أيام صرت لنصر الحق مستبقا  
 وقت فيها بأمر الله منتصراً  
 تمحو الذي كتب النجسيم من ظلم  
 وتقضي الملك الجبار مهجته  
 هذه رسالتها تدعوك من كذب  
 وافتك جارية بالنجع راجية  
 خاضت خضارة يعليلها ويخفضها  
 وربما سبحت والريح عاتية  
 تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي  
 ملائكة تقلدت الايام طاعته  
 من كل غاد على يذاه مستلماً  
 مؤيداً لو رمى نجماً لاثبته  
 إمارة يحمل المقدار رايتها  
 يبدى النهار لها من ضوئه شديداً  
 كأنه البدر والعلياء هالته

وأين غصن حنيناه بها سلسا  
 ما نام عن هضمها حيناً وما نسا  
 مغادر الشم من أعلامها مخنسا  
 ادراك ما لم تطأ رجلاه مخنسا  
 أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا  
 أحييت من دعوة المهدي ما طمسا  
 وبت من نور ذاك الهدى مقبسا  
 كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا  
 والصبح ماحية أنواره الفلسا  
 يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا  
 وأنت أفضل مرجو لمن يثسا  
 منك الامير الرضى والسيد الندسا  
 عبا به فتعاني اللين والشرسا  
 كما طلبت باقصي شدة الفرسا  
 حفص مقبلة من تربه القدسا  
 دينك ودنيا فغشاها الرضى لبسا  
 وكل صاد الى نعماء ملتصسا  
 ولو دعا ألقا لي وما احتبسا  
 ودولة عزها يستصحب القعسا  
 ويطلع الليل من ظلماته لفسا  
 تحف من حوله شهب القنا حرسا

تديره وسم الدنيا وما وسعت  
قامت على العدل والاحسان دواته  
مبارك هديه باد سكينته  
يرى العصاة وراش الطائعين فقل  
الى الملائك ينمي والملوك معا  
من ساطع النور صاغ الله جوهرة  
له الثرى والثريا خطبات فلا  
حسب الذي باع في الاخطار يركبها  
بشرى لعبد الى الباب الكريم جدا  
كأنما يمتطي واليمن يصوبه  
فاستقبل السعد وضاحا اسرته  
وقبل الجود طفاحا غواربه  
يا أيها الملك المنصور أنت لها  
وقد تواترت الانبياء لانك من  
فاوطني الهيلق الجرار ارضهم  
وانصر عيدا يا قصى شرقها شرقت  
هم شعبة الامروهي الدار قد نهكت  
فاملا هنيئا لك التمكين ساحتها  
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه

وعرف معروفه واسي الورى وأسا  
وانشرت من وجود الجود مارمسا  
ماقام إلا الى حسنى وما جلسا  
في الليث مفترسا والغيث مرتجسا  
في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا  
وصان صيقله أن يقرب الدنسا  
أعز من خطتيه ماسما ورسا  
اليه عياه أن البيع ما وكسا  
آماله ومن العذب المعين حسا  
من البحار طريقا نحوه ييسا  
من صفحة فاض منها النور وانعكسا  
من راحة غاص فيها البحر وانغمسا  
عزاء توسع أعداء الهدى تعمسا  
يحى بقتل ملوك الصفر انداسا  
حتى يحاطي رأسا كل من رأسا  
عيونهم ادمعا تبكي زكا وخسا  
داء آمني لم تبائر حسمه انتكسا  
جرداً سلاهب أو خطية دعسا  
لعل يوم الاعادي قد اتى وعسى

فهزت هذه القصيدة من الامير أبي زكريا عطف ارياح وبادر  
للاصر اخ بالاسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت أساطيل

العدو بينه وبين بالنسية فبقي في مرسى دانية واشتد الحصار على أهل بالنسية وهلك مناس جوعا فسلموا بلدتهم صلحا سنة ٦٣٦ وتسلمها جقوم ملك أراغون على شروط ، ضرب لأهل بالنسية أجلا مسمى لنقل امتعتهم ثم نكث العهد معهم وتجشموا من الذل والهون ، إلا يوصف ، وعصفت ريح الاسبانيول في أنظار الاندلس ، توافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل جهة واسفوا الى اقوادد وكان لهم سنة ٦٣٣ سبع محلات لحصار المسلمين محلتان على بالنسية وجزيرة شتر وشاطبية ومحلة على جيان ومحلة بلطارية ومحلة ترسبة ومحلة بلبله وكان أهل جنوة محاصرين ستبة وألح صاحب قشتالة عم مملكة ابن هود ففتح ثلاثين حصنا وزحف الى قرطبة فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته فسلموه مدينتهم وهي بالاندلس قبة لاسلام ، والمناظرة في الشرق دار السلام ، وخرجوا لا يحملون شيئا سوى ثيابهم التي على أبدانهم وجلاتهم أهل نقرى والحدون المجاورة بعد أن أفسد الطاغية زروعهم ، ودمريوتهم ، فعادت بقاع الخير قاعا صافصفا ، وبدلت تلك البلاد بالعمارة الخراب ، وبتغريد الهزار نعاب الغراب ، ومن الغرائب أنها بعد ان نانت تكفي الملايين من سكانها ، وتفيض عن ميرتهم خيراتهم ، صار الاسبانيول يجلبون اليها الميرة والذخيرة من نفس قشتالة والى الله تصريف الامور

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢ ثم استردها المسلمون وبقيت في يدهم الى ان استردها الاسبانيول ثانية في الكائنة الاخيرة وكان العدو أيضا اتولى على المرية سنة ٥٤٢ في وقعة شديدة استشهد فيها الامام الرشاطلي المحدث الكبير وكان لحيا في النسب ثم استرجعها الموحدون وبقيت في يد المسلمين

الى أن ذهبت فيما ذهب لآخر المدة

وملك العدو مارذة وبطليوس نحو سنة ٦٢٦ ومملك جزيرة ميورقة سنة ٢٧ وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥ وحصل هنالك وقائم قتل فيها شيخ المحدثين أبو الربيع الكلعي ثم في السنة التالية كان تسليم بالمنية وخرج ابن مردنيش عنها إلى جزيرة شقر فتعقبه العدو إليها فاخرجه منها فلاحق بدانية وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب افريقية ثم داخل أهل مرسية وقتل واليها أبا بكر بن خطاب وبعث ببيعتها إلى الحفصي أيضا ولم يزل في مرسية إلى أن غلبه عليها ابن هود فخرج عنها إلى ملنت الحصون سنة ٣٨ وبقي فيها عاملا لابي زكريا الحفصي أمير افريقية حتى انتزعا منه ملك برشلونة فلاحق بمولاه في تونس وانقرض أمره بشرق الاندلس والله وارث الارض ومن عليها

وفي هاتيك الايام كما لا يخفى كثرت القصائد في استنهاض الهم واستجاشة الحفائظ لتلافي أمر الاسلام بالاندلس وسارت أوابد الشعر في العدوتين بالاستنفار إلى الجهاد والاجابة لداعي الله . تسنم الجنة

فمن ذلك قول أبي جعفر انوشي البلنسي نزيل مالفة من قصيدة

ألا ليت شعري هل يمد لي المدي	فابصر شمل الكاشحين طريدا
وهل بعد يقضى في العدو بنصرة	تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب	يعيد عميد الخارجين عميدا
ويلقي على افرنجهم عبل كلكل	فيتركهم فوق الصعيد هجودا
يفادرهم قتلى وجرحى مبرحا	ركرعا على وجه الفلا وسجودا
ويفتك من أيدي الطغاة نواعما	تبدلن من نظم الحبول قيودا

وأقبلن في خشن المسوح، طالما  
وغير منهن التراب تراباً  
حقّ لدمي أن يفيض لأزرق  
ويالهف نفسي من معاصم طفلة  
ويا أسني ما إن يزال مردداً  
وآها بعد الصرت مننحبا على  
سحبين من الوشي الرقيق بروداً  
وخدّ منهن المهجير خدوداً  
تملكها دمع المدامع سوداً (١)  
تجاور بالقد الاليم نهوداً (٢)  
على شمل أعياد أعيد بديداً  
خلو ديار لو يكون مفيداً



ومن ذلك القصيدة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص  
صاحب تونس منذ أخذ بالذسية ومطلعها  
« نادتك اندلس قلباً نداءها »

ومنها:

صرخت بدعوتك العلية فاجبها  
هي دُرْك الفصوى أوت لا يالة  
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى  
مُدْفُوا لا بكا الخياطوب رُءُءِها  
وتنكرت لهم الليالي فافتضت  
تلك الجزيرة لا بقاء لها اذا  
رش أيها المولى الرحيم جناحها  
من عاطفانك ما يقي حواءها  
ضمنت لها مع نصرها ليواءها  
سبل الضراعة يسلكون سواءها  
فهم الغداة يصابرون عناءها  
سرّاءها وقضتهم ضراءها  
لم يضمن المتخ القريب بقاءها  
واعتمد بارشية النجاة رشاءها

« ١ » قوله لا زرق أى لمع أزرق العيينين وتكنى العرب به عن العدو  
« ٢ » الطفلة بفتح الطاء الغادة الناعمة والغد بكسر القاف السير من الجلد  
يربط به الأسير

أشفي على طرف الحاة ذ. وها  
حاشاك أن تقني حشاشتها وقد  
طاقت بطائفة الهدى آملها  
واستعرفت امصارها لامارة  
ياحسرتي لعقائل معقولة  
ليه بلنسية وفي ذكراك ما  
كيف السبيل الى احتلال معاهد  
والى ربي وأباطح لم تمر من  
طاب المرس والمقيل حالها  
بأبي مدارس كالطلول دوارسا  
ومنها:

مولاي هاك معادة أنبؤها  
جرد ظباك لمحو آثار العدى  
واستدع طائفة لامام اغزوها  
لاغرو أن يعزى الظهور للمة  
ان الاعاجم الاعارب نهية  
تالله لودبت لها أدبها  
ولو استعقت عوقها لقالمها  
أرسل جوارحها تبحث عبيدها  
هبطوا لها يامعشر التوحيد قد  
هي نكتة الحيا فخير لا بها  
فاستبق للدين الخفيف ذنعا  
قصرت عليك نداءها ورجاءها  
ترحو بيحي المرتجى احياءها  
عتدت لصر المستضام لوعدا  
سئم الهى نحو الصلال هداها  
يمري الشؤون داءها لاماءها  
شب الاعاجم دونها هيجهاءها  
حامل الربيع مصيفها وشتاءها  
وتدلت غرر المي اثناءها  
نسخت نوافيس الصليب نداءها  
لتنيل منك معادة ابناءها  
تقتل ضراغمها ونسب ظباءها  
تسبق الى أمثالها استدعاءها  
لم يبرحوا دون الورى ظهراءها  
مبها أمرت بغزوها احياءها  
لعلوت عليها أرضها وسماها  
لاستعبات بالمقرنات عفءها  
صيدا وناد لطحنرها أرحاءها  
آن لhibob. أحرزوا عليها  
تجدوا سبيلها فى غد وسناءها



في أزمة أو تضرروا إلقاءها  
 رهوا وجوبوا نحوها بيداءها  
 ساوت بها أحيائها شهداءها  
 وقفت عليها ريشها ونجاءها  
 آلاءها أو تحتلي آراءها  
 ما وقعه يتقدم استقاءها  
 متروك بفتوحها آناءها  
 ويحب في ذات الاله لقاءها  
 يشفي ضناها أو يعيد رواءها  
 وأبى عليها أن تطيع إاءها  
 هام الاعاجم ناسفا أرجاءها  
 تتسوغ الدنيا به سراءها  
 وافاده لالاؤها لاءها  
 ونضت بكف صفارها خيلاءها  
 فسما اليها حاملا أعباءها  
 قادت له في قديم أمراءها  
 لهده شرف وسمه أسماءها  
 فيزور زاخر موجه زوراءها

حاشكم أن تضرروا إلقاءها  
 خوضوا اليها بحرها يصح لكم  
 دار الجهاد فلا تفتكم ساحة  
 هذي رسائلها تناجي بالتي  
 وفدت على لدار المريزة تجتني  
 مستسقيات من غيوت غباها  
 وبحسبها أن الأمير المرتضى  
 بشرى لاندلس تحب لقاءه  
 صدق الرواة المخبرون بأنه  
 ان دناخ العرب الصواب بمادة  
 فكأن بفيلقه العرمم فاقا  
 لا يعدم لزن انتصار مؤيد  
 ملك أمد النيرين بنوره  
 خضعت جبابرة الملوك لعزه  
 أبقى أبو حفص أمارته له  
 قبضت يده على البديعة قبضة  
 فعلى المشارق والمغارب ميسم  
 تظمو بتونسها بحار جيوشه  
 ومنها:

فيها توقع للاستوف جلاءها  
 لارهوها يحشى ولا هو جاءها

تقع الجلائل وهو راس راسخ  
 كالطود في عصف الرياح وقصنها

## نونية أبي البقاء الرندي

﴿ في نكبة الاندلس ﴾

ومن مشهور ما قيل في ذلك نونية أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء  
الاندلس وهي متداولة بين الناس تعد من حفظ العوام فضلا عن الخواص  
وقد أثرنا هنا لكيلا يخلو منها ذيل جررناه على الاندلس

لـكـل شـيء إذا ما تم نقصانُ	فلا يغـر بطـيـب العيش اذ ان
هي الأمـور كما شـاهدتها دولُ	من سره زمن ساءتـه أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد (١)	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سائغة (٢)	إذا نبت مشرفيات وخرسان
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذي زن وانعمد غمدان
أين الملوك ذوة التيجان من أين	وأين منهم أذكـالـيل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم (٣)	وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكأن التوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك	كما كـي عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقائله	وأثم كسرى فما آواه ايوان

(١) وفي رواية \* وهذه الدار لا تبقى محاسنها

(٢) وفي رواية \* يمزق الدهر منا كل سائغة

(٣) وفي نسخة : من إرم

كأنما الصعب لم يسهل له سبب  
نجائع الدهر انواع متنوعة  
ولا حوادث (٢) ساوان يسراها  
يوما ولا ملك (١) الدنيا سليمان  
ولازمان مسرات وأحزان  
وما لما حل بالاسلام سلوان

\*\*\*

دهى الحزيرة أمر لاعزاء له  
أصابها المين في الاسلام فارتأت  
فاسأل بالنسية ما شأن مرسية  
واين قرطبة دار المعلوم فكم  
واين حمص وما تحوبه من نزه  
قواعد كن اركان البلاد فما  
تبكي الحنيفية البيضاء بن اسف  
على ديار من الاسلام خالية  
حيث المساجد اضمحت كنائس ما  
حتى الحاريب تبكي وهي جامدة  
هوى له أحد وانهد نهلان  
حتى خات منه افطار وبلدان  
واين شاطبة ام اين جيان  
من عالم قد سما فيها له شان  
ونهرها العذب فياض وملاكن  
عسى البقاء اذا لم تبق اركان  
كما بكى لفراق الالف هيمان  
قد اقترت ولها بالكفر عمران  
فيهن الا نوافيس وصابان  
حتى المنابر ترثي وهي عيدان

\*\*\*

يا غادلا وله في الدهر وعظة  
وما شيئا مرحا يلهمه موطنه  
تلك المصيبة انت ما تقدمها  
ان كنت في سنة فالدهرية غنان  
أبعد حمص تغر المرء اوطان  
وما لها مع طول الدهر نسيان

\*\*\*

ياراكبين عتاق الحيا ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام التقمع نيران
وراثين وراء البحر في دعة	لهم اوطانهم عرى وسلحان
أعدكم نبأ من اهل اهل	فتد مري حديث الفوم ركبان
كم يستغيث المستضعفون هم	قلى . أرى فى يهتز ان
ماذ التناطع فى الاسلام سيم	وأنتهم يا عاد لله اخوان
الا نفوس آيات لها هم	اما على الخير انصار وأعوان

•

يا من لذة قوم بعد عزهم  
 اسال حالهم جور وطفيان  
 بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم  
 واليوم هم فى بلاد الضد عبدان  
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم  
 عليهم من ثياب النذل ألوان  
 ولو رأيت بكاهم عند بيه هم  
 لهالك الامر واستهزئك احزان  
 يارب أم وطفل حيل بينهما  
 كما تفرق ارواح وابدان  
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت  
 كأنما هي يافوت ومرجان

يقودها العالج للمكروه مكرهه  
والعين باكية والنب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كمد  
ان كان في القلب اسلام وايمان

\*

وكان استخلاص لاسبانيول شرق الاندلس قاطبة شاطبة وغيرها  
واجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فما تغلبوا عليه هناك في شهر رمضان  
سنة ٦٤٥ وتلك لاسبانيول مرسية صاحبها عن يد ابرهودة وأقام صاحب  
قشتالة يحص انبيلية حولا كاملا وخمسة أشهر حتى ملكها صاحب سنة  
٦٤٥ وترقى بين يدي منازلها الشيخ أبو علي الشلوين مام البجة قفكانت  
المصيبة بها على المسلمين واحدة وعلى النجاة ثنتين وافرغ الاسبانيول في  
حصار اشبيلية من الجهد مالا يوصف ووافتهم النجيدات من اوربا الى  
أن افتتحوها وخرج أهلها الا الليل فأجاز بعضهم الى بر العدو وانجاز  
الاكثر الى غرناطة

وكان ملك البرتغال قد ضبط بعض الحصون اثناء منارلة اشبيلية  
نخف فرديناك صاحب قشتالة غائته فأحد يسلم بعض جيرانه من قواد  
المسلمين مثل صاحب شريش وصاحب لبله رضى منهم بالاتاقوة وأغذ كثيرآ  
من جهات الاسلام تحت حمايته حتى صفاله لوقت وطمأرباله من جهة قومه  
فأعمل في فتح المغرب وبينما هو يستعد لذلك اذ وافاه أجله فخلف (١) ابنه  
الاذفنش الملق بالفونس الماشر المعروف بالصاي أو السايو لاشتغله بالتنجيم

ولما لم يبق للإسلام في تلك المدة بالانداس سوء غرناطة وجوارها  
وانحصر وافيها كسفت هناك جوعهم وعز حماهم وكان جلهم بل كلهم قوما  
موتورين تتأجج الاحقاد في صدورهم ولا يريدون الا فرصة لاخذ الثأر  
فطالما أعظموا النكاية في العدو وهم تحت رايات بني الاحمر وكانوا جميعا  
أهل فلاحه وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمرانا حاءلا تحدثت  
به الركبان، وكان محمد بن يوسف بن الاحمر الذي أسس الدولة النصرانية  
على انقاض دول الطوائف وركبها من بقايا ألاك المسلمين بالانداس رجلا  
داهية منجذا خيرا بالسياسة صالحا للرئاسة، وكان قوما ثباتا في الحروب كما  
يقول ابن خلدون « فضم شمل قومه واحسن ادارة أمورهم وسدد الاحكام  
فيهم، واتخذ غرناطة حاضرة ملكه وحصنها، وناميات ابنتي فيها حراهما  
الشهيرة — التي لم يبق للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار —  
أثر أجل منها »

قال ضيا باشا في تاريخه للانداس تحت بنو الان (معمودية غرناطة)  
ما مناه « ان محمد بن الاحمر الذي غرس دوحه تلك ادمارة « اتزم لاجل  
تمكين سلطانه قاعدة : لاملأ الابالرجال، ولارجال الا بالمال، لاال إلا  
بالعمارة، ولا عمارة الا بالعدل والسياسة، فاخذ رعيت بحسن السياسة، وأقامهم  
على العدل، واحتفل بتشيد المصانع والمعافل، واشتغل بتوطين المسلمين  
المنزولين من جور الاسبانيول، حاملا اياهم على الزراعة، التجارة والصناعة،  
واحياء موات الارض واستثمارها، واثريه الحيوانات، فكثيرها، فلم تمض  
سنون قلائل الا وقد اشبتكت عمارة بلاده، وقد انتفت نحو علماء  
الطبيعة والكيمياء فاستخرج بموتهم المعادن واستفتح ارساد الكنوز  
الطبيعية، ولم يمل أمر الصحة العمومية، فبني جملة مستشفيات ومنازل

للمعجزة وشاد كذلك كثيراً من المدارس لطلب العلم ، وبنى قصر الحمراء الشهير ، الذي أنسى ذكر الخورنق والسدير ، وهو من القصور المعدودة في الدنيا رونقاً ومتانة واتساعاً وإحكام بناء . وكانت غرناطة في أيامه من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة وبسطة في العلم والجسم ، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الاقطار »

وقال هذا الاديب الراسخ والوزير الجليل في محل آخر من كتابه مامعناه : انه بحسن ادارة محمد الخامس ( من سلالة محمد الشيخ ) وجنوحه الى السلم أو بالصدمات الداخلية والخارجية التي توالى يومئذ على مملكة مشتالة واراغون قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتامة على غرناطة كانت فيها أسعد الممالك حالاً ، وأنعمها بالآء ، وهي غرناطيان ابن الأحمر وحجولها ، بل أيام الاندلس كلها منذ غابت شمس الناصر والحكم ، فكانت وقتئذ الزراعة في ثناء ، والصناعة في ارتقاء ، ولاهل غرناطة عايات تجارية مع ايطاليا وفرنسا ومصر وبر الشام ، وكان ينوار اليها التجار والسياح من جميع الأنحاء ويسكنونها بكمال الطمأنينة . وفي بعض التواريخ انه كان لاهل جنوة انبار عظيمة مخصوصة بهم في غرناطة ، وقد كانت المرسى ميناء غرناطة محط رجال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها ، لذلك كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفر أسباب الرفاهة وإيلام الولائم بالمكان المحسود والحل المغبوظة ، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهديب من الحمية وحب الوطن والامانة والصدق والرأفة وكرام الغرب . وأخذ كرام الناس وابناء البيوتات يقدون الى غرناطة أفواجا حتى انه عند الاحتفال

بنقل كريمة صاحب فاس الى الامير يوسف ابن السلطان محمد الخامس  
وفد لاجل النزهة وبرسم حضور الزينة الشائقة عدد لا يحصى من الامراء  
والنبلاء والفرسان من اسبانيا وايطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم ان غرناطة  
كانت وقتئذ وطننا مشتركا لجميع الاقوام »

ولنعد الى ذكر محمد بن الاحمر فنقول: لم يزل المدجنون ينكشفون عن  
شرق الاندلس وغربها الى مملكة غرناطة وهي تتعزز بهم وبعد استيلاء  
الاسبانيول على شاطبة وتمهيدهم تلك البلاد شرعوا يهتضمون المسلمين  
الباقين فيها فشرع هؤلاء - من شدة الظلم والاخذ بالخنق واستضعاف  
أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الاعلون - يرفعون لواء الخروج فاشتعلت  
الفتنة وكثر سواد الثوار الى أن قتل بعض رؤسائهم فاطفأت النائرة في  
تلك البقعة ولكن قام بعدها مدجنو بلنسية واستولوا على جملة حصون  
وذلك في نواحي سنة ٦٥٢ وكان جقوم صاحب أراغون غائبا فبادر بالرجوع  
الى مقره وعقد ندوة حضرها أركان مملكته لهذا كره في قضية حسم  
الفتنة وذهب في رأيه الخالص الى وجوب تحصين قلاع شاطبة وطرده  
المدجنين كافة من مملكته. استبداهم ، زراع النصرى بهم فوافق على  
ذلك القسوس والخالون من الاراضي ولكن أصحاب المزارع أبدوا له  
تعذر وجود مزارعين مسيحيين وانه على فرض وجودهم فلا يقومون  
مقام المسلمين فلم يصنع لسكلامهم وأمر بطرده المدجنين كافة فخرجوا تاركين  
جميع أملاكهم وأشياهم وقصدوا غرناطة ألوفاً مؤلفة وكان مدجنو  
مرسية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قشتالة نفونس العاشر  
الملقب بالصافي واستولوا على عدة حصون وقدموا عليهم قائدا وطالت



مدة انتقاضهم الى أن أحال الفونزس أمرهم الى حميه جقوم ملك أراغون  
ثم تزايد الجور على مدجني بالنسية الباقين كانوا منهم ببلادها  
وسيموا من الخسف والاهانة ما يكل عنه الوصف وفقدوا الامان على  
أرواحهم وعوملوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي فاستأنفوا  
الثورة ومدوا يدهم الى من جاورهم من المسلمين لاجل مظاهرتهم، اضطلموا  
الاسبانيول وتقدموا نحو بلاسية حتى كادوا يسترجعونها فوقع الرعب  
في قلب جقوم ومات على أثر ذلك وتولى بعده ولده بترو أو بطره فعمد  
مع الثوار هذنة وأمرهم ريثما تفرقت جموعهم فنكت معهم وصمد اليهم  
على غرة فأنحازوا الى ( مونزه ) في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً قام  
يحاصرهم طويلاً وأخذ منهم بالخنق حتى استأمنوا فدخل الاسبانيول  
الحصن وانتهبوا المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى وفرقوهم في داخل  
البلاد بعيداً عن الثغور

وكان تحاذل المسلمين وتودد أعقاب ابن هود وابن مردنيش للملك  
النصارى قد دعا محمد بن الاحمر الى مهادنتهم ونزل لهم عن بلاد ( الغرتيرة )  
وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين  
والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ووضيعة ومدارة في السلم  
والتزم ابن الاحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين ومظاهرة  
بعض أمراءهم له على الاستيلاء أن يلجأ بالمسلمين الى جوار غرناطة  
وسيف البحر معتمدين بالجبال وراكنين الى أوعارها وفي أثناء هذا  
كله لم يزل صريحه ينادي بالمسلمين من وراء البحر ووفود الاندلس تتوالى  
من الى حضرة بني مرين أصحاب المغرب تستنصرهم على العدو وتستجيرهم

في استباحة الحرم والولدان ، وبنو مرين وان كانوا يؤثرون الجهاد ،  
ويسابقون في مضمار الجهاد مسابقة الجياد ، فقد كان لهم من مناصبة دولة  
الموحدين وشغلهم بتدعيم المغرب كله وتمهيد قاعدة ملكهم ما يعترض دون  
اجابة داعي الجهاد . ولكنه لما انقضت الوحشة بين أبناء ادريس بن عبد الحق  
وبين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني انتدب السلطان الكثير منهم  
لنجدة الاندلس ، ولم تزل هذه البلاد منذ اوائل الفتح ثمر الاسلام ،  
وموطن الجهاد ، ودرج الشهادة ، وغاية من قصد من الآخرة السعادة ،  
نفرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط عليهم عامر بن ادريس وتقبلهم بن  
الاحمر ودفع بهم في صدر عدوه وتوفي الشيخ ابن الاحمر لسنة ٦٧١ وقد  
عهد الى ولده والقائم بالامر بعده محمد الشهير بالفقيه لانتحاله العلم في  
أيام أبيه أن يجعل مموله على بني مرين في الاستصراخ اذا اشتد به  
الامر ويدراً بهم ، وكان محمد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة  
صاحب قشتالة سار الى اشبيلية لزيارته وتأكيده سلمه فلقى من الاعزاز  
والاداء ما لم يسبق له مثيل ، غير أن زوجة الملك خاطبته مرة أثناء  
اقامته ساء لهم في شأن بني أشقيلولة القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده  
فاسترحش محمد من هذه التوصية واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة  
والميل الى لقاء الفتنة ، والفرقة في مملكة الاسلام الباقية ، فعند رجوعه  
تأمل فيما يعمل لاجل التخلص من فتنة بني أشقيلولة ومما كان عليه من  
الخضوع للمنوي لصاحب قشتالة فلم يجد بدا من انفاذ وصية أبيه ومد اليد  
الى بني مرين خاطباً نصرهم ومستجيشاً بهم في الدفاع عن الملة  
وكان بنو أشقيلولة كما لا يخفى أنصار ابن الاحمر على أمره وأبوه

أبو الحسن هو الذي تولى كبر الثورة على ابن هود وداخل أهل اشبيلية في الفتك بابن الباجي حتى استوسق الملك لابن الأحمر، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أصهر اليهم وأشركهم في أمره ورسمهم من مياهم التعظيم وأشعرهم من شعار التجلة بما لم يختص به أحداً من سواهم، وولى أبا محمد على مالقة وأبا اسحق إبراهيم صهره على وادي آش، وكانت في يدهم قارش فيقال أن قد أبطرتهم النعمة فسموا إلى مشاركة السلطان في ملك غرناطة واستأثر الرئيس أبو محمد بمالقة وقيل أنهم اتفقوا مع الطاغية وأباحوه حتى الإسلام. وضيا باشا ينقل أنهم جاءوا به ساكره يكتسحون البسائط ويعيشون في البلاد وكانوا سبباً لخروج كثير من المدن والحصون مثل شريش وبريجة وسجونة من يد المسلمين

فأرسل ابن الأحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني فلقوه منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالبلاد المغربية فنبهوا عزائمهم واستنفروا جمته وكان من نفسه إلى ذلك ارتياح فجهاز خمسة آلاف عقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية واستدعى الأسطول فأجازوا نازلين بطريف وبعد أن أراحوا ثلاثاً دخلوا الحرب فاكنتسحوا بسائطها وأتخذوا فيها بالقتل والأسر والتخريب، ونزلوا بساحة شريش فخامت حاميتها عن اللقاء، وانتقلوا إلى الجزيرة الخضراء، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم. ولما بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق أجاز بنفسه على أثر ولده وحيث كان يخشى عادية (يفعراسن) بن زيان أمير تلمسان بعث إليه في السلم تفرغاً للجهاد وتوفراً على عدو الملة، فأوفد عليه (يفعراسن) شيخه بني عبد الواد بالاجابة وأسنى الهدية وطابت بذلك نفس يعقوب فاستنفر قبائل

المغرب من العرب والموحدين ومصمودة وصنهاجة ومكناسة وانضم اليه جمع من المطوعة والمرتقة فأجاز بهم لصف من سنة ٦٧٤ وكان نزل له ابن الاحمر عن رندة وطريف فاحتل ساحة طريف ومالات كتائبه الجزيرة الخضراء وأقبل عليه الفقيه أبو محمد بن الاحمر والرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة صاحب مالقة والغريبة وزال ما بينهما من النفرة وصارا مع أمير المسلمين يدًا واحدة على الاذفنش ثم عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف وسرحهم في بلاد العدو فحاسوا خلال دياره ونسفوا البناء وحطموا الزرع واتهبوا المال والمتاع وبالقوا في الاتحان والسبي، واقتحم السلطان حصون المدور وابدة وتالسة وبلعة وغادرها قاعا صفصفاً وعاد بالغنائم والسبي فنزل باستجة، وكان الاسبانيول قد أعدوا عدتهم وأكملوا احتشادهم، فزحف الدون (نونا) أو (ذنه) بحسب املاء العرب وكان محافظا لاشبيلية ومقدما عندهم فاصطدم الفريقان، واحتدم بينهما الضراب والطعان، وكانت وقعة من أعظم ما يرويه تاريخ اسبانية، فأنزل الله سكينته على المسلمين وانهمزمت جموع (ذنه) وقتل هو في المصاف وتأثر المسلمون قومه بالقتل والاسر فبلغ عدد قتلاهم بحسب رواية ابن خلدون ستة آلاف وخذل العدو ووهنت شوكته وبعث أمير المسلمين برأس ذنه الى ابن الاحمر فقبل انه رده الى أهله سرا مداراة لهم، وقيل انحرافا عن يعقوب لامور وجدها في نفسه، وظهرت شواهدا فيما بعد. وقد أصاب المسلمون في هذه الغزاة من الغنائم مالا يحصيه الا الله وبيعت الشاة بدرهم واحد وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير ولم يكمل هذه الغزوة حتى رجع الى بلاد العدو فاكتمسح نواحي اشبيلية وأوغل في جهاتها، ونزل

بأرض شريش بخاس خلالها، واستقصى بالدمار أعماها، وقلل إلى الجزيرة الخضراء لشهرين من غزاته وعول على اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدو لنزل أجناده منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم عادة من ضرر الجند فأتى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر إلى المغرب بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد عز بها الاسلام، وأدال له بعد طموس الاعلام، حتى لقد قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني

وأما ابن الأحمر فساق عساكره إلى جهة جيان وأنحن فيها فجمع له الدين (صانشو) بن (جقوم) ملك أراغون وكان مطرانا على طليطلة وبادر إلى لقائه فأنكشف الأسبانيول وأسر الدين صانشو — أو شانجه على رأى العرب — وحصل بسببه خلاف إذ مال بعضهم إلى إرساله إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق والآخرون إلى إبقائه عند ابن الأحمر فوثب عليه أحد الجند فاحتز رأسه وحسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدين شانجه وأسرته وصل الدين (لوب) بالمدد الوافر وتوافق مع المسلمين وقد امتلات أيديهم بالغنائم فتأمل أن يشتغلوا بها عن القتال واصلاح ناراً حامية من مطلع الشمس إلى أن توارت بالحجاب فلم يفز منهم بطائل، فرأساهم في رأس شانجه والخاتم الذي بيده ووقع الفداء بهما على جملة من أسرى المسلمين ونقل الرأس مع الجثة ودفن في كنيسة طليطلة وكان لما اعتزم أمير المسلمين يعقوب على الإجازة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر بقصيدة استعانة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

هل من معين في الهوى أو منجد	من متهم في الأرض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف	باجابة واناية أو مسعد

بالعدوتين من امرىء مسترشد  
يخشى المصير الى الجحيم الموقد  
أجب الهدى تسعده وتؤيد  
ألدبك علم أن تعيش الى غد  
ان لم يحن لك نقده فكأن قد  
زاد لكل مسافر تزود  
خذ منه زادك لارتحالك تسعد  
منه لما يرضي الهك واغث  
وجهاً للقاء الله غير مسود  
محت الدموع خطيئة المتعمد  
أو يقتدي بنبيه أو يهتدي  
مشحودة في نصر دين محمد

فاهلك عليه اى ولا تتجلد  
من قانتين وراكين وسجد  
فكلاهما ينبغي الفداء فما في  
فيهم تود لو أنها في ملحد  
ولداه ودًا أنه لم يولد  
يبكى لآخر في الكبول مقيد  
ما بين حدي ذابل ومهند  
وبكى لهم من قلبه كالجلمد

هذي سبيل الرشدة وضحت فهل  
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو  
يا أمل النصر العزيز على العدى  
يا من يقول غداً أتوب ولا غداً  
لا تتردد بنسيئة الاجل الذي  
أو ما علمت بأنه لا بد من  
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى  
هذا الرباط بارض أندلس فرح  
سودت وجهك بالمعاصي فالتس  
وامح الخطايا بالدموع فربما  
من ذا يتوب لربه من ذنبه  
من ذا يطهر نفسه بعزيمة  
ومنها :

كم جامع فيها اعيد كنيسة  
أسفا عليها اقفرت صلواتها  
كم من أسير عندهم وأسيرة  
كم من عقيلة معشر معقولة  
كم من وليد بينهم قدود من  
كم من تقي بالسلاسل موثق  
وشهيد معترك نوزعه الردي  
ضجت ملائكة السماء لحالهم

أفلا تذوب قلوبكم اخواننا  
أفلا تراعون الازمة بيننا  
أكذايعيث الروم في اخوانكم  
اين العزائم مالها لا تقتضي  
أبني مرين اتم جيراننا  
فالجار كان به يوصي المصطفى  
أبني مرين والقبائل كلها  
كتب الجهاد عليكم فتبادروا  
وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا  
هذي الجنان تفتحت أبوابها  
لله في نصر الخليفة موعد  
هذي الثغور بكم اليكم تشكي  
ما بال شمل المسلمين مبدد  
أنتم جيوش الله ملء فضائه  
ما ذا اعتذاركم غداً لنبيكم  
إن قال لم فرطتم في أمتي  
تالله لو أن العقوبة لم تخف  
اخواننا صلوا عليه وسلموا  
واسمعوا لنصرة دينه يسقيكم

مما دهاننا من ردى أو من ردى  
من حرمة ومحبة وتودد  
وسوفكم للثأر لم تُقتل  
هال يقطع الهندي غير مجرد  
وأحق من في صرخة بهم أبندي  
جبريل حقا في الصحيح المسند  
في المغرب الاذن لنا والابعد  
منه الى الفرض الاحق الاوكد  
حسناً تفوزوا بالחסان الخرد  
والحور قاعدة لكم بالمرصد  
صدق فتوروا لانتجاز الموعد  
شكوى العديم الى الغني الاوجد  
فيها وشمل الضد غير مبدد  
تأسون للدين الغريب المفرد  
وطريق هذا العذر غير ممهد  
وتركتموهم للعدو المعتدي  
لكفى الحيا من وجه ذاك السيد  
وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد  
من حوضه في الحشر أعذب مورد

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق بقصيدة من نظم عبد العزيز  
شاعر الحضرة و: لبيك لا تخش اعتداء المعتدي،، الخ وأجاب عنها أيضا

مالك بن المرحل بقوله «شهد الاله وأنت يا أرض اشهدي»، الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرباط بقوله «قل للبقاة وللعداة الحسد»،

وبعد الجهاد الاول بنحو سنتين ثقف فيها امير المسلمين أطراف المغرب اعتمزم الجهاد ثانية فأجاز الى طريف لسرار المحرم ثم نهض الى الجزيرة الخضراء فرندة حيث وافته بنو أشقيلولة ونهضوا جميعاً الى اشبيلية وكان بها ابن الاذفتش الملقب بالصابي نقام عن اللقاء واعتصم بساحة البلد فاكتسح السلطان جوارها ودك حصونها وسي أهلها ودخل حصن جليانة وقطيانة وحصن القليعة عنوة وعاد بالغنائم والاثقال الى الجزيرة ثم نهض ثانية فنزل بساحة شريش، أذقها نكال الحرب والحرب وبعث ولده أبا يعقوب في جيش الى اشبيلية وحصون الواد فبالغ في الاثنان واجتاح حصن روطه وشلوقة وغليانة والقناطر ثم اعتمزم الغزو الى قرطبة فاستفز به ابن الأحمر وأجابه وتوافيا على الطريق ودخلا حصن بني بشير عنوة ودمراه وأثنخنا في أهله وتقدما بالا كتساح والتدمير والاسر والقتل الى أن نزلا بساحة قرطبة قبة الاسلام في الماضي وشددا عليها الحصار وبعثا السرايا في الجوار فعاشت ودمرت ودخلت الحصون واقتحمت القلاع واشتد الامر بالطاغية فخطب السلم من أمير المسلمين فأحاله على ابن الأحمر تكرمة لمشهده فأجابه محمد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين لراحة لاجناد الاندلس والمرابطين فيها وانعقد الصلح وقفلوا فخرج أبو يوسف يعقوب على غرناطة تزيلا على ابن الأحمر وترك الاندلسيين الغنائم وقفل الى الجزيرة وفي تلك الاثناء توفي الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة فنزل ابنه محمد عن البلد للسلطان يعقوب



فعمد عليها لابنه أبي زيان منديل فصار إليه في بئس مكان الفقيه ابن الأحمر لما بلغه وفاة صهره طمع في الاستيلاء على مالقة وظن ابن أخته مشايخاً له فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني فوجد الأمير أبا زيان قد احتل البلد فقفل خائباً ثم قدم إليها السلطان نفسه من الجزيرة فبرز إليها أهلها في احتفال شهير وعقد عليه لعمر بن يحيى بن محلي من أركان دولة بني مرين وقفل إلى الجزيرة ومنها إلى المغرب سنة ٩٧٠ وقد أعاد بهجة الأيام الأولى في الجهاد وحسن البلاء، وحاز الإسلام لهذه الغاية من العلاء ولما بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور ومالت إليه القلوب واشترأت إلى ولايته الأعناق واكتسب له محمود مقامه بالاندلس محاب الأمة تذكر ابن الأحمر وكان فقيهاً مطاعاً قصة المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين نخاف الغيلة وبرم "معاينة" على إيصال يده بيد الطاغية خشية على سلطانه من أبي يوسف فنهض الاذفنش لاختد الثأر وأغزى أساطيله مسالح بن مرين بالجزيرة الخضراء وانقطع مدد المسلمين من وراء البحر وانتبذ عمر بن يحيى بن محلي عن قومه بمكانة مالقة وذلك أنه كان بين أخيه طنجة وبين السلطان نفور بعث طلحة على ممالاة ابن الأحمر وبمداخلته نزل له عمر عن مالقة وجهاً قصده واقطعه شلويانية والمتنكب فانتقل إليها ممالأ ابن الأحمر من ثمة للاذفنش ولخوفهم من إجازة السلطان راسلوا يغمراسن بن زياد أمير تلمسان في الانتقاض عليه وتشبيط حركته فأجابهم إلى ذلك وتهدوا وتحابوا وتحاذل المسلمون واشتد بأهل الجزيرة الخنق وبلغ الخبر السلطان بمراكش وهو يطفي فتنه بنى جيش من العرب فلما تمكن من حسمها نهض قاصداً طنجة بقعد الإجازة

فبلغه استئناف جشم الثورة فكر اليهم وتأثرهم في الملوات وترك ابنه  
أبا زيان لتدوين السور الاقصى وعقد لولده ولي عهد الامير أبي يعقوب  
على الاساطيل التي جمعها من طنجة وسبتة وسلا حتى بلغت اربعمائة سفينة  
وأغزاها الجزيرة وكان أهلها قد بلعوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفا  
عليهم من النسي والنشوء على غير الاسلام فأثر ذلك في قلب ابن الاحمر  
وندم على ما فرط منه من ممالاة العدو وجهر أباطيله من مالقة والمرية  
بداراً لنصرة اخوانه في الدين وغابت عليه حفيظة الملة واجتمعت أساطيل  
المسلمين بمرفأ جبل طارق وتبارزوا مع العدو وصدقوه العزيمة فكشفوه  
وذعر الاسبانيول وغشيه من اليم ما غشيه وملك المسلمون مرفأ  
الجزيرة وهزموا هم من كل ناحية لكن الامير أبا يعقوب تذكراً عن الغزو  
خبر فام ابن الاحمر وحدثته نفسه أن يصلح لاذفئش ويزحفها معا الى  
غرناطة انتقاماً من صاحبها فأجابه هذا الى ذلك توسلا الى موادعته ولما  
كان في نفسه على ابن الاحمر من مدده أهل الجزيرة فبعث أساقفته الى  
أبي يعقوب فأجازهم الى أبيه فانكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه  
ولم يشأ أن يواطيه على الاسلام أحداً وأجاز أبو يعقوب الى المغرب بوفد  
أهل الجزيرة وولى ابنه الآخر أبا زيان عليها فاحكم الصالح مع صاحب  
قشتالة وتفرغ لمانازلة ابن الاحمر في غرناطة مع بني اشقيلولة وابن الدليل  
ثم رجع ابن الاحمر الى سلم بني مرين وخطبها من أبي زيان واجتمعوا ثم في  
سنة ٧٨ أطل السلطان يعقوب على الاندلس لما اختل من أحوالها وكان  
ابن اشقيلولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩ وظاهره لاذفئش فلم يفوزوا  
بطائل وقتل جماعة من الاسبانيول ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يغمراسن

وملوك اسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد تعويقا لحركته  
عمد الى غزو يغمراسن وجرت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على  
يغمراسن وقفل يعقوب الى مرا كش . وأثناء مقامه بها وافاه صريح  
الاذفنش على ولده سانشو أو شانبجه وذلك أنه لما تم ماتم من الملو والظهور  
لكلمة الاسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق قام أمراء اسبانية  
وأركان مملكة قشتالة وخصوصا رجال الدين ناقلين على الاذفنش عدم  
الكماءة وسوء التدبير ونحس الطالع على قومهم فكادوا له وأخرجوه  
عن ملكه ونادوا باسم شانبجه وذلك سنة ٨١ وخرج الوالد طريداً أخذوا  
قد غدر به أهله وخلانه ، وخانه زوجته وأولاده ، فأخذ يستغيث ملوك  
النصرانية من أراغون والبورغال وفرنسا فلم يجب أحد صريحه فرفع  
أمره الى البابا فلم ينجده بغير النصيحة والتوصية بالصبر والتحمل فلما  
يئس ممن شبكته وإياهم أو أصر الرحم والديانة أو الجوار حول نظره جهة  
المغرب فاستجار بسلطان يعقوب بن عبد الحق بن مرين فأجاره في الحال  
ذهابا مع هوى الشيعة الابية . وقتضى الفتوة ووافاه الى مرا كش أساقفة  
الاذفنش فصرفهم واعدأ بالأغذاذ وسار الى قصر المجاز وركب منها الى  
الجزيرة الخضراء وقد وافته الجنود وسار الى صخرة عباد حيث وافاه  
ملك قشتالة فأكرم نزله (١) وأمد له نفقاته بمائة ألف استرهن عليها  
التاج الملكي وبقي عند ملوك بني مرين نفراً للاعتاب وزحف السلطان

---

( ١ ) قيل انه بعد أن سلم عليه الدون الفونس طلب يعقوب بلسان  
زناقة الماء ليغسل يده من قبلة ملك قشتالة وقيل من مصاحفته فانظر الى ما  
كان من عز الاسلام بازاء الافرنج

الى جهة قرطبه وبها شانجه فاكتمسح نواحيها واستتمت عليه فانتقل الى  
طليطلة فخرّب جهاتها وعاد الى الجزيرة وقد ثقلت أوقار مطاياها الغنائم  
ورأى ابن الأحمر ذلك فبدا له أن يوالي شانجه الخارج على أبيه وتماهدا  
فلم يغنهما ذلك . ولما رجع السلطان من غزاته غزا مالقة من أملاك ابن  
الأحمر فلم يجد هذا بدا من طلب السلم والتجأ في ذلك الى ابنه فأسغفه وأجاز  
الى أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة لمسلمين فأسغفه فيما رغب فيه اليه  
وأقلع عن مالقة وتأكدت السلم مع ابن الأحمر وانبسط رجاء المسلمين  
وأعاد السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الانتحان وخرج الى نواحي  
طليطلة في غرة ربيع الثاني سنة ٨٢ فلم يصادف بناء الا هدمه ولا زرعاً  
الا حطمه ولا سرحاً الا اقتلعه ولا جملاً الا صدعه وعاق جيشه عن  
زيادة الايغال كثرة الغنائم فرجع وقسم السلب بين أجناده ونقل من الخمس  
وأجاز الى المغرب وبلغه وفاة أذفنش ملك قشتالة واجتماع النصرانية  
على ولده شانجه الخارج كان عليه فتحرك للجهاد وأرسل ولده أبا يعقوب  
في أثر العرب الخارجين فاتبع أثرهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من  
بلاد السوس ونهض السلطان مستنفراً للجهاد فأجاز بجنوده الى الجزيرة  
ومنها دخل دار الحرب فخرج وأثنى ونزل على شريش فصايقها وأخذ  
بمخنقها وأغزى ابنه الأمير أبا يعقوب اشبيلية فنسف ديارها، وعات في  
نواحيها، وصرف في منصرفه بقرمونة فشد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته  
وسرح الوزير محمد بن عطاو ومحمد بن عيلة جواسيس في أرض العدو  
اليه فعادا بنياً ضعف الحامية فأغزى حافده عمر بن عبد الواعد جهة وادلك  
وحصن أركش فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف العير، وسرح ابنه أبا

معروف لغزو اشبيلية ثانية فأتى ما كان باقيا دون خراب وقصد حصنا بقرب معسكره فسرّح الجنود والناشبة بالآلات فافتحموه وسبوا أهله وقتلوا حاميته وركب إلى حصن آخر فأصابه ما أصاب الأول ووافاه ولي عهده أبو يعقوب بمرايطة المغرب ومطوعته ومرتزقته في واحد وعشرين ألفا كلهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة فعمداه أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي اشبيلية فافتحموا الحصون ودكوا القلاع وسبوا الذراري ودمروا قرى الشرف والغابة الكثيرة العمران وعادوا بالغنائم فأغزاه ثانية قرمونة والوادي الكبير فبرز حامية قرمونة للدفاع فانكشفوا وأحجرهم في الحصن وكر على اشبيلية ثانية واقتحم منها برجاً كان هناك عينا للعدو فأحرقه وقفل . ثم أغزاه والده جزيرة كيوترا فافتحمها وأباد أهلها بالسيف وأغزى طلحة بن محلي اشبيلية رابعة فأتخن فيها حتى صفرت تلك البقاع من العمران ، وأصبحت بسائط افرنتيره واشبيلية ولبله وقرمونة واستتجه منمقا لليوم بعد أن كانت ملأى بالعمارة والنضارة ، وهو أثناء هذه الغارات كلها غادي شريش ويراوحها قتالا ونكالا ، ويبيت السرايا في أرض العدو ليلا ونهاراً ، حتى لم يخل يوم منه من غزوة أو غارة

وقد أصابت جموع الاسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم وأحرزت من المال الصامت والناطق ما لا يحصى إلا خالقه ولم يرتد أمير المسلمين من الغزو إلا بقدم فصل الشتاء وبلغه أن العدو أوعز إلى أساطيله بالاعتراض في الزقاق وأوعز السلطان إلى أساطيله بالاجتماع من ثغور العدوتين فأحجمت أساطيل الافرنج ورأى ابن

اذن نش شانهجه أو صانشو ما نزل بيلاده من بأس المسلمين وضرع اليه  
كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق لشدة ما بلغ بهم  
البلاء ونالهم من النكال ورأوا من شمول الخراب أوطانهم فعول على  
مخاطبة أمير المسلمين في السلم صارعاً صاغراً وأوفد اليه الملائم من أساقفته  
وأعيان مملكته فردهم يعقوب اعتزازاً عليهم فزدهم شانهجه وكرروا  
الاستعطاف فأجابهم الى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عز قومه وأن  
يسالموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم وأن يرفعوا الضريبة عن تجار  
المسلمين في دار الحرب ويحذروا الفتنة بين امراء الاسلام الى غير ذلك  
فأجابوا الى كل ما اشترط ووفد شانهجه على السلطان بمكانه من شريش فالتقام  
براً وترحيباً واحتفل للقاءه اظهراً لعز الملة وقدم له ملك الاسبانبول هدية  
سنية وخضع له . انقلب قرير الدين بمسلمته وسأله يعقوب أن يبعث اليه  
بكتب العلم التي حازها النصارى من مدن الاسلام فارسل اليه منها ثلاثة  
عشر حملاً فوقفها في المدرسة التي أسسها بفاس

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفر للاسلام من العزم ما لم  
يمهده منذ أيام ابن تاشفين وازدهمت في حضرته الشعراء للتهنئة واعتل  
بعد ذلك وتوفي بالجزيرة قبل وصول ولي عهده أبي يعقوب فأخذ البيعة  
على الناس برزاء أبيه وأجاز اليهم من المغرب فجددوا البيعة غرة صفر  
سنة ٦٨٥ . وفرق العطاء واحزل ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس وقبض  
أيدي العمال عن الظلم واصلح السابلة وبعث الى ابن الاسمر بالحضور  
فوافاه فاختلفى به ونزل له عن جميع الاندلس إلا الجزيرة وطريف واتفقا  
على اخرج أبي الحسن بن اشقيلولة من وادي آش ففصل الى المغرب

وأقطع ابن مرين فيه وانفرد ابن الأحمر برئاسة الاندلس  
وسنة تسعين بلغ أبا يعقوب انتقاض صاحب قشتالة وتمطيله ثغور  
المسلمين فسرّح قائد المسالّح علي بن يوسف بن يرناسن فغزاشريش وأنخن  
في أرض العدو وأجاز السلطان بنفسه فالتقت أساطيل الاسبانيول في  
الزقاق حجرة دون النزول فأنكشفت سفن المسلمين فكر السلطان  
فأحجمت أساطيل الاسبانيول وأنزل عساكره بطريف وشرع منها بالغزو  
فأذاق شريش واشبيلية وبال الحرب ولم يرجع عنها إلا عند قدوم الشتاء  
وقفل الى المغرب سنة ٦٩١ وقد تم له من الظهور ما تم لا ييه وعاد الوساوس  
الى مخيلة ابن الأحمر وتذكر مرة ثانية قصة المعتمد بن عباد ووصل حبله  
بجبل القشتالي واجمعا على افتتاح طريف ام الثغور وذات المسالّح فنازلها  
الاسبانيول واعترضت أساطيلهم ببحر الزقاق دون مدد المغرب وارسل  
ابن الأحمر النجدات الى حليفه وتمادى الحصار بأهل طريف أربعة أشهر  
والمدد منقطع عنهم فسلموا ببلدتهم للاسبانيول وطالبهم ابن الأحمر بالخروج  
عنها له فأبوا ونكثوا فندم على اتصالهم بهم وراسل ابن مرين تائبا مستعظما  
داعيا الى اجتماع الكلمة وأوفد بذلك ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن  
اسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني فاحكموا الصلح وعقد  
ابن مرين على مسالّحه بالاندلس لابنه ولي العهد الامير أبي عامر ولما  
رجعت رسل ابن الأحمر بقبول الصلح أجاز بنفسه تزيلا على ابن مرين  
معتذرا فأعرض عن عذله واكرم وفادته وقدم له ابن الأحمر المصحف  
الكبير أحد مصاحف عثمان ( رضي الله عنه ) الاربعة المبعوث بها الى  
الآفاق اتصل الى صاحب غرناطة من قرطبة حيث كان في خزانة بني

امية ونزل ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا لابي  
يعقوب وأرسل هذا وزيره عمر بن الهادي لشمسي لمازلة طريف فامتنعت  
عليه وقفل ابن الاحمر الى حاضرة حمرائه عام ٦٩٢ وقد تأدت المصافاة  
بينه وبين ابن مريين

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمد الاول المعروف بالشيخ  
سنة ٧٠١ فقام بالامر بعده ابنه محمد الثالث ويقال له الخلويع والاعمش  
اضعف بصره وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتعلم عليه كاتبه  
أبو عبد الله بن الحكيم ولم يعمل الامر حتى يد له الانتقاض على ابن مريين  
لامور نقمها ولا جرم لها فوصل يده بيد ملك الاسبانبول وردينه  
الرابع ابن شانجه وهو (هرانده) عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا  
سعيد فرج ن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة وأجاز اليها على غفلة من  
أهائها واشتغال ابن مريين بمحاصرة تلمسان الكبير بعد التضرير بين أعيان  
البلدة فاستولى عليها وأرسل عمالها بنو العزقي الى غرناطة وقامت بهادعوة  
ابن الاحمر على يد ابن عمه وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مريين  
والدعوة لعثمان ابن أبي العلاء المريني رئيس الغزاة المجاهدين بالاندلس  
واستقدمه لاجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه فخرج ودعا لنفسه  
وأجابه كثير من الناقين وبايعوه على الموت وفاز أبو سعيد بن الاحمر  
بأمنيته وانتشبت الحرب بين رجال بني مريين

وتوفي السلطان أبو يعقوب في اثنائها فخلفه السلطان أبو ثابت بن  
أبي عامر ولي عهد أبي يعقوب ليكون والده في قبل جده ولم يستقم له  
الامر الا بعد نزاع هاض جناح الدولة مع عمه أبي سالم فشرع في محاربة



عثمان بن أبي العلاء وحصره أخيراً بسبته وتوفي قبل أن يتمكن منه وخلفه السلطان أبو الربيع فضايق عثمان الخارج عليهم حتى فرّ من سبته إلى الأندلس لاحقاً بغرناطة وبعد ما أرسل أبو الربيع تاشفين بن يعقوب الوطاسي بمسكر فاستولى على سبته وقبض على قائد قصبتهما وقائد البحر وقائد الحرب من قبل ابن الأحمر وعادت إلى ملكه ثم توفي أبو الربيع سنة عشر بعد السبع مائة وخلفه السلطان أبو سعيد فانشأ الأساطيل للجهاد وولى أخاه أبا البقاء ثغور الأندلس

و أ. محمد الثالث سلطان غرناطة فساء أثره في الملك واستبد مع وزيره ابن الحكم فانتزى عليه أبو الجيوش نصر أخوه وقتله ووزيره لسنة ثمان بعد السبع مائة ، في تلك المدة نازل ملك الأسبانيول الجزيرة الخضراء وجبل اذتح فاستولى على الجبل ولم يقلم عن الجزيرة إلا صلحا بعد أن أذاقها مرّة الحصار فقلق ابن الأحمر لاخذ الجبل ورغب إلى أبي الربيع في إصلاح فاسه ونزل له عن الجزيرة ووردة وبعض الحصون فقبل ذلك منه ثم اسهر إليه في اخيه وأمد بالمال والخيول جنائب مع عثمان ابن عيسى من رجاله ، بقي نصر في الملك إلى أن انتزى عليه اسماعيل أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر فحاصره في الحمراء وآل الأمر أن نزل له عن الملك سنة ٧٨٤ واعزل ومات في نواحي سنة ٧٢٢

وكان فرديناند ملك قشتالة عند نزال جبل الفتح ، الجزيرة قد استصرخ صاحب برشلونة فحاصر المدينة براً وبحراً ، ذلك في مدة أبي الجيوش نصر ونصب عليها الآلات واحتفر الأسبانيول مسارب تحت الأرض مقدار مائيسير عشرون راكبا في الواحد منها وفتان المسلون فحفروا قبائلهم

والتقوا تحت الارض واقتتلوا وهذا كما حصل في حصار مالقة في العهد  
الاخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة بالاندلس من  
بني مرين لنجدة أهل المرية فالتقى بجيش صاحب قشتالة فمزقه ثم صعد  
الى عسكره باسطيونة فوقع به فسر ح اليه جيوشا كثيرة فظفر بهم وقتلهم  
أبرح قتل وقفل بالغنائم وتوفي فردينا على أثر ذلك عام ٧١٢ وولي بعده  
ابنه المعروف عند العرب بالهندسة طفلا رضيعا فجعلوه لنظر عمه الدون بترو  
أو بطره والدون جوان

وفي أيام كفالتهم شغل أبو سعيد المريني سلطان المغرب بفقنة ابنه  
فاتهمز الاسبانيول الفرصة واعتزموا استئصال المسلمين من الاندلس  
وتداعوا للحرب واستنفروا الاقطار وأناخ الدون بطره على غرناطة  
بمجموع لا كفاء لها وقيل كان معه خمسة وعشرون ماسكا وذلك لسنة ٧١٩  
نخرج اليهم شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الاول  
فاقتطع منهم سرية واستأصلها ويوم الاحد ركب ابو سعيد عثمان بن أبي  
العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيض الله لهم نصرا غريبا  
وعند ما شاهدهم الافرنج وقد ألهاهم تكاثرهم أخذ منهم العجب لقلتهم  
وهجومهم فلم يشعروا الا وقد أذاحوهم عن مراكزهم فانهمزمو امدعورين  
وأهب الله ريمح النصر للغرناطيين فتبعوهم يأسرون ويقتلون ثلاثة  
أيام وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعين قنطارا ومن الفضة مائة وأربعين  
قنطارا وسبي سبعة آلاف نفس وكانت خسائر المسلمين من القلة  
بحيث لو ذكرت لدفع ذلك العقل. وسلخ الدون بطره وحشي جلده  
قطننا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنوات وقال ابن خلدون

ان رأسه نصب بسور البلدة وأنه كان باقيا لعهده. وهذه الواقعة من أشهر وقائع الاندلس وفيها استنصر الفرناطيون السلطان أبا سعيد المريني فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاة وعدوه من دولتهم واشترط عليهم دفعه اليه ووعدهم باعادته فلم يمكنهم ذلك لمكان عثمان ومنعته من عصابته وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى

وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني وقام بالامر بعده ولي عهده الامير أبو الحسن وكان من أجل سلاطين الاسلام فاشتغل مدة باطفاء فتن مملكته ولما خلاص له المغرب وجه عنايته الى الجهاد وسعت نفسه الى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان الاسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين دون التوافي لنصرة بعضهم بعضا قد تغلبوا على كثير من حصونهم ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة وضرربوا الجزبة على أبي الوليد فأدأها عن يد الذل فاعتزم أبو الحسن الجهاد وجهز الاساطيل وسرح بالجيش ابنه الامير أبا مالك فغزا أرض العدو وأتخن وغنم وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاما فأبى لباؤه وأقام بأرضه فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم وقتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الاسبانيول أكثر قومه وغنموا مامعهم ووصل النعي أبا الحسن والده فمت في عضده وتفجع واعمل في النفير للجهاد والاخذ بالثأر واستدعى الاساطيل من مراسي العدو، وانجده الموحدون من تونس باسطول بحاية عليه زيد بن فرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجربة واجتمعت كلها بسبئية معقودا عليها محمد بن العزفي، زحفن الى أساطيل الافرنج فتحاجزت

وتناجزت وأهبط الله ريح النصر من جهة بني مرين فخالطوا سفن الافرنج واستأحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم (المنذر) وعادوا بالسفائن محنوبة الى مرفأ سبتة وطيف بالرؤس وجلس السلطان للتهنئة وكان يوم مشهوداً  
ثم أخذ يجهز العساكر الى الاندلس وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ وخيم بساحة طريف ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة وجنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف وجاء الاسبانيون بالسلطان عظيم خالوا به بين العدو وبين وامتعت البلاد فقنيت الاقوات واختلت أحوال المعسكر وتكاثرت جموع الاسبانيين وأصرخهم صاحب أشبونة البرغاف فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلاً على حير غفلة وكبروا في مكان وفي آخر تراخف الجمع فبرز الجيش الكمين من البلد وخالفوا الى معسكر الاسبانيين وعمدوا الى فسطاطهم فافهم الحراس فقتلوهم وقتلوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية وغيرهما وسلبوا الفسطاط واحرقوا المعسكر فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم واخذ ابن السلطان أسيراً لخالطته العدو في تقدمه واخاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجا ووصل الطاغية الى محلة الاسبانيين فانكر على قومه قتل النساء والاولاد وانهزم ابن الاحمر الى حمراء وخلص أبو الحسن الى الجزيرة فجل طارق ومنها الى سبتة وكانت وقعة مشهورة على المسلمين عظم فيها البلاء وفدحت الرزية وجل الخطب وقد بالغ بعض مؤرخي الافرنج في تقدير خسائر المسلمين فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف وان خسائر الاسبانيين كانت نحو ٢٠ قتيلاً فقط وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام إن خسائر الافرنج في وقعة الدون بطرط بلغت خمسين ألفاً ولم يستشهد من

المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد في تلك الأعصار وقبول الاخبار على علاقتها بدون عرضها على العقل ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر . على أن هاتين الواقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك ففي الاولى أسرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب وفي الثانية أسرت بعض نساء السلاطان أبي الحسن عدا من قتل منهم وبعد هذه الواقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا في التهام بقيه الاندلس ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد فأعاد أبو الحسن بن مرين الكرة وجهز الاساطيل وسرب البعوث الى الجزيرة الخضراء وتلاقت الاساطيل الاسلامية والنصرانية ففقدت بهزيمة المسلمين وملك أسطول الطاغية بحر الزقاق وسماه شوق الى استخلاص الاندلس فبعث بالنفير ووافته النجدات وحضرت الاوامر من البابا بوجوب انقياد يداً واحدة لطرد مسلمي الاندلس ، وانضم الي نفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ووافاه من أنسباء ملك انكلترة السكونت درني والسكونت سالسبري ، غاستون ، كونت دوفواو كونت دوبيارن ، غيرهم وزحف الجميع فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بطريف ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين وحشروا اليها الفعلة والصناع لانقب والحفر وأطالوا حصارها واتخذوا للمعسكر بيوتا من الخشب بقصد المطاولة كما اتخذوا للمعسكرهم في القرن التالي بيوتا من الحجر وهم على غرناطة وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة فنزل بظاهرجبل طارق وطال الحصر وأصاب أهل الجزيرة الجهد فسأوا الامان فبذلوه لهم وخرجوا الى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نزل

والى هذه الوقعة يشير كتاب شهير بمث به السلطان أبو الحسن بن مرين الى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر يقول فيه عند ذكر الصلح : « إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف، منازلها في البر نحو عامير معقوداً عليها الصف بالصف أدى الى فناء الافوار في البلد حتى لم يبق لاهله قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد، فكتب اليها سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجس » الخ

وورد الجواب من السلطان ابن قلاوون وفيه عند ذكر الوقعة قوله : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا سيكم عقبان الجياد المسومة ، وسالت على عدوكم أباطحهم قسينا المعوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل العجاج ممزقا يروق الصفاح ، واتخذنا رؤسهم لصوالج القوائم كرات ، وفرجنا مضائق الحرب بتوالي الكرات ، وعطفنا عليهم الاعنة ، وخضنا جداول السيوف ودرسنا شوك الاسنة ، وقلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسلفنا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطول ، وأين الثريا من يد المتناول » الخ

ليت شعري ما كان أغناد عن حرب الكلام ، والاعتياض عن السيوف بالافلام ، إن كانت الغاية بعيدة عليه الى هذا الحد ، والظاهر أن كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحب التجنيس عن عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات حرمة لهذا الجنس ولو كان في فضلة القول عن العمل ما فيها من المهجنة

ولنعد الى الكلام على بني الاحمر أصحاب هذا المقام فنقول : لما توفي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمه أبي الجيوش بويم ولده محمد الرابع طفلاً صغيراً لكفالة الوزير محمد بن المحروق فاستبد هذا بالامر وأمن في الظلم فلما بلغ محمد الرابع سن الحلم اغتاله وشمر لتأييد الملك وجهاد العدو ووفد على أبي الحسن ابن مرين في فاس فأعظم قدومه وثقاوضاً في شأن المسلمين وراء البحر واعتزما الجهاد ويومئذ أرسل أبو الحسن ابنه الشهيد فيما بعد الامير أبا مالك في خمسة آلاف مناصر من آل مرين وانضموا الى محمد بن اسماعيل ابن الاحمر المذكور ونازلوا جبل الفتح. زحف اليهم الاسبانيول فوقعت بين الفئتين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الاسبانيول بطائل ودخل المسلمون الجبل عنوة وبقي مع الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك الى أن قتل كما سبق به الخبر وتوالت الهزائم على المسلمين وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل ونزل عليه قبل المرة الاخيرة فأسرع محمد الرابع الى انقاذه فرحل ملك النصارى وعاد محمد الى غرناطة ظافراً ونقم على جند افريقية فيما قيل قعودهم وهزيء بهم فعتبوه ، وربما ذلك في قلوبهم فقتلوه . وقيل ان ذرية عثمان بن أبي الملاء شيوخ الغزاة من زناتة والبربر وابن سلطان المغرب كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد ببر الاندلس وكانوا يرجعون في رئاستهم الى الامير أبي ثابت عامر وقويت عصابتهم وعلت كلمتهم حتى استبدوا على السلطان وكان ذلك قبل اجازته نحو أبي الحسن بن مرين فلما أجاز اليه ظنوا فيه الظنون وأضرموا السوء لما بينهم وبين أولاد عمهم من المنافسة والمداوة فعند أوبته التقوه بقرب حصن

أصبحت دولة «أغلظوا له القول وقتلوا عاصما صاحب ديوان العطاء من مواليه فلما أنكرها السلطان تناولوه قمصا بالرماح الى أن قتلوه وأتقلبوا نجوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه واستبدوا عليه وخشي غائلتهم وأسروهم فلما اتفق مع ابن مرين قبض عليهم واعتقلهم جميعا وأجازهم الى تونس وكان أبو الحجاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحببه للعلم والعلماء عقد مع النصاري المهادنات لمراحة لرعيته وتفرغا للاعداد والاهبة، ولم يهمل وقته ولا ضيع الفرصة، وأنشأ المساجد والمدارس، وجر المياد ومهد السوايل، الى أن توفي عام ٧٥٥ وسبب وفاته أن بعض الزعاف وقيل أن رجلا به مس قد طعنه يوم الفطرو هو ساجد في الصلاة فقتل عليه لحينه فقام بالامر بعده محمد الخامس وكان بعضهم رشع ابنه الأصغر إسماعيل فلما عدلوا عنه بجروهم ببعض القصور وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فكان يغريه سرا بالوثوب الى أن أمكنته الفرصة وذلك أن محمدًا خرج مرة الى التنزه فدخل محمد بن إسماعيل في زهرة من الاوشاب لفهم حواليه واقتحم دار الحاجر رضوا أن قتله بين حرمة بنائه وقربوا الى إسماعيل فرسه فركب ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء وفر محمد الى وادي آش فبايده أهلها على الموت واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لاجازة محمد المنصوب ملكه الى المغرب لما بينهما من العهد وعقد مع السلطان المنصوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب المشهور بإسان الدين لمكانه من دولة محمد فأجزوا جميعا واحتفل أبو سالم لقدمهم بفاس دار ملكه وعص المجلس



بالمشيخة والاعيان وقام ابن الخطيب فأشده بين يدي السلطان قصيدة  
الرائية يستعطفه لسلطانه وبستنجده لاعادته حتى أبكى الحاضرين ومطلعها  
سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر  
ومنها

بلادي التي عايطت مشعولة الهوى  
وجوي الذي ربي جناحي وكره  
نفث بي لآعن جفوة وملالة  
ولسكنها الدنيا قليل متاعها  
فمن لي بنهل القرب منها دوننا  
ولله عينا من رآنا والاسى  
بكينا على النهر السرور عشية  
ومنها

زجرنا بآبراهيم ملء همونا  
بمنتخب من آل يعقوب كلما  
أطاعته حتى المعصم في قنن الـ  
ومنها

قصداك يا ولي الملوك على النوى  
وأنت الذي تدعى اذا دم الردى  
وهذا ابن نصر قد آتى وجناحه  
غريب يرجي منك ما أنت أهله  
فعد يا أمير المؤمنين لبيعة  
لنصفنا مما جنى عبدك الدهر  
وأنت الذي ترجي اذا خلف القطر  
كسير ومن عليك ياتمس النصر  
فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر  
موثقة قد حل عقدتها القدر

أَعَدَهُ إِلَى أوطانه عنك ثانياً      وقلده نِعَمًاكَ الَّتِي مَنَحَها حَصْر  
وعاجل قلوب الناس فيه بِجَبرها      فقد صدمهم منك التغلب والقهر  
وهم يَرَقِبُونَ الفِعل منك وِصفقة      تحاولها يَمُنَّاكَ ما بعد ما خسر  
وبقي ابن الأحمر محمد ووزيره ابن الخطيب على الرحب والسعة  
والاجلال والكرامة في حاضرة ابن مرين إلى أن كان ارتجاع محمد ملكه  
لسنة ٧٦٣

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمى  
(باللمحة البدرية بالدول النصرية) وهو إنه كان السلطان أبو عبدالله عند  
تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه اسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار داره  
مرفها عليه متممة وظائفه وأسكن معه أمه وأخواته منها وقد استأثرت  
يوم وفاة والده بمال جم فوجدت به السبيل إلى السعي لولدها فجعلت تواصل  
زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبدالله ابن الرئيس  
أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد الله المبايع له باندرش ابن الرئيس أبي سعيد  
جدهم الذي تجمعهم جرثومتهم وشعر الصهر المذكور عن مساعد عزمه  
وهو على ما هو عليه من الأقدام ومداخلة ذويان الرجا واستعان بمن أسفته  
الدولة وهفت به الاطماع فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من  
جهات القلعة متسعين شفاً صعب المرتقي واتخذوا آلة تدرك ذروته لعمود  
بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسياً باعلاء بما اقتضى صمائه ونزلوا إلى  
القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مائة  
فاستظفروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار الحاجب رضوان ففضوا  
اغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا ما اشتملت عليه

واسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الامير المعتقل اسماعيل وقرعت  
الطبول و نودي بدعوته

وقد كان أخوه السلطان متحولا الى سكنى اللجنة المنسوبة للعريف  
لصق داره فما راعه الا النداء والمجيب وقرع الطبول وهب الى الدخول  
الى القلعة فألقاها قد أخذت دونه شعابها ورشقة السهام فرجع وسدده  
الله في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطي صهوة فرس  
كان مرتبطا عنده وصبح مدينه وادي آش وقد أعيا . تبعه فلم يشعر حافظ  
قصبته الا وهو فيها فأعطاء أهلها صنفقهم وتجهزت الحشود لمنازاته  
وجدد آخره المتغلب عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه الى سلم المسلمين  
لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين

واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه  
واستمرت الحال الى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب  
المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا الى حضرته لما عجز عن امساكها وراسل  
ملك الروم فلم يجد عنده من مبول ، فانصرف ثاني النحر وتبعه جمع  
وافر الى مريلة من ساحل اجازته وكان وصوله الى مدينة فاس مصحوبا  
من البر والكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١  
وركب السلطان للقاءه ونزل اليه عندما سلم عليه وكنت قد لحقت به . فلما  
من شرك السكبة التي استأصلت المال ، وأرهمت سوء الحال بشفاعة  
السلطان أبي سالم فقامت بين يديه . منشدا في الحفل المذكور ( وذكر  
القعيدة الرائية حتي أتى على آخرها ثم قال ) : وفي صبيحة يوم السبت  
السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى

الاندلس وقد أُلح صاحب قشتالة في طلبه ، فعقد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة وبرز الناس ، واستحضرت البنود والطبول والآلة وألبس خلعة الملك وقيدت له مراكبه فاستقل . وقد التف عليه كل من جلا عن الاندلس من لدن الكائنة ورأى من رقة الناس واجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد اذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا . قد ظلاه الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة الى كونه . ظلوم العقْد منتزع الحق فتبعته الخواطر وحيت عليه الاتفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برندة مستقل بها وبجھاتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد علي بن يوسف بن كماشة الحضرمي وبكتابة الفقيه أبو عبد الله بن زمرك ( تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول ) وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر انتهى ببعض تصرف

ثم استرجع السلطان المذكور حاضرة ملكه حمراء غرناطة وقتل له ملك قشتالة المنتزي على ملكه من أبناء عمه ، وقد استوفى القصة كتاب من انشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه الغني بالله محمد المذكور الى الملك المنصور بن أحمد ابن الناصر بن قلاوون فنظف منه بعض ما يناسب المقام لصدوره عن شاهد للحوادث بجملة ما ، وواقف على دخيلتها ، وشريك في أسبابها ، وبحرفي معرفة أنسابها وهو قوله : وان بعضا ممن ينسب اليها بوشائج الاعراق ، لا بمكارم الاخلاق ، ويمتد اليها بالقرابة البعيدة ، لا بالنسبة السعيدة ، ممن كفلائه يتما ، وصنائه ذميا شتيا ، وبوأناه مبوأ كريما ، بعد أن نشأ حر فوشاد ميا ، وملعونا لثيما ، ونوهناه من خموله بالولاية ، ونسختنا

حكم نسجه بآية العناية ، داخل أخالنا كنا الزمناء الاقتصار على قصره : ولم  
نجعل أداة تدل على حصبه ، وسامحناه في كثير من أمره ، لم نرتب  
نزيده ولا عمره ، واغتررنا برماد علا على جمره ، فاستدعى له من  
الصماليك شيعة من كل درب بفك الاغلاق ، وتسرب اتفاق النفاق ،  
وخارق للاجماع والآصاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفساق ،  
وتسور بهم القلعة من ثلم شرع في سده ، بعد هده ، ولم تكمله الاقدار  
المميزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من  
يضلع بامورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها . واقتحم القلعة واقترعها ،  
وجدل حرس النوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجدله ، ولم  
ينشب أن جدله ، واستخرج الاخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية  
وعصبه ، وابتز امرنا وغصبه وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ،  
والدائرة بنا قد أملت ، ولقد همت ، نفعل الناصر ، وانقطعت الاواصر ،  
واقدم المتقاصر ، واقتحمت الابهاء والمقاصر ، وتفرقت الاجزاء وتحملت  
العناصر ، وفقد من عين الاعيان النور الباصر ، فاعطوه طاعة معروفة ،  
 واصبحت الوجوه اليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل تقلقوا أثر  
منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، الى أن خلصنا  
الى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار ، لا تملك الا نفسا  
مسلمة لحكم الاقدار

( الى أن يقول ) ولم ينشب الشقي الخزي ان قتل البائس الذي موه  
نزيده ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه اذا أمن المضموف  
من كيده وجعل ضرغامه بازيا لصيده واستقل على اريكته استقلال الظلم

على تريكتته ، حاصر الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة

( الى أن يقول ) وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة . وركبنا البحر تكاد جهته تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرا ، وأخذت الخائن الصيحة فاقتبل ، ظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشاه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقن النريزة ، فملا بها المناطق ، واستوعب الصامات والناطق ، والوشح القراطق ، واحتمل عدد الحرب الزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولة بغير الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، الا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة فلم يكن الا ان تحصل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في امره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، ألحق به جميع من أئده في غيه ، وظاهره على سوء سميه ، وبعث اليها برؤوسهم فنصبت بمسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشدرها . الى آخر ما قال

وفي هذه واقعة نظم لسان الدين قصيدته اللامية المشهورة ووجه بها الى سلطانه المذكور فيقال أنه لشدة إعجابه بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطالعها

الحق يملو والاباطل تسفل	والحق عن أحكامه لا يسئل
واذا استجالت حالة وتبدلت	فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به	والصبر بالفرج القريب موكل

أحمد والحمد منك سجيّة  
أما سعودك فهي دون منازع  
ومنها

عوذ كمالك ما استطعت فانه  
تاب الزمان اليك مما قد جنى  
ان كان ماض من زمانك قد مضى  
هذا بذاك فشقم الجاني الذي  
والله قد ولاك أمر عباده  
واذا تغمذك الاله بنصره  
وظمنت عن أوطان ممالك راكبا  
والبحر قد حيت عليك ضلوعه  
ولك الجوارى المنشآت وقد غدت  
جوفاء يحماها ومن حملت به  
ومنها

صبيحتهم غرر الجياد كأنما  
من كل منجرٍ أغرَّ محجل  
زجل الجناح اذا أجد لغاية  
ومنها

وبكل أزرق ان شكت الحاذلة  
متأود أعطافه في نشوة  
عجبا له ان النجيم بطرفه

ومنها

لله موقفك الذي وثباته وثباته مثل به يتمثل  
والخيل خط والمجال صحيفة والسمر تنقط والاسنة تشكل  
والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الاسل المثقف تعمل  
لله قومك عند مشتجر القنا اذ ثوب الداعي المهيب وأقبلوا  
قوم اذا لفتح الهجير وجوهمم ححبوا برايات الجهاد وظللوا  
وقد كافأ محمد الخامس ملك قشتالة على غدره بخصمه ابن عمه  
بمضافته إياه على أخيه المنتزي عليه أيضا ولكن دارت الدائرة أخيراً  
على الملك وتمكن أخوه من قتله وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما  
يلي أرض المسلمين عورة وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة وكان  
صاحب المغرب في شغل عن ذلك بانتفاض ابن أخيه وعامر بن محمد  
فراسل صاحب الاندلس على أن يزحف بعساكره على أن عليه الأمداد  
بالمال والاساطيل فزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين واقلعت أساطيل  
صاحب المغرب من مرسى سبتة واحيط بالجزيرة وضيق على حاميتها  
ويئسوا من المدد فنزلوا عنها بالامان ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠  
وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها خشية ارتجاع الاسبانيول لها كما هدم  
صلاح الدين الايوبي عسقلان لمثل هذه الغاية فهدمت في سنة ٧٨٠  
واصبحت خاوية على عروشها

واستمرت أحوال غرناطة في مدة الغني بالله محمد الخامس على ما  
كانت عليه من القبطة والسعادة وأما مضت تلك الدولة لإيماض الخوذة إذ  
لم تقم لها بعد هذا السلطان قائمة تشكر الى أن قبض في عام ٧٩٨ وقام



بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف والسلطان محمد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب أشهر وزراء الاندلس على الإطلاق، بل من أشهر رجال الأدب والسياسة في الآفاق، الذي بنى المقري أكثر نفح الطيب على سيرته وأخباره ونثره ونظمه وأشياخه وتلامذته بما لا أظنه جمع عن أحد مثله وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الذيل وكان الوزير المذكور مفخر ذلك البلد وواسطة عقد ذلك الصقع فلا بأس في إيراد زبدة خبره بما أمكن من الإيجاز فنقول :

\*

#### زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليل السلطان الأمير العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس في كتابه المسمى (فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان) فقال ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب

وقال في منشأه : نشأ على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي وقرأ عليه العربية وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزى ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الإمام ابن الفخار البيري وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب إلى آخر من

ذكر من أسياف الرجل الاعلام ثم ذكر أخذه الطب وصناعة التعديل  
عن الامام يحيى بن هذيل حكيم بوقته  
وقال ابن خلدون بنسقه المعروف في شأن لسان الدين وكان معاصره  
وصاحبه : (١)

### ترجمة ابن خلدون

(١) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمه لسان الدين في ( الاحاطة بأخبار  
غرناطة . بما نصه (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن  
ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب  
المذكور في نهاء ثوار الاندلس وينسب سلفهم الى وائل بن حجر وحاله في القدوم  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفه انتقل سلفه من مدينة اشبيلية عن نجاهة  
وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتواس منهم ثاني المحمدين  
محمد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جدا المترحم  
به في القيادة ، وأما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق حم المضاءل ناهر  
الخصال رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصي الزي عالى الهمة  
عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لقين الرئاسة خاطب للحفظ  
بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقبم لرسم التعيين  
عا كف على رعى خلال الاصاله مفخر من مفاخر الترخوم المغربية . قرأ القرآن  
ببلده على المكتب ابن برال والعربية على المقرئ الزواوي وغيره وتأدب بأبيه  
وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آشي وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله  
ابن عبد السلام وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطحي ورئيس أبي محمد عبد المهيمن  
الحضرمي ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الابلي وانتفع به

انصرف من افريقية منشأه بعد ان تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة  
واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله  
وخطبه السلطان منفق سوق العلم والادب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان  
واستعضره بمجلس المذاكرة فمرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة  
أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده =

« أصل هذا الرجل من اوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال

= عن حسن النأي وشهوقه بثقوب المهمل وجود الادراك فأغروا به السلطان اغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من اغفال التحفظ مما يريب لديه فأصابته شدة ( الى ان يقول ) ودالت الدولة الى السلطان أبي سالم وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته فقلده ديوان الانشاء مطلق الجرايات محرر للسهم نبيه الرتبة الى آخر أيامه ولما ألفت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر ابن عبدالله مدير الامر وله اليه وسيلة وفي حليته شركة وعنده حق رابه تقصيره عما ارتقى اليه أمل فساء ما بينهما بما آل الى انفصالة عن الباب المريفي وورد على الاندلس في أول ربيع الاول عام أربعة وستين وسبعمائة واهتز له السلطان وأركب خاصته لتلقيه واكرم وفادته وخلم عليه وأجاسه بمجلسه ولم يدخر عنه برأ ومواكفة ومراكية ومطايبة وفكاهة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجامة والخطوة قد استعمل في السفارة الى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس لده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووصفه في الكتبة (قال) واما اثره وسلطانياته فجمعية فخاج بلاغة ورياض فنون ومعادن ابداع يفرع منها يداعه الجري شبيهة النداءات بالخواتم في نداوة الحروف وقرب العهد بحرية المداد ونقود أسر القرحة واسترسال الطبع. واما نظمه فنهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوهه وهان عليه صعبه الخ

وانما قال لهذا العهد لان ابن خلدون في البداية كاد يستصعب الظم وينسب ذلك لكثرة ما حفظ من المتون وكتب الاصول وقد ذكر في مقدمته انه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب وشكا اليه ضعف ملكته في النظم بما ظن من السبب فأجابه والله انت وهل يقول هذا الا مثلك

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه بنفسه آخر التاريخ انه في آخر مقامه بغرناطة اشتم من الورى ابن الخطيب رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة فاستأذن السلطان ابن الأحمر في الارتحال وعفى عليه ذلك الشأن إبقاء لسودة وارتمل مكرما ولفد صبح بذلك ما قاله ابن الخطيب في حقه من انه صعب المقادة عزوف عن الضيم الخ رحم الله الاثنين مقدكان كل خير ابصاحبه

من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي سنجيل ويقال  
شنيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب الى الشمال، كان له بها سلف  
معروفون بوزارتها وانتقل أبو عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني  
الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ  
وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل  
وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب واتحل الادب وأخذ عن  
أشياخه وامتلا حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه  
وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيهما وامتدح السلطان أبا  
الحجاج من ملوك بني الاحمر وملا الدولة بدائعهم وانتشرت في الآفاق  
فرقاه السلطان الى خدمته وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي  
الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية  
الى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان  
أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب ببابه وثناه  
بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في  
مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ثم داخله السلطان في تولية العمال  
على يديه بالمشارطات فجمع بها أموالاً وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ  
بأحد من قبله ( الى أن قال )

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض  
الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطمنه فأثواه لوقته  
وتماورت سيوف الموالي المملوحي (١) هذا القاتل فزقوه أشلاء وبوبع  
(١) مجمم علاج على علوه واعلاج ومملوحي والظاهر ان الاخير مختار اهل  
المغرب لتداوله في كتاباتهم

ابنه محمد بالامر لوقته وقام بأمره مولا هم رضوان الراسخ القدم في قيادة  
عساكرهم ، وكفالة الاصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة وأفرد ابن  
الخطيب بوزارته كما كان لاييه واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب  
رديفاه في أمره ، وتشارك في الاستبداد معا ، فجرت الدولة على أحسن  
حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير بن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي  
عنان مستمدين له على عدوم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على  
السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس  
وفقهاءها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر بقدمه بين يدي نجواه فأذن  
له وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قر
ودافعت عنه كف قدرته	ما ليس يسطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى	لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حياتهم	ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد اهتمهم نفوسهم	فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الايات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن  
يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم ، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم  
بجميع ما طلبوه ، ومكثت دولتهم هذه بالاندلس خمس سنين ثم نازلهم  
محمد الرئيس ابن عم السلطان (وذكر القصة السالفة من اجازة ابن الاحمر  
ووزير ابن الخطيب الى المغرب) الى أن قال : واستأذن أي ابن الخطيب  
في التحول الى جهات مراکش والوقوف على آثار الملك بها فأذن له

وكتب الى العمال باتحاه فلبادراء في ذلك وحصل منه على حظ وعند  
ما صر بسلا عند قفوة من سفره دخل مقبره الملوكة بسالة ووقف على قبر  
السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على روي الراء الموصولة يرثيه ويستشير  
به الى استرجاع ضياعه بغرناطة من الملعها :

ان بان - نزله وشطت داره      قامت مقامه عيانه أخيه -  
قسم زمانك عبرة أو عبرة      هذا تراه وهذه آثاره  
الى آخر ما ذكر من ترجمته

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه زويه ببعض  
تصرف حبا بالاختصار قال محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد الأسلمي  
قرطبي الأصل ثم طليطالة ثم أوشية ثم غرناطية يكنى أبا عبد الله ويلقب من  
اللقاب المشروية لسان الدين. انما واه مع الام الحلية القرطبية كيجي بن يحيى  
الليتي في وقعة الربض (١) الشهيرة الى طليطالة ثم تسربوا محومين الى وطنهم  
قبل استيلاء الطاغية عليه فاستنصر منهم بالمرسنة الاندلسية جملة من النبهاء  
كعبد الرحمن قاضي كورة باغة وسعيد المستوطن بلوشه وكان سعيد هذا من  
أهل العلم والدين وخلفه ولده عبد الله سالكاً سلك أبيه في التزبي بالانقباض  
والتحلي بالنزاهة وخلفه ولده سعيد جدنا الاقرب وكان عمداً خيراً مستولياً

(١) ملخص هذه الواقعة ان أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الاموي  
وفيه علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى اللبني وغيرهم فهزمهم الحسكر وقتل من قتله  
منهم وأجلى الباقي الى الاسكندرية فلم يطل الامر ان حصلت فتنة أجلتهم  
الى اقريطش - أو كريد - في الايام فعمروها واختطوا بها مدينة قنديالتي يقال  
ان اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقاً وكانت لهم بها اماراة  
استمرت نحو سبعين سنة ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت

على خلال حميدة من خط وتلاوة وفتوة وساب وأدب تحول الى غرناطة عند ثورة جيرته بني الطنجالي لها تميين وصاهر بها الاعيان من بني اضحى بن عبد اللطيف الهمداني أشرف جند حمص الداخلين الى الجزيرة في طاعة بلج بن بشر القشيري توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة وتخطب والدي نابتا في الترف نبت العليق يكتفه رعي أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم اذا سرى، فقاته لترفه حظ كبير من الاجتهاد وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلة وانتقل الى لوشة بلد سلفه مخس، صابلق الوزارة الى أن قصدها أبو الوليد، متخليا الى الحضرة فعضد أمره وأدخله بلده لدواع يطول استقصاؤها. ولما نم له الامر سحب ركابه الى داره ملكه مستأثرا بشقص عريض من دنياه، وكان من رجال السكمال طلاق الوجه، وتضمن كتاب المحلى والاحاطة رائقا من شعره، وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الاولى سنة واحد وأربعين وسبعمائة ثابت الجأش غير جزوع ولا هيابة.

حدثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوثي قال : كبا بأخيك الطرف وقد غشي المدو وجنحت الى أردافه فأنحدر اليه والدك وصرقي وقال : أنا أولى به فكال آخر العهد بهما . قال : وخلفني أي عبد الله عالي الدرجة، شهير الخطبة ، مشمول بالقبول ، فقلدني السلطان سره ولما يستكمل الشباب، معززة بالقيادة رسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه ، واثمني على صوان حضرتي ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وقصر المشورة على نصحي ، الى أن

كانت عليه الكائنة فقتل في أخوه المتغلب على الامر به فسجل  
الاختصاص وعقد القلادة

ثم حملة أهل الشجناء من أعوان ثورته على القبض علي فتقبض  
علي ، ونكت ما أبرم من اماني ، واعتقلت بحال ترفيه . وبعد أن كبست  
المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الاغلاق واستؤصلت نعمة  
لم تكن بالاندلس من ذوات النظائر في تبحر الغلة وفراهة الحيوان  
وغبطة العقار واستجادة العدة ووفور الكتب الخ فأخذ ذلك البيع ،  
وتناهبتها الاسواق ، وصاحبها النحاس وشمل الخامة والاقارب الطلب ،  
واستخلصت القرى ، وانصرف اللسان الى ذكر الله تعالى ، وطبقت  
نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبا قلت

تخلصت منها نكبة مصحفية لعقداني المنصور من آل عامر  
( يشير الى نكبة مصحفية أيام المنصور بن أبي عامر ) ووصلت الشفاعة  
في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاني حل العقدة ، ومسألة  
الدولة ، فانتقلت صعبة ساطاني المكفور الحق الى المغرب وبالع مملكة  
بري ، منزلا رحيبا ، وعيشا خنضا ، واقطاعا جبا ، وجراية ما وراءها مرمى ،  
ثم اسمف قصدي في تهيوء الخلوة بمدينة سلا : منزه الصكوك ، مهنا  
القرار ، متفقد باللهي ، وفور الحاشية ، مخلي بيدي وبين اصلاح معادي ، الى  
أن رد الله تعالى على السلايان أمير المسلمين أبي عبد الله ( محمد الخامس ) ابن  
أمير المسلمين أبي الحجاج مملكة ، فطال بني بوعد ضربته ، ولم يوسعي عذرا ،  
ولا فصح في الترك مجالا . فقدمت عليه بولده على حال من التقشف والزهد  
فيما بيده ، فرمى الي بمقاليد رأيه ، وغطى من جفاء لي بحمله ، وحثافي



وجوه شهواته تراب زجري، وصرف هواي في التحول ثانيا، فاستعنت  
الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجرأية، ولا تشبث بولاية،  
مقتصر على الكفاية، حامل المركب، هاجر الزخرف، صاعد بالحق في  
أسواق الباطل، كافا عن السخال برائن السباع الخ انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمد إلى أن غصت بامرره  
حاشية السلطان فدبت في حقه عقارب السعاية، وتوهم ابن الخطيب ميل  
سلطانها إلى قبولها فأجتم التحول عن الاندلس إلى المغرب، واستأذن  
مولاه في تفقد الثغور الغربية وسار إليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه  
علي، فلما حاذى جبل طارق مال إليه ومنه أجاز إلى سبتة ومنها قصد  
السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني وكان مكينا لديه  
لسابق عهد فأنزله خير نزل، وبعث كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى  
الاندلس في طاب أهله وولده وجاء بهم على أكمل الحالات. فلما خلا الجو  
لأعدائه أخذوا تتبع سقطاته وإغراء سلطانه محمد به، ورموه بالزندقة  
ونسبوا إليه في ذلك كلها. رفعت إلى قاضي غرناطة أبي الحسن بن الحسن  
فسجأها عليه وبعثه ابن الأحمر إلى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه  
بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أئفة لدمته أن تحقر ونزله أن يهان  
وقال : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم المون بما كان عليه

ولبت في جوار عبد العزيز إلى أن توفي سنة ٧٧٤ ورجع بنو مرين  
من تلمسان إلى فاس فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي القائم بالدولة  
يومئذ فأرسل ابن الأحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب فأبى  
واستنكف وكان ابن الأحمر قد أعان أحمد بن سالم المريني على سلطنة المغرب

وأمدده . وبويع هذا وجرت بينه وبين ابن غازي حروب انتهت بانهزام ابن غازي وخضوعه واستسلم ابن الاحمر طعمة على ذلك جبل الفتخ والى ذلك يشير الا . ير الفاضل الرئيس أبو الوليد بن الاحمر بقوله « حتى خيم مولانا جدينا بظاهر جبل الفتخ وكان إذ ذاك راجعا الى إمالة المغرب فأناخ عليه كل كل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ، ولم يبال مولانا جدينا بما أرسلت آباءه ليل وأطراف النهار من شآبيب الانقطاع ، ولم يبق بقرناطة من له خلوص ولا من تتراعى به همة إلا وأعمل السير الحثيث ، ولحق بمولانا جدينا لحاق المحب بالحبيب . الخ

وقال ابن خلدون : ان ابن الاحمر يومئذ محادولة بني مرين من وراء البحر وكان من جملة شروط ابن الاحمر على السلطان أبي العباس احمد بن أبي سالم عدا جبل الفتخ تسليم لسان الدين ابن الخطيب لما كان موغرا صدره منه ولا سيما بعد أن بلغه انه كان يغري عبد العزيز بافتتاح الاندلس . فلما استولى السلطان أبو العباس احمد قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة لسان الدين لمعه ابن الاحمر ايام وزارته من تقليده مشيخة الغزاة بالاندلس . فلما قبض عليه طار الخبر الى سلطان قرناطة فأرسل وزيره بعد ابن الخطيب ابا عبد الله ابن زمرك وهو تلميذ لسان الدين وخريجه فأضر ابن الخطيب في مجلس الخاصة . و ص عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة ، فعظم فيها النكير ووخ وعزر بمشهد الملائكة ثم نقل الى محبسه حيث دس عليه سليمان ابن داود من قتله واخرج شلوه من القيد فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أخرج من قبره وأحرق ثم أعيد الى الحفرة . وعزي ذلك الى سليمان ولهذا

سمي لسان الدين بذي القبرين، كما كان يلقب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الامور على اثنين .

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر بحيث أن المغرب ليفتخر بخائني ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفخر الشرق بصادي الصابي والصاحب ولا بن الخطيب تأليف حجة أشهرها . كتاب التعريف ، بالحلب الشريف ، والأحاطة بتاريخ غرناطة . في مجلدات ستة ، وإشارة الى آداب الوزارة ، والتاج المحكي ، والكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة ، والاكلیل الزاهر فيما فضل عند نظم الناج من الجواهر ، ورقم الحلل في نظم الدول ، وطرف المعصر في دولة بني نصر ، وبستان الدول ، قسمه الى شجرات أشبه بالنظارات في هذه الايام ، فقال مثلاً : شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة الجهاد ، وقسم هذه فرعين خيول وأسطول ، كل ذلك على وضع غريب لم يسبق اليه . وكتاب تخلص الذهب ، وجيش التوشيح ، وعائد الصلة ، ونفاضة الجراب ، وانزبدة الممخوضة ، وكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان ، والدرر الفاخرة ، وسد الثريعة ، وأعمال الاعلام ، فيمن بويح قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وبضمة تأليف في الطب ، وعدة رسائل منها : خلع الرسن ، في أمر القاضي أبي الحسن ، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوّه ، وديوان كبير ، وقد استوفى صاحب النفع في شأنه ما لم يبق في القوس منزعا ،

ولنعد الى ذكر بني الاحمر أصحاب غرناطة فنقول : بعد وفاة أبي عبد الله محمد الخامس الذي كان واسطة عقد هذا البيت تولى الامر ابنه

أبو الحجاج يوسف بن جندب قد أسلم مع ملوك قشتالة وهادن الاسبانيول طمعا في راحة رعيته واعتنى باصلاح شؤون قومه إلا أن ابنه الثاني محمد قام عليه وحدثته نفسه بالامارة وقضى مدته في مدافعة ابنه الى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩ وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف لكن حيث كان أخوه محمد (١) هو المنتزي على الملك وقد التف حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على كرسي الامارة وهو السادس باسم محمد من سلاطين غرناطة وفي مدته لم تفتقر المناوشات مع الاسبانيول على حدود المملكة وفي عام ٨١١ أتم أنفاسه وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث من اعتقاله فبويع بالملك وهادن العدو ما استطاع الا انه اضطر أخيراً الى ركوب الاسنة ولم ينمقد الصلح الا في نحو سنة ٨١٣

#### اضطهاد اسبانية لمسلمي الاندلس ويهودها

وفي تلك المدة كلها كانت دولتا قشتالة وأراغون تتسابقان في تعذيب المدجنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الاسبانيول وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم استزادة للثوبة واستعلاء في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني

(١) أما ما يفهم من قول الامير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف ابن محمد الغنى بالله بن الاحمر في ترجمة الوزير الكاتب ابي عبدالله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وازارة دولتهم فهو ان وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله « الى ان من الله بسراجه واعاده الى الحضرة في اول شهر رمضان المعظم من عام اربعة وتسعين وسبعمائة فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام اخينا محمد مقامه بالامر »

ففي قشتالة كان هنري أخو بطريرك قد جعل للمدجنين والاسرائيليين علامة فارقة اسمها ( المشيرة ) وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الاسبانيول وان لا يقبل أحد منهم في خدمة الدولة

وفي أيام جان الاول ملك قشتالة صدرت الاوامر بأن كل مسيحي يربي في بيته مدجنا أو اسرائيليا فله الحق كل الحق أن يؤدبه بالسياط وانه لا يجوز لمدجن ولا يهودي ان يستخدم عنده مسيحيك، وان من خالف ذلك يضرب وتضبط أملاكه، كما انه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الاسبانيول الا اذا كان طبيبا وثبت لزومه ومن خالف ذلك يغرم بدفع ستة آلاف مراويد ( نوع من السكة )

وسنة ٨١١ هجرية جدد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة وضم اليه أن جزاء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وان كل من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الاسبانيول او يؤاكله او يستخدمه في عمله يجلد مائة، واذا تكرر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمخبر، واذا وجد أحد من هؤلاء في وليمة اسبانيولي يغرم بدفع ثلاثة آلاف وان عاد صاحبها له من الاسبانيول اثناء مرض يدفع ثلثمائة وان عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلثمائة ويضرب ويعزر

وكانت في بادئ الامر محاكم مخصوصة بالمدجنين فالغيت في التالي وأحيلت دعاويهم الى محاكم الاسبانيول وصدرت الاوامر ايضا بأن كل يخرج مدجنا من مزارعه ويستخدم لحرثه مدجنا بدلا عنه يغرم بخمسة الاف مراويد وان تكرر فعله فبمائة الف وان تكرر ايضا فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته واذا فر مدجن الى غرناطة ووقع أثناء فراره في يد

الاسبانيول عدّ اسير حرب وضبطت جميع أمواله وصار ملكا لمن يمسكه  
وسنة ٨٢٦ ضيف الى هذا الشرط أن من منع من المدجنين ابنة من التنصر  
عذب شديدا ومن اسر من مسلمي غرناطة احداً كان له ملكا خالصا

وسنة ٨٣٠ صدرت الاوامر بعدم اعتبار امضاء الاسبانيول فيما  
عليهم للمدجنين واليهود وباعتبار امضاء هؤلاء فيما عليهم للاسبانيول

وسنة ٨٣٣ صدرت الاوامر ان المسلم او الاسرائيلي المدعى عليه  
بدين لاحد الاسبانيول اذا انكره لا يقبل منه اليمين ولكن حيث كان بعض  
المدجنين واليهود يضمنون الاراضي الاميرية ففي هذه الحالة يقبل منهم  
اليمين عند الانكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة ايزابلا جميع عهود جان الصغير وأضافت  
عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت  
المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لسكن في الرجال فقط) ووضعت لهم  
علامات فارقة في اللبس من جعلتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع لتمييز  
المسلمات والاسرائيليات

وما كفى كل هذا حتى نشرت حكومة قشتالة امراً لجميع عمال  
النواحي بأنه بنغ المذمة وقوع إهمال في انفاذ بعض اشروط بتماس في حق  
المدجنين واليهود وانه ان حصل فيما بعد اقل تقاعس من احد في تنفيذها  
بحرفها يعزل من منصبه ويحرم معاشه

واما في مملكة اراغون فكان بطاره الثالث قد اعلن في نحو سنة ٦٨٠  
هجرية أن كل شخص مسيحيا كان او مسلما او اسرائيليا يمكنه استيطان  
مملكته والاقامة بها حيث شاء لكن ينفي المسلمون واليهود من الخدمة

المسكرية والمالية في الحكومة ويحظر عليهم ان يدينوا الاسبانيول مالا  
بأكثر من فائدة عشرين في المائة و ن دعاويهم تنظر عند الحكام ويقبل  
فيها اليمين على انه ان كان لمسلم أو يهودي دين عند احد الاسبانيول بدون  
سند أو بيينة خطية فيقبل قوله من تاريخ الدين الى خمسة عشر يوما ومن  
ثمة لا يعود مقبولا والسند الذي للمسلم والاسرائيلي على الاسبانيولي ان  
لم يسجل عند حكام الاسبانيول فيعد - خفي ست سنوات يسقط اعتباره  
ويلغى كل حكم له

وسنة ٧٧٠ أصدر الدون جان امراً بأن من تنصر من ابناء المدجنين  
ومات أبوه فله نصيبه من الارث كما او بقي مسلماً

وسنة ٧٨٠ صدرت الاوامر بان كل مدجن يفر الى ارض غرناطة ويقع  
في اليد يعتبر - سير حرب وتضبط املاكه وتقسم الى ثلاثة اقسام الاول  
للملك والثاني لمن يكون قد قبض عليه والثالث مناصفة بين صاحب  
الارض التي ابقى منها وصاحب الارض التي تهيأ - فوعه فيها  
ثم منع المدجنون من الجهر بالشهادتين واستعمال النفير لما فيه من  
تحريك الجامعة وجوزي - من يجاهر بشيء من ذلك بالقتل

وسنة ٨٩٠ أصدر الملك فردينا ند صاحب اراغون امراً بمنع المدجنين  
من الخروج من مملكته وانه اذا استصحب أحد الاسبانيول احداً منهم في  
خدمته لضرورة قضت فيؤذن بشرط ان لا يكون مع المدجن ولد دون  
الاربع عشرة من عمره ذلك خوفاً من الفرار الى بلاد الاسلام - الى  
غير ذلك من آيات العدل ( ١ ) التي تواترت في كتب الافرنج فلخصنا  
منها ما قرأت ولا عجب فلولا هذه الغرائب ولولا الامعان في الظلم الى

هذه الدرجة لما تأخرت اسبانية الى الحد الذي وصلت اليه بعد ان كان لها  
من مرتزها في أوروبا وافتتاح اميركا على يدها وانبساط أيديها في  
مستعمرات الخافقين ما يضمن لها المقام الاول بين الدول

\*\*\*

### ﴿ عودتي الى ابن الاحمر ﴾

ومن اخبار يوسف الثالث انه لما كان في محبسه من شلو بانية  
واشتدت علة أخيه محمد السادس وقطم حبال الرجاء من هذه الحياة طمع  
في تحويل الملك الى ابنه فكتب الى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلا فيها  
بأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في الملك واتفق  
عند وصول الكتاب ان يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد فلما دفع  
الرسول اليه مرسوم السلطان استأذن الامير يوسف في قراءته وما عثم  
ان امتنع لونه فاستشف يوسف الامر وسأل القائد هل فيه أمر بضرب  
عنقي؟ فتخير في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقراه بدون أن يعلو  
وجهه اقل تغير ولما أتى على آخره تبسم قائلاً للقائد : لنكمل لعبنا ، فلم يدر  
القائد كيف يلعب بعد ما شاهد من ربط جأش الامير وسكينته ، ويقال  
انهما كانا لم يزاالا في اللعب حينما اقل فارس ينعي محمدا السادس ويبشره  
بانتظار الناس حضوره لتبوء تخت الملك وكانت أيام يوسف هذا  
موسومة بالخير لاهل غرناطة وكان ممّا بلا من حلو الدنيا ومرها ،  
وحلب من شطري عرقها ونكرها ، قد أصبح على جانب من الحنار في  
قومه والرافة برعيته فساس أموره سياسة الاب الشفيق الى ان وافاه  
اجله لخمس عشرة سنة من ملكه



فقام بالامر بعده ابنه محمد اليساري أو الدير فأكد عهود المصافاة مع من جاوره من الملوك لكنه لم يحسن الاضطلاع بالاعباء فنثار عليه اهل غرناطة وبايعوا محمد الصغير من ابناء عمه وانسل محمد الدير أو الاعسر خفية من غرناطة في هيمة ذلك فلحق بساحل البحر ومنه تزيلاً بتياب بحري وأجاز في فلك صغير الى تونس نزىلا عند محمد الناصر ملكها مستغيثاً به فأكرم نزله ووعدته خيراً

وأما محمد الصغير فأخذ ينتقم ممن شايعوا ابن عمه وقد ورد في توارينخ الافرنج انه حاول لاجل ذلك نكبة يوسف بن سراج من رؤساء غرناطة ففر ابن سراج بأربعين فارساً من أهله وصحبه الى ملك قشتالة وداخله في أمر إعادة محمد الاعسر فكتب صاحب قشتالة الى صاحب تونس يسأله لارسال نزله الاعسر وهو يظاهره على أمره فانقذه بألف وخمسمائة من رجاله ولما وطى أرض الاندلس انحاز اليه الاكثرون وأخرج محمد الصغير عسكرياً للقائه فانضم أكثرهم اليه ودخل غرناطة فاعتصم محمد الصغير بالجرأ وبقي محصوراً الى ان أسلمته حاميته بعد ان نال منهم جهد الحصار فقتل وكانت مدة امارته سنتين وبضعة أشهر واستقر الاعسر في ملكه وعصده في ذلك ملك قشتالة املاً بوهن عزيمته وسوء تدبيره لكنه رمى بآماله ابعداً ما يمكن للاعسر قبوله وطمح الى ادخال سلطنة غرناطة تحت جناح حمايته فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب وماجت الثغور بالبعوث وفي أثناء ذلك فر يوسف بن الأحمر الذي يقال انه حفر رأي سعيد المتهزي على الغني بالله الى صاحب قشتالة ووعدته ان اعانه على ملك غرناطة بقبول الطاعة له واداء الجزية فسرّح معه جيشاً وانضم اليه أحزاب يوسف

فأجلسوه مكان الاعسر وفر هذا واستقر بمالقة لكن لم يمض على ذلك ستة أشهر حتى توفي يوسف هذا وأعيد محمد الاعسر الى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥

وكانت بين ملوك الاسبانيول لذلك العهد محاربات شغلتهم عن غرناطة زمنا الا ان الایسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة واختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد مصر واتسع الشر وانحاز محمد بن اسماعيل من انبياء السلطان وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه الى ملك قشتالة وانتزى محمد بن عثمان الاحنف من ذوي القرابة أيضا وكان قائداً بالمرية وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء وتبوا الملك عنوة وقصر الایسر في قلعة وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ٨٤٩

ولما كان ملك قشتالة ذا هوى مع نزله محمد بن اسماعيل زحف ابن الاحنف الى بلاده واكتسح البسائط والنجر وغنم وهزم الاسبانيول مراراً الا ان سرية له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦ وفي الشهر التالي انهزمت له سرية ثانية يقودها ابن عبد البار وكان هذا منفه لا عن أبيه حليف محمد الاعسر للاتصال بخدمة الاحنف وله امامه مراقف محمودة فمع هذا قتله جزاء هزيمته وكان مولما بسفك الدم فانتقض عليه الاعيان لكثرة موبقاته وانسل الرؤساء من غرناطة طالبين رجوع الاعسر اكنهم خافوا أن تكون الوسيلة الى قتله فولوا جوهم شطر إمارة محمد بن اسماعيل نزبل صاحب قشتالة وأمدده هذا بجيوشه فانهمزمو الاحنف ودخل غرناطة ليجمع فل قومه فوجد الاغلب منتقضين عليه فعندها وقد أيقن بظفر

ابن اسماعيل قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه فاستدعاهم الى الحمراء ووضع فيهم السيف. ويقول (لا فله) صاحب تاريخ اسبانية وأحد أعضاء جمعية الآثار في مدريد إنه ربما كانت هذه الحادثة سببا لوجود هذه الرواية. المعنى بها حادثة قتل بني سراج في الحمراء - اذ لا بد لهذه الروايات المتناقضة من عصر الى عصر أن تكون ذات أصل ولو كان ضعيفا ثم فر الا حنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه، من شركاء رأيه الفائل وعمله الموفق ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩

ولما كان استيلاء ابن اسماعيل قد تم بمظاهرة ملك قشتالة لم يزل جهداً في التنوع بشروط اذلاله وادخاله في طاعته حتى عاد كأه قانداً من قواده. وفي تلك الاثناء وصل الى الاندلس خبر الفتح اذ كبر الذي تضاءلت من دونه الفتوح، وتفتحت أبواب السماء فأطلت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمد الفاتح قدس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشهد بهذه البشري ازر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ونال سكان الاطراف منها أضعاف ما نال سكان الاوساط ومنهم أهل الاندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الزاب والظفر، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، تجددت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية بجان الثاني عندهم، ولما ظم بعده ابنه هنريث ترع محمد ابن اسماعيل الى طلب الاستقلال فتجدد القتال وشدت الغارات، زحف صاحب قشتالة بجيوش جرارة فطلب المسلمون الصالح فأجابهم اليه على شرط جزية يؤدونها واطلاق تمانية أسير اسبانيولي وانعقدت المهادنة

وفي خلال هذه الهدنة عادت الملائق التجارية بين غرناطة وجيرتها الى ما كانت عليه وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الاسبانيول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية بالفرار من أوطانهم حتى يروي أن من هؤلاء رئيساً يقال له دياغو دخل في ذمة ملك غرناطة وخدمه وعظمت ثقة هذا فيه حتى رمى أهل مالقة به في عسكر عند ما انتقضوا مرة عليه على أنه قيل إن من جملة غرائب تلك الهدنة أن تضم الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فانه يبقى ميداناً للغارات، ولم تنشب المواجهة ان بطلت من الجهتين وأغار مولاي أبو الحسن على بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرخي الافرنجة على أطراف شاطبة فانتقم الاسبانيول بالاستيلاء على جبل الفتاح، وأعجب الدون هنريك جداً بهذا الفتاح، حتى أضاف الى ألقاب ملكه ألقب ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونهد الى ناحية غرناطة فاستكفي المسلمون شره بالهدايا وضروب التحف ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرت دعة البلاد الى أن ودع محمد بن اسماعيل هذه الدنيا القايية في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المرية وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي

## الفصل الرابع

في دول اسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر

قد تكلمنا عن غرناطة لكونها آخر مدن الاسلام بالاندلس وعن دولة بني نصر فيها لكونها ذماء المسلمين وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار و نتكلم الآن مجملا عن تاريخ الدول الاسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات بحيث يستعين القارىء بفهم هذا على فهم ذلك وتكون الفائدة أعم وأوفى

فاسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح منقسمة الى خمس ممالك نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال أما في الشمال فمملكة نافار الصغيرة على منحدري جبال البيرانه وكان ملوكها من آل أيزر فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه وذلك أن اخت الدون شانجه آخر ملوكهم كانت مزوجة بالكونت تيبوات دوشمبانيه فلما توفي الدون بلا عقب كان الحق في ارثه لابن اخته من كونت شمبانيه

إلا أنه لما كان ابن اخته هذا قد لج في طلب الملك قبل وفاة خاله وأثار عليه لاجل تنزيله مما حفظه واحقده عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون فلما توفي كاد يقيم الخلاف بين جقوم وبين تيبولت لكن أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك حبا بالسلام فأل الامر اليه وبعد أن استوى على كرسي الامارة بمدة انتظم في سلك الصليبية

وانزعج الى المشرق يحارب مسلمي الشام والمسلمون منه بالانديلس بالكان  
الادنى ويقال انه كان محبا للعلوم والفنون وانه كان يقول الشعر ويلحنه  
على القيثارة ويعرض اشعاره في قصره مستهدفا لا انتقادها وقد تزوج ثلاث  
مرات الاولى بابنة كونت لوران فلم يولد له منها أحد والثانية بابنة كونت  
فلاندره فولد له منها ابنته بلانش واثلاثة بابنة كونت فواكس فولد له  
منها ولدان تيبولت وهنري وابنة اسمها ليو نوره ومات في ٨ تموز سنة  
١٢٥٣ م تاركاً ارثه لولده تيبولت الثاني وهو الذي تزوج بايزابلا ابنة  
مارلويس أو لويس التاسع وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداهما  
الملك المذكور شوكة يقال انها — كليل الشوك الذي كان به السيد  
المسيح وقد صحب حماه الى الاراضي المقدسة حتى اذا مات مارلويس في  
غزة تونس في ٢٥ اغسطس سنة ١٢٧٠ انقلب تيبولت الى صقلية وبها  
توفي في ٥ كانون الاول من السنة المذكورة . واذ لم يكن له ولد قام  
بالامر بعده أخوه هنري وتزوج هنري بلانش ابنة روبرت كونت  
ارتوا وتوفي في ٢٧ اغسطس سنة ١١٧٤ عن بنت واحدة اسمها السونة  
جويانه . هي التي ورثت ملك نافار وحيث كانت عند وفاة والدها في  
الثالثة من عمرها تولت المملكة والدتها بالكفالة الى أن ترشد الصغيرة  
وفي تلك الاثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك  
طامحا كل منهم الى التزوج بالعنائة أو تزويج أحد أولاده بها وانقسم  
أهالي نافار الى شطرين منهم من يعيل الى ملك قشتالي ومنهم الى ملك  
أراغوني ولم تلبث الفتنة أن اتفقت بين الفئتين فعمت البلاد واضطرت  
بلانش أن تلتجئ الى ملك فرنسا فيليب الملقب بالجريء فانحازت الى

قصره بابلتها وأرسل الملك من خواصه (أوستاش دوبومارشه) والياً على بلاد (نافار) فلم تمض مدة حتى قامت الفئة القشتالية هناك على العامل الفرنسي فحصروه في القلعة من (ببلونة) حاضرة الملك ووصل الصريح الى الملك فيليب فسرح جيشاً الى ببلونة اقتص من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل . هذا ولما بلغت الملكة (جويانة) النافارية سن البلوغ تزوجت (بفيليب لوبل) ملك فرنسا وولد لجويانة (لويس هوتن) ملك فرنسا وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار كما بويع أخوه فيليب الطويل ملكاً على فرنسا وتزوجت ابنته هذه وكان اسمها جويانة أيضاً بفيليب كونت افرو من آل كابت وتناسلوا في ملك نافار وكان منهم شارل الرديء الذي احترق في فراشه من شمة أوقدت بجانبه واتصل لهيبها بالفراش وابنه شارل النبيل الذي مات عن ابنة واحدة اتصل الملك منها الى آل اراغون فوقع النزاع عليه بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١

ثم مملكة أراغون حذاء جبال البيرانية اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصية البحر واشتهر بين أمرائها (جقوم) هو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة ومينورقة ويابسة، وقيل ان السبب في الاستيلاء عليها تعرض اهل ميورقة لمراكب الـ (بانيميل) ويفهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة ان سبب اخذها من المسلمين ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى احتاج الى الخشب فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية الى يابسة باخذه فلم بذلك والي طرطوشة فجهر اليها من أخذها فترصد محمد لبعض مراكبهم وأخذها فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفاً وجهزوا ستة عشر ألفاً في البحر وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب

شرطته ان يأتيه بأربعة من كبراء المصر فضرب أعناقهم فاجتمعت الرعية الى أبي حفص بن سيري واخبروه بما نزل، عزوه فيمن قتل، وقالوا له هذا امر لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته بأحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة وأحضرهم واذا بفارس على هيئة النذير دخل الى الوالي وأخبره بان الروم قد أقبلت وانه عد فوق الاربعين من القلوع وما فرغ من اعلامه حتى ورد آخر وقل إن اسطول العدو قد تظاهر وانه عدد سبعين شراعا فصح الامر عند الوالي وأطلقهم واستنفرهم ثم ورد الخبر بان العدو قرب من البلد فانهم عدوا مائة وخمسين قلعا فاخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول. وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف وانهمزم المسلمون وارتحل النصاري الى المدينة وتزلوا منها على الحربية الحزنية من جهة باب الكحل ولما رأى ابن سيري ان العدو قد استولى على البلد خرج الى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا ولما كان يوم الاحد أخذ البلد وقيل فيه أربعة وعشرون ألفا وأخذ الوالي وعذب وعاش خمسة واربعين يوما تحت العذاب ومات وأما ابن سيري فتحصن بالجبال وجمع حوله ستة عشر ألفا وما زال يتقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ١٠٢٠ وعشرين وثمانية وجرى من آل جبلة ابن الايهم الغساني واما الحصون فأخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام انتهى ما ذكره ابن عميرة الخزومي . ملخصا

وبعد استيلاء انقوم على ميورقه ثار بميورقه الجواد العادل العالم



الذي أُلقت باسمه التآييف الشهيرة ابن عثمان سعيد بن حكم القرشي ثم  
تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة وضبط الجزيرة احسن ضبط  
وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد أخذها ميورقة

وفي مدة جقوم هذا أخذت بلنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها  
وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة اراغون وثاروا واتخذوا في عدوهم الا  
ان جقوم طردهم أخيراً فأنماز اكثرهم الى مملكة ابن الاحمر وأجاز بعضهم  
الى افريقية وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا  
والتهتك في المنكر ، بينما كان مطران جبرونه يوبخه على استهتاره مرة  
استأط منه غضباً وأمر بقطع لسانه واغتصب مرة امرأة احد رعيته  
وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦ وخلفه ابنه بطره في مدته انضمت  
مملكة صقلية الى مملكة اراغون وطرده بطره منها شارل دانبجوا خامارلويس  
ملك فرنسا بالرغم من ارادة البابا و استعادتها فانهزموا فأصدر  
البابا حراً على حرم على بطره ونشيراً فقام البابا بمملكته شارل دوقالوا  
ابن فيليب الجريء ملك فرنسا فزحف فلبس بمساكره على مملكة اراغون  
وكان له من يقوم اخي بطره فله عضد لإحنة كانت مستحكمة بين  
الاخوين فانهزم جند بطره واستولى الفرنسيون على جبرونه الا ان  
العلة تفشت فيهم من رائحة يمش القتل فهلك منهم خلق كثير وأصيب  
فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق بعد انصراف الفرنسيين  
استعاد بطره جبرونه في حول نظره صواباً أنبىه جقوم الذي ضافر عليه  
الغريب فارسى ولده الفونس الى ميورقة باسطارل ليأخذها من يده وتوفي  
بطره وابنه في حصارها لم يقام حتى دخلت في رزته وقام بأمر اراغون بعد ابيه

ومات هذا وخلفه اخوه جقوم . ملك صقلية فترك أمورها لوالده  
وجاء الى اراغون مستلما زمامها وأعاد ميورقة علي عمه جقوم ثم تولى صقلية  
اخوه فريدريك وتزوج بابنة شارل دونابل وولد له منها خمسة ذكور جقوم  
والفونس وجويان وبطره وراون وخطب لابنه البكر جقوم الدونة  
ليونوره القشتالية ويناكناوا ايمقدون له عليها اذ عدل عن الزواج زعماء أن أباه  
أجبره عليه وانه يريد التهرب والتبتل واسقط حقه من وراثته الملك ودخل  
في سلك الرهبان وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من الانغماس في  
الذات والاسترسال الى الشهوات فولى العهد أخوه الفونس وصار جويان  
أخوهام طرانا على طليطالة وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعا باسمه  
تم مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ وخلفه ولي  
عهده الفونس الرابع وتزوج هذا رينيه ولد له من احدى امرأته الدون بطره  
ولي عهده فلما مات الفونس سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين بطره وبين خالته اخت  
ملك قشتالة وادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته وأولادها فكان الخلاف  
يتسم بين قشتالة وأراغون لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد  
السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب وبعد وقعة طريف وانتفاض  
بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره  
جقوم قيل ان السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجها الى افينيون  
لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبا بجانبه فلما صارا على مقربة من البلدة  
وقد حفت بهما حاشيتهم رأى سائس حصان الدون جقوم أن سائس  
حصان الدون بطره يحث مسير حصان مولاه فاطمه ليتشد ويمكنه اللحاق  
به فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة

سائسه فوقرت في صدره وانتهاز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة وذلك انه وقم خلف بين صاحب جزر الباليار وبين ملك فرنسا من أجل مونييه وزحفت عساكر فرنسا لاختذها فبعث جقوم الى ابن عمه بالصريح فلم يجبه ثم نقم عليه امورا منها انه يحاول الاستقلال وانه ضرب السكة باسمه وأعلن خلعه من ولاية الجزر فاستغاث هذا بالبابا فارسله البابا الى برشلونة نزيلا عند بطره ومستميحا عفوه فعند ما حصل عنده ضبط عليه امراته التي هي اخته وسرحه فلاحق جقوم بميورقة وقد نادى بحرب بطره والاتصال عنه فاسترجع بطره اسطوله من الجزيرة حيث كان في رباط المسلمين ونزل به على ميورقة ففر جقوم الى فرنسا وبقي في نزاع مع ابن عمه حتى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا وجوز بثمان مائة ثلاثة آلاف ماش وثمان مائة فارس وركب بها البحر طامعا في الاستيلاء على جزيرته ميورقة تقابله واليها بجيوش أوفر مراراً من قوته وغلبه فهلك في القتال ولم تنته مسألة بطره مع جقوم ابن عمه حتى ثارت مسألة أخرى مع أخيه جقوم بسبب انتقال الملك لان بطره كان يريد العهد لابنته لانه لم يولد له ذكور ولان أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب الى قسمين وانتشبت الحرب بينهما وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي اثنائها توفي أخوه فاتهم بكونه سمه فازدادت الثورة وزحف الملك الى الرعية النائرة جفرت عدة مواقع وسالت الدماء الجزيرة وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا اليه وارهق مدن مملكته حصراً وعسراً الى أن تمت له الغلبة ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم ارادة بطره ملك قشتالة انتشبت الحرب بينهما وانضم الى أراغون جميع الامراء

والرؤساء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية ثم الثالثة

وهلك بطره الاراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيفا وخمسين سنة وكان سفاكا للدماء غدر بأهله واخوته وأهرق سيولا من الدم حتى لقب بالخنجري وتزوج باربع نساء الاولى ابنة ملك نافار دونه ماريه ماتت سنة ١٣٤٦ واثانية دونه ليونيورة ابنة ملك البرتغال وماتت هذه سنة ١٣٤٨ بالطاعون الذي عم جنوبي اوربا وهو الذي يشير اليه ابن خلدون ويسمونه بالطاعون الجارف خرب كثيرا من ديار الشرق والغرب ثم اقترن الدون بطره بليونوره اخت ملك صقلية وماتت سنة ١٣٧٤ وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة فاقترب بامرأته الرابعة سيدبلا فورسيا أرملة شهيرة بالجمال وكان أوانثذ قد بلغ الحادية والستين فملك قلبه واعطاها قياده واقطعها من املاك التاج الملكي فاعترض ولي عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا اوربان السادس والبابا كليمان السابع وأخذ كل منهما يحرم الآخر وانقسمت ممالك اوربا في شأنهما الى شطرين فان فرنسا وقشتالة ونافار و نابولي قامت بدعوة كليمان وانكلترة والبرتغال وأراغون قامت بدعوة اوربان إلا أن أراغون مالت فيما بعد الى كليمان

وبعد وفاة بطره قام ابنه جويان الاول وفي الحال تقبض على امرأة أبيه سيدبيليا وعلى أخيها وأعوانها وابتنزها الاملاك التي كان أبوه وهبها اياها وسلمها الى امرأته دونه فيولا تته راعنتي بتزويج ابن أخيه دون مارتين

بأبنة عمه فريدريك ملك صقلية التي كان آل إليها رث تلك الامارة بعد وفاة والدها وكان جويان مولعا بالشعر والموسيقى والصيد مهما الجاد من الامور حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنين لا يسمع فيه الا ايقاع أو انشاد فقام اعيان البلاد وطلبوا منه اقضاء حظيته دونة كإروزه لانهم اياها بترغيبه فيما هو فيه من العبت فانقاد الى ارادتهم خوف الانتقاض

وتوفي في الصيد بكبوة جواد تردى به في غابة وهو يطلب ذئبا خلفه أخوه الدون مرتين اد لم يعيش له غلام من صلبه فتنازعه في الملك آل فواكس فغلبهم عليه واستوثق له الامر وتزوج هذا بالدونة ماريه كما تقدم فوالد له منها أربعة أولاد توفي منهم ثلاثة دون البلوغ وبقي الواحد وهو الدون مارتين متزوج صقلية فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ولم يعيش له ولد على كونه تزوج مرتين بل كان له أولاد من حظاياه فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالک وتنازع حقوق الوراثة خمسة امراء: الدون فادويك ولد مارتين من احدى حظاياه وكونت اورجل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضا ودوق كالابره ابن الدونة فيولانتته بنت جويان الاول ثم فرديناند القشتالي المنقب عندهم بالرشيد كان ابن جويان الاول القشتالي والدونة ليونررة اخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة وبذلك فهو ابن اخته وكان أقرب المتنازعين الى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكونت اورجل وربما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى الا انه لم يحسن طلب حقه وجمع العساكر يعيشون في البلاد مما امال عنه القلوب الى

فانتخبوه ملكا في ٣ ايلول سنة ١٤١٢ وتقبض على كونت أورجل وسجنه واستتب له الامر الا انه مات في سنة ١٤١٦ وخلفه بكر اولاده الفونس الخامس الذي افتتح نابولي ثم مات هذا (١٤٥٨) عن غير ولد فانتقل الملك الى اخيه جويان الذي كان تزوج بابنة شارل النيدل وبواسطتها ملك بلاد نافار وولد لهذا فرديناند الملقب بالكاثوليكي فملك اراغون ونافار وتزوج بايزابلا ملكة قشتالة فصارت الممالك الثلاث واحدة عادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة المديد والمادة بحيث قضت على الملك الاخير الباقي كان بالاندلس للمسلمين

أما مملكة قشتالة أجل النصرانية في الاندلس فان رافع منارها فرديناند الاول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيرا من أملاك المسلمين وكان معاصرا لابن عباد وقسم ممالكه بين أولاده الثلاثة فاعطى شامجه البحر مملكة قشتالة والفونس او اذفنش مملكة ليوق وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا او جيلقية الا أن الفونس تمكن في الآخر من ضم الجميع الى مملكته وصار خلفا لايه وهو الذي استولى على طليطلة قلب اسبانية وجعلها مقر سلطانه وفي أيامه ظهر السيد بطل الاسبانيول الذي تنسب الى ذريته عروس رواية شاتوبريان التي ذيلنا عليها هذا التاريخ المختصر ولما كان التناسب الذي هو شرط الحسن بقضي الافادة عن آل بيفار أجداد ادماء بمثل ما أفدنا عن آل سراج أجداد ابن حامد رأينا أن نلمع الى شيء من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون

فنعول: هو السيد لذريق دياز بن دباغو بن لاين نوناز بن لاين كلفو من كبار قضاة قشتالة تزوج السيد بشيمانة وولد دياغو لذريق الذي مات

في حياة والده وابنتين احدهما تزوجت بابن ملك نافار والاخرى  
بابن ملك أراغون

وشيمانه هذه هي ابنة الكونت لوزانو دو غورماز من فخرل قواد  
الملك فرديناند وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صفع دياغو  
والد السيد وهو بالغ من الكبر عتيا فلم يمكنه أخذ ثاره بيده لكن ولده  
لذريق أخذ السيف ودعا غورماز الى البراز فقتله ولما لم يكن في قتل البراز  
جناح جاءت ابنته شيمانه تشكو الى الملك فرديناند كون لذريق يأتي كل  
يوم بازه على يده فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام، ويذيق فراخها كؤوس  
الحمام، وقد بعثت نقول له في ذلك فجوابها بالوعيد فالملك الذي يسمح بقهر  
اليتيم ولا يقتص ممن اعتدى عليه لا يلبق أن يسمى ملكا. فتحير فرديناند  
في أمره لان لذريق كان أقوى عضده في واقفه مع المسلمين، والاسبانيول  
يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الاسلام وبعد أن قادم بمخزائم  
الاستكانة من عليهم باطلاق سبيلهم ودعوه سيدهم فلم يجد فرديناند مخرجا  
من الامر الا بتزويج السيد بشيمانه

وأما نسبة السيد الى بيفار فلولا دته في ذلك القصر وهي كالا يخفى  
عادة الافرنج في ألما ب الشرف. ومن شهير أفعال السيد انه لما اصطلت  
الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فرديناند وقع الاتفاق بين هذا الملك  
وبين أخيه على تحكيم السيف وابرار قرنين بالنيابة عنهما من ابطالهما  
واعطاء الحق لمن منهما حققت له الغلبة فكان السيد نائبا عن ملك قشتالة  
وكان مارتين غوماز نائبا عن صاحب أراغون أخيه فعند اللقاء فتك السيد  
بخصمه وبرد الحق لفرديناند دون أخيه وفي هاتيك الايام كان هنري

الثاني امبراطوراً لالمانيا فسمت نفسه الى ادخال اسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب ويقال أن البابا فيكتور الثاني مالا على مقصده فلما أبلغ ذلك الامبراطور والبابا الى فرديناند مال الى الخضوع خوفاً منهما لكن السيد عارض في الامر وجمع عسكرياً وزحف به الى طلوزة قاصداً لقاء العدو فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف امبراطور المانيا عن دعوته ولما مات فرديناند لم يكن لشأنه ولده ساعد أشد من السيد وهو الذي نصره في وقعة غوليبيجاره وكان بجانبه عدما قتل في زامورة وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد الى رابطة المغاربة ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بكمبيادور ومعناه بلغتهم قائد المعسكر الا أن ما حازه من شهرة أثار عليه حسداً لا قران وضغائن الا نظار فانقبض بنفسه عن الحضرة وسكن البادية وبلغه اثناء ذلك أن مسلمي مرسطة والشعر الا على اجتاحت اراضي تشنلة وانحنوا في الاسبانيول فنهد اليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طليطلة وكانت في يد المأمون صاحبها فشكا الى الاذفونش خرق الصلح بدون موجب فاستشار الملك خاصته واجمعوا على نفي السيد وضربوا له أمداً تسعة أيام لاجل الخروج فاطاع ولسكنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته فاعمل في الحيلة وارسل صندوقين مفعمين رملا الى بعض اليهود مؤكداً لهما أنهما مملوآن حلياً وأخذ عليهما مبلغاً من الذهب ثم وفي دينه بهد ذلك بما حازه من الغنائم اثناء غزواته في بلاد الاسلام وبقي مدة بعيداً عن الحضرة الى أن رضي عنه الملك وأعاد وأذن له في الغزو وحده فابتغى لنفسه قصرأ بقرب أراغوز لم يزل معروفاً باسم (صخرة



السيد) الى الآن وجعلها لنفسه وكرأ يأوي اليه وينطلق منه للغزو . وكان أكثر ما يغزو مملكة ابن عباد لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين الى الاندلس على أنه لما أراد ابن تاشفين استخلاص ملك اشبيلية من يد ابن عباد واستنجد الطاغية أرسل اليه عشرين ألفاً قيل أنه عتدها لهم السيد لكن لم ينالوا له وطراً اذ كان في المرابطين سادات بدل السيد ثم زحف السيد بمساكره نحو بلنسية وضيق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد ابن جعفر المعافري بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنج ومنهم لافاله والذي في كتب العرب أن الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن حجاج واتفقت روايات العرب والافرنج أن لدريق دخلها صلاح وعاهد القاضي لكنه لم ينشب أن احرقه بالنار بعد الاستيلاء قيل لكون السيد يطلب منه ان يذله على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فاقسم انها ليست عنده فاحرقه وعاث في بلنسية . وفي ذلك يقول : ابن خفاجة الشاعر المشهور :  
عاثت بساحتك الظبا يا دأر      ومحا محاسنك البلا والنار  
فاذا تردد في جنابك ناظر      طال اعتبار فيك واستعبار  
ارض تقاذفت الخطوب بأهلها      وتمخضت بخرابها الاقدار  
كتبت يد الخدمان في عرصاتها      لا أنت - أنت - ولا الديار ديار  
وورد في نفع الطيب ما نصه بالحرف : وكان استيلاء القنيطور  
( تحريف القميدور او الكميدور لقب السيد ) سنة ثمان وثمانين وأربعمائة  
وقيل في التي قبلها وبه جزم ابن البار قائلا فتم حصار القنيطور اياها عشرين  
شهراً وذكر انه دخلها صلاح وقال غيره انه دخلها وحرقها وعاث فيها ومن  
أحرق فيها الاديب أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعما

عنه فوجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مرزلي ففتحها  
الله على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وتوالت عليها مصراة الملثمين ، انتهى  
وفي حرق قاضي بالندسية قد أتى لافله بجميع أصناف المعاذير تغطية  
لعمل القنبطور واتهم القاضي بالخيانة وأنكر ان يكون السيد فعل ذلك  
بسبب الذخيرة بل لمكيدة لا بد ان يكون اطلع له عليها ورمى مؤرخي  
العرب بتشنيع سيرة السيد تعصبا منهم وكرهية لاسمه لما كان عليه من  
الغيرة على النصرانية

وذهب غير واحد من المؤرخين الاوربيين الى غير ذلك ومنهم  
سنابلي لا يقول الانكليزي وزعموا ان مسألة فضائل السيد من وضع  
قصاصي الاسبانيول وهاك بعض ما يقوله المؤرخ المذكور مما يرتبط  
بهذا المقام وهو

« وان من الغلط البين والخطأ المتعين ان يظن ان مقاتلة قشتالة  
وليون كانوا على مايرام تخييله من الشهامة والشرف وآداب القروسية  
وان يتصور كونهم على شيء من دماثة الاخلاق والتهذيب والصحيح ان  
مسيحي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ما كان عليه اقربانهم المغاربة فان  
العرب الاجلاف لاول نزولهم باسبانية قد تهذبوا وتمدوا بالاندلس فيما  
بعد وباستعدادهم الفطري مالوا الى التأنق والرفاهية والتحقق بالحضارة  
العالية ، وكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الادب ، فكانت  
أذواقهم في أسمى مكانات السلامة ، وإحساساتهم في أقصى مظان الرقة كما  
هو شأن من تحقق بالمدينة وذاق حسن المعيشة وغاب عنهم التأمل  
والشعر ، فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفي لميرة كتيباً

كاملة ولم يكن الأمير الظالم . منهم والملك الفاسح يأنف من الآداب  
والمعارف ، فالفضاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والادب من الامور  
الطبيعية عند هذه الامة ، وأوتوا ملكة الانتقاد والتميز ولطف الذوق في  
نقد اجزاء الكلام وتفصيل القول مما عرفه في زماننا لامة الفرنسيين  
وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله فانهم وان كانوا سلاسل أمة  
قديمة خالتهم حالة أمة حادثة ، اجلاف جفافة أجاناب عن العلم منقطعو  
السبب في العرفان ، نعم كان عند بعض أمراءهم مسكة من التربية لكنهم  
في هذا الامر مساكين في جانب أمراء العرب ، وإنما كان المسيحيون هناك  
أنجاد حرب واحلاس نزال محبوبون الهيجاء مثل أفرانهم المسلمين لكنهم  
أقوم منهم عليها وأصبر على تحمل شاقها ، ولم يكن عندهم ما تصور له لنا هذه  
الخيالات الشعرية من اخلاق الفروسية بل إنما كانوا ضرابي سيف وانتهى  
الحديث ، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالاجرة ، وتقديم من يريد لهم على غيره  
في الخدمة ، وقد رأينا كيف ان الوزير المنصور استخدم جمعاً منهم في حرب  
ليون وفتح صانيتاغو . وتاريخ شمالي اسبانية ملوء بشواهد ذلك من استخدام  
أصراء المسلمين لفرسان النصارى في الجش

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الانكليزي ما ورد في تاريخ المنصور  
ابن أبى عامر من انه في انكفائه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم  
يلغ . ثلها أحد وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر  
بالكف عنها وصر مجتازاً حتى خرج على حصن بيلية من افتتاحه  
فأجاز هنالك القوامس بمجملتهم على اقدارهم انتهى . يظهر انهم لم يقتصروا  
في الخدمة على ملوك الانا لس بل ربما أجازوا الى المغرب أجناداً عند

ملوكه وابن خلدون يروي انه كان نغمراسن بن زيان صاحب تلمسان قدماً  
استخدم طائفة منهم مستكراً بهم معتداً بكانهم مبايياهم في المواقف والمشاهد  
ولنعد الى كلام ستانلي لانيول قال : « لكن لم يوجد من هؤلاء من  
بلغ شهرة السيد بطل اسبانية، واسمه لذريق دياز البيفاري ولقب بالسيد  
لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعو به المغاربة وهو مخفف عن سيد  
بالتشديد ،، (١) الى أن قال : « وهو محارب شهير كان يتقدم الصفوف مثل  
جلياد أمام جيوش بني اسرائيل ولم يعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو  
أكثر من « سيدي القمبدور ،، كما كانوا يدعونه كما أنه ليس من السهل  
أن يقرر الانسان الحقيقة ويمحص الواقع مما يحاط به اسم السيد من  
الوقائع لان مؤرخي النصراني يقولون أنه يستحيل الاحاطة بوصفه وان  
الاناشيد الاسبانية تنوع السيد بالفضائل والكمالات وتنسى أن تلك  
الفضائل كانت مجهولة أو غير معتبرة عند نفس السيد ومعاصريه وكتاب  
العرب الذين هم غالباً أحسن انصافاً للحقوق تجدهم شددوا الحكم على  
ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذقههم من الوبال ،، قلت  
وأي تشديد فانك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفاً باللعنة في فتح  
الطيب وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة

قال ستانلي لان بول : « ونحن في عصر انتقاد مضطرون الى طرح  
المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تليق بالاحداث والسيد لم يستثن من  
الانتقاد بل أن أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتاباً مستقلاً قرر

( ١ ) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه  
به عند العرب ذم لانه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالاسد فانه مدح

فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي قدر أنه كان بل رجلا غدارا سفاكا نهايا فتاكا ناكث العهد ناقض الزمام . كذلك الاستاذ دوزي ( مؤرخ اسبانية الجليل ) ذهب الى أن قصة السيد هذه اختراعية وكتب عن السيد الحقيقي نقيض ما ورد في تلك الاقاصيص ، الى أن قال : « ووغير صحيح أنه كان حامي الدين فإنه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصاف النصارى ، » وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحريك والفرقة باعانة ملك سرقسطة ودخلها صلحا . وهذا طبق ما ذكر مؤرخو العرب من أن الذي أنهضه هو يوسف بن احمد بن هود صاحب سرقسطة

وأما لافاله فيقول في شأنه : أنه هو بطل الاسبانيول المقدم حبيب الشعب الذي يحملونه بجميع فضائل الابطال ، يتغنون بقائمه في الاشعار والازجال فاذا شاء المؤرخ معرفة الحقيقة من الوهم أشكل عليه الامر بما يعرض له من الاختلاط فقد يقيم أن المؤرخ لاجل الخروج من حيرته ينتهي الى إنكار وجود المؤرخ عنه أصلا كما أنكر ماسدو وجود السيد قبيدور ولم يبلغ الشك من غيره درجة إنكار وجوده بل أنكروا عليه الماثور من الفضائل وتخيّلوه زعيم أشقياء ورثيس عصابة شر بعد أن جعلته القصص مثالا تاما للفضل والشهامة والنبيل .

فأنت تجد أن السيد ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة منهم من جعله سيذا غطريفا بالتشديد ، ومنهم من جعله سيذا عمليا بالتخفيف ، ومات السيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت المقدس وبعد موته عادت بلنسية الى الاسلام وبقيت زمانا حتى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقا وحملت جثة السيد محنطة على جواده المشهور

وبيده أحد سيفيه المسمى تيزونة وقدم نعه في الجمع كما كان هو مقدما  
في الحروب ودفن في كنيسة مار بطرس دو كردنه وماتت شمانية امرأته  
بعده بستين و بقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحماها ملوك قشتالة في  
حروبهم تيمنا بالنصر ورواية كوريل المسماة بالسيد أشهر من قفانيك  
هذاما آثرنا استيفاء من خبر السيد قادماء محبوبة ابن حامد السراجي  
في قصة شاتوبريان الخيالية وذلك بعد تمحيص الأقوال وانتخال الآراء  
ولنعد الى ذكر مملكة قشتالة فنقول : ان الاذفنش أو الفونس  
السادس استفحل أمره الى أن لقب بأبراطور اسبانية لكن المرابطين  
هزموه مرارا وفي المرة الاخيرة انهزمت جيوشه في وقعة اقليش وقتل  
ولده فمات من الغم وترك الملك لابنته أوراك فتزوجت بالفونس الاول  
ملك أراغون ونافار وكادت تتحد الممالك الثلاث الا أن أوراك أرادت  
الاستقلال بملك قشتالة بأسماء معاملة زوجهما ووقع الشقاق بينهما  
فحبسها في قصر فسحار فأفقت رجعت عساكرها ووقعت الحرب بين  
أراغون وقشتالة ودخل البابا في الصالح فلم ينته الخلاف الا بفسخ الزواج  
بين الفونس وامرأته بعد أن أهرج خصامهما البلاد ولكن لم يستوثق  
الامر لاوراك في مملكتها بما كانت المامة نعت عليها من مجاهرتها  
بالخلاعة ، وتجريرها أذيال المهر ، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونزالز  
دولاره والدون غوميز دو كاندسبينا وحكي أن لها من هذا الاخير ولدا  
اسمه فرناندو ولقبه هرتادو ويقال أن آل هرتادو الاعيان ينتسبون  
اليه وكانت قد تزوجت في الاول بالسكونت ريموند الجيليقي فولد له  
منها الفونس السابع فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمه ثار عليها وشاطرها

الملك وانحازت اليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦ اسنقل بملك قشتالة واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الاسبانيول مدة ثم استرجعها المسلمون الى أن انطوت مع ما انطوى من دباط الاندلس وتلقب هذا الملك أيضا بأبراطور اسبانية الا أن دولة بني عبد المؤمن ظهرت في أيامه فأصابه من الموحدين ما أصاب جده من المرابطين ومات غماً وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون والثاني على قشتالة فبقيت هذه القسمة ثلاثاً وستين سنة فتولى شانجه البكر قشتالة وفرديناك الثاني ايون وجليقية وخلف شانجه ابنه الفونس الثامن وهو في الرابعة من عمره فكفله الدون دوغاسترو الى أن بلغ سن الرشد وخلف فرديناك ابنه الفونس التاسع وفي تلك المدة زحف الموحدون الى اسبانية وهزموا الفونس الثامن وجيوش الاسبانيول في وقعة الارك الشهيرة التي روى مؤرخو الافرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفاً من المسيحيين أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح وماريـعـقـوب ومارـيـليـان وبعد النصر عـجـيء بألف من الاسارى الى يعقوب المنصور فنـ باطـلـاقـهم وترتب على هذه الوقعة استرجاع المسلمين كثيراً من المواقع والمدن ثم انعقدت المـوـادعة لعشر سنين في أثناءها تقاتل الفونس الثامن مع ابن عمه ملك ليون فأجمع رأي الاساقفة على تزويج ملك ليون بابنة ملك قشتالة تأييداً للصالح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوج بابنة ملك برتغال ففسخت الكنيسة الزواج لمثل تلك العلة إلا أن الزواج الثاني امضى في سبيله بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناك الممدود في القديسين، ومن

غريب الاتفاق ان البنت الثانية لالفونس الثامن ولدت قديسا ايضا هو مار لويس فيكون الاذفونش المذكور جدا لقديسين من جهة الدم وفي ايام الفونس ايضا حصلت هزيمة العقاب على المسلمين وقتل منهم مائتا الف وفر الناصر محمد امير الموحدين شريداً وقد بالغ بعض مؤرخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا : انه لم ينبج من الستمائة الف التي جمعها الناصر الا الف فقط ونسبوا ذلك الى سوء تدبير الناصر وقتله الرجال العارفين بقتال الافرنج وجعل بعض محققي الافرنج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين لان اكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح والجلالة كان معظمهم تمت المغافر والدروع وقيل في كتاب الفونس الى البابا ان عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تندر بالخطر على اثر الواقعة هم مائتان وخمسة وعشرون فقط وقد انقد كثير من المدققين هذا القول ونسبوه الى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢ واشترك فيه جميع ملوك الاسبانيول ، لذلك تقاسموا اسلاب المسلمين ووسع كل منهم بسطة امارته في املاكهم

ولما مات ملك ليون قام بالامر بعده ابنه فرديناند القديس ولما كانت امه ابنة ملك قشتالة وكان اخوها الدون اريك قدمات يافعا محصرا في التاجين في فرديناند على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما فلم يخل له الجو إلا بعد موته . وفي أيامه أخذت قرطبة من يد الاسلام وانتشر سلك الجزيرة من الوسط وتلا أخذ قرطبة ذهاب اشبيلية بعد



حصار سنتين وجلاء ثلثمائة الف من أهلها الى غرناطة وفي أيامه استفحل أمر محمد بن الأحمر وحالفه وأدى له الجزية وعصفت ريح قشتالة في اسبانية وعلت كلمة الصليب في تلك الارض لذلك جعل فرديناند في صف القديسين وعدة من أعظم الملوك إلا أنه مع تسميته قديسا روى عنه بعض مؤرخي الافرنجة أنه في سنة ١٢٣٦ بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين أخذ بثورث النار بيده ويضع الخطب لعل ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم وخلف فرديناند ابنه الفونس الفلكي الملقب بالصاي وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم وألف في الفلك التأليف وكانت له فيها آراء نازعة الى مذاهب الاعصر التي بدده فقليل انهم بينما كانوا يتذاكرون امامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهد قان لهم ان كان ماتقولون حقا فيا ليت الله استشارني قبل ترتيب الافلاك فانكروها عليه وعدوها كفرأ وانما كان يريد بها التهمك بأراء العلماء في ذلك العصر على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم فان مؤرخي الافرنجة ينسبون اليه الاشتغال بالافلاك عن الاملاك ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين فأجاز الى الاندلس ونصر الاسلام نصراً عزيزاً وانحن في بلاد العدو بما أعاد ذكر الايام الاول، وخيل رجوع الاموية والمثمين وتلك الدول، وهذا الملك الفونس هو الذي عقه ولده شأبه وطرده بمساعدة الرؤساء والاعيان فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعززوه عند وفاته كتب وصية حرمه فيها من ولاية عهده وعهد لالفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى وذلك لسكونه عقه ونشر دلييه وأثار الرؤساء والدون فيليب أخاه

الذي ذهب مع جماعة من الامراء الى غرناطة وأقاموا عند سلطانها لكن وصية الصابي لم تغن عن الملك شيئا فانه ما غمض عينيه حتى قام شانهجه بالامر ونازعه أخوه جويان قليلا لكنه اضطر الى الاذعان وفي مدة شانهجه أخذت طريف من يد ابن مرين فاعمل في الجهاد وسرّب البعوث لاسترجاعها وأجاز اليه الدون جويان أخو شانهجه بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنجة وحضر حصار طريف مع المسلمين ومما يحكى في هذا الحصار والمدة فيه على الراوي أن جويان جاء بأحد أولاد دوغوزمان قائد طريف من قبل شانهجه ووقف به على شفير الخندق ونادى القائد قائلا له أن سلم البلد أو لا قذفن بالولد فلم يجاوبه دوغوزمان ببنت شفة بل شهر سيفه ورمى به نحوه فرمى المحاصرون الولد في الحفرة. وهذه من حكايات الاسبانيول التي يطاولون بها الجميع في المفاخرة وعلى بقائها مثلا نادرا في الامانة والوفاء لو صحت فهي دون رواية السموآل الذي لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك والده، فان كان عند الاسبانيول شيء من هذه الاخلاق العظيمة فهي من رشح التربية العربية في تلك البلاد كما يقرر ذلك أرباب التحقيق من مؤرخي اوربا انفسهم

ومات شانهجه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركا الملك لواده فرديناند وهو شاب غض الاهاب فاستلم الزمام والملك جرة تضطرم، والفتنة من كل ناحية تحتمد وفي أيامه ألغي نظام الفرسان الهيكليين وسببه أن هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوة والثروة اعيت على سواهم، ووقفت بالاماني من دون مبلغهم فنفسوا عليهم امرهم، وأغروا بهم الملك وزينوا له ماشاؤا من خبرهم، حملا له على الايقاع بهم، وتذرعوا الى ذلك بمقالات لفقوها

عنهم وروهم بالاحاد والتعطيل ، والناس في امرهم بين مصدق ومكذب  
فصدرت الاوامر باستئصالهم فأحرق منهم جماعة ومات فرديناند هذا  
لسبع عشرة سنة من ولايته وقيل في كيفية موته إن اميرين من جهة  
مارتوس اتهما ظالما بقتل جويان الوزو دو بونا فيدز وهو منصرف من  
قصر الملك فقبض عليهما وامر بقتلهم بدون ان يسمع لهما دفاع فقيل انهما  
لما كانا يساقان الى الموت انظرا الملك ثلاثين يوما لسكي يحضر في محكمة  
الديان تعالى فلم يمض ثلاثون يوما إلا ووجد فرديناند ميتا في فراشه بدون  
سابق علة ولا سبب سوى الاجل

وخلف فرديناند ابنه الفونس الحادي عشر وكان طفلا فقامت بكفالة امه  
ثم عمه دون بطره وجويان الى ان قتلا في مرج غر ناطة لمهدن سماعيل بن الاحمر  
وفي مدته اجاز ابو الحسن المرتني ابنه الامام لك برسم الجهاد في الاندلس  
فقتل في احدى الوقعات واستلحم من معه من المسلمين واستنفر ابوه  
السلطان ابو الحسن قبائل المغرب للاحازة وكانت المعركة البحرية بين  
اساطيل المسلمين والنصارى في بحر لزاق فتكسرت اساطيل الاسبانيول  
وقتل امير البحر جوفرتنوريو واستلحم اكثر مقاتلته وذلك في ٣ اغستوس  
سنة ١٣١٠ فالتزم الفونس ان يهادن جميع ملوك اسبانية ويؤكد معهم  
السلم جمعا الكلمة النصرانية وحصن مواقعه وشحنها بالمقاتلة واجاز ابن  
ميرين بجيوشه وغنم كثيرا من اسطول الاسبانيول الى ان كانت الوقعة  
المشثومة على المسلمين في حصار طريف وقا بالغ الافرنج في تقدير قتلاهم  
ذلك اليوم فقالوا مائتا الف وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى  
الاسبانيول فيه بعشرين رجلا ووقعت قلعة ابن زيد وروطة وغيرها من

المواقع في ايدي الاسبانيول وانتصروا في بعض المواقع البحرية فجمع الفونس  
حشوده ونازل الجزيرة وسرب اليها ابن مرين المدد ويقال ان العرب  
استعملوا في الدفاع عنها الآلات النارية لأول مرة عرفها الاوربيون  
وقد مضى بعض وصف هذا الحصار الطويل في الشق المتعلق باخبار  
المغاربة من هذا الذيل وأفاضت كتب الافرنج في ذكر المعارك التي وقعت  
على أسوار الجزيرة والدفاع والهجوم مما استمر نحو عامين حتى بنى الفونس  
لجيشه معسكراً ثابتاً جعل فيه الاسواق والدكاكين وقفل كثير من الملوك  
والاصراء الذين معه الى بلادهم مثل كونت بيارن وقسطنطين وكونت  
دربي وساليسبري من أمراء الانكليز ومات ملك نافار وآل الامر الى  
الصلح عن يد ابن الاحمر بتسليم الجزيرة وخروج أهلها بالامان وتسليمها  
الافرنج في ٢٧ آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمدة عشر سنين غير انه  
لما رأى الفونس اشتغال أبي الحسن بن مرين ببعض الفتن في المغرب  
اهتبل هذه الفرقة ونازل جبل الفتح لكنه مات في هذا الحصار لسته  
وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق ١٦ المحرم سنة ٧٥١

وقام بالامر بعده الدون بطارد الملقب بالعاتي ومن غريب الاتفاق  
ان اسبانية كان يلبها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك  
جائرين اسكل منهم سيرة فريدة في بابها فكان الدون بطارد الملقب بالخنجرى  
في أراغون وشارل الملقب بالردىء في نافار والدون بطارد الملقب بالقاسط  
في البرتغال والدمون بطارد هذا المعروف بالعاتي أو الجاسي بقشتالة وكان عند  
ارتقائه كرسي الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فمهد بتهذيبه الى  
دون جويان الونزو دو البوكرك الذي يقال ان كان تزلفاً الى مرضاته

يزين له شهواته ويسوغ له أفعاله وكانت فاتحة أعماله قتله الدونة لبونورة  
دوغوزمان امرأة ابيه ثم قتل غارسيلازو من أمراء بورغوس لتهمة اياه  
بالانحياز الى بني لاره أعدائه وأمر بطرح جثته في الاسواق وعقب ذلك ضربه  
ملا معلوما على أهل بورغوس فعارض في دفعه بعض أعيانها فشنق منهم  
ثلاثة ثم غضب على الدون الونزو فرناندز كورونل لكونه زوج ابنته  
جويان دو لاسردامن اعداء الملك ولما نسيب اليه أثناء مرض الفونس من  
القيام بدعوة جويان نونز دولاره فزحف اليه في مدنه اغيلارو بورغيلوس  
وموتلفان وعات فيهما وتقبض على الدون الونزو وقتله ثم اتخذ الملك الدونة  
ماريه دوباديليه حظية له وكان ذلك بتشويق كافلة البوكرك الذي كان  
يرجو أن تكون عضدا له ويستولي بها على قلب الملك فخاب ظنه وناصبته  
العداوة فأراد ان يجعل لها حرة وصار يسمى في تزويج الملك نخطب له  
بلانشة ابنة دوق دو بوربون من فرنسا وزفت اليه وكانت بارعة الجمال  
متوقدة الذهن في السادسة عشرة من السن فبعد يومين من دخوله بها  
تركها ورجع الى حظيته نخاف البوكرك ان يبطش به وفر الى البرتنال  
واجتهدت والدة الملك ان تحول ميله فلم تفليح في سعيها وأمر أخيراً باعتقال  
امراته بلانشة في قصر اريفالو بدون ان يأذن لاحد أن يراها ثم اقترن  
بالدونة جويانة دو كاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء واستفتى  
في فسح نكاحه الاول الاساقفة فأفتوه على الرغم منهم لكنه لم تطل مدته  
أيضاً هذه المروس الجديدة وهجرها فارتحلت الى دويناس وولدت ابنها  
جويان ، انضم أهلها بنو كاسترو الى الفئة الناقصة وعمت حركة الانتفاض  
مملكة قشتالة وثار طليطلة وفي أثناء ذلك أغري الملك طيبياً ايطاليا

فسمّ البوكر ك مهنّبه فازدادت الحركة وتقوت العصبية وحاول القبض على امرأته الاولى بالانشة فنصرها الشعب وانضمت والدته الى الثوار فقبضوا عليه أخيراً وحجروه وأبدوا عن دارهم كانوا اماليه على مقاصده لكن لم تطل المدة ان تقسم رؤساء الثورة وفي الملك من معتقله واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه وظفر بهم واستمال جماعة منهم وأمر بضرب أعناق رؤساء طليطلة فقتل انه كان منهم رجل صائح قد ذرّف على الأمانين وكان له ولد في سن الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه فالتمس ان يقتل مكان أبيه فلم تأخذ الملك رافة بشبابه ولا بشيوخه أبيه فقبل البدل وقتل الولد محل الوالد

وبعد ان استراح بطره من ثوار الداخل وشردهم الى فرنسا وغيرها نشب في حرب مع أراغون سببها ان فرنسيس بيرلوس قائد البحر عند بطره ملك أراغون كان ذاهباً ببعض اسطوله يساعد فرنسا على انكلترا في حرب ببحر المانش فلما وصل الى ثغر سان لو كاردو براميدافي قم الوادي الكبير صادف مراكب جنوية فضبطها لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية فسأله بطره الجاني الافراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنزه فأبى فامتعض منه وأرسل الى رسييفه في الرتبة والخصال بطره الملقب بالخنجرى يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجابته ان فرنسيس لم يزل غائبا وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قشتالة لكن لا يمكن تسليمه فشهّر بطره الحرب على جاره وسميه وانضم الى ملك أراغون جميع النافقين من اخوة ملك قشتالة وأعيان مملكته وخف الدون انريك من فرنسا الى أراغون وكما كان في جانب بطره الاراغوني كثير

من أمراء قشتالة كان في جانب بطره القشتالي كثير من أمراء أراغون مثل الدون جويان والدون فرناند ولكن شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته آلى بكثير منهم الى الانحياز عنه فابتدأ بذلك الدون فرناندو وفارقه وقيل ان منهم الدون الفار بيريز دو غوزمان كانت له امرأة حسناء اسمها الدونة الدونزة أعجبت الملك فحدثه نفسه باغتصابها من زوجها ففر الى أراغون وانحاز ابن عمه الدون جويان دولا سردا الى الاندلس فجمع عسكرياً من مقاطعته واجتاح البلاد لكنه لم يساعده القدر إذ وقع أسيراً في أيدي جند الملك وسيق الى اشبيلية فأرسل بطره في الحال من بطانته لتدريق دو كاسترو لقتله وبلغ امرأته الدونة ماريه ما حل بزواجها فجاءت الى الملك تبكي وتلطم خدها وضربت اليه جاثية على رجليها أن يعفو عن فعلها فأعطاها أمراً بالعفو على يقينه بأن الامر قد قضي فلما وصات الى اشبيلية وجدت أن قد سبق السيف العذل

ثم وفدت عليه الدونة الدونزة كورونل بعد انعقاد الهدنة بينه وبين أراغون واستماحت منه العفو عن لدون الفار بيريز دو غوزمان وكان الملك قد حاول سابقا اغتصابها فامتنت منه فسيحان مقلب القلوب إذ مالت اليه هذه المرة وحظيت عنده فأسكنها في برج الذهب على ضفة الوادي الكبير وتمتعت زمنا بالامر الى أن ملها وعاد الى حظيته الاولى ماريه دو باديليه كأنه لا حب الا للحبيب الاول ثم لسبب ضعيف أولغير سبب قتل بطره أخاه الدون فادريك رئيس نظام مار يعقوب ارتكبها فيه شنعاء إذ أجرى ذلك محضوره واسترحم فيه الحرس مراراً حتى تناولوه ضرباً بالدبابيس فأنووه لوقته وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه

في القصر فلم يعثر إلا على رجل يقال له سانشو فقتله بيده وهو ماسك بأذيال ابنة الملك طلبا للنجاة . عاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة أخيه وبعد أن فتك بفادريك دعا أخاه الثاني جويان ووعدته بولاية ويسكاي . استصحبه اليها لقتل متوليها أخيه الدون تلو وقطعه أياها وفر تلو إلى فرنسا واستنجز الدون جويان وعد أخيه فبعث إليه بالحضور فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجا ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير فجاء بعض حاشية الملك وألهوه وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر وما حصل في قبضتهم حتى صرعوه وانثأوا عليه بالدبابيس على أم رأسه فمات لحينه وقذف به الملك من غرفته إلى الساحة وبعد ذلك تقبض على خالته الملكة ليونورة وايزابلا دو لاره امرأة الدون جويان ولما طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبى ملك أراغون قبول مطالب بطره نسب هذا رفضه إلى دسائس الدون انريك دو تراستامار والدون تلو والدون فرناند مركاتيز طرطوشة فانتقم منهم بقتل أمهم خالته ثم اعتقل امرأة الدون تلو الباقية كانت في البلاد ثم قتلها ثم قتل أخويه الصغيرين الدون جويان الذي كان في التاسعة عشرة من العمر والدون بطره الذي كان في الرابعة عشرة بدون ذنب اقترفاء وكانت الحرب لا تزال قائمة على ساق بين أراغون وقشتالة فحضر لدى الملك مرة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه وطلب أن يقابل الملك فمكنوه من ذلك فقال له مولاي . رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أراجيء اليك وأنذرك لكي تأخذ حذرك لأنك ستموت مقتولا بيد الكونت أنريك أخيك فراجع الملك ان كان به أحد ليقول له هذا القول فأصر



على أن هذه هي رسالة سان دومينيك فاستعاد حديثه بملء من  
الناس فأعاد فأمرو بحرقه حيا ولم يبال بمرساله ثم قتل أمين صندوقه صموئيل  
لاوي اليهودي الذي كان ملا خزانته ذهبيا واستصفي جميع أمواله ثم بعد  
عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانش التي كانت قد قضت  
معظم حياتها بأسبانية رهن الاعتقال وكانت كاسمها نقية البياض بديعة  
الحسن جذابة الملامح فسقيت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من  
سنها ومضت طاهرة الارار حتى قيل على لسانها في أغاني العامة مامعناه:  
«أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى»، مع هذا لم تنج  
هذه الملكة من أوهام الفصاصين الذين رموها بمعاشقة الدون فادريك  
أخي الملك ودافع عنها كثير من المؤرخين بكون زواجها وقع أثناء غياب  
فادريك وأنها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكن من رؤيتها؟ وهذا الملك  
هو الذي التجأ اليه أبو سعيد بن الأحمر المتزني على محمد الخامس فقتله  
قيل مع سبعة وثلاثين فارسا من بطانته وتولى قتله بيده قاتل له : «وهذا  
من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطررتني أن أعقدها مع أراغون»،  
فعنفه ابن الأحمر وسبه ولكنه بادل كلاما بكلم ولما قتل مع جماعته أرسل  
برؤوسهم الى سلطان الاندلس وتصافيا ولما أمن من جهة المسلمين خاف  
أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة فأكد المهدد مع  
صاحب انكترية ومد يده الى ملك البرتغال وملك نافار وزحف معه  
نحو ملك اراغون فانهزمت جيوشه وآل الامر الى الصلح على شرطان  
يتزوج دون بطرد ملك قشتالة ابنة دون بطرد ملك اراغون وان ولي عهد  
اراغون يقترب بابنة ملك قشتالة من حظيته ماريه دو باديليه وان ملك

اراغون يسلم اليه الدون انريك دو تراستامار والدون فرناند مركيز  
طرطوشة فقبل بذلك رصيفه وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني فقر  
واعصوب حوله القشتاليون ، وذهب انريك الى فرنسا واستجاشها  
على أخيه وكان لهم ثأر في قتل بلاشه فأرسلوا ثلاثين ألف مقاتل معقوداً  
عليهم لبرتران دو غوكلين فدخل مع أنريك مملكة قشتالة ونودي بهذا  
ملكاً في كثير من مدائن التي كان أهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم  
ففر بطره الى البرتغال فأبى ملكها قبوله فعاد وافلت الى جليقية حيث لقي  
فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك فوعدها بالنصرة وجهز له المطران  
كتيبة مؤلفة من ١٢٠٠ مقاتل لكنه جوزي جزاء سنمار وغدر به بطره  
واستصفى أمواله وذهب بها بجرأ الى بيون وكانت في يد الانكليز  
واستتب الامر لأخيه الدون انريك في قشتالة الا ان الانكليز اجازوا  
بطره واصحبوه بمحفل جرار لافتتاح مملكته وكان انريك قد اعاد  
أكثر الفرنسيين الذين معه الى بلادهم فضعفت قوته وانهمزم امام البرنس  
دو غال في واقعه نافاريت فلحق بفرنسا ودخل بطره الجاسي مع البرنس  
دو غال الى البلاد وحاول قتل الاسارى الذين أخذوا في الوقعة فوبخه  
البرنس ومنعه ثم طالبه بنفقات الحرب فأخذ يطوف في البلاد ويقتل  
اعيانها يأخذ أموالهم واهلك في تلك الجولة خلقاً كثيراً حتى فر كثير  
منهم الى أخيه المنهمزم وشدوا أزره ، واطلع البرنس دو غال غير راض  
عن أعماله ، وعاد الدون انريك الى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيين  
فقامت أكثر المدن بدعوته ، وحصر طابطة فدافعه عنها الدون  
فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطره وجاء هذا مع حليفه ابن

الاحمر يحاصر قرطبة التي كانت تقبالت دعوة أخيه فضيقا عليها وهجم المسلمون على الاسوار فاحتلوا منها برجال الكن القرطبيين كروا على المحاصرين فكشفوهم فازمعا العودة واهتبل محمد سلطان غرناطة هذه الفرقة فعات في بلادهم واسترجع بعض الحصون واكتسح جيان وابذة وغيرهما من المدن المحالفة للدون انريك

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩ انتشبت بين الاخوين معركة بقرب مونتيل وانكشف الدون بطرء واعتصم بقصر مونتيل فبني أخوه انريك جداراً بحجارة يابسة أعجل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بطرء في الخروج فلما شاهد ذلك أخوه واعوانه وفد منهم معرفة لبريران دوغو كاين فداخله في غض الطرف عن فرار الدون بطرء لقاء جائزة سنوية فرفض برتران واخبر بذلك الدون انريك فأشار اليه بأن يقبل هذه المداخلة ويسمح للدون بطرء بالحضور عنده وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور انسل الملك قاصداً خيمة القائد دوغو كاين فلما استقر بهادخل عليه أخوه الدون انريك بالشكة الكاملة ولاول وهلة لم يعرف أخاه اطول عهده به فقال له أحد فرسان الفرانسيس ها هو ذا خصمك - وأشار الى الدون بطرء - فأجابه نعم ها أنا ذا فوثب عليه انريك ونفحه بشفرة قصيرة في وجهه فلقاه بطرء بذراعيه وتصارعا فسقط الاثنان على الارض فوجأ انريك بمخنجره جملة طعنات حتى أتواه وقيل بل عند ماسقط الملكان على الارض جاء بطرء فوق انريك لكن القائد دوغو كاين قلب الثاني فوق الاول حتى مكنه من قتله وكان عمره يومئذ أربعاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر وخلفه الدون انريك قاتله وقد أطلنا قليلا في قصة هذا الملك الجاسي لغرابة أحواله وشذوذ

مبادئه وهالك ماخصه ابن خلدون من خبره قال :

قد تقدم ذكر تغلب الطاغية ابن الهندسة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وانه نازل بعدها جبل الفتح سنة احدى وخمسين ومات بالطاعون وهو محاصر له عند ما استفحل امره واشتدت شوكته وكفى الله شأنه وولي أمر الخلافة بعده ابنه بطره وعدا على سائر اخوته وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المساعدة بلغتهم الرقيق بمهزة الى قط برشلونة فأجاره وانزله خير نزل ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته وغيره من اقباطهم وبعث اليه بطره ملك قشتالة في اسلام أخيه (١) فأبى من اخفار جواره وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتحت فيها بطره كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي ارضه وحاصره بالنسيمة قاعدة شرق الاندلس مراراً وأوجف عليها بعساكره وملاً البحر اليها بأساطيله الى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها مأسكته فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف الى قرطبة وثار على بطره أهل اشبيلية وتيقن صاغية النصارى اليه فقر عن ممالكه ولحق بملك الافرنج وراء جليقية في الجوف عنها وهو صاحب انكلترا واسمه الفلاس غالس ووفد عليه صريحاً سنة سبع وستين فجمع قومه وخرج في صريحه الى ان استولى على ممالكه ورجع ملك الافرنج فماد النصارى الى شأنهم مع بطره وغلب القمط على سائر الممالك فتحين بطره الى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين ونادى صريحاً بابن الاحمر فانتهاز الفرصة ودخل بمساكر المسلمين فأتحن في أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم مثل ابدة وجيان وغيرهما من امهات أمصارهم ثم رجع الى غرناطة

ولم تزل الفتنة قائمه بين بطره وأخيه القمط الى أن غلب عليه القمط وقتله انتهى  
وقال ابن خلدون في سفارته عن السلطان ابن الأحمر الى اشبيلية  
مانعه « وسفرت عنه سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ  
بطره بن الهندسة بن اذفونش لاتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدو  
بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة  
فلقيت الطاغية باشبيلية وعانيت آثار سلفي بها وعاءاني من الكرامة بما  
لا مزيد عليه وأظهر الاغتباط بمكاني وعلم أولية سلفنا باشبيلية واثني علي  
عنده طيبه ابراهيم بن زرور اليهودي المقدم في الطب والنجامة وكان  
لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه وهو يومئذ بدار  
ابن الأحمر بالاندلس ثم نزع بعد مملك رضوان القائم بدولتهم الى الطاغية  
فأقام عنده ونظمه في أطبائه فلما قدمت أنا عليه اثني علي عنده فطلب الطاغية  
حذاء المقام عنده وان يرد علي تراث سلفي باشبيلية وكان بيد زعماء دولته  
فتفاديت من ذلك بما قبله ولم يزل علي اغتباطه الى أن انصرفت عنه  
فزودني واحماني بختني ببغلة فارهة بمركب ثقیل « لجام ذهبيين اهديتها  
الى السلطان فاطمى قرية البيرة من ااضي السقي بمرج غرناطة انتهى

\*\*\*

وبعد ان ادبل للدون انريك قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة  
بمحجة أنه هو الوارث الشرعي الوحيد لتخت قشتالة لان والده بطره  
القاسطانه هو ابن بنت شانجه الرابع ملك قشتالة ولان الدون انريك  
ابن لحظية فتنشبت الحرب واستولى انريك على كثير من معاقل  
البرتغال وحاصر اشبونة عاصمتهم ثم انعقدت السلم بتوسط وكيل البابا

وكان أولاد الدون بطره الملك السابق مع خزائنه في قرمونة فحاصره  
الدون انريك ودافعه قائدها مرتين لويز دو قرطبة الى أن تقدمت الاقواب  
واضطرب مع حاميته الى التسليم على شرط الامان فأمنهم رئيس ماريه قوب  
من قواد انريك لكن هذا أنى تسدبق عهد القئد وقتل مرتين صبراً  
واستولى على الخزان وارسل أولاد اخيه الى طليطلة حيث اودعهم السجن  
وسنة ١٣٧٢ وقعت الحرب بين الانكايز والفرنسيين فأرسل  
الدون انريك قائد محرمه امبروسيو بو كانغره لمساعدة الفرنسيين فهزم  
اسطول الانكايز ثم تحارب مع ملك أراغون من اجل مرسية وانتهت  
الفئة بتزويج جويان ولي عهده بابنة صاحب اراغون وكان الدوق  
دولنكاستر رابع اولاد ادوار ملك انكلترة قد تزوج في بيون بالدونة قسطنسه  
ابنة بطرة الجاسي وكان والدها قد عهد لها بالملك نخال هذا الدوق انه صار  
صاحب الحق في خلافته فجمع عسكراً جراراً وزحف صوب اسبانية  
فناوشه الفرنسيين القتال في طريقه ومات اكثر جيشه فعاد بخفي حنين ثم  
لعهده وقع بين شارل الرديء ملك نافار والانكايز زحف اليه الفرنسيين  
من جهة والقشتاليون من اخرى فالتزم ان يصرم ذلك الجبل ومات الدون  
انريك في ٢٩ ايار سنة ٧٩

وجلس على كرسي الامارة ابنة جويان وولد له في اوائل ملكه ولد  
مما انريك وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يرزق غلاماً وانما ولد  
ابنة يخشى بعد موته ضياع حقها فخطر له ان يجعلها حليمة لابن الدون جويان  
فيتمكن من حفظ حقها فخاف الانكايز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق  
دولنكاستر لم ينزل عن دعواه فدخلوا البرتغال في فسخ ذلك العقد وحملوه

على الحرب فاصطالت بين المملكتين عوانا وطالت زمانا ووفد الانكليز بالمدد على اشبونة وفي تلك المدة توفيت ليرنورة امرأة الدون جويان فرأى صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته التي كانت يريد اعطاءها لابنه وهي المسماة بالدونة بياتريزة ويحتم بذلك الحرب فانصاع عنه الانكليز وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة وبعد زفافها عليه بأربعة أشهر مات الدون فرديناند ونودي بكرمته ملكة على البرتغال فأسفر رعية هذه المملكة أن يروا عليهم أجنبيا ولم يقبلوا الدون جويان فزحف الى عاصمتهم اشبونة وحاصرها برا وبحرا حتى هلك كثير من أهلها ومن عساكره فانكفأ عنها وطمع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم واجتمعوا وقرروا تحت رئاسة قائد اشبونة أن بياتريزة ليست ولدا شرعيا لفرديناند لان امها كانت متزوجة بالدون جوان لورانسو دوا كونها حينئذ متزوجة الى الملك فرديناند فبايع البرتغال الدون جويان ابن بطره القاسط وانضموا اليه وكان متولي الدفاع عن اشبونة فزحف ملك قشتالة لقتاله فالتقى في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والالف بقرب قرية الجبروته فانهزم ملك قشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف ومن البرتغال الف وهي وقعة مذكورة في التاريخ بقي البرتغال يحتفلون بتذكارها زمانا فنزط بذلك أمر الدون جوان البرتغالي وجاء الدوق دولنكاستر الانكليزي فدخل قشتالة بجيش واستولى على بعض البلاد ومد يده إلى يد ملك البرتغال وهيا قسمة بلاد عدوها لكن هذا استعجاش بالفرنسيس فأمدوه بالمال والرجال ولم يفز اعداؤه بطائل فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمنها هذا التاريخ بزواج انريك ابن ملك قشتالة بكاتالان لانه بنت الدوق دولنكاستر من امرأته ابنة بطره الجلسي

وفي ٩ اكتوبر سنة ٣٩٠ بعد الالف بينما كان الملك يجري  
فرسه في ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من افريقية وكانوا  
موصوفين بالقروسية اذ كبا به جواده فخر صريعاً وحمل بدون حراك خلفه  
ابنه الدون انريك في الثانية عشرة من العمر وكنهه مجاس مؤلف من  
الدون فادريك ابن الدون انريك جد الملك من حظيته ومن الدون بطره  
حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب الذي قتله أخوه بطره ومن  
أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من القوادف انتشرت السلطة وتمخضت  
الحال بالفتنة وصارت الناس فوضى وفي هيعة ذلك هجمت العامة في  
قرطبة على اليهود فقتلوا منهم خلقاً وانتهبوا اموالهم وفي مدته قام محمد  
ثاني أولاد يوسف بن الاحمر على أبيه ورماء بالضعف عن الجهاد وأثار  
عليه العامة فالتزم يوسف أن يخرج بمساكره ويحتاج بلاد النصارى لينفي  
تهمة ابنه الذي اتخذها حجة للخروج إلا أنه لما كان ميالاً بطبعه الى السلم  
لم يلبث أن هادهم وقفل

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الاسبانيول يدعى سيو معروف  
بالسك والزهادة وقبول الدعاء وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير فانبأ  
رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غرناطة كما فتح السيد بلنسية فصدقه  
وأرسل اثنين من اعوانه الى سلطان غرناطة برسالة تضمنت قذفاً  
وطعنات في دينه ، وتهديداً واندازاً من بطشه ، وهو يدعو الى النزال ،  
ويعدده ان احجم من الانذار ، ويقاتله بفئة قليلة له أن يجمع بازائها اضعافها ،  
فلم يكثر صاحب الاندلس بكلامه إلا كما يكثر بهذيان المسوسين ،  
وطرد الرسل من حضرته مذمومين مدحورين ، فلما بلغ ذلك مارتين يانس



استاذ القنطرة جهز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم نحو غرناطة ، قيل أن  
الدون اربك نهاره عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات فلم ينته قائلاً  
انها مسألة دينية لا سياسية يلزم فيها الخضوع لملك ، ولما ربح جيشه بقرطبة  
حاول بعضهم أن يمنعه من جواز الجسر فثارت العامة واعترضت على ملك  
المما نمة فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الالف وصل الى ثغور  
غرناطة وحاصر برجا اسمه برج لايحة وبعث الى الخالية يعرض عليهم  
التسليم والنصرانية وإلا فالسيف فمزوا به وجاوبوه بالنشاب والحجارة  
فجرح الاستاذ وقتل معه ثلاثة من أبطاله فدعا الناسك سيو وقال له أ كدت  
لنا انه لا يهلك منا أحد وهو ذائلا قد سقطوا حدى على قتال له الناسك  
نعم قلت ولا أزال أقول لكن انما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار امام  
الحصون فأخذ يجمع اكاداسا من الخطب بقصد احراق البرج ، اذ ابعساكر  
المسلمين قد اقبلت فذعر أصحاب يانس من كثرتها وصاروا ينسلون  
هاربين فوضع رايته والصليب في الوسط وأحاط بهما في نخبة رجاله إلا  
أن العدو أحاط بالجميع فلم ينج من الخمسة آلاف سوى الف ، خمسمائة  
وأما معلم القنطرة فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنه  
وانتشر خبر هذه الهزيمة في اسبانية فخاف النصاري أن يستأسد المسلمون  
ويوقعوا بهم لكن السلطان يوسف حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل  
المتحس ولم ينكث بمهده معهم إلا انه لما مات وخافه ولده محمداء تؤنفت  
الحرب وأخذ كل من الفريقين ينحى باللائمة على الآخر في اخفار الذمة  
وعام أربعة بعد الاربعمائة والالف خرج محمد بن يوسف غازيا في جيش  
كثيف فاكتسح البسائط وعاث في بلاد الاسبانيول ، وفي السنة التالية

غزا جيان وأذاقها مر القتال وقفل بالغنائم فأخذ الدون أنريك يمحسن ثوره دفعا لمادية المغاربة

وسنة ١٤٠٦ قضى نجمه تاركا من الولد طفلا وابنتين فأوصى بتربية أولاده أخاه الدون فرناند الملقب بالرشيد وامراته الملكة كاترينة وكان من فوائده أعمالها التجيز لحرب غرناطة فشنفت الفارات وعطلت الثغور ومات أثناءها محمد بن يوسف وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال في مدته وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الأربعمائة والالف وحاصر الاسبانيول النقيرة وأخذوها واستفحل بذلك شأن فرناند وفي هاتيك الآونة مات صاحب اراغون عن غير ولد شرعي كما قدمنا في أخبار اراغون فأجمع رأي نواب تلك الامة على انتخاب فرناند الرشيد لحاكم عليهم لمكانه من القرابة وما عرف من ذمته وأمانته وعفته عن اغتصاب ملك ابن أخيه الذي استودعه طفلا رضيعا فتوج فرناند ملكا على اراغون وبقي كافلا لابن أخيه في قشتالة وبينما كانت سائر الغزو المسلمين سنة ١٤١٦ واقام أجله فاستقل بكفالة ملك قشتالة أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الانكليزي وكانت ممدوحة السيرة إلا أنها كانت مغرمة بالخرقة ونقم عليها الاسبانيول عدم كراهيتها الشديدة للإسلام فماتت حتف أنفها في غرة حزيران سنة ١٨ فاستلم ابنها ملك جويان أزمة الملك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر فتنازع الرئاسة الامراء والقواد وانتشبت الفتن وتوالت المحن الى أن تمكن من رأب الصدع وفي تلك الايام حدثت في غرناطة حوادث جمة من وفاة يوسف ابن الاحمر وقيام ولده محمد الاعسر مقامه وخلع هذا وقيام محمد الصغير

وخله ورجوع الاعسر وانتزاع يوسف ابن عمه عليه وجلوسه على تخت  
الامارة وموته ورجوع الاعسر ثلاثة مما استوفينا في أخبار غرناطة  
وامتدت لجويان في قضايا المسلمين بعضهم مع بعض يد طولى واستفاد  
من انقسامهم فزهمم وأنخن في بلادهم. ومما سود صحيفته نكبه لامي  
الجيش الدون الفارو دولونه الذي حضنه ورباه ونصره على أعدائه  
وأخلص في مناصبته مدة ثلثين سنة بجزء من الجزاء بسبب اختياره  
ابنة ملك البرتغال لزواجه به. وفاة زوجته ال ونة مارية حال كون  
جويان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا والصحيح أن  
الدون الفارو كان في دولة تشناتة لعمد جويان أشبهه ييحي بن خالد  
البرمكي في دولة الرشيد لا يتعلل أمر بدونه ولا تمضي قضية إلا على  
مقتضى ارادته حتى انصرفت الناس من دين الملك وازدحت في  
بابه الاقدام وثقل على جويان ان تمام هذا الامر أكثر مما احتمله إلا أنه  
لم يعمر زمانا بعد وفاة الفارو. ومضى لسبيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان  
ملكه مشوبا بالفتن ورأيه نسبيا لا جزاء إلا أنه كان ممن يحب العلم خصوصا  
التاريخ والادب وخلفه ابنه الذي أنرك الرابع فأول ما فكر فيه عند  
استوائه على الكرسي أن ينسل ولد يورثه الملك فقترن بالدونة جويانة  
البرتغالية لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الخطايا فاختار كاتالينه دو  
صندوقال مدة ثم تركها ولما علم أنها عنتت بفارس غيره أمر بضرب عنقه  
ثم بلغه ان دير راهبات مار بطرس دولاس دويناس محتاج الى الاصلاح  
فمين معشوقته هذه رئيسة الراهبات واتخذ الدونة عيومار دو كاسترو  
عشيقة فحكمها في ارادته وانقطع اليها دون المالين فثار عليها حسد الملكة

واشتدت الفتنة بينهما حتى انهما مرة تماركتا وتضاربتا وقتل من ساعد الملكة ما في صدرها من الفيظ ممن اغتصبها حقها فأمسكت بذوائب الحظية وصرعتها في الارض فحضر الملك مسرعا ورفس الملكة فأنامها لوقتها منغشيا عليها. قال المؤرخ لا فالة: وهذه الوقائع المخجلة لم تكن الا مقدمة لحوادث اعظم فضيحة واطهر عارا، وروى من عشق الملكة لبرتران دو لا كوفاو من تهتكها وولادتها ودعوة الملك امراء البلاد لحلف يمين الامانة لابنته الجديدة وإبائهم ذلك اشتباها في صحة نسبها للملك الى غير هذا من الامور الفاضحة ما امسكنا عن تفصيله ضنا بشأن التيجان، وحرمة لمقام الصولجان، خصوصا وان لهذا الملك فيه السهم الاوفر من العار وبالاجمال فنقول ان امراء قشتالة خرجوا على اميرهم انريك ولاشتهار عجزه عن الزواج عندهم رفضوا ان يقبلوا عليهم ولي عهد من سلالة اذ ليس عندهم ممن له سلالة، فولوا عهد الامارة اخاه الفونس وطوح ببعض الثوار بغض الملك واحتقاره حتى نصبوا له علما في محفل غاص ووضعوا عليه جميع شارات الملك وعصبوه بالتاج وقام واحد فقرا على الملا فاضح سيرته فأخذوا عند كل نبذة ينزعون قطعة حتى جردوا النصب ثم لم ينتهوا حتى حطوا بالارض وبايعوا الفونس ملكا وجهر واحوله وحصروا بعض المدن فزحف اليهم انريك وناصره من الامراء والاعيان من احفظه عمل الثوار ولم يحطب في حبال الفوضى، فالتقى الجمعان في ظاهر اولميدو وتناجزوا مناجزة الاضداد، اذا ملأت صدورهم الاحقاد وفصل كل من الفريقين مدعيا لنفسه النصر والصحيح أنه لم يتعين لاحد ولم تزل النائرة حتى جاء ما لم يكن في الحسبان وهو وفاة الدون

الفونس في ه تموز من أشهر عام ٦٨ بعد الأربعمائة والالف فلما لم يجد الخوارج من يقدمونه عليهم جاؤا مبايعين الدونة ايزابلا أخت الملك انريك فأبت مزاحمة أخيها وذكرتهم بما عليهم من فروض الطاعة للميكهم الا أنها طالبت بحق الوراثة فلما عرض ذلك على الملك عده مغنما بشرط دخول القوم في الطاعة وسكن الثوار على وثيقة استخلاف الدونة ايزابلا والعفو العام عنهم ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة داعية لابنتها التي تقدم خبرها فلم يسمع لها وحل وكيل البابا الامراء الذين أقسموا يمين الامانة لتلك البنت من عقدة اليمين

وكانت ايزابلا جامعة بين جمال المنظر وجودة الادراك وأحسن منهما انها وارثة ملك قشتالة فاخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها الا ان اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة فالتقيا في وادي الوليد وتم عقد النكاح بينهما في سنة ٦٩

فأحفظ ذلك المركيز دوفيلنه مستشار الملك فقام يسمى في ايجاد خطيب من الملوك لابنة الملك أملا بمنازعة ايزابلا الوراثة فقالوا أولا إلى ملك البرتغال ثم أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة لكن سفراء الدوق اشترطوا على الملكة ان تحلف على رؤس الاشهاد بان هذه الفتاة هي ابنة الملك انريك وعاميه أيضا ان يحلف بانه أبوها فعصلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبه حتى انه لم يهجم على النكاح وأخطبوها لأمير آخر اسمه الدون انريك ثم لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه فبقيت بدون عرس الى ما بعد مهلك الدون انريك الذي وقع في ١٢ كانون الاول سنة ٧٤

فانتقل الملك الى ايزابلا زوجة فرديناند وفي أوائل الامر كاد يقع بين الزوجين الشقاق لكون فرديناند يزعم أنه هو الملك الوحيد لأنه لا يوجد رجل سواه من سلالة الدون انريك دوتراستامار، وايزابلا تزعم ان انتقال الامر الى النساء معروف في عادات مملكة قشتالة وهي أقرب وارث الى آخر ملك فلها الحق وحده في التمسك وكم الزمان من فصل الخطاب فحكموا على الملك فرديناند وأصبح الملك بائناً الى أراغون فينئذ أخذت ايزابلا تقد له البراهين قريتها بارجاء بان دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتها إذ لو فرض أنها لم تزل ذكراً وكان حق المرأة ساقطاً في الامارة لزم أن ينتقل ذلك الى زوجه التي لم يكن أحسبها فيكون قد اسقط ابنته من حقها ثم لما كان كذلك لم يبق له أن يتسلط الى شيء وانها تقدم اسمه على اسمها فيكون له الملك لانه حفيد الحق في نصب الحكام والولادة، وهكذا مضى الامر الى ان ابراهيم بينهما وتم ماتم على يدهما فكانت شدة التحامهما سبباً لانسلاخ الاتصال عن بلاد الاسلام

وكان المركيز دوفينته قد مات خلفاً لابييه وارثه عداوة ايزابلا من أبييه فتحرك مع الدون الفونس توريس في أساقفة طليطلة لاجل مناصبة الملكة وزوجها وأغرياً ملات البرتغال بالتمسك بالملكة جويانة المشكوك في نسبها فأطاعها ومع كونها بنته شقيقة أقدم على ذلك ملتصقاً من البابا الاسعاف في سؤاله وخطبها ودخل مملكته فتسلط داعياً نفسه فاعصو صوب حوله أضداد الملكين وكشرت الفتنة بين زائلي كثير العيث وحوصرت المدن وضيق فرديناند على قلعة زامورة فنهض الى صاحب البرتغال بقرب ثورو فأنكشف البرتغال وقتل منهم جم وافق وسلمت قلعة زامورة وذهب

ملك البرتغال مستعمر خا لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه  
وخذله أحزاب خطيبته وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاها في  
شأن زواجه بابنة أخته وقال انها كانت على غير ترو فنسخها بمنع لاحق  
ورأت تلك المسكينة أن زواجها من أحد أصبح عسيراً وان نسبها الى  
الملك انريك أصبح مسألة خلافية والقائمون بنصرتها قليلون فتبملت  
راهبة في دير سانت كليردو قويمبرة وكانت تلقب بالبليتر اينجه

وكان يكثر في ممالك اسبانية لذلك العهد اللصوص وقطاع السوابل  
وقلما تخلو كورة من عيثرهم وفسادهم وربما كان لبعض أمراء البلاد يد في  
امدادهم فوجه فرديناندوايزابلا عزمها لاستئصال اللصوص ونظاما عسكرياً  
خاصا لتأثرهم وقطع دابرهم وسميائه هرمانداد وخصصا له مالا معيناً وعقدا  
عليه للدون الفونس أخي فرديناند من حظية أبيه جفري في أثر اللصوص  
ونكل بهم في كل سهل وجبل حتى لم يبق من هذه الدعارة الا القليل  
وفي هاتيك المدة هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون وتولى  
مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي فضم أراغون وبلنسية وكاتالونة وصقلية  
وميورقة الى قشتالة فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتحد في تلك  
الاقطار كانت مملكة الاسلام الوحيدة فيها تزداد فتقا على فتق ليقتضي  
الله أمراً كان مفعولا

## الفصل الخامس

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية  
كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة، ومواقف الاقارن  
من حماة الاقوام المتبارزة، وكما الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق  
المجاهدين، ومظان النخوة الجائشة بالرؤس للذب عن العرض والدين، ومنذ  
ظهرت دولة الاسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبح صراطة الثغور  
ومحافظة الدروب وبعوث الصوائف من اركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة  
سرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الاطول يداء، والابعد  
هماً، والاشد عزيمة، والارخى في المجد غاية، من خلائف الاسلام وسلاطينه  
وأمراء التوحيد وأساطينه، ممن رفعوا في تعزيز الملة واجابة داعي الجنة  
شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فان كان  
للالسلام لواء خافق فوق رؤس بنييه فهو بقية ماعقد بأيدي الغزاة  
والمجاهدين، وان كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع فهي نتيجة مواقع  
السيوف من رقاب المناهدين . ولما كانت الجزيرة الاندلسية، بموقعها من  
الاتصال ببر العدو الاوروبة، والموازاة لبر العدو المغربية، غير منفصلة  
عنه الا ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه - تعد ثغر الثغور  
بين البرين الكبيرين، وموطن الرباط ومعتزل الثقاف من المنصرين  
المظمين، استمر الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيفاً بين حماة الحنيفية والنصرانية  
منازعة الارض بالشبر، فاذا كان الاسلام هناك في عنجهيته والعرب تترامى  
الى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج  
وأجفلت هذه بين أيديهم وأنهزمت من أوجههم وانتظمت دولة بني



أمية في ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نصارة وأكمل عزاً وأبعد في العدو  
مغاراً مضت على الاسلام في الاندلس ثلاثة قرون كفت فيها نفسها مؤونة  
الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل  
واستسك بعد الاسترسال، الى ان انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعبت  
الكلمة وصار الامر الى ملوك الطوائف، فاستأسد الفرنج واقتحموا ثغور  
المسلمين وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي فالتصرخ هو لاء اخوانهم  
من وراء البحر بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة فوافاهم مدد المرابطيين من بني  
لمتونة واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب فرى اليه بأفلاذ كباد من زناته  
وصنها جة وغيرهما وأجاز الى الاندلس بحافله فرد عادية انصارى واسترجع  
كثيراً من القواعد، ولم يلبث ان تأذن الله بانقرض أمد تلك الدولة وقيام دولة  
الموحدين بني عبد المؤمن فاقتدوا بسلفهم في الجهاد وأجازوا الى الاندلس على  
ظلماء من اهلها لنجدتهم، فصدموا تقدم العار وفلوا غربه، ولم يسمع الاسلام  
الحظ بطول انظامهم، وامتداد الشامهم، فخامر دولتهم الضعف واستولى عليها  
الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وتعة العقاب لعهد الناصر من  
امرائهم الطاعة الكبرى على الاسلام فلم تقم له بمدها قائمة محمد فيما وراء  
البحر، وانجلى أهله أمام العدو المنقدم الى سيف البحر، وحشروا في مملكة  
ابن نصر الذي ضم شملهم في غرناطة وجوارها، ورأى المسلمون أن الامر  
كاد يفلت من ايديهم وأن منزلهم هناك اصبح قلعة، وأن زياهم لتلك الديار  
أضحى قريب الاجل، كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشمرائهم  
كقول أبي البقاء الرندي

قواعد كنّ أركان البلاد فما عسى البقاء اذا لم تبق اركان

وكقول غيره

حثوا رواحكم يا أهل اندلس      فما المقام بها إلا من الغلط  
الثوب ينسل من أطرافه وأرى      ثوب الجزيرة منسولا من الوسط  
وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير من جملة  
نصيحته لأولاده

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القاق المهاده الذي لا يصالح لغير  
الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في المقار، فيصبح عرضة المذلة والاحتقار، وساعيا  
لنفسه أن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعو قاعن الانتقال  
امام النوب انثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن وضاعت مسالك  
المسلمين في الجزيرة وتسامع بذلك أهل المغرب ثقروا للجهاد وسابق الى  
ذلك الامير أبو زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية فأمدهم بالمال والرجال  
واعطوه بيعتهم ولما قامت دولة بني مرين واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق  
واستبدت بسلطنة المغرب وكان عظيم الاستعداد في نفسه لا حراز تلك المثوبة  
وبلوغ هاتيك الرتبة وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق لما وقع  
بينهما من المنافسة واستأذنه عامر بن ادريس في الجهاد اغتنم هذه الفرصة  
وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة وأجاز معه رحو ابن عمه  
ابن عبد الله بن عبد الحق فكان لهم في الاندلس مقام كريم في الجهاد ثم  
صارت الاجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين في  
الملك والمزاحمين في الدولة اغتناما للاجر والذكر وتوسلا الى قطع أسباب  
المنافسة بالغربة والانقطاع وهوؤلاء مثل ابناء عم الملوك من بني مرين الملقبين

بالاعياص ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن  
وزيان بن محمد بن عبد القوي فامتلاّت الاندلس بأقوال زناتة واعياصهم  
وكان ممن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عيو بن أبي بكر  
ابن حماسة ومنهم سليمان و ابراهيم اللذان كرم مقامهما في الرباط، ثم أجاز  
موسى بن رحو بن عبد الله مع أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق فولاه  
السلطان ابن الأحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين، ثم انصرف الى المغرب فولى  
مكانه أخاه عبد الحق ثم انصرف فولى مكانه ابراهيم بن عيسى بن يحيى  
ابن وسناف ثم رجعا فرجعت امارة الغزاة الى موسى وبقي فيها الى أن  
هلك فوليها أخوه عبد الحق الى أن هلك سنة ٦٧٨ فوليها ابنه حمو  
ابن عبد الحق بن رحو . وفي تلك المدة خرج عبد الحق بن عثمان من  
ولد محمد بن عبد الحق ثاني الامراء على بني مرين علي السلطان أبي  
الربيع المريني وأجاز الى الاندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد  
الفقيه وخاطب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله فقبض عليه  
قهر من السجن لاحقا بالطاغية وعند ما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي  
سميد ودعا لنفسه وبويع بمالقة ووتعت الحرب بينه وبين ابن عمه سلطان  
غرناطة واخذ فيها حمو بن عبد الحق أسيرا وسيق الى أبي الوليد أطلق  
سراحه اكراما لعمه أبي العباس بن رحو فرجع الى سلطانه فارتاب به وولي  
مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا  
إلى افريقية الى أن قتل في تلمسان. ولما انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي  
سميد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة  
كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق فانتصر به أبو

الوليد على ابن عمه ولما استتب له الامر عقد له على الغزاة من زناتة  
وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان فالحق بوادي آش  
مع السلطان أبي الجيوش وصار حمو بن عبد الحق بن رحوم من جملة عثمان  
ابن أبي العلاء بعد ان كانت الرئاسة له وبعد صيت ابن أبي العلاء واستفحل  
امره وعلت رايته وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ما لم يتوقعوه  
ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة دبويع ابنه صبيداً نظر الوزير ابن الحروق  
استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة فوَقعت الفتنة بينه وبين الوزير  
ونصب الوزير له كفوآمن ذوي قرباه يحيى بن عمر بن رحو وارثه  
عثمان وبقي إلى أن استبد بالامر السلطان محمد بن الأحمر ونكب ابن الحروق  
فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ومات لسبع وثلاثين سنة من امارته  
عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا

«هذا قبر شيخ الحماة» وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة، ليث  
الأقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي دمار الإسلام، صاحب الكتاب  
المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، امام الصفوف القائم  
بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الأعداء، وأسد  
الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد، الأرضي البطل،  
الباسل الأمضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل،  
الهمام الكبير، الأصل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن  
عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانيا وثمانين سنة، إنقته ما بين راحة في  
سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعاً وثمانين وثلاثين غزوة»  
إلى آخر ما هنالك

وقام برئاسة الغزاة بعد عثمان الغازي هذا ابنه أبو ثابت عامر وكثرت عصابته واشتدت وطأته حتى استبد على ابن الأحمر هو وقومه وهم الذين قتلوه بعد رجوعه فائزاً من جبل الفتح بعد أن قتلوا عاصماً خادمه وبايعوا أخاه يوسف فقبلها منهم لكن على حذر في الباطن فلما وجه السلطان أبو الحسن بن مرين عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في ازاحة الغزاة هؤلاء عن الأندلس فأجابوه وقبض على أبي ثابت أميرهم وأخوته إدريس ومنصور ولسطان ، فرأخوهم سليمان فالحق بالطاغية ثم غربهم سلطان الأندلس إلى إفريقية، وأعاد إمارة الغزاة إلى يحيى بن عمر بن رحو، فكرم في الجهاد مقامه ، رجمت آثاره، وبقي فيها إلى أن هلك السلطان أبو الحجاج ابن الأحمر وقام الأمر ولده محمد، وأخذله البيعة الحاجب رضوان، فقام يحيى بن عمر هذا في الشأن ، شارك في الدولة، فلما انتهز الرئيس أبو سعيد قائماً بدعوة ابن عمه اسماعيل أخي السلطان واغتصبوا منه الملك حسبما تقدم وأرسل إلى المغرب مستجيراً بالسلطان أبي سالم بن مرين ومعه وزيره ابن الخطيب وقتلوا الحاجب رضوان لم يشقوا يحيى بن عمر فاستدعوا لامارة الغزاة إدريس بن عثمان بن أبي العلاء وكان يرسلونه نخف وانهمزم يحيى إلى دار الحرب ثم ترك فيها ابنه وأجاز إلى سلطان المغرب لاحقاً بالسلطان محمد المخلوع فبقي في صحبته إلى أن قبض الله له الرجوع على يد أبي سالم والطاغية فرجع يحيى إلى إمارة الغزاة وخلطه السلطان بنفسه وبقي على حاله إلى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير فأغرى السلطان به وبقومه فأشخصهم إلى المشرق فركب يحيى إلى الإسكندرية ثم عاد إلى المغرب وعاد بعض ولده إلى الأندلس غزاة على عادتهم

وأما ادريس ففر بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد الى الطاغية باشبيلية فلما غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدم الخبر أودع ادريس السجن فلم يزل فيه حتى تحيل للخلاص بمداخلة أسيرهم فلم فلتح بأرض الاسلام واتبعوه فلم يدركوه وجاء الى السلطان محمد المخلوع فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب فأسغفه وآل أمره الى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين وقتل خنقا بحبس به وتولى اماراة الغزاة بالاندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق وآثره ابن الاحمر أبو الحجاج لما نعته دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ فاستمر في رئاسته هذه الى أن توفي حتف أنفه سنة ٧٦٨

وقام برئاسة الغزاة بعده الامير عبد الرحمن بن علي بن يفلوسن ابن السلطان أبي علي قلده اياها سلطان الاندلس لقرب نسبه من سلطان المغرب وكون هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرين كما قدمنا فأهم ذلك صاحب المغرب لما خشي من عاقبة الترشيح ، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرية فأفضى اليه بميله الى الافساد ما بين سلطان غرناطة وأمير زناتة في الاندلس فاشتغل ابن الخطيب ذلك طبق خاطره حتى حمل سلطانه على اعتقال الامير عبد الرحمن وبطانته فألقاهم في السجن واسترضى بذلك سلطان المغرب فلما نزع ابن الخطيب الى هذا السلطان وتبين لابن الاحمر احتياله في شأنهم أطلق سبيلهم وجرز لهم الاسطول فأجازوا الى المدوة منازعين في الملك واستبدوا امير عبد الرحمن بقسم من أعمالها وغنارسم هذه الخطة من الاندلس وصار سلطانها

يباشر أمور الغزو بنفسه وربما عقد على الغزاة لاحد أولاده وكان نحو هذه  
الخطبة من الجزيرة لسنة ٧٨٣ وأكثر السبب استبعاد امراء الغزاة أبناء  
عم الملوك على سلاطين بني الاحمر ومقامتهم أيام الجبايات للتفريق على الجند  
ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدة مديدة لمقامهم في الجهاد وأثرهم في دفع  
العدو وأخيرآ لما ضاقوا بهم ذرعا رأوا الاحزم تحويل هذا الرسم الى  
أبنائهم فقلد محمد الغني بالله بن الاحمر ولده الامير يوسف مشيخة الغزاة  
وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب : « هذا ظهير كريم فاتم  
بنشر الاولوية والبنود، وقود العساكر والجنود، واجال في ميدان الوجود،  
جياذ البأس والجدود، واضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود، على  
الطائفين والعاكفين والركع السجود، عقد للمعتمد به عتد التشريف  
والقدر المنيف زكي الشهود، وواجب المنافسة بين مجالس السروج  
ومضاجع المهود، وبشر السيوف في الغمود، وأنشأ ربح النصر آمنة من  
الخدود، أمضى أحكامه، وانهد العز أمامه، وفتح عن زهر السرور  
والحبور أحكامه، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي  
الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوايد بن فرج بن نصر أيد الله  
تعالى أمره، وخلد ذكره، لكبير ولده، وساق أمدده وريحانة حلمه، وياقوتة  
الملك على يده الامير الكبير، الطاهر الظاهر الاعلى، واسطة السلك  
وهلال سماء الملك، ومصباح الظلم الحلك، ومظنة العناية الالهية من مدير  
الفلك ومجري الفلك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسمي جده  
وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفر الهام الاعلى الامضى، العالم العامل  
الارضى، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف ألبسه الله تعالى من

رضاه عنه حللاً لا تخاف جدتها ، الايام ولا تبلغ كنهها الافهام ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسر بها الاسلام »

(الى أن يقول) رأيي والله السكفيل لنجج رأيي ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ، أن يجهد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنبط فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وإبصال جلاده ، وحماة أحوازه ، والآتاء ترازه ، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مبني ، ويكون له لفظ الولاية وله أيده الله تعالى المعنى ، فقدمه على الجماعة لاولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب ، وأجعة الإبطال ، ومزنة الودق الهطال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك نكرام ، وإعلام الاسلام ، وسائر قبائل بني مرين ، ليوث العرب ، وغيرهم من أصناف القبائل ، أولي الوسائل ، ليحوط جماعتهم ، ويستخلص لله تعالى ، لآبيه أيده الله تعالى طاعتهم ، ويشرف بأمارته مواكبتهم ، ويزين بهلاله الناعض الى الأبدار على فلك سمادة الاقدار كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الخفيف وتهلل ، واحس باقتراب ما أمّل ، فللخيل اختيال ومراح وللأسل السمر اهتزاز وإرنياح ، وللصدر انشراح ، وللآمال معدي في فضل الله تعالى ودواح ، فلبتول ذلك أسعده الله تعالى تولى مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي محمّد لطيب طبعه ، ، الخ

وقال في تقليد الأمير سعد أخي الأمير يوسف : « هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً ، وأعطى المأمّنه باليمن كتاباً منشوراً ، (وما كان عطاء ربك محظوراً) ، واطلم



صبح العناية المبصرة الآية يهرس فوراً ويسطع نوراً، وأقر عيون المسلمين  
وشرح صدورهم، ووعدا لاهلة أرتصير بامداد شمس المهدي أياها بدوراً،  
وبشر الاسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق النور مواسط وثمراً،  
واتبع حماة الدين لواء الامارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمراً وأكرم  
بها مأموراً، وأمر به وأخفى العمل بقتضاه وحسبه أمير المسلمين عبدالله  
محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحجاج ابن  
أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الوليد بن فرج بن نصر،  
أعلى الله رايته وسدد رأيه، وشكر عن الاسلام والمسلمين سعيه، لقرعة عينه،  
ومقتضي حقه من العدو ودينه، وغصن دوحه، وآية لوحه، ودرة قلادته،  
ودري ادلاك مجادته، وسيف نصره، وهلال قصره، ولده الاسعد،  
وسليله. امكه المؤيد (الى ان يقول)

« حامي الحمى تحت ظل طاعته، وكافي الاسلام الذي يأمن من اضاعته،  
الحرز مزايا الاعمار الطويلة حظ الشهر في يومه وحظ اليوم في ساعته،  
الموقر المهيب المؤمل المعلم أبي النصر سعد، عرفه الله تعالى ببركة سعد  
بن عبادة جده، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعاه بمجده، ووزيره  
في حله وقده، واجناه ثمرة النصر الذي كناه به، ووصل مبيده بسببه، فما  
النصر إلا من عنده

(الى ان يقول) اختار لقيادته مغايبه المنصورة، وامارة غزواته المبرورة،  
اقرب الناس الى نفسه نسباً، واوصلهم به سبباً، واحقهم بالتاب المنيفة،  
والمظاهر الشريفة ذاتا وأباً، وصرف اليه آماله واستعمل في أسنته يمينه  
وفي اعنته شماله، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره، وراي الظهور على

اعداء الله تعالى جنى فمياً دله مصره، وادار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ونبيه نفوس المسلمين على جلاله قدره وقدمه على السكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتعلة على الاشياخ من اولاد يعقوب كبار بني مرين، وسائر قبائلهم المكرمين،، الخ

وكانت رسائل بني الاحمر الى ملوك العدو تهري بالنفير والاستنجاد كلما بدأ للعدو كربة وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته فنقل منها بعض الجمل إجمالاً لمعنى الحالة، ونأثر بعض الفقر المدالة على فقر الاندلس الى المغرب كلما أومن العدو في الاستعالة، فن ذلك ما كتبه من كتاب على لسان سلطانه الى ابن مرين

« ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الافوات المهيأة للانتساف، ويسكن ماساء البلاد المسلمة من هذا الارجاف، وتفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتي يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه، وشموخ الانف فيما أصدرناه، الا ما أشهنا من عزمكم على نصرة الاسلام، وارتقاب خفوق الاسلام، والنهوض الى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وان الارض حمية لله تعالى قد اهتزت، والنفرة قد غلبت النفوس واستفزت، واستظهر نابك بكم انتي تضمنت ضرب المواعد وشمرت عن السواعد، وان الخيل قد أطاقت الى الجهاد في سبيل الله الاعنة، وان ثنايا سدتها بروق الاسنة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والاموال قد سمع بها المسلمون، وهذه الامور التي تمشت بقريبها أو بعيدا أحوال الاسلام، والاماني المدة لتزجية الايام، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان

من خور العزائم المؤمنة بمدكورها، وتسويف مواعيد النصر بعد استشعار فورها، وان الحركة معلقة الى صراکش الجهة التي في يديكم زمامها، واليكم وان تراخي الطول ترجع أحكامها، والقطار الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطالبكم ان تركتموه، ولا ينمىكم ان طرقتموه وعركتموه، فسقط في الايدي الممدودة، واختلفت الموائد المحدودة، وخسئت الابصار المرتقبة، ورجفت المعاول الاشبة، وساءت الظنون، وذرفت الميون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والملك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحمل النصيحة أعناقهم، هذا انقراض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى والاسلام، وتأباه العلماء الاعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والاكابر، فبادرنا نستطلع طالع هذا النبي الذي اذا كان باطلا فهو الظن، والله المن، وان كان خلافا لرأي ترجع، تنفق بقرب الملك وتبجح بمنحن نوفد كل من يقدم الى الله تعالى بهذا القطر في شفاعته، ويعد اليه كف ضراعة، ومن يؤسم بصالح وعبادة، ويقصد في الدين بث افادة، يتطرحون عليكم في نقض ما ابرم، ونسخ ما أحكم، فانكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد، وتحلون عليه مائة قذوب العذري قبل في عدم الاعانة وضرورة الاستماعة والاستكانة، أي عذري قبل الاطراح، والاغراض الصراح كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر الكلمة الاسلام جاحد، كأن ذمام الاسلام جامع، كأن الله غير راء ولا سامع الخ

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالاندلس قوله « وان تشوقم الى احوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين

والفضل المبين، فاعلموا إننا في هذه الايام ندافع من العدو تياراً ونكابر  
بحراً زخاراً، ونتوقع - الآن وفي الله تعالى - خطوباً كباراً ونغد اليده الى الله تعالى  
انتصاراً ونلجأ اليه اضطراراً ونستمد دعاء المسلمين بكل قطار استعداداً  
به واستظهاراً ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ اخطاراً وينثي ريمح  
روح الله طيبة معطاراً فان القومس الاعظم قيوم دين النصرانية الذي  
يأمرها فتطيم ومخالفته لاتستطيع رمى هذه الامة الغريبة المنقطعة منهم  
بجراد لايسد طريقها ولا يحصى فريقها التفتت على أخي صاحب قوسالة  
وعزمها أن تملكه بدله وتبلغه أله ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين  
ومناصبه هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين وهي شدة ليس لاهل هذا  
الوطن بها عهد ولا عرفها نجد ولا وهدهد وقد اقتحموا الحدود القريية  
والله تعالى ولي هذه الامة الغريبة وقد جعلنا مقاليد امورنا بيد من يقوي  
الضعيف ويدراً الخطب الخيف ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم  
( الذين قل لهم الناس إن الناس قد جمدوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماءوا قلوا  
حسبنا الله ونعم الوكيل ) إلى آخر ما قال

وله من جملة كتاب عن سلطانه الى سلطان المغرب في ذلك المقصد:  
« وليعلم مقامكم وهو من إصالة النظر غني عن الاعلام ولكن لا بد من  
الاستراحة بالكلام والتنفث بنفثات الاقلام إننا إنما نجري امورنا مع  
هذا العدو الذي رمينا بجواره وبلينا والحمد لله بمصادمة نياره على تعداد  
أقطاره واتساع براريه وبحاره بأن تكون الامة المحمدية بالعدوتين تحت  
وفاق واسواق النفاق غير ذات تقاق والجاهير تحت عهد من الله تعالى  
وميثاق فهمما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ووقع بينهما

في قبول الطاعة رد ساءنا واقعه وعظمت لدينا موافقه رسألنا بأن يتدارك  
الخرق رافعه لما نتوقه من التشاغل عن نصرنا وتفرغ العدو الى ضرنا»  
( الى آخر ما قال وانعم في المقال )

وله في مثل ذلك عن سلطانه الى أحد أولاد السلطان أبي الحسن  
المريني قيل الى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله :

« ان هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب والمنابر والراكم  
والساجد والذاكر والعايدوالمالم واللفيف والارملة والضعيف قد انقطع  
عنه أرفاد الاسلام وشحت الايدي به منذ أعوام وقوبلت ضراره بالاعذار  
والمواعيد المسافرة للاعمار وان عرضت شواغل وقتن وشواغب ولاحن  
فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بمجملته ولا يذهب المعروف بكليته

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع  
ولو كانت الاشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح  
المقدس والدكم جبل الفتوح وهو منازل أخاء بسجل ماسة ولا أمده ولده  
السلطان أبوعزن وهو بمر اكش ( الى أن يقول ) ولا كالحسرة في الجبل  
باب الاندلس وركاب الجهاد : حسنة بني مرين وما أثر آل يعقوب وكرامة  
الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين  
والدكم الذي ترد على قبره مع الساعات والانفاس وفود الرحمة وهدايا  
الزلفة وريحان الجنة فلولاً أنكم على علم من أحواله لشرحنا الجميل وشكلنا  
المثمل إنما هو اليوم شبح مائد وطلال بائد ولولا ان الله تعالى شغل العدو  
عنه بفتنة لم بصرف وجهه إلا اليه ولا حوم طيره إلا عليه ولكان بعدد  
أن يتخذ الصليب ذراً وأن يقر به عيننا والعدوة فضلاً عن الاندلس قد

أوسمها شرّاً وأرهم ما يجاوره عنراً نسأل الله أن لا يسود الوجوه بانفجع فيه ولا يسمع المسلمين الشككه ( الى أن يقول )

فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق وكلمة الاسلام قد عمت الربي والوهاد إنما الاسلام غريق قد تشبث باهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام وهذا أو ان الاعتناء واختيار الحماة وأعداد القوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقررآ الضرورة منها الرغبة مذكرآ بما يقرب عند الله مذكرآ للذمام الاسلام جالبآ على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور وتسنى الآمال وتستدعي الدعاء والثناء فالؤمن كثير بأخيه ويد الله مع الجماعة والمسلمون يد على من سواهم . المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البر والتقوى مشروع في الذكر الحكيم مذكور وحق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب (الى آخره)

\*\*\*

وما زالت الاندلس تستجيش بالمغرب أو ان الضعف وملوك بني الاحمر يستصرخون بني مرين من وراء البحر إلى المائة التاسعة حيث صار السائل لا يجد مجيبا والصارخ لا يسمع مابيا وتحاذل المسلمون عن النصرة وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة وفتنهم الناجمة عن مد اليد إلى اخوانهم في اسبانية بل انصرفت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة وأيقنوا أن سوف لا يبقى أحد في ذلك البر من الامة المسامة فصارت ترد عليهم الاخبار وهم ساهون وتحديثهم الجمالية والركبان بما خلفوا

وراءهم من انفجائهم والفظائع وهم لاهون ، وإذا نار بأحدهم نثار للجهاد لم يجد علما ينضوي اليه ، ولا سنداً يعول عليه ، ولا جماعة ينتظم فيها . ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وأحطاط الدول ، وتحول الأحوال الأول ، فلما سقطت الأندلس كانت اختها العدو ناظرة اليها وهي تنشد  
ألا رب يوم لورمتني رميتها      ولكن عهدي بالنضال قديم

وأما النصارى ففي بداية برازهم مع المسلمين في الجزيرة الأندلسية كانوا يستنجدون لأخوانهم وراء جبال البيرانه فتخف إلى صريحهم أمم الفرنج والامان والانكايز وربما نهض معهم أمم أخرى من جميع أقطار النصرانية ولولا نجدات البرالكبير لاهل اسبانية اتحوات الجزيرة بأسرها إلى الاسلام ، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانه بدل أن يكون بحر الزقاق ، كما أنه لولا شارل مارتل الماروف عند العرب بقارله لسخر المسلمون قسما من أوروبا وربما كانوا وصلوا إلى القسطنطينية العظمى من طريقها حسبما كان يتخيل موسى بن نصير ، ولكن دول أوروبا خصوصا ما جاور منها اسبانية كانت لاتضن على هذه البلاد بدم ولا مال في مدافعة المسلمين تخلصا من غاراتهم إلى ما وراء الجبال وحصولهم في قلب أوروبا وكان نصارى اسبانية أنفسهم أهل شدة ومراس على الحرب ، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون من في اقطاعهم من المقاتلة وينضمون إلى الملك وبقي هذا شأنهم إلى أن علق آمالهم باجلاء المسلمين عن البلاد ، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة قصورا عن ادراك المرام ، فرأوا انشاء مرابطة أشبه بمرابطة الاسلام ، لاشغل لها الا الصلاة والقتال وسبق إلى تحقيق هذا الوطر الفونس الباتليور صاحب أراغون فأنشأ جندي سماها بنظام

المخلص وجعل لها قوانين وعلامات وقاتل بسنة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين ، ثم ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي انشئ سنة ١١١٩ فلم تـمض بضعة عشرة سنة حتى بلغ من القوة والاستفحال المبالغ التي لا تصح الا للدول ، وسنة ١١٥٦ أنشأ لاثان من أمراء الاسبانيول أحدهما اسمه سويرو والثاني غرمان نظام مار جوليار الاجاص وذلك لكونهما بنيا حصناً في مكان مخصص بمار جولييان فيه غيضة أجاص تزل لهما عنهما مطران طلمنكة وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الامبراطور الفونس السابع حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح فنزلوا عنها المدين سانشو أو شانجه الملقب بالمأسوف عليه فأعلن هذا الامير ان من أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له أقطاعاً بملحقاتها فلم ينهض احد وبعثت الحمية راهبا من دير فيترو سمي فيما بعد مار ريموند وراهبا آخر اسمه دياغو فلبسكيز فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والتفير حتى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة وامتلأت ذخائر فأنشأ لهم ريموند نظاما وقيدهم بروابط وسمى هذه الجندية الدينية بنظام قلعة رباح وجاءها التثبيت من البابا واستمسكت بقوانين ماربنوا وكانت علامتها الفارقة رداءً أبيض وقلنسوة مرسلّة من الرأس على المنكبين وبعد ذلك صارت علامتها صليباً أحمر على الثياب وفي هاتيك المدة تألف نظام رهباني حربي آخر يقال له نظام مار يعقوب السيف وثبته البابا اسكندر الثالث وجمعات لاصحابه علامات فارقة في الثوب وشكل الصليب وغير ذلك وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح فأسلموها الى فرسان مار يعقوب وصارت مركزاً لهم ومن هذه الفرق الرهبانية المرباطة أيضاً



فرسان مار جرجس القامه نظمهم الفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١ في نواحي طرطوشة وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكانيين نأى في مونييزة من أراغون نظام آخر باسم مار جرجس فانضم اليه النظام الاول وصارا واحداً وكان لكل نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلم أو الاستاذ ورتبته أعلى الرتب، ويتلوه القائد الكبير وينوب عنه اذا غاب، ويتلوه الكلافر، وهو دهقان القوم المكاف بإدارة الاملاك وحفظ الاموال وكان في نظام مار يعمقوب مجلس مؤلف من ثلاثة عشر أخلاً يعقد ولا يحل المعلم بدون قرارهم ووجد في اسبانية نظام راهبات محاربات سمي بنظام سيدات الفأس وأصل تأسيسه ان المسلمين بعد أن خسروا طرطوشة كروا لاسترجاعها وحاميتها قليلة فكادت تسقط لولا ما قيل من أن النساء هجمن نحو الاسوار وبذلن أنفسهن حتى رددن العدو فتم تأسيس من ذلك الوقت نظام جندي للنساء، وسنة ١٣٧٩ قلد جويان الاول سيف الفروسية مائة شاب من أبناء اذعيان وأعطاهم وسام الحماية وكان عقد الوسام عبارة عن سلسلة ذهب معلقة بها حامة من الفضة في دائرة من الذهب وكان نذرا واثك الفرسان أن يكونوا أمناء لنسائهم وأما مقصد هذه الرهبانيات كلها فهو حرب المسلمين وغزوهم وقد وجد غير ما ذكرنا لكن هذه هي المشهورة وقد اتسعت سلطتها واندست قوتها حتى صار يخشاها الملوك وأصبحت تستبد عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غرناطة، فلما ثل عرش غرناطة وتم مقصد فرديناند وايزابلا وأدى هؤلاء الفرسان خدمتهم عول الملك وامراته على إلغاء هذه المنظمات ونال من البابا اينوشنسيوس الثامن أمراً بإدارة هذه الرهبانيات وصارت منذ ذلك الحين الى نظر الملك

## الفصل السادس

في سقوط غرناطة والجللاء الاخير

وصلنا في ذكر دولة بني الاحمر الى أبي الحسن علي المتولي الملك بعد محمد بن اسماعيل والذي يفهم من بعض مؤرخي الفرنج انه هو ابنه البكر وفي النسخ يقول انه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله ولا يذكر كيف أفضت اليه الامارة بل جل مايقوله هنالك ان بني الاحمر ملوك الاندلس الباقية بعد استيلاء المدو على الجبل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم الى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالي الاحمري واجتمعت الكامة عليه بعد ان كان أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة بعد ان جاء به بعض القواد من عند النصاري وبقي بمالقة برهة ثم ذهب الى أخيه أبي الحسن وانقضت الفتنة اهـ

وقال مؤرخو الفرنج انه لما ثار لزغل على أخيه وسرح أخوه الجيش في أثره فر هذا الى الدونازريك ملك قشتالة فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده وأغار على بلاد الاسبانيول اكن روى دوليون قائد الثغور قابله بأخذ مدينة مونتجيقةار ثم مات الدونازريك وتولى فردينااند وايزابلا فراساهما أبو الحسن في المهادنة فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة فأجاب سفراء ابن الاحمر أنهم غير مفوضين بذلك فأشخص فردينااند وايزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبي قبوله كل

الاباء وقال لهم اذهبوا واخبروا من أرسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا منذ طويل وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب فضة ولا ذهباً ولا تضرب الاسيوف و فاجابوا حيث كان فرديناند وإيزابلا مشغولين بحرب البرتغال احتملا منه هذا الجواب وأجلا الانتقام منه الى وقت آخر

وأما أبو الحسن فافتتح الحرب على النصارى ودم قلعة الصخرة التي كان الاسبانيول قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد لما بلغه من ضعف حاميتها فتلقت عساكره أسوارها ليلا ووضع السيف في الحامية وسافت البقية مقرنين في الاصفاد الى غرناطة وقفل أبو الحسن ظافراً منصوراً الى حاضرتة فخرج الاعيان لملاقاته ولكن عامة أهالي غرناطة بزعم مؤرخي الاسبانيول لم يحتفلوا بمصنعه أبو الحسن خصوصاً بسبي النساء فأظهروا الامتناس ووزعوا المأكّل على الاسرى وقيل انه لما اجتمع الامراء والفقهاء لتهنئة السلطان بهذا الفتح اذا بصوت هائل ارتفع فيهم يقول الويل لغرناطة قد دنا أجاءا إن انقاض الصخرة ستقع على رؤوسنا فأرجف هذا الصوت جميع الحضور، وتطلعوا فاذا بشيخ طاعن في السن من طبقة الدراويش قد خرج يطوف في الاسواق ناعقاً بالخراب ولا نفاق الغراب، حتى أجزع الجميع، وتطير منه الرفيع والوضيع، وأما أبو الحسن فعده من جملة الممسوسين ولم يلتفت اليه

وقال بعض اولئك المؤرخين أن مملكة غرناطة لعهد أبي الحسن كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الابراج والحصون والقرى العاصرة، وورد في التاريخ العام للاملاكة كنتوا الشهير ان

سلطنة غرناطة في تلك الايام كانت تحتوي ثلاثين مصراً وثمانين مدينة صغيرة وعددا لا يحصى من الابراج والحصون والساكر، وقد قرر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الاندلس بأربعة ملايين من النسم وقالوا إن السلطان أبا الحسن بن الأحمر داخلته الخيلاء وخامره العجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده ففي سنة ١٤٧٨ لما حضر الدين جان دوفيرا من فرسان فرديناند وإيزابلا ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتادة من مولاي أبي الحسن احتفل السلطان ببلقائه وظن في الاول إنه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز والسجال في ألعاب الفروسية أيام الموائد فلما عرض له الأمر أجابه الجواب السابق من أن الذي سبق لهم أن يؤدوا الجزية قد ماتوا والآذار ضربت أعادت لا تضرب إلا نصالا وحرابا فلم يتمكن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلا بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الاسلام والاسبانيول عهد على أن لكل فريق أن يشن الغارة على أرض الفريق الآخر خفية بدون نشر بنود ولا قرع طبول بشرط أن لا تطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام فلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قايلة الحامية وهي قلعة أمنع من عقاب الجو مبنية على قنة جبل لها طريق واحد منحوت في الصخر فقبل عيد الميلاد بأيام انتبه أهل الصخرة ليلا على صياح « المغاربة . المغاربة » فدخلوا القاعة وقتلوا الحراس وأسروا من سلم وساقوهم الى غرناطة وجرى ماجرى

وقال المقرئ في شأن ملك هذا السلطان ما يأتي

واستقل السلطان أبو الحسن بما بقي من ملك المسلمين بالاندلس وجاءه

الاعداء، وافتتح عدة أماكن ولاحت له بارقة السكره على العدو وخافوه  
وطلبوا هديته وكثرت جيوشه فاجمع على عرضها بين يديه وأعد لذلك  
مجلساً اقيم له خارج الحمراء وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع  
عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ولم تزل الجنود تعرض عليه كل  
يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض  
وكان معظم المنزهين بالسبيكة وما قارب ذلك فبعث الله سيلاً عرماً على  
وادي حذرة بحجارة وماء غزير كافواه القرب عقاباً من الله وتأديباً لهم  
لمجاهرتهم بالفسق والمنكر واحتمل الوادي ما على حافتيه من حوانيت  
ودور وناصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق وبلغ تيار السيل إلى  
رحبة الجامع الأعظم ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد وكان بين  
رؤساء الأفرنج في ذلك الوقت اختلاف عظيم فبعضهم استقل بملك قرطبة  
وبعضهم بأشبيلية وبعض بشرى وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد  
استرسل في الذات، وركن إلى الراحة وأضاع الأجناد وأسند الأمر  
إلى بعض زرائه واحتجب عن الناس ورفض الجهاد والنظر في الملك  
ليقضي الله تعالى ما يشاء وكثرت المظالم والمغارم فانكر الخاصة والعامة ذلك  
منه وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهرب يظن أن النعماني لا يغزون البلاد  
ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد واتفق أن صاحب قشتالة تغلب  
على بلادها وانقاد له الرؤساء المخالفون ووجدت النصارى الطريق إلى  
الافساد وذلك أنه كان لاسطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من  
بنات عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر وكان قد اصطفى على أمهم رومية  
له منها بعض ذرية وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية خفيف أن يقدم

أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحرة وبعضهم الى أولاد الرومية وكان النصراني أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لا مدحود وضربوه ولما تم أمد الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد وتشكي الناس مع ذلك باوزراء والعمال اسوء ماعاملوا به الناس من الحيف والجور فلم يصنع اليهم وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير وثاقم الامر انتهى

وورد في تواريخ الافرنج أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بمرأتين احدهما ابنة عمه واسمها عائشة الحرة والثانية ثريا اسبانيولية اسلمت كان أبوها قائد مرئوس وله من الاولاد أبو عبد الله محمد ويلفظ في بلده بالتخفيف فيقال أبو عبد الله وحرقة الاسبانيول أبو عبدل ومن الثانية ولدان أحدهما سيدى يحيى الذي كان يريد أبوه أن يوليه عهدا كراما لوالدته الحظية وبهذه المناظرات انقسمت غرناطة الى قسمين ومال قسم من الرؤساء والاعيان نحو الامير أبي عبد الله واشتدت الفتنة التي مصدرها النساء وفي خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في منازلة الصخرة لوقوع الفرقة في مملكته فلما بلغ خبر أخذها الملك فرديناند جزع جزعا شديدا وأعمل في النفير وجمع مقاتلة الثغور، وبث الرهابين في جميع الاقطار يستنفرون فرسان النصرانية لقتال الاسلام، فأول من لبى الدعوة الدون لدرېق بوانس ليون الملقب بمركيز قانس وكان له في الاندلس اراض واسعة وحصون عديدة وعنده مقاتلة كثيرة، فاجمع الغارة وبلغه أن قلعة الحامة قليلة الحراس فأرسل من جماعته رجلا حاذقا مقداما دريا باقتحام الثغور خبيرا يتساق

الجدران اسمه اورتغادو برادو فرادله في نواحي الحامة ليلة . دلهمة وطاف  
حول الاسوار وصعد القلعة وتبين مكان وضع السلام وعاد مخبراً . ولام  
بما شهد فجمع هذا اصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس . اربعة آلاف ماش  
وكانوا في النهار يكمنون وفي الليل يسرون بدون جلبة ولا ضوضاء  
حتى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين فسار اورتغابا ثلثة مائة . قاتل  
وثلاثين من حملة السلام الى جانب القلعة فتسلقوها بدون عائق وقتلوا  
بعض الحرس وارتفعت الصيحة ومُلكت القلعة لكن أهل المدينة وان  
كانوا في الاغلب تجارا وصناعا فقد كانوا ذوي حفاظ وشدة بأس وبصائر  
في الحرب كسائر المغاربة فرشقوا المحصرين بالنبال والحجارة وحملوا على  
القلعة فضيقوا عليها حتى خاف الاسبانيول أن يترجموها عنهم وتشاوروا  
في حرقها والخروج منها فنهزم المراكيز عن ذلك وحرصهم على الثبات  
واستحرق القتل بين الفريقين وقاتل أهل الحامة نساءً ورجالا صغاراً وكباراً  
قتال الاسود عن أشبالها لكن العدو تغلب عليهم فقتل بعضاً وأسّر بعضاً  
ونهب البلدة ودمرها تدميراً

وأسرع فارس مغربي الى الحمراء يخبر السلطان أن النصاري قد دهموا  
تلك الليلة قلعة الحامة وحدث عراك شديد على الاسوار وانه عندما فارق  
المدينة كانت القلعة في يد النصاري فأرسل من غرناطة الف فارس لاجل  
المشاركة واستقصاء الخبر فوجدوا العدو قد تسلّم القلعة والبلدة فزحف  
السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين ألف راجل ولم يستأن  
ريثما يجرز جيشه بالمدافع والعدة وكان لدركين صاحب هو الدون الوئزو  
القرطبي قدم لنصرة صاحبه فلما أحس بقدوم أبي الحسن فر الى النقيرة فلم

يتعقبه السلطان ، ظان قاصداً الحامة وحصرها من كل جهة وركز الاعلام حواليتها لكن حيث كان جيشه مكشوفاً للعدو أصبح هدفاً للهام فقتل منه كثيرون وارتدوا على أعقابهم وادرك ابن الاحمر خطأه بالزحف بدون آلات الحصار ولكنه لم يرجع عن كيده بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل جرح من المسلمين نحو الالفين

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامة وكان لها نهر يسهيها فأدارود عنها بعد أن تقاتلوا عليه قتل اليأس واذ لم يكن فيها عيون ولا آبار اشتد الخناق بالاسبانيول ولم يبق لهم مورد سوى قناة صغيرة وعليهم اذا وردوها أن يقاتل منهم فريق ويشرب فريق حتى يصح أن يقال ان كل نقطة ماء بنقطة دم

ثم سقطوا على بثر أغاثهم ماؤها قليلا ولكن بلغ منهم الضيق حده فأرسلوا بالصرىخ الى ملوكهم فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من اشبيلية في خمسة آلاف فارس وخمسين الف ماش وظاهره رئيس فرسان قلعة رباح وتقدم فردد بناند بحاشية غير وافرة وأرسل يقول للدوق ان ينتظر اجتماع الحشود فأجابه الدوق انه لا يمكنه الانتظار اكون لذين تحت الحصار في ضيق شديد واذ علم أبو الحسن بدنو الجيوش عزم على الهجوم الاخيرة وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين وأساقوا السور من ناحية برج عل ووضعوا السلام وقتلوا الخفرء ووصلوا الى السوق وكادوا يباغون الابواب وهم نحو سبعين رجلا فقط فأحاط بهم الاسبانيول لحاطة السوار بالمعصم فانضموا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي صلى الله عليه وسلم وظلوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث حتى لم يبق



منهم سوى رجل واحد سقط وهو معتنق الراية النبوية فأصاب أبا الحسن  
اليأس من هذا الفشل وأعلم عن الحامية الى غرناطة ووصلها بعد الكثيف  
انتهى ما ذكره الأفرنجي شأن الحامية وهالك ما ورد في نفح الطيب بهذا الشأن  
وصح عند النصاري ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا  
الى الحامية فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة  
سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلمة وتحصنوا بها ثم شرعوا في أخذ البلد  
فلاّوا الطرق خيلاً ورجالا وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهروا  
الحريم والناس في غفلة أيام من غير استعداد كالسكاري فقتل من قضي الله  
تعالى تمام أجله وهرب البعض وترك أولاده وحريمه واحتوى العدو  
على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عند ما بلغهم  
العلم وكان النصاري عشرة آلاف بين ماش وفارس وكانوا عازمين على  
الخروج بما غنموه واذا بالسراعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو  
الى البلد فحاصروهم المسلمون وشددوا في ذلك ثم تكاثرو المسلمون خيلاً  
ورجالاً من جميع بلاد الأندلس ونازلوا السامرة وطامعوا في منع الماء عن  
العدو وتبين للعامة ان الجند لم ينصحوا فأطلبوا اليهم بأقبح الكلام  
فهم وفي الوزير وبينما هم كذلك اذا بالوزير جاء ان النصاري اقبلوا في  
جمع عظيم لا غاة من بالحامة من النصاري فأقلم جند المسلمين من الحامية  
وقصدوا ملاقاته الوارئين من بلاد العدو ولما علم بهم العدو ولوا الادبار  
من غير ملاقاته محتجين بقاتلهم وكان يديهم صاحب قرطبة

ثم ان صاحب اشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصاري الفرسان  
والرجال وأتى لنصرة من في الحامية من النصاري وعند ما صح هذا عند

العسكر اجتمعوا وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد  
والصلاح الرجوع الى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج اليه الحصار  
من العدة والعدد، فعند ما أقام المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون  
وتشاوراني لإخلائها أو سكناها، راتنقرا على الإقامة بها وحصنها وجعلوا  
فيها جميع ما يحتاج اليه وانصرف صاحب اشبيلية وترك أجناده وفرق  
فيهم الاموال ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من  
جهة، ووضع كان النصارى في غفلة منه ودخل على النصارى جملة وافرة  
من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم  
وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي  
آش فانقطع أهل الناس من الحامة ورقع الياش من ردها انتهى

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الافرنجية في مؤداها وقد  
آثرنا المقابلة بين القلين زيادة في التمهيص واسمانا في النصح لقلة تداول  
هذا التاريخ في العربية

ثم قال صاحب نفح اليبس في جمادى الاولى من السنة تواترت  
الاخبار ان صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصي ولا تحصر فاجتمع  
الناس بغرناطة وتكلموا في ذلك وإدابه قد قصد لوشة ونازلها قصد  
أن يضيفها الى السائمة وجاء بالعدد والعدد وأغار على النصارى جملة  
من المسلمين فقللوا من حقوقهم وأخذوا جملة من المدافع تكبار ثم جاءت  
جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى فأجأوهم الى الخروج عن  
الخيام وأخذوها فحرب النصارى وتركوا طعاما كثيرا وآلة ثقيلة وذلك  
في السابع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة انتهى

وقال مؤرخو الافرنج ان فرديناند عقد مجلسا في قرطبة ليري ماذا يفعل بالحامة فأشار اكثرهم بك حصونها واخلاؤها لصعوبة حفظها من طارقة العدو ولزوم حياطينها دائما بحامية باخرة تقتضي نفقات باهظة فمارضت في ذلك الملكة ايزابلا وأصرت على ابقائها وجملت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريرو مع اربعمائة فارس والفر راجل وأجمع فرديناند على حصار لوشة وهي مرقع حصين على مقربة من الحامة فاستنفر جميع المدن وبالغ في حشد العساكر وبلغ ذلك المسلمين فراسلوا اخوانهم من وراء البحر غارسل فرديناند وايزابلا اسطولهما المنع اجازة المددوا اكتساح ارياف بر افريقية وسار من قرطبة وقد ترك أكثر نواده في استجة وإنما استصحب خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف ماش فنازل لوشة فشاهد من حصانة لوشة وصعوبة مساكنها ومنعة النهر الخفيف بها ما عاله فادرك خطأه بسرعة الاقدام لكنه أرسل كتيبة من جيشه للنزول برودة محذية للجسر يسميها المغاربة « صنتو أبو الحسن » وكان قائد لوشة رجلا يقال له علي المطار شيخا عالي السن مناهزا التسعين لكنه لم يفقد شيئا من صلابة جنانه ولا قوة ادراكه وهو حمو الامير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن وكان عنده ثلاثة آلاف فارس فأرسل في الليل طائفة من جنده فكنوا وراء « صنتو أبي الحسن » وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين فثاروا في وجهه فانهمز امامهم خديعة منه فطاردوه ملحين واذا بالاصوات ارتفعت من خلفهم فالتفتوا فاذا بالمغاربة مقبلين فرجعوا للمحافظة على خيامهم ففكر عليهم علي المطار وأرهمف فيهم السيف وبقي يطاردهم ويستلحم منهم حتى تكاثرت نجاتهم فماد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة وفيهم من أكابر فرسانهم

لتريق جيرون صاحب قلعة رباح الذي استشعر الاسبانيول فقدده كثيرا فلما رأى الملك فرديناند مارأى أيمن بلزوم الرجعة وتأعب للاقلاع واذا رأى علي المطار حر كته في الرجوع برز كالاسد اذا جاع وهجم على مسكر الاسبانيول فهزم منه جانباً فتداعى كاهل الفرار وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام والمدافع والميرة لكنه كاد يلقى حتفه مرتين لولا تهالك الدون جان دوريرا في وقايته وما زال في ذلك المأزق حتى وصل مركز قانس وحال بينه وبين العدو فنجا الملك وفر الى بلاده وعلي المطار يطارده الى ريوفريو فلاحق بقرطبة مدحوراً كبير القلب

وعلى رواية اخرى أن السلطان أبا الحسن خف الى نجدة لوشة وانه في ٢٦ جمادى الاولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تموز سنة ١٤٨٢ هاجم مسكر فرديناند من الورا بينما كان علي المطار قد نهده اليه من جهة المدينة وانه بذلك دارت الدائرة على الاسبانيول وهذه الرواية أقرب الى خبر نفع الطيب اذ فيه أن جماعة من أهل غرناطة ذهبوا الى لوشة وناولوا النصارى فاخرجوهم من الخيام

وقال آخرون أن أبا الحسن لما حضر بجيشه نجدة للوشة وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب وانه لما بلغت أخبار لوشة حامية الحامة هامت قلوبهم فتصدى أبو الحسن فاسرع فرديناند باصر اخيه فارتد ابن الاحمر عنهم وقصد مدينة قانيت فاستولى عليها وقفل الى غرناطة فبلغه انها بايعت ولده أبا عبد الله محمد وتبعها كثير من مدن الممالك فتوجه الى النة التي حافظت على عهده هي ووادي آش وبسطة

قال بعض مؤرخي الافرنج انه في تلك الآونة استحكمت عري  
الخلاف في بيت ملك غرناطة وأخذ بنو سراج عشيرة من أعيان غرناطة  
أصلهم من قرطبة ( ١ ) بالخلاف مع بني زغبة واستفحل أمر أبي عبد الله  
نجل السلطان أبي الحسن ومالت اليه العامة بما نتموا على أبيه ذهاب الحامة  
وهي مفتاح غرناطة فلما قفل عنها المرة الأخيرة خائباً وجدا الحاضرة مقفلة  
الابواب في وجهه فمال الى بسطة وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم  
الى الحمراء فقتل من التقاء في الدور والساحات ولما أصبح الصباح تكاثروا  
عليه فافقوا أكثر جماعته ففر شريداً الى مالقة. وفي هذه الحادثة يقول المقرئ  
انه هرب الاميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما  
أن يفتك بهما بأشارة حظيته الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت  
بدعوتهما ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما  
السلطان أبو الحسن الى مالقة

وفي روايته شيء من مخالفة الرواية الافرنجية لكن على اتفاق في  
النتيجة فانظروا أي زمن اختاره امراء غرناطة للشقاق والخلاف واذا أراد  
الله شيئاً هياً أسبابه

أما أبو الحسن فاصبح بمدانة قسم المملكة غير قادر على مناصرة فردينا  
قرنا لقرن ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة ويعيد  
عليه سلطانه فعزم على الغارة في أراضي دوق سبديونا وزحف بستة آلاف  
راجل و الف وخمسمائة فارس فلما حصل في بلاد النصارى بين جبل طارق

---

(١) رواية ستالي لان بول المؤرخ الانكليزي ان اصلهم من قرطبة فيكون  
بنو سراج غرناطة هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في فتح الطيب

وقسطنطين سرح اربعمائة فارس نحو حصن الجبل وأرسل اربعمائة اخري نحو طريف فمادوا بفنائم لا تحصى ثم رفاً الى ميناء الحصن اسطول بقيادة كارلوس دوفيرا فالتس منه بطاره دوفرغاز أن يتولى قيادة الحصن مكانه ليخرج الى لقاء العدو وسار بسبعين فارساً الى جهة قسطنطين وكانت طلائع الساطان منفصلة عن جيشه فناوشها القتال فخرج اليه ثمانون فارساً وحمي الوطيس فقتل جماعة من أبطالهم وجرح دوفرغاز وعاد كل من المريقين الى مكانه فخيم أبو الحسن بساعة قسطنطين وأحرق بعض بيوتها ولم يتمكن منها ولكنه اعجب بشجاعة دوفرغاز فاستدعى اليه أسيرين من النصاري وسألهم أهلي وظائف قائد جبل طارق فأجاباه ان له على كل قطيع يمر بأرضه كبشاً فصاح أعوذ بالله من أن اعتدي على فارس مقدم كهذا وأرسل اليه اثني عشر رأس غنم عن اثني عشر قطيعاً التي عنده قائلاً لمن أمره بسوقها اعتذر له عني بجهلي الواجب فأجاب دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقل له اني أسيف من أنه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لا قوم بواجب لقائه وأولي عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شربش ان احتفل له بوليمة فاخرة ثم صرف الرسول مكرماً ولما بلغ أمراء الاسبانيول غزاة أبي الحسن عقدوا النية على أخذ الثأر واهتبلوا هذه الغرة من اشتغال المسلمين بالفتنة فيما بينهم فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركيز قانس الدون بطرة هنريكس وقائد اشبيلية الكونت دوسينغونتا والدون الوتره دو كوردناز والدون الوتره دو اغيلار وغيرهم وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رحالة كثيرة وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بكثرة وخيلت لهم أنفسهم

الوصول الى وادي آش والاستيلاء عليها بغتة لضعف حاميتها فساروا  
مجتهدين في إخفاء أثرهم ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي وان كانت حاميتها  
قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه ، أمة برأسه الا وهو الامير ابو  
عبد الله الزغل اخو السلطان أبي الحسن وكان أخاه أيضا في البسالة والاقدام  
لكنه أحمق وألبق وأدرب بكبد المدد وأبصر بمواقع الكزوب ، معنى الزغل عندهم  
الفتى الغض الشباب وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الاسبانيول  
فلما اشرف الاسبانيول من الجبل المطل على مرج مائقة ابتهجوا  
برؤية تلك الارض ابتهاج بني اسرائيل بأرض الميعاد واذا شعر بهم الاهالي  
جمعوا قطعانهم لاذوا بحصون الجبال فاحرق الاسبانيول المنازل المهجورة  
واخذوا بشباب تلك الجبال ، وتردى بعضهم في الاوعار ، فبصر بهم المغاربة  
من ابراجهم فخرجوا ونضحوهم بالنبل ورموهم بالحجارة وتصايحوا بهم  
من كل جانب ، وارتفعت الاصوات ، وتجاوبت الاصداء ، فوقع الرعب في  
قلوب الاسبانيول وأغاث بعضهم بعضا وانضوا الى مكان واحد وتشاوروا  
فيما يصنعون فاجموا الرحلة وترك الغنائم فساروا في الوعر والمغاربة يمحطرونهم  
سيلا دافقا من النبل حتى خارت قواهم وجاععدوا سحابة يومهم الى ان  
جن الظلام فحصلوا في واد عميق واذا بصوت قد ملا الربى والوهاد  
« الزغل الزغل » فسأل صاحب انقياغر ما هذا ، فاجابه أحد فرسانه هذا  
صوت الزغل فلعله قريب ، فقال لفرسانه لنطلع هذا الجبل ذلك خير لنا  
من ان نذبح كالغنم في قعر الوادي ، فاخذوا صيدا والنشاب والحجارة في  
ظهورهم حتى استلحموا لاسيما الرجال الذين كانوا يشبهون باذئاب الخيل  
فتموي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعا وما زالوا في هذا الضيق الى ان بلغ

کردنازقنة الجبل فالتفت فاذا به قد فقد حامل رايته وجماعته واصحابه وانسبائه  
ورأى نفسه محاطا من كل جانب ثم تردى في مضيق حرج جدا وانتثر نظام جيشه  
أما مركيز قادس فسار من جهة أخرى ومعه الكونت دوسيفنتاز  
والونزودواغيلار فالتقوا به لما كر الزغل فتناجزوا وضافر الزغل من هالك  
من ابطال الجبلين فانكشف الاسبانيول وانحن فيهم المسلمون قتلوا اسرا  
وأذرعوا الفتك فتاوم المركيز مقاومة شديدة لكن سقط أخواه وولدا  
أخيه صرعى بجانبه ولما رأى الثالث من أخوته قد خر صريعا طار تليه  
شعاعا وأجهرش بالعويل ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه فقدم له فرس  
آخر والنمس منه أصحابه الفرار فساعدهم فيه وانهمز بفاهم الى النقيرة  
وأما الكونت دوسيفنتاز فبقي في الجبل مع جماعة وأرادوا اللاحاق  
بالمركيز ففروا بجثث القتلى من اخوانهم وفيهم سراة الاسبانيول وأمائل  
رجالهم ومغاوير ابطالهم فأصابهم جزع شديد وظلوا منهزمين الى النقيرة  
وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب وأسره الجبليون حتى النساء واعتلوا  
منهم بحصن مالقة نحو مائتين وخمسين فارسا وأكثر من خمسمائة راجل  
ولما وصل مركيز قادس الى النقيرة مفلولا شريدا أشعث أغبر  
مخضبا بالدم عظمت النكابة في قلوب الاسبانيول لانه كان عظيم المكانة  
فيهم ولم يجسر أحد أن يعزيه بأخوته بل لزم غرفته كئيبا حزينا وانتشر  
خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجت الشغور وساحت الدبرات وهلمت  
القلوب حتى قلب فرديناند وايزابلا في وسط قصرهما أما المغاربة فطارت  
قلوبهم فرحا لا سيما عند ما شاهدوا أسراء الاسبانيول وأعيانهم مقيدين  
بالسلاسل تجلبهم فلاحوا الجبال وفي ايديهم راياتهم والكونت دوسيفنتاز



من جملة من ثقفوه

وهالك ماورد في (الفتح) بشأن هذه الواقعة قال في صفر سنة ثمان وثمانين  
وثمانمائة اجتمع رؤساء النصارى وتصدوا قري مائة وبلش في نحو الثمانية  
آلاف وفيهم صاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب استجة وصاحب  
النقيرة وغيرهم فلم يتمكنوا من أخذ حصن ونشبوا في اوعمار ومضايق  
وخنادق وجبال واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة وصار المسلمون ينالون  
منهم في كل محل حتى بلغوا مالقة فقتل كبيرهم ومن بقي قتل أو أسر. وكان  
السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب وبقي أخوه  
أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الواقعة  
ثلاثة آلاف وأسر نحو الفين من جملتها خال السلطان وصاحب اشبيلية  
وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثمائة من الاكابر وغنم  
المسلمون غنيمة وافرة من الانفس والاموال والعدة والذهب والفضة انتهى  
وأما غرناطة فغلبت أبا الحسن على ما أصاب من الغنم والفوز وثارت  
بأبي عبد الله ولده لاجل الجهاد فإبي الدعوة وعق عز مامو فوراً على ابلاغ  
الغارة حدود قرطبة فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش وسار الى  
لوشة حيث وافاه جموه علي العطار بجيش من الفرسان كلهم مغاوير ثم  
دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم الى حدود اشانة

وكان علي العطار خبيراً بالارض لكثرة ما قاتل فيها في زمانه فابصر  
ناراً على علم فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فانسرع الى فتح لشانة فسار  
معه أبو عبد الله وكان الدون دياغودو قرطبة في حصن بائية وقد علم بقدم  
الغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارساً والفين ومائتي راجل لانهجاد ابن أخيه

في لشانة وفي الطريق تذكر أنه نسي راية بانية التي هي شارة بيته فنشر راية  
قبرة وعند وصوله اتشمس به ابن أخيه مما اعتراه من خوف العدو وبرز  
الكونت لمنازلة العدو فتلاقيا وراء ربي وهضاب وقد أثقلت الغنائم حركة  
المغاربة وشوهم أبو عبد الله ممتطيا جواده الأشهب تحف به بطائنه  
الباهرة ولما ظهر لأبي عبد الله جيش النصاري سأل حماد عن رأيهم فأجابوه  
لست أعرف ياسيدي هذه الراية وأظن الاندلس كلها زاحفة إلينا إذ لا يمكن  
أن أهل مدينة واحدة يتقحمون لقاءنا واشتعلت نار الحرب وإذا بأحد  
القواد قد جاء الاسبانيول بمدد جديد وعزف بموسيقى إيطالية فقال علي  
المطار هذه الحار طليانية أمل العالم كله أصبح ضدنا وكان الضباب كثيفا  
فقم على المسلمين أمر العدو وظنوه ضغف ماله فكانوا يقاتلون رجوعا  
حتى بلغوا ساقية هناك فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفتها حتى عبرتها  
رجاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الاسبانيول فانهزم الحرس  
وعبروا الماء وأصبح السلطان فريداً برأسه فترجل وتوارى وراء الصفصاف  
لئلا يعرفه الاسبانيول فحضروا اليه وامسكوه وظنوه كبيراً من كهراء  
المغاربة فعادوا به الى لشانة أما علي المطار فبث سائراً والعدو في أثره لكنه  
كان يكر عليهم فيبده شملهم ويستأنف سيره ولما وصل الخبر الى فرسان  
النقيرة اغتتموها فرصة لادراك الثأر وسار الدون الونزودوا غيلاً بجيش  
فالتقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل فاقبلوا شديداً وزعموا أن علي المطار  
أبصر الدون الونز فقصده وطعمه بحربة فائتبعها في قسم من درعه ولم  
تصبه بضرر فانتضى حسامه ووثب عليه كاليث الذي قد ثكل شبله فدفع  
الفارس الاسباني عن نفسه وبقي القرنان يتساوران ساعة تارة على ضفة

النهر وطوراً في الماء وأنخن ذلك الشيخ العجيب جراحات فرق الدون لشخيخته وعرض عليه التسليم فأباه فدممه الدون بضربة على ام رأسه نخر صريعاً في النهر

قالوا : وكان مصرعه سبباً في فشل المغاربة فمبروا النهر مفلولين وغرق منهم كثير وأما أبو عبد الله فأحضر لدي كونت قبرة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام قائلاً له ان القضاء الذي قضى عليه هذه المرة ربما يقضي له مرة أخرى، ووصل سبدي غالب الغرناطي بالصرينخ الى لوشة فغرناطة وأخبر أن السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدو وان العطار قد قتل فجزع المسلمون جزعاً شديداً ومالت القلوب الى السلطان أبي الحسن وأطير وامن أبي عبد الله استشعره اسرق أموال المنحسين بحقه بأنه سيكون سقوط غرناطة على يده مما لقب لاجله بالشقيتواي الشقي ودخل أبو الحسن الحمراء واستقر ثانية في كرسيه وانحازت امرأته الحرة الى محلة البيازين وانقسمت العاصمة شطرين فكتب أبو الحسن الى الملك فرديناند والملكة إيزابلا أن يسلما اليه ولده وهو يسلمهما الكونت سيفوتاز وسبعة امراء آخرين فأبيا تسليمه خوفاً من أن يقتله لاحذرا عليه بل خشية من انقضاء الفتنة بينهما وارسلت امه من جهة اخرى تعرض عليهما رده اليها على وثيقة أن يعترف بسلطة ملك قشتالة ويؤدي جزية وافرة كل سنة ويقدم النفقات العسكرية ويرد اربعمائة أسير نصراني ويقدم سنوياً سبعين رقيقاً مدة خمس سنوات ويرهن على ذلك ولده الوحيد وأولاد اثني عشر بيتاً من بيوتات المغاربة

وحيث كانت إيزابلا غائبة لم تحظ عائشة بجواب وخرج فرديناند

فشن الغارة على أراضي غرناطة وأبو الحسن ملازم مكانه لا يخرج اليه خوفا من أن يعود فيجد الابواب موصدة في وجهه كالعادة فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القنص وصيده بازائه وهذه نتيجة استبعاد النساء بالامور ودخولهن في الاحكام ثم عادت ليزابلا فاطمة مولاي أباعبد الله على شريطة أن يعترف بسلطانها وسلطان زوجها ويطلق من في جانبه من اسرى المسيحيين فخرج أبو عبد الله بحماية وافرة لزيارة الملك فردينند فلما قابلته انحنى لاجل تقبيل يده فأبى فردينند ذلك وانهمضه بيده ولاطفه واكرمه قالوا وقدم ابن سراج من غرناطة ومعه ولد أبي عبد الله وابناء الاشراف الغرناطين فاودعهم رهنا وحى بالسلطان أبي عبد الله الى غرناطة وسار فردينند في تشييعه بضع ساعات ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن اليها من اخرى فكان هناك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماية الاعظم وجرى من الامور المنكرة ما ليس في كتاب وامثلاث الاسواق بالمتناتين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله والبعض الآخر باسم والده أبي الحسن وكان أكثر ميل العامة الى أبي عبد الله فسالت الدماء وأصبحت حراء غرناطة اسما على مسمى الى أن كل الناس من تقبيل بعضهم بعضا والعدو على الابواب، وسموا من اهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة الى ادخارها لدفاع العدو، وارتضى ابو عبد الله اخيرا بالخروج من غرناطة والانحياز الى المرية المدينة الثانية بعد تلك في الابهة والشأن وتشامخ البنيان اسكن والدته حرسها الله لم تكن راضية عن ذلك بل قالت له ان الملك الذي لا يقدر ان يستقر في عاصمة ملكه لا يصح ان يسمى ملكا وكان بودها ان يبقى

ابنها في الحمرأة ولو استمرت الفتنة وجري من الدم اضفاف ما جرى والحق  
ان لهذه المرأة ولضررتها الثريا اليد الطولي في تعجيل سقوط غرناطة  
\* ياربى مما تبحر النساء \*

على انه وان كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غرناطة فقد بقي له في  
البيازين رجال كلما اغتاظوا من أبيه نادوا باسمه فأجمع أبو الحسن أخير  
على الغزو في بلاد العدو لعله يزداد تمكيننا وكان فرديناند بقسم كبير من  
جيشه في غزاة بعيدة فمقد السلطان على الجند قائد مائة رجل معمد اللقاء  
رندة وهي حصن مشهور بالمنعة كان لذلك الوقت عش الدعارة ومركز  
قطاع السبل وأوى الفتاك، وأهله لا يألون النصارى خبالا، ولا يفترون  
عن مغاورتهم من حصنهم، وسجونهم ملائى بأسراهم، وعليهم قائد يلق  
بهم اسمه حامد الزغبى من بني زغبة الموصوفين بالشدة والقسوة، وعندهم  
طائفة من الافريقيين من غمارة، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء اذا  
ركبوا لانهم سريعو الكرة، عقبان عند الوثوب، شديدو الوطأة، اذا أقبلوا  
من معاصمهم انهفقوا على مروج الاندلس ولا اندفاق السيل المنهمر من  
الجبال، فاجتمعت الاجناد في رندة وكانت نحو أربعين الف ماش والف  
وخمسمائة فارس وزحفوا تحت قيادة قائد رندة وقائد مائة وذلك في ١٧  
ايلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلات أيديهم من المنائم وامتد  
الصريح بين رؤساء النصارى فجمع صاحبا قانس وبورتو جيشا كشيئا  
ونهما المدافعة العدو وكان المسلمون قد أقاموا كمينين أحدهما عند مدخل  
سهل الاندلس والثاني حفافي نهر لوبرة فلما انتشروا في ارض العدو نهدهم  
اليهم جيش من اوتررة والتزموا الرجوع نحو لوبرة فطاردهم الاسبانيون

حتى وصلوا الى الكامنين فتنازوا بهم وحمل الجميع على الاسبانيول فهزموهم  
فأنجدهم بويرتو كبرو فتشددوا به وعادوا الكرة فثبت المسلمون في  
مواقفهم لكن أسير قائدهم فذعره او نشطروا مشطرين فتأفف الاسبانيول  
احدهما وأحوا اليه والنقي الآخرة بصاحبه قانس فناوشه واذا رأى  
جواد أخيه المقتول في الوقعة السابقة تحت احد فرسان المغاربة ورأى  
الاسبانيول خيول اخوانهم القتلى في جبال مالقة تحت فرسان اعدائهم  
غلت في صدورهم وراجل الغيظ وثاروا لاختذ الثأر فحملوا على المسلمين  
حملة الرجل الواحد فكشفوهم وضل حامد طريقه الى رندة فردده اليه احد  
المتسلمة من النصارى

وكان عند صاحبه قانس بعض العيون والجواسيس اكثرهم من  
نصف دسغارة فأخبره بنصف حامية تصخرة فتمياً لقصدها و ستجش  
بويرتو السابق المذكور وجوان المارز فبادر الاجابته وزحفوا في ٢٨ اكتوبر  
سنة ١٤٨٣ يستمائه فارس والف وخمسمائة ماش فبلغوها ليلا بدون ان يشعر  
بهم أحد وكن اورتغسادو برادو الممهود بعشرة من أقرانه تحت السور  
ومعهم سلام وكان رجال الحصن قد خرجوا الى المدينة وناشبههم الاسبانيول  
القتال ريثما تمكن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن فعند ما ايقنوا أن  
العدو أصبح فيه سقط في ايديهم واتفقوا مع العدو على الخروج بالامان  
وبعث السلطان أبو الحسن جيشا الى الحامة وكان قائدها الكونت  
طنديلة فذب عنها حسنا وفي احد ليالي الشتاء خر جانب من سورها  
خفاف الكونت ان يدري المسلمون فيتحكموا الثغرة فنشر غطاء كبيراً  
من النسيج وجعل وراءه الفيلة يشتغلون حتى اكمل بناء الحصن المتهدم

وفي تلك المدة احتشد أمراء الاسبانيول ثانية للفرز ووزحفوا بستة  
آلاف فارس واثنى عشر الف راجل وعليهم مركيز قانس وكونت قبرة  
وقائد القنطرة وصاحب صنتياغو والافون والتزو دو اغيلار وويرتو كيررو  
وغونسالف القرطابي وغيرهم فاجتاحوا أراضي مالقة وحطموا زرعها  
وأحرقوا البيوت المنفردة ونهض اليهم المالقيون فلم يفوزوا منهم بطائل  
وكان فرديناند قد استبدل بالآت الحصار القديمة المدافع النارية  
الجديدة ونزل بها على البلورة ولم يكن لاهلها عهد بهذه الادوات الجهنمية  
فارتاعوا وسلموا بلدتهم صلحاً وانحاشوا الى مالقة فلم يقبلهم أهلها ظناً  
بأنهم جبنوا عن القتال وخاموا عن اللقاء ثم سير فرديناند بهذه الآلات  
جيوشا اكتسحت بسائط غرناطة فسأله أبو الحسن الهدنة فأبى وأظهر  
التعصب لابنه أبي عبدالله وبعث اليه بالمدد بمكانه من المرية وكان أبو الحسن  
قد بلغ من الكبر عتياً وكف بصره ولزم الفراش فنزل عن الحكومة  
والقيادة لاختيه أبي عبدالله الملقب بالزغل وكان له أمينا وبه رآهم أجالي  
المرية على أبي عبدالله محمد وقاموا ببيعة عمه ولم يلبث ان حضر هذا اليهم  
بنفسه فافتتح قلعة المرية وفر ابن أخيه شريداً الى قرطبة مستغيثاً بالملك  
والملكة واستوسق أمر غرناطة كلها الزغل وسار الى مالقة وحومت عليه  
الخواطر وانشرحت له الصدور وعقد به مغاربة اسبانية انواط الا مال  
قال صاحب النفع بشأن الوقائع المتقدمة: ولما استقر السلا ان ابو عبدالله  
ابن السلطان أبي الحسن بفرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغريسة  
تمرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها وأتى ابنه السلطان أبو عبدالله  
في جند غرناطة والجهة الشرقية والتقوا في موضع يعرف بالدب فكسر

السلطان أبو عبد الله . ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بان  
عمه بمالقة غنم من النصارى اعمل السفر للزوا بأهل بلاده من غرناطة  
والشرقية وذلك في ربيع الاول من السنة الى ان بلغ نواحي لشانة وقتل  
وأمر وغنم فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير  
قبرة واولوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار فأكسر الجند وأسر  
من الناس كثير وقتل آخره ز، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله  
ولم يُعرف، ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبرة ان يأخذه منه فهرب  
به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد  
وتفائل به فقلما توجه لجهة أو بعث سرية الا وبيته فيها ولما أسر السلطان  
أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الاندلس وذهبوا لمالقة للسلطان  
ابي الحسن وذهبوا به لغرناطة وبايعوه مع انه كان أصابه مثل الصرع الى  
ان ذهب بصره وأصابه ضرر ولما تعذر أمره أقام اخاه ابا عبد الله وخلع  
له نفسه ونزل بالملك فأقام بها الى ان مات واستقل اخوه ابو عبد الله  
المعروف بالزغال بالملك بعده انتهى

وقد سار المؤلف رحمه الله في تاريخ هذه اوقائع كلها على قاعدة

الايجاز فيه البلاغة

ثم ان فرديناند اعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس ابريل فحشد في قرطبة  
تسعة آلاف فارس وعشرين الف راجل وقصد بها مالقة لانها ميناء  
غرناطة ومنها كان يتسرب المدد من جهة البحر فابتدأ بفتح الحصون التي  
في طريقه وأشهرها ذكوان وأسرع حامد الزغبى لإغاثتها فوجد اهلها قد  
استأنوا وخرجوا منها . وفي النفع ان الف دارع من النصارى دخلوا



ذكوان عنوة فاظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم فقتلهم جميعاً ثم طلبوا  
الامان وخرجوا . فسار الى مائقة نخرج اليه الزغل بالف فارس فرده  
وقتل من الفريقين فانطف صوب رندة بإشارة مركيز قانس لمنعة هذا  
الحسن وكثرة ما فيه من اسرى لمسيحيين وكان قائد رندة قد خرج  
للفزو وعاد بغنائم لا تسهي وعند ما وجد الاسبانيول منازلين حصنه  
بمث بالصريح الى أهل الجبال المجاورة فاسرعوا اليه واشعلوا الحرب واقدموا  
اقدام الآتي ولم تؤخذ رندة الا بسبب عين كان يستقي منها أهلها وينزلون  
اليها بدهايز طويل ولا ماء لهم غيرها فاما تمكن العدو من هذه العين  
لم يفهمهم الثبات وطلبوا الامان على شرط الاجازة الى أفريقية فأذن  
لهم وخرجوا ووجد في اسرهم عدد غفير من كبار الاسبانيول وابناء الامراء  
ثم عزم فرديناند على منازلة حصن مكين لما بلغه من ضعف الجند  
المرتب له وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبزة على المسير معا فبادر  
الزغل الى الجهاد وبرز الى ملاقاتها فلم يصبر صاحب قبزة عن ملاقاته  
وحده وناوشه باربعة آلاف فارس وستة آلاف راجل ظاناً انه بأسره  
كما أسر ابن اخيه لكن الزغل خير الشيقتو والفرق شاسع بين أبوي عبد الله  
ابني الاحمر فوصل صاحب قبزة الى واد عميق وكمن فيه لئلا يركن القمر  
بنى عليه وخانه فافتضح امره للمغاربة وانها لواءا عليه بنبل متتابع فاستسلم  
جيشه وقتل أخوه وهلك جواده فامتطى جواد أخيه ولما رأى شدة  
فلك المغاربة باصحابه فر شريداً فطاردوه مدة واذرعوا في عسكره القتل  
فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصاري وابناء البيوتات  
الاسبانية وآب الزغل بالغنيمة

وساء جدا وقع هذه الواقعة عند الاسبانيول فاراد الملك محو  
أثرها وأجمع على مهاجمة حصن قبيل والحصن الذي بجانبه وهما مبنيان  
على صخرتين متناوحتين ترتبطان بجسر ولهما حامية شديدة تكثر  
المقاورة في أراضي العدو خصوصا جهة جيان وقائد الحصنين محمد بن  
يوسف بن سراج من رؤوس فرسان العرب - فوضع الملك المدافع البارية  
الجديدة بازاء الحصنين وشرع يرسل عليهما البيران وأدار الحركة الدون  
فرنسيسكو راميرز أول مهندس في اسبانية لوقته واستمر إطلاق النار  
يوما كاملا حتى خرت الجدران وهلك الأبطال ولم يجد ابن سراج  
فائدة في المقاومة بازاء هذه البيران المحرقة التي لم تكن عنده فسلم القلعتين  
على شرط الخروج الى غرناطة فأجيب الى ذلك

وكان قائد الحامية الدون غايتارز دو باديا خضر لديه مرة غربي  
من طبقة التجار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب طلب  
الكلام معه قائلا كم تقدمني من المال اذا سلمتك قلعة زالمة فاجابه وكيف  
يكون ذلك؟ قال ان لي فيها اخا أو عزاليه سرا فيمكن جنودك من دخولها  
ليلا، قال له وهل تخون دينك وامتك لاجل المال؟ قال المغربي اني بدأت  
ديني ، امي وأمي أمة اسبانيولة وقائد زالمة رجل ظالم سلبني مالي فأريد  
الانتقام منه فأرسل الدون رجالا راسلوا الخائن فأرسل اليهم سلما تسلقوا  
بها الحصن فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه

وكان أبو عبد الله ابن أخي الزغل قد جعل حاضرة ماسكه بلش  
البلائكو وتقوى به حزبه سكان البيازين وعادت الحال الى مسكنها بينهم  
وبين أصحاب الزغل ونخضبت غرناطة بالدماء من أبنائها وازدادت الحمراء

حجرة مع جميع ما اشتق من هذا المصدر ونكثت قرحا على قرح . وبينما هم كذلك اذ بلغهم تأهب العدو لاكتساح البلاد فتكلم الناس في الصلح وانفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه فجعلوا الزغل غرناطة ومالقة وبلش مالقة والمرية وما يلحق بها وتركوا الباقي لعهدة ابي عبد الله وسألوه أن يقيم بلوشة لكونها ثغر المسلمين طمعا في دفع العدو عنها لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتصال بالطاغية فسار الى لوشة وبعث الى فرديناند يسأله التجائف عنها فلم يجبه بل انه في ربيع عام ١٤٨٦ زحف الطاغية بجحفل جرار مؤلف من ١٢ الف فارس و ٤٠ الف ماش و ٦ آلاف من ممهدي الطرق وكان في جيشه كثير من مطوعة الفرنسيين وفيهم من المشاهير مثل غاسطون اليوني ومن غزاة الانكليز وفيهم اللورد سكالس وكان معه آلات ومدافع تفوق الاحصاء بإدارة جنود ألمانيين بادروا لاجابة داعي الحرب المقدسة من اقاصي بلادهم فقبل الوصول الى لوشة استأذن مركيز قادس من الملك أن يتبوا رابية « أبو الحسن » التي حقت فيها الهزيمة على الاسبانيول المرة السابقة والتمس كبير قبزة أن يكون في طليعة الجيش فأذن لكل بما سأل وخيم مركيز قادس في أبو الحسن بخمسة آلاف فارس وأثنى عشر الف راجل وأخذ كونت قبزة باتباع الوادي طامعا في اسر ابي عبد الله وأما هذا فبرز الى القتال يطلب الموت وتقدم الصفوف ينافح ويكافح وما زال يخوض غمرات المنايا الى ان أصيب بجرحين كبيرين فالتزمت حاشيته أن يرجعوا به ولكن القتال بقي مشتدا وتبايع الفريقان على الموت وتماجزوا وتناجزوا واذافارس مغربي زميت المنظر شديد الروعة راكبا جوادا ادهم كالليل الحالك قد

أحدق به أبطال من غمارة ووثب كالأسد الحارث فاخترق مصاب الاسبانيول وهزم من لقيه فانتبه به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم ونهبوا عزائمهم وحملوا حملة الرجل الواحد فاخترل مصاب الاعداء على كثافة جوعهم وكان هذا الفارس هو حامد الزغبى فاكشف الاسبانيول من جهة الوادى وكاد صاحب قادس يقع فى الاسر فبادر الملك فرديناند ببقية الجيش والى جانبه اللورد سكالىس البطل الانكليزي ومعه غزاة الانكليز يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم ولم يكن ذلك معهوداً عند المغاربة فذعر واوجرح الزغبى فاحتلوه الى المدينة وارتخت عزائمهم فمكسوا الى الارياض وألح عليهم الاسبانيول فاشتد العراك وراجع المسلمون ضمايرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العا ووجرح اللورد الانكليزي وحمل الى الخيام فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمى البلدة بالنيران الدائمة فهدم أسوارها وحاول أهلها يرمي جدرانها وسد فرجها فلم يفلحوا وكان النساء والاطفال والشيخو تحت نيران المدافع يصابرون على مر الحمام فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الاسبانيول فقتلوا منهم مقتلة عظيمة واستمروا يفتكون بهم ليلتين ويوما لكن تهديم بلدتهم وموقفهم بازاء النيران المحرقة اضطرهم أخيراً الى التسليم على شرط الانصراف آمنين فاجيبوا الى ما سألوا وخرجوا الى رياغو على ثلاث ساعات من لوشة

وهالك ما رد في النجح بشأن ما تقدم ببعض تصرف قال  
« ثم انتقل ( أي الطاغية ) في جماعى الاولى الى رندة وحاصرها وكان أهلها قد خرجوا الى نصرة ذكوان وسراها فحاصر رندة وهد أسوارها وخرج أهلها على الامان وطاعت له جميع البلاد ولم يبق بغربي مالقة

إلا من دخل في طاعته وتحت ذمته وضيق بمأقمة و فرق حصصا عن بعض  
الحصون ليحاصر مأقمة وعاد الى بلاده

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين  
بعض البلاد وبينما هو كذلك اذ بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك  
الحصن وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى  
على الحصن كانوا قد سروا اليه ليلا وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين  
فقاتلهم المسلمون من غير تعبيرة فاقتل نظام المسلمين ووصل النصارى  
الى خباء السلطان ثم التحم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا  
النصارى شر هزيمة وقتلوا منهم خلائق وقصر المسلمون خوفا من حملة  
سلطان النصارى اذ كانت قادمة في أثر هذه ولما رجعت اليهم الفلول  
رجعوا القهقري واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا  
ذلك كله بالحصن ولم يحدث شيء بعد الى رمضان فتوجه العدو لحصن  
قبيل وثارله وهدأ أسواره ولما رأى المسلمون ان الحصن قد دخل  
طلبوا الا ان وخرجوا باهوالهم واولادهم وفر الناس من تلك المواضع  
واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافرو حصن اللوز وضيق بجميع  
بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ثم ان العدو دبر الحيلة مما  
هو عليه من القوة فبعث الى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسرهم وكساه  
ووعده بكل ما يتمناه وصرفه لشرقي بسطة واعطاء المال والرجال ووعدوه  
أن من دخل تحت حكمه من المسلمين فانه في الهدنة والصلح وخرج  
لباش فأطاعه أهلها ونودي بالصلح في الاسواق وصرحت به في تلك  
البلاد الشياطين وسرى هذا الامر حتى بلغ ارض البيازين من غرناطة

وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يحق وتبعهم بعض  
المفسدين المحبين تفريق كلمة المسلمين وممن مال الى الصلح عامة غرناطة  
لضمف الدولة ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين  
الى ان قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسورا ووقعت  
فتنة عظيمة في غرناطة نفسها لما أراد الله من استيلاء العدو على تلك  
الاقطار ورجعوا البيازين بالحجارة من القلعة وعظم الخطب وكانت الثورة  
ثالث شهر ربيع الاول عام احدى وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة الى منتصف  
جمادى الاولى من العام وبلغ الخبر ان السلطان الذي قاموا بدعوته قدم  
على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب  
قلعة غرناطة بان الم يكون له الملك وابن أخيه تمت اياته بلوشة او بأي  
المواضع احب ويكونون يدا واحدة على عدو الدين وبينما هم كذلك اذا  
بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد ونازل  
لوشة حيث السلطان ابو عبد الله وضيق عليها الحصار وقد كن دخلها جماعة  
من اهل البيازين بنية الجهاد واماضدة وليهم وخاف اهل غرناطة وسواها  
من ان يكون ذلك حيلة لم يأت لنصرتهم غير البيازين ( انظر الى ما تجنيه  
الفرقة واختلاف النية من ثمرة التخاذل ) واشتد عليهم الحصار وكثرت  
الاقاويل بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ودخل  
على اهل لوشة في ربضهم وخافوا من الاستئصال فطلبوا الامان في انفسهم  
واموالهم فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين  
من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وهاجر اهل لوشة الى غرناطة  
وبقي السلطان ابو عبد الله بلوشة فصرخ عند ذلك اهل غرناطة بانه ما جاء

لوشة إلا ليذخاها العدو وقيل أنه سرح له حينئذ ابنه الذي كان مرهوناً في الفداء ثم رجع صاحب قشتالة الى بلاده ومعه السلطان المذكور وفي نصف جمادى الآخرة خرج الى البيرة فهد بعض الاسوار وتوعد الناس فاعطاه أهله الحصن على الامازن فخرجوا وتقدموا على غرناطة وانتقل للصخرة فأخذها وحصن هذه الحصون كلها وشحنها بالرجال والعدة ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ثم عاد لبلاده وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بان من دخل في حكمه فهو في الامان واشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب افرنسية فخرج لبلش وأطاعته ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق وان من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه وان معه وثائق بخطوط السلاطين فلم يقبل الناس ذلك الا القليل منهم مثل أهل البيازين فلم يجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحته الدلائل وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب فبعث له أهل البيارين أنه اذا قدم بهذه الحجج اتبعه الناس وقاموا بدعوتهم من غير التباس فأتى على حين غفلة ولم يكن يظن اتيانه بنفسه. فدخل البيازين ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح فلم يقبل ذلك. ثم أهل غرناطة وقالوا: ما بهد لوشة من قدم. ودخل ربض البيازين بالرجال سادس عشر شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وعمه بالجرء واشتد أمر الفتنة وأمد صاحب قشتالة صاحب البيازين بالرجال والعهدة والبارود واشتد أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة وفشا في الناس القتل والنهب، انتهى وفي رواية المقرئ اختلاف مع الروايات الا فرنجية في بعض المظان من تقديم وتأخير وتصغير وتكبير كما لا يخفى على من تدبر النقلين وقال

مؤرخو الاسبانيول: ثم زحف فرديناند نحو (ابلورة) الواقعة على ستة عشر  
الف متر فقط من غرناطة فضيق عليها ورمها بالنيران فسلمها سكانها  
وخرجوا وكان حصن متن فريد من أمنع حصون المغاربة وقد حفر الزغل  
حوله الخنادق وارسل من فيه من النساء والاولاد الى غرناطة فأناخ عليه  
فرديناند يرميه بالمحركات حتى اشتعل مخزن البارود. وفي النفخ يقول دار  
العدة وتهدمت المنازل وهلك الناس فطلبوا الامان وخرجوا الى غرناطة  
ودخل ملوك النصاري الحصن ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى  
المسيحيين هذا والزغل لا يتحرك من مكانه بالجرأ خوفا من انتقاض أهل  
انبيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الا وثر في اسقاط تلك السلطنة  
وزعموا أن قائدي متن فريد وابلورة كانا اخوين وكانا اخوين في  
البأس كما في النسب والمغاربة يحبونهما كثيرا لاقدامهما فبعد تسليم الحصنين  
تبدلت محبتهم قلى ، فيئسا من الحياة وشرعا يجندان في استعادة منزلتهما  
واستأذنا السلطان في نزال النصاري فعقد لهما على جيش وافر وخرجا  
للجهاد فالتقيا بالاسبانيول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غرناطة  
فكانت ساعة مؤرخة في وقائع حروب الدنيا ابدى فيها الاخوان من حسن  
البلاء وصدق الجلال ما لا يدخل تحت وصف فكانا كيفما حملا في مصاف  
العدو احتلت امامهما الصفوف وتهاوت امامهما الابطال وكان مركيز  
قادس قائد الطليعة فاوشك أن يولي منهزما فاسرع لاغاثة كونت قبرة  
فلم يقض أرباء فبادر الدون جويان ابن أخي الملك فلم يشف غليلا فوافاهم  
الطاغية الكبير بنفسه وبياتي جيشه فرد المغاربة بكثرة العديد وبقي  
الاخوان المستميتان يقاتلان في مقدمة الجند وقد احاط بهما شرذمة من



أنجاد الغارة الى أن وقعا صريعين الواحد بعد الآخر، فمظم الخطب فيهما، واشتدت النكاية بموتهما، وبكاهما اهل غرناطة بسيول الدموع وعاد فرديناند الى قرطبة بعد أن اجتاحت مرج غرناطة واخني على نصارته ولم يكديخلص الى بلاده حتى استؤثفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه وكان ماكان من حضور ابي عبد الله الى البيازين وقيام دعوته فيها واستمرار القتال بين الفئتين أياما حتى قيل إن السلطانين تبارزا بانفسهما في اسواق غرناطة فلم يفز أحدهما بالآخر

وذكر مؤرخو الفرنجة ان اخبار الاندلس كانت وصلت الى المشرق فارتج لها العالم الاسلامي ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر فتهادنا ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد اسطولا على سواحل صقلية لكونها تابعة مملكة أسبانية وان يجهز صاحب مصر بموثة من جهة افريقية فلما أحس بذلك فرديناند وايزابلا اجما على سد الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للامداد ولما كانت مالقة هي الثغر الاعظم وميناء الاندلس ومركز التجارة مع مصر والشام ومنها كانت تنسرب الاموال والاسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب كان أول ماأعملا فيه الاستيلاء على مالقة ولكن قبل الهزول على مالقة عزموا على أخذ بلش القريبة منها ففي ربيع سنة ١٤٨٧ زحف الطاغية بشرين الف فارس وخمسين الف ماش قسمها قسمين احدهما بقيادة صاحب القنطرة والثاني قاده بنفسه وأخذ الاول بطريق الوادي وسار الثاني بطريق الجبل وامامه نحو أربعة الاف من الصناع وممدي الطرق فلم يزل حتى أطل على مرج بلش وجناها وهي من أزهى بقاع الارض

وابدع أقاليم الدنيا وقد ارتفعت حفايفها الحصون والابراج وهناك قوم  
من الجبليين اهل شدة ونجدة، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء  
الصخور، انقضاؤهم الذي ورثوا من الكور، فهزموا طائفة من جنده واستلحموا  
جماعة فقتل جملة وافرة من أبطاله وأصيب ابن دوق براغانس بجراحة  
ثم أرسل جنودا للمحاصرة على الذخيرة الآتية بطريق الجبل فلم يتمكنوا  
من حفرها واصابها المغاربة وابتعدوا في معسكرهم النكاية واخذوا يضرمون  
النيران في الليالي على رؤوس الجبال اشارة بعضهم الى بعض على حد ما قال  
وضموا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بالسن النيران  
وكبسوا معسكر الطاغية بيانا مرارا آخرة وانجموا من كل ناحية  
وهاجموا المعسكر وبعد قتال عنيف ارنطوا الى جبالهم هذا والحرب الداخلية  
لم تزل قائمة على سوقها في أسواق غرناطة فلما شاهد المسلمون ما هم عليه  
من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض أخرج ما كانوا الى الانضمام  
والوثام شددوا الكبر على السلطانين ونصحوهما بالعدول عن الشار الذي  
هما فيه فأبى أبو عبد الله التخلي لعمه عن الملك وأصر على المطالبة غير متأمل  
في عواقب هذه الحال التي ستزع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته  
ولم يزل في أرض عمروها ثمانية قرون الا ان الزغل لم يصبر عن نجدة بلش  
فابقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن اخيه المشؤوم وخرج ليلا بالف فارس  
وعشرين ألف ماش، واجتمع اليه من أهل الجبال أعداء، وعلا الصوت  
في الربى والوهاد، « الزغل الزغل » فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول  
وكانت مدافع الطاغية في الطريق فحاول رضوان المكناسي استخلاصها  
فلم يفر بطائل وكتب الزغل الى قائد بلش يأمره انه عند ما يشاهد

النار ليلاً يخرج من إحدى جهات المدينة وهو يقابله من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسكة فوقم الكتاب في يد فرديناند خفاف جداً وخافت الملكة أكثر منه ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب عدم . توف قائد بلش على أمر الزغل فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدم الزغل نحو معسكر الاسبانيول فلم يجدوا أحداً خرج من البلدة فلم ينكسوا على أعقابهم بل اقتتلوا اقتتالاً شديداً وانظر المناربة ان يخرج أهالي بلش لمساعدتهم فطال الامد ولم يبرز أحد فاصابهم الملح وتقهقروا وتقدم صاحب قانس فتبعوا مرقبا عاليا ركب فيه ربحهم فاجتهد الزغل في ضم شملهم فلم يفلح فعاد بهم الى غرناطة، ولما طار الخبر اليها بما حل به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه فضرب هذا اعناق اربعة من اعيان الغرناطيين انصار عمه ولما بلغ الزغل نهر شنيل اخبره بعض حواشييه أن الحضرة بايعت ابن أخيه فتحول الى المرية فالمنكب فوادي آش . ولما أصبح أهالي بلش وقد رأوا الزغل أقبل بمسكرو عنهم وهت عزائمهم فعولوا على التسليم وعقدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة وبين الكونت دوسيفوننتاز صاحب شريش الذي كان أسيرا في بلش وخرج أهل بلش بأموالهم الى غرناطة وانطلق اسري الاسبانيول وأطاعت جبال البشرات ونحو أربعين بلدة فيما قيل أنو احي مالملة وطلبوا حماية الطاغية وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مدجنين وقال صاحب تفح الطيب بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه « إن صاحب غرناطة بعث الى الاجناد والفواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب وبلش ومالملة وجميع الاقطار وتجمعوا بقرناطة وتماهدوا وتحالفوا على أن يدموا واحدة على عدو الدين ونصرة من قصده الله ومن المسلمين

وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك نخرج بمحملة قاصداً  
نواحي بلش وبعث صاحب البيازين وزيره الى مالقة والى حصن المنشأة  
يذكر ويخوف وبعث النسخة من عقود الصالح فقامت مالقة وحصن المنشأة  
بدعوته خوفاً من صاحب قشتالة وطمعاً في الصلح ثم اجتمع كبار مالقة مع  
أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل  
لهم على ذلك فلم يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس  
من اليهود وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة وتزل عليها في ربيع  
الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ولما صبح عند صاحب غرناطة  
ذلك اجتمع بالناس فاشاري بالسير لا غداة بلش للمهد الذي عمدوه وأتى  
أهل وادي آش وغيرها وحشود البشراة وخرج صاحب غرناطة منها  
في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ووصل بلش فوجد العدو نازلاً  
عليها برا وبحراً فنزل بجبل هناك وكثر لفظ الناس وحملوا على النصاري  
من غير تعبئة وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايعة  
صاحب البيازين فالتقوا مع النصاري فشلين وقبل الالتحام انهزموا  
وتبددت جموعهم مع كون النصاري خائفين وجلين منهم ولا حول  
ولا قوة الا بالله فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان  
فقتلوا وادي آش وعاد النصاري الى بلش ودخلوا ربضها عنوة ولما رأى  
أهلها تكالب العدو عليهم وادبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان  
فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة واطاعت النصاري جميع  
البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش ،، انتهى  
ثمذكروا أن فرديناند أجمع على حصار مالقة وكانت من قواعد

ساحنة غرناطة وميناء الاندلس وثغرها المحروس كما تقدم الخبر وهي مبنية في قعر واد خصيب فاتح فاه لجهة البحر تنحصرها الجبال والابرار والاسوار من البر والامواج المتكسرة على الاسوار من البحر وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة (دار الحكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار، ولها وراء السور ربضان أما المناوح منها للبحر فجنات معروشات وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأما المقابل للبر فكان مشتبكا بالهارة متصل البيوت. وكان لما لقة حامية وافرة مجربون في الحروب ومعتادون لفناء الاهوال وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار وفي مقدمة هؤلاء التجار الموسرين رجل يقال له علي دردوق له عدة سفن تجارية تسافر الى جميع مواني الشرق وله في ثغر مائة الكلمة العلية والرأي المقدم، فجمع هذا عصابة من كبار القوم وسار الى قائد القصبة وبين له عقم الدفاع وخلو المقاومة من كل جدوى، وان الا جدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار الى خيام الاسبانول للمكاملة في شروط التسليم وترك القيادة لاختيه

وكان حامد الزنبي المشهور بلدد العداوة للنصارى قائد موقع المنارة البحرية وعنده من بني غمارة طائفة كلهم علي شاكلته من شدة الباس وصعوبة المراس فطارت عقولهم عند ما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة واستنفردوا من كان باقيا من أهلها على عهد الزغل واستدعى حامدا لخواص الى حضرته فحضروا جميعا ولم يتخلف منهم الا دردوق الآنف الذكر فقرروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه

وكان صاحب قادس قد عرف في بلش مالقة رجلا شهير من  
تجار المغاربة وعده بقتل ذؤابة حامد عن المقاومة فعرض الامر للملك فقوضه  
بالعمل وأركبه المركيز جواده وقسلده سلاحه واردفه بمنزلي آخر  
من انسابه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين مع أربعة آلاف  
ذهب ان سلم قصر المنارة أو جبل نارو وان رضي بتسليم البلدة كلها كان  
جزاؤه أعظم وكان حامد يحترم مركيز قادس احترام الإبطال بعضهم  
لبعض فآكرم الرسل واصفى اليهم لكنه رفض خيانة ملته ووطنه رفضاً  
باتا فكرر فرديناند الرسالة فكاء الاهالي يقبلون بالصالح لولا ما قال حامد  
للرسول وهو ،، اذهب وقل لسيدك اني قد سلمت مدينة مالقة لاجبها  
لا لأسلمها ،، فعند ما يئس فرديناند منهم قدم المدافع وزحف بالجيش  
وقابلته أساطيله من البحر فاحرق حامد الارياض وسير ثلاث فرق  
لمصادمة العدو وذلك انه لما كان لا بد للاسبانيول من المرور بمضيق بين  
قصر المنارة والجبل امر الزغبى فرقة من جيشه باحتلال المضيق وفرقة  
أخرى باحتلال الصخرة المشرفة وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية  
وانتشرت الحرب بداية في المضيق المذكور وتصارعوا قرناً لقرن  
وعولوا على القتال اكثر من الاسر وتلاحقت النجدات للمسيحيين فمعظم  
سوادهم واشتدت رطابتهم السكن المغاربة ثبتوا في مواقعهم وقلوا حدودهم  
فالزموهم الرجوع فنكصوا على أعقابهم ولما يقضوا وطرا وكان فرديناند  
مشتغلا بتركيب مدافعه وتصويبها مما اقتضي من المشقة ما لا يوصف فلما  
تم له ذلك رمى البلدة بالنيران وظهرته الحراقات من البحر وارتفع دوي  
المدافع ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة لثانة أسوارها ومنعة مواقعها

ولم تؤثر النيران الا في برج واحد كبير تداعى اكثره للخراب فاهتبل  
النصارى فيه الغرة وتسلقوه فدحروهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقاً  
كثيراً فحملوا ثانية وصدقوا الحملة فازاحوا المسلمين وملكوا الحصن فتجمع  
المسلمون وحملوا عليه واحتفروا عند ركنه أخسوداً ووضعوا النار في الأخدود  
نخر منه جانب وهلك بسقوطه جم غفير من الاسبانيول ففتحوا منه ثغرة  
لجهة معسكرهم يتسرب لهم بها المدد وبقي الفريقان يراوون القتال ويغادونه  
يومين وليلتين وانكفأ المسلمون ولم يتمكنوا من الحصن واشتدت عزائم  
الاسبانيول باخذه ولكنهم لم يطعموا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش  
المدربة على القتال وطال بهم المقام فسئموا وتبرموا وخافوا العاقبة ووقر في  
نفوسهم من خوف الزغي وطائفتهم ما آلبهم الى القنوط فقر منهم جماعة  
وافرة الى المدينة وانضموا الى المسلمين واخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى  
وبالفوا في الحكاية فثارت الحمية برءوس هؤلاء فاخذوا يندلقون على  
الاسبانيول اندلاق السيوف من الاغهاد، ويندلقون اندفاق السيول من  
الانجاد، فلا يلقونهم في مأزق، الا مزقوا شملهم كل ممزق

واتصل بفردينادان النصارى الخائنين بشروا حامداً بكون الملكة  
ترجت زوجها كثير ارفع الحصار عن مالقة فذهب الى تقطيع آمالهم باستدعاء  
الملكة الى المعسكر فجاءت وصحبته ابنتها وبعد وصولها راجع حامداً في  
التسليم فخبه حامد الرسل وانكر الامر وترجاه بعض الخواص بالقبول  
فقيل انه قتلهم فامر الطاغية باطلاق المدافع فاطقت نيرانها دراكا واثق  
ان حضر الملك والملكة الى معسكر صاحب قادس فجرب في حضرتيها

بعض مدافعه الكبار ولم ينشب ان ابصر الراية التي فقدتها في جبال مالقة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة فأثر ذلك في خاطره ولج في اطلاق النيران ثم تقدم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه فانها ل عليه الف مغربي من ذؤبان الجيش فمذبحوا أجناده ذبح الشياه وهزموا من سلم منهم فلاحق المسدد للنصارى فاعادوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية وكادت رايته تقع أيضا في يد العدو لولا أن قائد تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناته جرح في معصمة القتال فعاد به قومه الى الحصن وأرسلوا من هناك نبأهم فنالت من الاسبانيول وتقهقر عسكر المركيز وفشاهيه القتل وهلك في هذه الوقعة أورتاغو ووبرادوا الفارس الشهير أول من تساق قلعة الحامة فكان يوما شديدا على الاسبانيول ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين يأس المرء من الحياة ومبايعة الارواح في أسواق المنايا وتهاكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض وشرع حامد يرمم المتهدم من أسوار المدينة حتى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على اسطول الاسبانيول وأما الملك والملكة فاستجلبا لدخائر والافوات من جميع مدن اسبانيا وأمرأ ببناء ابراج من الخشب يسمع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب ولها سلام لاجل التسور والنزول وعقبا ذلك بحفر الخنادق ونقب الاسوار وحشر الهذه الغاية الفعلة والصناع واستكثر من العدة والآلة وقام العمل على قدم وساق وحامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم ذواقا بل يغادهم النزال ويرأوهم حتى ملوا وامتلأت الخيام بالجرحى والمرضى ثم لم يلبث أهل



مالقة ان اكتشفوا الحفر التي أداروها على جدران المدينة فحُفروا بازائها ونقبوا تحت الأرض الى أن اتصل ببعضها ببعض فكان الفعلة يتلاقون من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز ويتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها الا أن الظهور كان للمسلمين هناك دثما وكان الاسبانيول يخرجون من اخاديدهم مدحورين ويهال على ما حنروه

ثم تجمع المحصورون وحملوا من البحر والبحر حملة واحدة واستمر القتال ست ساعات فلم يكشفوا العدو وعادوا الى مراكزهم وكان الجوع قد فشا في مالقة وانقطع عنها المدد وسدت دنها لمسالك وفنيت في أهرائها الغلال فاشتد الضيق بالناس واجتمعوا عند علي دردوق واجمعوا على مراسلة الطاغية في أمر التسليم بشرط الامان دلى النفوس والنفائس وانفذوا بالرسالة رجلا آب اليهم بجواب شاف طبق ما يشتهون فشعر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهم فأصيب وانهمزم صوب مخيم الاسبانيول

هذا ولما رأى أهل وادي آش ما حل باهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل المسير لنجدتهم فسأدهم فيه وحشد جيشا وجهز له ما يلزم وبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ابن أخيه فأرسل جيشا لمعارضة جيش عمه في الطريق اثباتا لآمانته وتأكيذا لصدقه لملوك النصارى لم تأخذه رافة ببناء جلده وقضى الله بظهور أصحاب أبي عبد الله الملقب بالشقي فقفل جيش الزغل الى وادي آش وفرح أبو عبد الله فرحا جزالا بهذه النصر وبعث بالبشائر مع تفصيل الواقعة الى فردينا وازبلا وأسني الهدية لجاوباه شكرا وتمجيذا وظن انه قضى بذلك وطرا لكمة أرغ عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين قال عنه كثير من حزبه وخاف على نفسه فأرسل يستمد فردينا ند

فأمدده بالف فارس وعشرة آلاف راجل لاجل حراسته. لعمرى جدير  
بملك كهذا أن يكون آخر ملوك قومه

وفي هاتيك المدة وصل وفد من ملك تلمسان الى فرديناندوايزابلا  
بهدايا فاخرة وقد تضمنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مالقة فاستقبل  
الملك وامرأته ذلك الوفد برأ وترحيبا واقتصر على ذلك واشتد الجوع  
بأهل مالقة وأكلوا الخيل وهلك منهم سغيا خلق كثير

ثم ظهر من وادي آش رجل يدعى براهيم ويلقب بالصائتوأي الولي  
فلما رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالقة أخذ يطوف في أسواق  
وادي آش مناديا إن الله أوحى اليه كيفية خلاص مالقة فسأله عن كيفية  
خلاص مالقة فاجتمع حوله اربعمائة رجل من أولى النجدة وساروا بصحبته  
الى تلك المدينة فرأوا أوفى مكان للدخول جهة معسكر المريكيز صاحب  
قادس فهجموا عليه فنهزم من قتل الخفراء ومنهم من ألقى بنفسه في البحر  
ثم تسور جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهزم الباقون

أما الصائتو فلم يغش الكريهة بل دلف اليه لاسبانيول فوجدوه  
ساجدا قائنا لا يتحرك فأخذوه الى المريكيز فسأله عن حاله فأجابه أنه ولي  
الله وإن الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مالقة فسأله عن كيفية ذلك فأجابه  
أنه نهي عن كشف ذلك السر الا لملوك فارس له المريكيز الى الملك والملكة  
وكان فرديناند قد طمأن ونام فلم ينبهوه وقادوا المغربي الى سرادق المريكيز  
مويا والدوق النارودو برتغال فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى  
من اجلال الجند لهما وما شاهد من الرياش الفاخر في فسطاطهما فطلب ماء  
ليشرب وبينما هو يمد يده لتناول القدح اذا استل من تحت جنبه شفرة

فاجأ بها الدوق بضربة فصرعه ثم أراد أن يشي على المركة فخطأها ووقع  
خنجره في نضائد الديباج فوثب عليه الجنود وقتلوه واخشوا المثلثة في جسده  
وطرحوه الى أهل مالقة فاخذها غمارة وغسلوها ودفنوها بكل اكرام ثم  
ذبحوا أحد كبراء الاسبانيول المأسورين عندهم وناطوا جثته بذيل خمار  
وسرحوه بها الى معسكر المسيحيين

فارتاب النصارى من ذلك وزادوا عدة الحرس على فسطاط الملوك  
وامروا جميع المدجنين اي المغاربة الخاضعين بالانصراف من المعسكر  
ولم يمت ابراهيم الولى حتى قام في مالقة ولى آخروادعى مثل دعواه ونشر  
راية فرفعها حامد فوق الابراج تشديدا للمحصورين

وفي تلك المدة حضرت النجيدات الوافرة لمعسكر الطاغية فكان  
ماورد من قبل دوق مدينة سيدونيا ماخلا الجيوش مائة سفينة دخلت  
جون مالقة موقرة بالميرة والكراع واكثر من عشرين الف ذهب من  
النقود، وعند ذلك راجعت الملكة اهل مالقة في امر التسليم فرفض  
حامد كل الرفض ومنع انمقاد الصلاح فمزم المسيحيون على الحملة العامة  
والوقعة الفاصلة

وكان عند المدينة جسر ذو اربع قناطر على كل من طرفيه برج شاهق  
فتولى قائد المدفعية الاكبر فرانسيسكو راميرز افتتاحه فخر اخدود انحت  
الارض وجعل منه مسربا الى أحد البرجين وتقدم بالجيش ووضع البارود  
في الاخدود وقذف بنيران المدافع فاصاب الشررا أثناء المعركة البارود الذي  
في الدهاليز نفرت طائفة من البرج وقتل من حمله جماعة وفر البقية فاستولى  
عليه الاسبانيول وناشبو الحصن الثاني

وكان الجوع قد عض أهل القلة بنابه حتى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه  
فاكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت وهلك منهم خاق كثير والتجأ جماعة  
الى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً فعند ذلك توجه على  
دردوق جماعة من أعيان البلدة الى حامد فوجدوا عنده الدرويش المار  
الذكر فقالوا له اننا نتوسل اليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة  
من الجدوى فان أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة

ولان رجالا يدسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة وليس لنا  
في غرناطة كبير أمل فان سلطانها أبا عبد الله تابع للملك النصارى وان الزغل  
عمه طريد منها شريد في وادي آش فما تنتظرون ساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا  
جوعاً فأجابهم حامد علي بنابه بهجمة اخيرة فلا تشبطوا عزائنا عنها وخرج في  
اليوم الثاني رافعا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناقي وجماعة غمارة ورتب  
المصاف وصعد الذاء والاولاد على أعالي الابراج لمشاهدة الواقعة الاخيرة  
وتراحت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر  
صانتي اغوا فصدق المسلمون الحملة وهبت الريح المبشرة خففت لها راية  
الدرويش وحمل الوطيس وتسابقت غارة الى تسنم الجنة وقامت بما يعرف  
من بأسها وصدق جلادها فانكشف الاسبان يول وطاردتهم المغاربة بالقتل  
والاسر واذرعوا الفتك فوق العرب في قلوبهم وتداعوا من كل ناحية  
للفرار وبينما الامر كذلك اذ خر الدرويش صريعا بجرح أصابه وسقطت  
الراية فتطير المسلمون وتزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رأى النساء  
مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور ولبث حامد سائرا الى معقله  
مع قومه التماريين وانقطع أمل المالكين وعولوا على التسليم فراسلوا الملوك

ملتجئين الامان على النفوس والنفائس فلم يجابوا اليه وقيل لهم ان ابا  
الرافة قد مضت فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالاعراض أيضا حينئذ أرسلوا  
الى الملك يقولون له انهم غزموا أن يشنقوا ألفا وخمسمائة أسير مسيحي  
فوق السور ويجمعوا نساءهم وذريتهم في القاعة ويحرقوا البلد ويخرجوا  
منه بالسيف مقاتلين الى آخر نفس من حياتهم فمئذها حسبوا لذلك  
حسابا ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط ودخلوا مالقة رتبوا الحصون  
وبقى الزغبى ممتنعا في مكانه الا أن جماعة جنحوا الى التسليم من الجوع  
والترحم أن يتابعهم فبعث الى فرديناند بذلك فاجابه انه لا يناله الا ما ينال  
أهل مالقة فلما استسلم غدر به وأخذ هو وأصحابه أرقاء وحينما سأله عن  
سبب مقاومته الشديدة أجابه أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني  
وساطاني ولو طار عني جندي ما أسلمت السلاح أبدا فغضب الطاغية وأمر  
به فحمل على الادم

وعند ما دخل مالقة حول المسجد الاعظم كنيسة واقام بالقصبة  
واقامت الملكة بجبل فارة وبعد فتح المدينة اطاع غربي البلاد  
كاهل وخضعت شوكة اهلها وجدع مارن عزم وسكنت سورة بأسهم،  
واما السلطان أبو عبد الله فبعث يهنيء الملك والملكة بهذا الفتح ولم يكن  
هذا المسكين يدع فرصة لظاهر امانته الا ويتهزها فلم تنفعه تلك  
الامانة الا حينما كان مظاهرا للطاغية على عمه، والاسبانيول على قومه،  
حتى اذا خارت قوى مناظره واستسلموا الى العدو وظن الامر قد استتب  
له نزلت الصاعقة على رأسه وأخذ من حيث كان يرجو الامن وختم به  
ملك آبائه، وشقيت مئات من الالوف بشقائه، ولم ينج من المحنة سكان

البيازين الذين ظاهروه على غيه، وشاركوه في فساد سمييه  
وتأمل فيما قال المقرئ بشأن حصار مالقة تجده منطبقاً على الرواية  
الفرنجية لولا شدة الاختصار قال وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح  
وأطاعوا صاحب البيازين وأتى إليها النصارى بالميرة ولما نزل باش بعثوا هدية  
لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان  
مأسوراً عندهم فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فارة وهو حصن  
مالقة بدعوة صاحب وادي آش وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها  
براً وبحراً وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم وطال  
الحصار حتى أداروا على مالقة الخنادق من البر، والسور والالجفان من  
البحر ومنع الداخل إليها ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار  
وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض وضيقوا عليهم  
بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكوا المواشى والخيل والحمير وبعثوا  
الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد (ولكن عهدي  
بالنضال قديم) وأثر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل ولم يظهروا  
مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً إلى أن ضعف حالهم ويثسوا من ناصر أو مغنيث  
من البر والبحر، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم فموتوا  
على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء وقيل لهم لما تحقق العدو والتجاءهم: تؤمنون  
من الموت وتمطون مفتاح القلعة والحصن والساطان ما يعاملكم إلا بالخير  
إذا فغانم وهذا خداع فلما تمكن العدو ومنهم أخذهم أسرى وذلك أواخر  
شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا  
دولمة النصارى انتهى

وفي هانيك الايام خرج الزغل بمساكره من وادي آش منقضا كالصاعقة على الاسبانيول فأجلب على الاطراف وشن الغارات في البسائط وقتل وأتخن وسبي وغنم وعاد بالاسرى والغنائم الى وادي آش ثم جمع فرديناند حشوده كلها في مرسية في ربيع ١٤٨٨ وزحف بها على ديار الاسلام فدخل في طاعته نحو ستين بلدة الا المرية فان سالما قائدها هزم جيوش الطاغية فال الى بسطة وكان الزغل قد وصل اليها ووضع كميناً في واديها فزحفت طلائع الاسبانيول فصددها الزغل صدمة رثال وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتى أصبح الكمين من ورائها فلما حصلت بين الجيشين كر الزغل من ناحية ونفر الكامنون من أخرى وانقضوا على الاسبانيول انقضاض النسور فافتنهم بحد السيف ولم يسلم منهم الا الطويل العمر فقدم الملك فرديناند للكر فصدده الزغل صدمة جديدة وعلا الصياح في الربى والوهاد «الزغل الزغل» فهامت قلوب الاسبانيول فانهزموا ومنحوا القوم اكتافهم فتمتع بهم المغاربة بالقتل والاسر فاهلكوا منهم خلقاً كثيراً واجات الواقعة عن مصرع الدون فيليب الارغواني من كبار امراء اسبانية وغيره من الامراء ولم يرجع الزغل عنهم حتى وافاه المدد فانصاع فرديناند الى نهر قريب و فرق كتائبه على المدن والحصون فخرج الزغل ودم هذه المدن فلم يدع فيها اسبانيوليا فيه عين تطرف وافنى خلائق لا تحصى في قلعة نزار

وكان قائد قلعة قلار معتمداً على متانة جدرانها ومركزه من قمة الجبل محاطاً بالاهوي والاوذية فغاب عنها فدهمها الزغل والسيف، شهور بيده فانهزم الاسبانيول من وجهه ولا ذرا طراً بالحصن وكان لهم قائد مقدم

اسمه جواز دوافلوا فأحسن البلاء وأحكم التدبير فلم يتمكن الزغل من الحصن فأدار حوله الخنادق وهدم جانباً من السور وأوشك أن يدخل الحصن عنوة لو لا ما أمطروه من النشاب والحجارة وقذفوا عليه من الاقفاط والزفت وبقي القتال خمسة أيام متوالية لم يسيغوا فيها الريق حتى يثمت الحامية ومالت الى التسليم فأنذرهم القائد بان الزغل يفحش فيهم المقوبة والانتقام بما هو ممدود من قسوته فاعتبروا قوله وفضلوا الموت تحت الحصار على الموت صبراً بين يدي العدو وما زالوا في الضنك الى أن نفس من خناقمهم بويرتودو كرىو بنجدة وافرة فأحرق الزغل المدينة وقفل الى وادي آش

ثم إن مغاربة المرية وطبرنة وبرشنة خرجوا واغاروا على مرسية وجهاتها وثار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدو، وفي هاتيك الايام هطأت أقطار غزيرة وجاءت سيول جارفة هدمت كثيراً من البنيان في مملكتي قشتالة واراغون واشتدت عواصف البحر فتحطم كثير من السفن

ولما أقبل ربيع سنة ١٤٨٩ عرض فرديناند جيوشه في جيان فبلغت ١٣ ألف فارس و ٤٠ ألف راجل فزحف بها قاصداً مدينة بسطة موطن نفسه على اباداة ملك الزغل فاعمد الزغل قوته لمصادمته لكنه لم يتجرأ أن ينهد اليه بنفسه خوفاً من أن يشد عليه ابن أخيه من الورا فيقع بين عدوين كبيرين ليس أدنهما اليه بالاكل عدواناً فسرح الى بسطة جميع الاجناد التي يستغنى عنها في وادي الاشات واستنفر العامة الى الجهاد فامتلأت برشنة وطبرنة وقلاع البشرات بالخييل والرجل ورنّت الاودية بقعقة السلاح وصليل البوارق وكان ابن عم الزغل سيدي يحيى الناصر بن سالم في المرية



وكان قائد مجربا مقداما و للزغل فيه مزيد الثقة فاستدعاه من مكانه وأرسله الى بسطة بعشرة آلاف من شجيمان المغاربة فتقوت بسطة بهذا العدد وبلغ مقاتلتها عشرين الفا عليهم ثلاثة من اكابر قواد الاندلس الاول محمد ابن حسن من أبطال عصره المشاهير والثاني حامد أبو حلى قائد الجند الخميم ببسطة والثالث قائد قيجار وكان من روس القراد وكانت القيادة العامة لسيدى يحيى ولكن علو الرأي كان ل محمد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه وسداد آرائه وانحائه

وبسطة بلدة حصينة واقعة في واد خصيب متسع الارحاء طوله ثمانى مراحل وعرضه ثلاث يسمي الهوية محاطة بسلسلة روبي اسمها جبل الكحل ويسيل في وادها نهران يسقيان أرضها والمدينة مبنية في السهل لكنهم محصنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة ولها ريبض الى جهة السهل فيه حصون وأبراج وفي مقدمة هذا الريبض غرطة أشجار مسافتها مرحلة مشتبكة السرح فينانة الدوح كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه باقنية متشعبة تسقي جميع غياضها وفيها مئات من الابراج متفرقة في البساتين فكانت هذه الغرطة بما فيها من اشتباك الشجر وكثرة مجارى المياه وعدل الابراج والحصون تجعل مقرب تلك المدينة في غاية الصعوبة

فعند ما قصد جيش الطاغية نزال بسطة اخذ أهلها يتأهبون للقاومة ويمدون ما استطاعوا من قوة فخصدوا زروعهم قبل أن يستترك الحب في السنبلة وادخروا لمؤونتهم جميع ما وصلت اليه أيديهم فكانت ترى اقاطيع المواشي تباعا داخله من الابواب والبهاائم موقرة احمالا من

المؤن والميرة والسلاح والكراع من كل نوع فيمكن أن يقال على وجه التقريب ان بسطة أخذت عدة لحصار خمسين شهراً ولما انماحت عساكر فرديناند بساحة الموقع اشتدت الحركة في البلدة وازدادت الجلبة من قرع الطبول وتقليب السلاح وجاء فرديناند فحضر خيامه في الوادي بين البساتين وبعث الى أهل المدينة يدعوهم الى التسليم على شروط موافقة لهم ان انقادوا الى ذلك منذ البداية ويؤكد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يفرج عن البلدة ابداً حتى يتمكن منها، فعقد قواد المغاربة مجلساً حربياً وتشاروا فيما يجاوبون به ملك الاسبانيول وكان سيدي يحيى قد استاء من انذار فرديناند فاراد أن يجاوبه بان حامية بسطة لا تسلم ابداً ولكنها تقاتله حتى تنفي جميعاً تحت انقراض السور فاجابه محمد بن حسن ان لا فائدة لنا من هذا الجواب فلنجتهد ان يكون في فعلنا ما ينتض اعلان الطاغية وان يزيد فصاحة العمل على فصاحة القول وهكذا فقد أرسلوا الى الملك فرديناند جواباً في غاية اللطف والابحاز يشكرونه فيه علي عرضه التسليم بشروط خفيفة لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم اؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها

فعند ما أخذ الملك جوابهم شحذ غرار العزيمة وعوّل على التضيق والاخذ بالخنق فتقدم بحملته صوب السور لاجل تمكين المحرقات من البلدة وأوجف بخيله ورجله وتغلغل الاسبانيول في البساتين ليتخذوا مركزاً ينعمون فيه المغاربة من الخروج وانتشروا في أطرافها وكان الشبان الاغرار منهم متقدمين كأنما يوفضون الى اعراس الا أن أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كل خطوة بين تلك الغياض خطراً، وأما صاحب

صانيتا غوغت أصحابه وتقدم بهم ووعدهم عن الله بالانصر ويناهاهم على هذه الحال اذ ارتجت الارضاء بقرع الطبول وأصوات الهجاء واندفعت فرقة من المغاربة يقودها سيدي يحيى بنفسه لصد الاسبانيول عن التقدم فالتقت الفئتان فى مشتبك تلك الغياض مبالطة بالسيوف ومناضلة بالسهام ومطاعنة بالحرايب لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التفاف الشجر وتقطيع البساتين بالاقنية وكثرة الابراج والبيوت جعلت الريح للمغاربة الذين كانوا يقاتلون مشاة حال كون الاسبانيول ركباناً، زد على هذا كون أولئك أخبر بالارض وثناياها وزواياها وادرب على الكر والفر، فلما رأى قواد الاسبانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيلة أن يترجلوا ويقاتلوا على أرجلهم فمندها استحر القتل وحى الوطيس، ولم تكن معركة عامة، بل مجتمع معارك متفرقة، إذ كل بستان أصبح ميداناً للمعركة، وكل روضة صارت موطناً للنزال، رعاد كل من المقاتلة لا يصير إلا لذي حواليه ولا يعلم بالبعيد عنه، وعادت القيادة وقرع الطبول عبثاً، لار كلاً من الجند مشغول بنفسه متجرداً بقرنه، وفى بعض الأماكن كان الاسبانيول هم الظاهرين وفى غيرها كان العدو للمغاربة وربما انهزمت فئة من وجه فئته فتبعها فسقطت على فئة ظافرة فانضم اليها شمل المهزمين وجحدوا الكرة، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدة الهول فيقع فى جهة العدو ولا يدري إلا وهو فيهم ذلك من عدم تمييز العدو من الصاحب فى مشتبك تلك الغياض وانصرف جهد كل من الفريقين إلى احتلال تلك الابراج النائية فى وسط البساتين ووضعت فى كثير منها النار فامتد الحريق وارتفع الالهيب وخرت الجدران وعلت الاصوات كقيام الساعة وازداد مشهد القتال هولاً وروعاً. هذا

وفرديناند ينتظر بذهاب الصبر نتيجة المصاف وهو في غابة القاق والجزع لا يلم شيئا مما وراء هاتيك الاشجار الحاجبة لنور الشمس فكان يسرب البعوث وتنجذات الي المواقف التي يخشي فيها الدائرة على تومه واجلت المعركة عن مهلك الدون جويان دولارة من أفراد ناشئة الاسبانيول وأعيانهم وأحبهم إلى قلب الملك ، وكان قد اقترن حديثا بالدونة كاتالالينة دو أوريا من أبداع فتيات عصرها

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمد بن حسن وحوله جماعة من القواد مراقبين حركات القتال من فوق الاسوار مدة اثنتي عشرة ساعة استمرت فيها المناجزة وكانت كثافة ورق الاشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى الا بريق الخوذ ولا يلح سوى لمعان النصال، ثم أخذت تعد الجرحي فارتفع عويل النساء وكانت ضجة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من متمسكة النصاري الذي صار من اعظم قادة المسلمين ثم أخذ المغاربة يتقدمون الى جهة المدينة وأمر فرديناند بنقل خيامه الي هاتيك الجهة وعندها طار محمد بن حسن الى نجدة سيدي يحيى واجتهد أن يزحزح الاسبانيول عن مراكزهم الجديدة لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربصا مكانه ولم يبدع للعمدو راحة الليل بطوله، ولما أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلا فالارض مغطاة بجثث القتلى تنبئ بلسان حالها عما احتملت من الحرب وأهوالها وهكذا أصبحت تلك الحائل وهاتيك الحقائق مجرد الدوالي وعجى السوابق

ثم ازفرديناند ادرك حرج الموقف الذي ضرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق، فاجمع على تقويض خيامه منه لكنه قدم طائفة من جيشه تشاغل العمدو

الى أن يتمكن من إعادة المعسكر إلى محنه الاول فاغار سيدى يحيى بقوة جسيمة من الخيل والرجال فلم يفز من المعسكر بطائل يذكر لكن رجوع الحملة الى المكان الاول جعل المغاربة فى منجاة من السوء عند الكر والفر نحو المدينة فعمد الملك مجلدا مؤلفا من كبار القادة واستشار فيما يفعل فإشار عليه مركيز قادس بترك الحصار مؤقتا بزعمه ان المدينة محصنة مكثفة فى الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة لا يمكن افتتاحها الآن والجيش فى تربصه أمامها معرض للمرض وإذا جاء الشتاء تعذر القتال وسالت الاودية واذ من رأيه أن يعتاض عن الاصرار على منازلة بسطة باجتياح الكورة وافساد زرعها واطلاق الغارة على المدن والقرى المجاورة إلى ان تكون تهيأت فرصة أخرى. وأما الدون غوتيارو دو كوردناس امير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بسطة يتخذ العدو دليلا على الضعف ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربما يكون سببا لا تقاض أهل غرناطة على أبي عبد الله وميلهم إليه فهو يرى الافراج من سنفه الرأي، وكان الملك مترددا بين أن يقتل أو أن يقيم تارة يتصور المشاق التى ستحيط بمسكره خصوصا فى جلب الذخيرة فيقول على رأى صاحب قادس وطورا يتأمل فيما يترتب على الانصراف من استغلاظ أمر العدو فيميل إلى رأى امير لاره، وبلغ الجند ما كان من تشور الملك واهتمامه وعزمه على الرحيل ضنا براحتهم فقاموا يطلبون الاقامة فى ساحة البلد إلى أن يتم لهم فتحه ولما تضاربت الآراء بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيان وكانت بينهما برودة مرتبة ذات مراكز يقوم أصحاب كل مركز منها بقطع المسافة التى تخصه بحيث تصل الرسالة فى عشر ساعات فاجابته انها تترك قضية الاقامة أو

الظعن إلى رأى الملك ووزرائه لكن فيما لوأريد الاستمرار تستعين الله في  
تقديم جميع مايلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت  
فاجمع حينئذ فرديماند على الاقامة وعند ما بلغ الجند عزيمة الملك ارتفع  
ضجيج السرور كأنهم أصابو غنما أو أحرزوا فتحا

واتصل بسيدي يحيى ماهو واقع من المراء في أمر الحصار فعمل النفس  
بالآمال وترقب الفرج برحيل الملك لكن محمد بن حسن لم يكن يصدق  
ذلك وإذا بمركة بخانية في صبيحة يوم كادت تحقق رجاء سيدي يحيى فان  
الخيام قوضت والآلة أنهضت والمدافع تماورها النقل وخيل أن قد  
شالت نعمة الاسبانيول وخمدت لهم بارقة النصر وإذا بالطاغية قد قسم  
جيشه شطرين فجعل مركز قانس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف  
راجل وأصحابه بالندون الونزو دواغيلار ولويز فرديناند ربويرتو كريتو  
وغيرهما من مشاهير أبطالهم جعل معه المدافع وسيره إلى الجهة المقابلة للجبل  
واتخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلف من ستة آلاف فارس وجيش  
من المشاة كثيف وعدد من الجلبين واستظهر بجماعة من عظماء المملكة  
مثل الكونت دو تنديلا وصاحب صانتياغو فأقام كل فريق على طرف  
من البساتين وخرب أوثاده هناك فنظر محمد بن حسن قائد بسطة فقال  
أما إنه لم يزل بينهما حاجز من الشجر لكن لم يكذب يخرج منه هذا القول  
حتى ملاء الفضاء صوت انقمار الاشجار واعمل الاسبانيول الفأس فطارت  
قلوب المغاربة شعاعا بما أصاب بساتينهم وتصايحوا للهمامة دون القطع  
والتحطيم فاشتبك قتال أياما وتعددت الوقائع وانصارت السكرات واستمات  
البشر دون الشجر، ورخصت الارواح في سبيل الادواح، واستمرت،

المناوشات أربعين يوماً تمكن خلالها الاسبانيول من استئصال تلك الغياض وإبادة هاتيك النضرة بملاحقة العمل والصبر على هجمات العدو ، وازيل الحاجر الذي كان بين المحتين وعطلت بسطة من حلاها وعريت في آن واحداً من جنة ترهتها وجنة وقايتها. ثم جعل الاسبانيول من احدى المحتين الى الثانية ممرا وضربوا دونه السدود ورتبوا بحاري المياه وبنوا الابراج على الجوانب بحيث أصبح من المحال أن يحال بين المحتين ، ثم طمع فرديناند في منع الماء عن بسطة وقال لبعض الاسبانيول ممن أرخ الوقائع ان الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز لانهم على اضطرابهم اليه لاجل الشرب يحتاجون اليه لاجل الوضوء والغسل واسقاط الجنابة مما تأمر به ديانتهم ولا نحتاج اليه نحن الاسبانيول. وكان لبسطة عين تجري من قبة «أبو الحسن» وراء البلدة وكانوا يتبركون بماثا فلما احسوا بما أجمع عليه الاسبانيول خرجوا تحت جناح الليل وأقاموا عندها من الحصون ما يعصمهم من كل غارة وفي خلال هذا الحصار خطر لبعض فتيان الاسبانيول شن الغارة على نواحي وادي آش وكان في مقدمتهم فرانسيسكو دوبازان وأنطونيو دوكويفا فجما نحوهم ثلثمائة فارس ومثي راجل وسارا مستترين بجناح الليل آخذين بشعاب الجبل حتى وافيا قرى الوادي قبل تحق الفجر فاسروا من صافوه من اهلها وأنهبوا مالها وحطموا زرعها وساقوا نعيمها كل ذلك في لحظة وقفلوا غائمين قبل أن يشعر بهم أحد فطار بعض رعاة المواشي الذين خلصوا من شرهم واعلموا بهم الزغل فسرّح في أثرهم ستمائة من نخبة فرسانه ورجاله فادركوهم في طريق انصرافهم ولما التقت العين بالعين وجد الاسبانيول أنفسهم دونهم في العديد والقوة فتصوروا ترك الغنيمة والرضى بالاياب

لكن فرنسيكوا دوازان وانطونيو دو كويفا لم يوافقاهم على الفرار بحجة أن المشاة الذين معهم لو فروا لاستاحمهم العدو وان المقاومة هي التي لهم في تلك الحال فاختلفت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمروا حامل الراية أن يتقدم فتوقف وكاد القوم يولون الادبار فتقدم فارس من الحرس الماسكي اسمه هرناندو بيرز دلباغار قائد حصن سالار ورفع منديلا كان ملتصقا به على حسب عادة أهل الاندلس وعقده برأس الحربة ونادى أصحابه فدبت الحمية برءوسهم وكروا بقلب واحد وصدقوا الحملة فانكشف العدو دون انتظار وقتل نحو ثمانمائة من المغاربة وأسروا جماعة وقفلوا ظافرين مكافأ الملك هرناندو المذكور بقلب فارس وأجاز له رفع ذلك المنديل في موطن قتاله

وبينما كان الزغل ينتظر اياب أصحابه بالغنيمة اذ رآهم راجعين فرقا، مغلوبين حزقا، فرأى الاقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر الحزن بما كان يترامى اليه من أخبار بسطة وهلاك قسم كبير من حاميتها واشتداد الكظام باهلها، ولم يكن في رءوسه أن يخف اليها بذاته خوفا من أن يقتحم تلك الفرجة ابن أخيه من غرناطة فيسلبه ملكه فكان يبعث اليها بالمدد بعد المدد لكن الاسبانيول كانوا يلاقون الامداد فيفلونها قبل الوصول الى المدينة ومع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله لانه حفظ لنفسه هيبة سلطان ذي صولة وصاحب دولة

وأما ابن أخيه فكان ملكا تابعا للملوك قشتالة وحزب القتال في غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد الم رابط المشاعر والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين ، واخبار بسطة كل يوم تنكأ قلوبهم ، وتفت في



أعضائهم ، حتى تمشت المراسلات فيما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل  
أبي عبد الله والتقوى من غرناطة حزبا واحدا الى وادي آش ومنها الى  
بشاشة الاقراج عن المحصورين ، لكن لحسن بخت أبي عبد الله وسوء طالع  
الاندلس عرف هذا الملك بالأكيدة فضرب أعناق رؤساء الحركة ورفع  
رؤسهم فوق جدران الحمراء ، فانزل بذلك الرعب في القلوب ، ولم يبق في  
غرناطة عزق ينبض لثورة ، واحس فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين  
فأر داد تحذره وضاعف القوة ووضع المحارس وبث العيون والروادوا أخذ  
يظهر لأهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد ، وهم ينتظرون النجدة ولا  
يحضروا لصريحهم أحد حتى يشسوا وغاب عليهم القنوط فاراد محمد بن حسن  
أن ينبذ عنائهم يحيي آمالهم ، فقال لسيدي يحيى لمزم أن يظهر لأمدهم انزالهم  
ولم نزل على عز منا وقرتنا جملها جيوشها وخرجا بقوة عظيمة فالتقاها فرديناند  
بجموعه وهدرت طبول الحرب وتزاحفت الصفوف من كل جانب واستماتت  
كتائب المسلمين فانكشف الاسبانول ووقع الخلل في مصافهم ، ولم تتم عليهم  
الجزية لوفرة أعدادهم وسعة محلاتهم فقتل المسلمون بالغنائم ودخلوا البلد ظافرين  
ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل فيطون السهل كأمح البصر  
تو يمتنون الموشى ويعودون بها الى بسطة ، وجرى خلال ذلك وقتل متفرقة  
شديدة امتاز فيها بين الاقران الدون الونزودرا غيلار

ومما يروى أن أحد قرسان الاسبانول المسمى مارتين غالة وشاهد  
المعركة الشمس فارسانا مفريا شديدا الصورة باهر الفلك يحمل على الاسبانول  
وقلا يقف في وجهه فارس الاجدله ، ولا يساوره قرن الاصرعه ، فتدبى غالندو  
بأرادة فتصاولا وتجاولا ساعة تخرج المغربي في وجهه وانقلب عن صهوة

فقبل أن يقحم الاسبانيولي جواده ليفتك به كان المغربي نهض على رجلية واستل حربته فاعجله بجرح في رأسه، ومع كونه على رجلية وكون قرنه راكبا كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حته لولا اسراع رفاق للاسبانيولي بنجده. فعندها أخذ المغربي يتقهقر ويدأرويدا إلى أن صار بين أصحابه. فسئل عنه فأذا به من عشيرة بني سراج. ولما كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية المغاربة شدد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز وحظر عليهم المناوشات الخاصة لعله اليقين ان المغاربة اقوم من كل شعب في الارض على هذا النوع من القتال وانهم أدري بالارض وأهدى فيها سبيلا قالوا وبينما كان الاسبانيول يحصرون بسطة اذ شوهد في المعسكر اثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان الواحد منهما ذو هيئة وهيئة ووقار عظيم راكب جوادا كريما بسرج مذهب والآ خر متصاغر متضائل يسعى وراء الاول راكبا رمكة بسرج خالٍ من الزينة، وكان دائما مطرقا في الارض ماشيا القصد خافض الجناح، فلما شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجيئهما، على انه كان معهودا حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقانسوة تحت راية واحدة فظن من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين لكن فهم أخيرا أنهما قادا ان من الاراضي المقدسة برسالة مهمة. أما صاحب الوقار والتصدروا النعمة فهو الاب انطونيوميلان رئيس دير الفرنسيسكان في بيت المقدس كان ممتليء الجسم جهر الصوت طلق اللسان ذا أساليب خطابية كمن تعود ان يقول في الناس ويسمع له الناس، وأما رفيقه فكان صغيرا القد مختصر الجرم مصفرا اللون لين الحديث خفي الإشارة خافت الصوت وكان من النواضع وخفض الجناح على ما ينبغي أن

يكون عليه من انتعى الى مثل دعوته، وتلبس بمثل حلتته، لكنه كان من أهم رهبان  
الدير وأحسهم وأدربهم، كان اذا رفع نظره من الارض انقذحت عيناه شراراً  
فيما يظنه الانسان أودع من الورقاء، اذا هو أدهى من الحية الرقشاء  
وكان هذان الراهبان آتيين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت  
الملقب قبل الافرنجة بسودان مصر لانه كان الاتفاق بين هذا السلطان  
وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصراخ مملكة  
غرناطة ووضعافيا بينهما اوزار الحرب اجتماعاً على مظاهر الملة وتفرغاً للجهاد  
ثم أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه الى ملوك قشتالة وإلى البابا  
والى ملك نابلي منكر أعليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة الذين هم  
من بني ماته وجلده بينهم عدد كبير من المسيحيين راتعون في ممالكه في بحاج  
الراحة والامان متمتعون بالاكهم وحقوقهم ناعمون بحريتهم الدينية فهو يلح  
في الافراج عن مسلمى الاندلس وتمكينهم من الاملاك التي اغتصبوهم  
ليأها وأجلوهم عنها، وإلا فانه يحو بذياب السيف جميع النصرانيون الذين هم في  
ممالكه ويخرب مآبدهم ويحمل كنيسة القيامة في القدس قاعاً صفاً وكان  
خبر هذا الانذار قد ذاع بين مسيحي الشرق فأقض مضاجعهم وروع قلوبهم  
وصاروا ينتظرون خلاص مسلمي الغرب لئلا يؤخذوا بجريرة المعتدين عليهم  
فالتقى فرد بناند ذينك الوافدين برآ وتجلة كمادته من ملاقة رجال  
الدين وخلا بهما مراراً مستقصيا منهما ملياً عن أحوال النصرانية في المشرق  
وكان الوافدان قد عاجا برؤمة لدم البابا كتاب سلطان مصر  
فكتب البابا معهم الى ملوك قشتالة يستشير فجا يجب أن يجاوب على خطاب  
صاحب مصر وكتب بمثل ذلك ملك نابلي وتوخى في كتابه تخطئة ملوك

قشتالة ولو من طرف خفي فيما هم مباشروه ومما جاء فيه انه ولئن كان المغاربة مخالفين في المذهب فليس من الجائز الاساءة اليهم بدون سبب عادل وانه ان كان ملوك قشتالة لا يصبرون على أدنى أساءة من مسلمي اسبانية فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقل عمل من شأنه أن يجر على النصرانية وبالا — الى آخر ما ذكر من هذا القبيل مما نقله بعض الاسبانيول وعقبه بالطمع في ذلك الملك والقدح في أمانته للنصرانية واتهامه بالعصبة مع صاحب مصر، الا أن يترو باركا لا يزور كوب ملك نابلي ظهر الخلاف في هذه المسألة إلى نقص في حمية الدينية بل لما أرب سياسية بأنه كان يمتدح انه ان تمكن فردينا من فتح غرناطة أمكنته الفرصة وتهيأت له الوسيلة للادعاء بملك نابلي انه تابع لمملكة أراغون

أما فردينا فاجاب ذلك الملك جرابا في غاية اللطف والرشاقة أتى فيه على تفاصيل تلك الحرب وبين له وجوه الحق في غشيانها وختم كتابه بتسكين روعه من جهة نصارى المشرق مؤكداً له أن الاموال التي بدفونها هي الجنة الواقية لهم دون ما يتهدده سلطان مصر من استئصالهم وحثت إلى البابا يعرض له أسباب الحرب وهي تنحصر في ثلاثة الأول استرجاع أرض تملكها المغاربة بالسيف والثاني مجازاتهم على سوء المعاملة التي عاملوا بها المسيحيين والثالث انها حرب مقدسة يقصد بها اعلاء مجد الكنيسة وبعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدة بمحلة الملك يقصان على قواد الجيش أخبار المشرق شخصاً إلى جيان لمقابلة أعظم الملكات كشاة الا وهي الملكة إيزابلا فاستقبلتهما من البر والاحتراف بما يفوق الاطراف وعيذت لديرهما في بيت المقدس احساناً سنوياً نحو الف دوكا وعقدان نصرافهما

سليتها غشاء باهر النفاسة ، طرزا بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدس  
قال الكاتب الانكليزي الشهير واشنطون أرفن: ولم يذكر الاب  
أغاييدا مؤرخ هذه الوقائع نتيجة الرسالة التي وفد بها ذاك الراهبان  
وهي انه فيما بعد أزعج فرديناند وايزابلا المؤرخ الشهير بطرة مارتير  
انغلريا سنيرآ الى الشرق لدى صاحب مصر أو بحسب قولهم السودان لاعظم  
قائدي من الحنق والمهارة بتلك السفارة ما أقنع به ذلك الملك الشرقي  
واستجلب به ميله وفاز منه بإيثار غرضه وحصل على أوامر برفع كثير  
من المغارم عن زوار القدس الشريف ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في  
بلادهم ضمنها جما من الفوائد والنوادر ( ١ )

هذا وبقي الحصار مستمرا على بسطة وثقير فرديناند وايزابلا ينهبث  
الى آفاق اسبانية فتكتف الجيوش وتتوارد المقاتلة من كل فج ولم يكن  
الهناء كاه في جمع الاجناد بل بازاحة علامهم ، توفير أقواتهم ، ولم تنحصر النفقة  
في الجيش المقاتل وحده بل كان يلزم الملك وامراته تسريب ل ذخيرة لجميع  
المدين التي دخلت في حوزتهما وكماية حماهم الماسبق أخذها من الاكتساح  
والعيث الذي غادرها كجرف العير فرتبت الملكة الوفا من البهائم لنقل  
الاقوات وجمعت عليها خفارة وافره لصدد غارت المغاربة في الطريق  
وأقامت توصل الامداد صباح مساء ولما فرغت خزينتهما من النقدا استعانت  
بإعيان البلاد والبطارقة فقدم كل منهم ما وصلت اليه يده من النقد وبعضهم  
قديم ما عنده من الحلي والجواهر وباع الاساقفة آنية الكنائس واستنزفوا

( ١ ) لا يوجد حل لهذه المسائل الا بوجه واحد وهو ان الشرقيين اكرم اخلاقا  
من الغربيين وان قاعدة « اذا ملكت فأسجج » لا تعرفها اوربا

ما في خزائن الاوقاف من الكنوز ونبرع التجار بمبالغ طائلة من المال وجاد كثير من العشائر الاصيلية بذخائرهم وثقائسهم وأخيراً أرسلت الملكة نفسها حليها وآنية تقصر الثمينة الى برشلونة وبلنسية وباعتها لاجل شراء الاقوات والميرة وإزاحة عليل المساكر

وبينما كانت قطر الحيوانات ترد تبعا موقرة بالذخيرة والطعام إلى مخيم الملك فرديناند وقوة الاسبانيول تتميز يومافيرما بازاء بسطة كانت الاقوات ابتدأت تنفذ في البلدة والمجاعة تمض الحامية بناها، لكن بقي لاهل بسطة أمل في الفرج بهجوم الشتاء وتراكم الامطار وحسبوا أن لا بد من أن السيول المتحدرة من الجبال تضطر الطاغية للظمن بمحلتها وبينما هم يتدبرون هذا الامل إذا أخذ الاسبانيول يبنون بيوتا من الخشب مسقوفة بالاجر حتى كمل لهم نحو الف بيت على هذه الصورة لاقامة الامراء والقواد، واتخذ الاجناد لانفسهم بيوتا من الطين موطدة بفروع الاشجار ومغطاة بالخوص، وصارت المحلة عبارة عن مدينة قائم في وسطها بناء كبير لنزول الملك يخفق فوقه علما أراغون وقشتالة وقد عول فرديناند على اختطاط هذه المحلة توقيام من السبل وقطعا لامل المغاربة من الافراج الا أنه لم يكديتم بناءها حتى عصف إعصار شديد صحبه مطر مدارر وسيل أتت فهدم جانب من البيوت وهلك خلق كثير من الجنود والخيول والماشية وفسدت الاقوات والذخيرة وارتاع لجيش وخافوا الهلاك ولكن أسعدهم الطالع بافلاق المطر نغفت وتيسرت الحركة وأرسلت الملكة بعوض عما نقص من الزاد وبعت ستة الاف رجل لترميم الطرق التي أضر بها السيل وإقامة المعابر عليها وأعاد الملك بناء البيوت التي تهدمت في المحلة ورجع

### الاطمئنان إلى قلوب الاسبانيول

وخاف الطاغية تكرر الاعصار والفرق وتفشى المرض في جيشه  
فراسل أهل بسطة في التسليم على أن يؤمنهم في أنفسهم وتقائسهم فبعث  
إليه محمد بن حسن بجواب لطيف العبارة ساجي المعنى وكانت أخبار السيل  
وما ألحقه من الضرر بمعسكر فرديناند قد وصلت إليهم مع المبالغة  
فطمعوا في رحيله وتشددت عزائمهم وبرزوا للقتال فحدثت عدة مناوشات  
هلك فيها جملة وافرة من رجالات الفريقين وحدثوا أن في إحدى هذه  
الوقائع خرج نحو ثلثمائة فارس وأنني راجل فاعتلوا مرعبا وراء المدينة  
ركبوا فيه ريمح الاسبانيول فتناوشوا ساعة واستوت الهزيمة على هؤلاء  
فتبعوهم وقد فقد منهم جملة إلى أن حصلوا في محلة كونت تنديلة وغونسلاف  
القرطي فصدقوها الحملة فتداعى رجالها للفرار وثبت الكونت وصاحبه  
في موطنهما اذ وجدا الثبات أدنى إلى السلامة من الهرب فانضم اليهما من  
صبر من الجند وصدوا المغاربة فأوقفوهم ولكنهم كادوا يختلون في مصافهم  
وتحق عليهم الغلبة واذا بالونزودوا غيلا رو كونت ادرينه وجماعة من رجالتهما  
قد أقبلوا فتلقوا الصدمة وتكاثروا فارتد المغاربة نحو المدينة وجرى على  
هذا النمط عدد من الوقائع لم يتحقق فيها راية ظفر تام لاحد وكانت شررة  
المغاربة في القتال تزداد بازدياد بأسهم وخنائهم وكان الأمير سيدي يحيى  
دائما في مقدمة جنده لكن فراغ الخزائن من المال وتناقص القوت قطعاً من  
آماله وتذاكر مع محمد بن حسن في الحالة فاجمعا على استمداد الأهالي  
وبينا لهم تعذر المقاومة مع إعواز القوت فتشاور أهل بسطة بعضهم مع  
بعض وجمعوا ما عندهم من الحلي والآنية من ذهب وفضة ودفعوها لـ محمد

ابن حسن قائلين له «خذ هذه فاضربها نقداً أو فبعها أو فارهنها واستحضر  
مالاً لقوت العسكر» وقالت نساء بسطة بمضهن ابعض «هل يليق بنا  
أن نتبرج وتزين بهذه الحلي حالة كون بلادنا خراباً ورجالنا محتاجة الى  
القوت الضروري» ثم جعن ما عندهن من العقود والاساور وسائر الحلي  
ودفعنهم المحمد بن حسن قائلات له «خذها ودافع بها عن ديارنا وعيالنا فان  
افرج عن بسطة لم نحتج الى الزينة لاجل اظهار فرحنا وان اخذت بسطة  
فاي حاجة للاسير بالحلي والجواهر».

فتمكن محمد بن حسن بهذه الاعانة من مداومة الدفاع ونمي الى الملك  
ما فعل أهالي بسطة وما تجدد عندهم من النشاط فعمد الى مقابلةهم بما يوهن  
عزائمهم وكتب الى الملكة يدعوها الى المعسكر فبينما محمد بن حسن يشدد  
حملة البلدة ويبسط لهم الامل برحيل الملك اذ سمع قرع الطول فشخصت  
الانظار الى جهة محلة الاسبانيول فاذا بالملكة قادمة بجيش يحف به اباطانه  
عظيمة باهى الملابس وعلى يمينها كريمتها البرنسس ليزابلا وعلى الشمال  
السكردينال الاكبر في اسبانية ووراءها جماعة من عقائل اسبانية السريات  
فلما شاهد القائد محمد هذا المشهد فت في عضده والتفت الى اصحابه قائلاً  
«يا اخواني أصبح تسليم بسطة مقرراً»

وقد كان لموصل الملكة ليزابلا من الابهة والوقار ما اثر في خواطر  
المغاربة أنفسهم وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لدن وصوله  
فمنعهم الامير سيدي يحيى حرمة لمقام الملكة وأطل جميع سكان بسطة من  
السطوح والمآذن والابرار لمشاهدة وصول الموكب وكان احتفالا فائقا  
وعلت فيه السكينة جمع الجوانب وعند ما أيقن المسلمون أن الملك والملكة



لا يرحلن إلا بتسليم بسطة مالوا الى التسليم وتمشت زجالات الاسبانبول  
بالصلح فحضر الدون غوثياردو كردناس واجتمع بالقائد محمد بن حسن  
وقال له باسم الملك انه ان سلم أهل بسطة الآن يكونون آمنين على أنفسهم  
وأموالهم وحرية اعتقادهم وإلا فان أصروا على المقاومة لم يأمنوا أخيراً لا على  
دم ولا على مال ولا على دين محمد، وذكره بما أصاب مدينة مالقة فراجع  
سلطانهم الزغل في ذلك وكتب له سيدي يحيى كتاباً وأرسل به القائد  
محمد بن حسن فلما وصل الى وادي آش وجد السلطان منقطعاً في جهة من  
قصره يتأمل في سوء بخته وما آلت اليه الاحوال فسأله عن حال بسطة  
فأجابه تفهم من هذا الكتاب ودفع اليه كتاب سيدي يحيى فقرأه حتى أتى  
على آخره وعرف اضطرار البلد للتسليم وما عرضه عليهم الطاغية من  
الشروط الموافقة ولم يخالج صدره أقل ريب في كلام سيدي يحيى لما كان عليه  
من الثقة فيه والتمويل عايه وخلطه بنفسه كأنهما شخص واحد فتنفس  
الصعداء وتوجع ملياً وأخذ يفكر فيما يعمل مطرقاً ساعة ثم أمر فحضر  
الفقهاء والشيوخ وتشاوروا فيما يفعلون فاجلى المجلس عن تذمر المداد بسطة  
بشيء فاستدعي الزغل قائد بسطة محمد بن حسن وقال له اذهب الى ابن  
عمي سيدي يحيى وقل له لا ينتظر مني نجدة لاني لا أقدر على تلبية بشيء  
فليفعل ما يبدو له فعاد القائد بالجواب وكان أمراً قضيماً لان قواد بسطة  
تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد وينال الجميع الامان ويخرج من  
جاء في صريح بسطة من فرسان المغاربة بخيائهم وامتعتههم الى حيث شاءوا  
ويكون تسليم البلدة والقلمة في ستة أيام وأما أهل بسطة فاهم الخيار بين  
أن يرحلوا بأموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين بأموالهم وحرية

الدينية وخلع الملك فرديناند على القواد وأكرمهم وأنعم عليهم واختص  
بإيثاره الأمير يحيى وأدناه ونال هذا من الخطوة لديه ولدي الملكة ما أكد  
لهما صداقته وتعلق قلبه بالملكة بما بهره من جمالها ولطفها ورصانتها فأخذ  
يسعى في خدمتها ويتزلف الى مرضاتها بأنواع المناصحة وحبب اليه حبها  
النصرانية فيقال انه تنصر سرّاً وقد أطنب المؤرخ أغاييدا الاسبانيولي  
في وصف تلك النعمة وعد هذه من فتوحات فرديناند وذهب بعض  
مؤرخي العرب بحسب قول واشنطون أرفس الى أن الطاغية استغوى هذا  
الأمير باجزال الصلات واسناء الجوائز وتوسيع الاقطاعات ولكن  
أغاييدا يقول ان ذلك كان حكمة منه لاجل بسط يده وانفاذ كلمته فيما  
يود باستمالة كثير من قومه الى النصرانية وانه بتصديا بقاء سطوة الأمير  
يحيى على المغاربة صدر أمر الملكين بإبقاء مسألة تنصره مكتومة الى أن يكون  
قضى بواسطته أوطاره كذلك دخل القائد المجرب محمد بن حسن في خدمة  
فرديناند واقتدى به كثير من فرسان المغاربة

وكان تساييم بسطة في رابع ديسمبر سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستة أشهر  
وعشرين يوماً ووجد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني وهلاك تحت أسوارها  
من عساكر الطاغية عشرون ألفاً قيل منهم سبعة عشر ألفاً ماتوا بالامراض  
والباقون هلكوا في انتفال واقتدى ببسطة غيرها من المدن كالمكب  
وطبرنة وكثير من حصون البشرات ودخل أهل تلك الجهات جميعاً في  
ذمة الطاغية وادتنى في البداية بأحسن معاملتهم واجزال "مطاء" في قوادهم  
سياسة منه لاستئمانه جمهورهم اليه ورضاهم بسطانه

وكان من هؤلاء القواد رجل يقال له علي بن الفخار في يده عدد من

المواقع والحصون فحضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم وانقلبوا بالصلوات والجوائز وكان شامخ الانف شديد الزمالة والوقار فلما وصل الدور اليه خاطب الملكين بحرية الرجل العسكري وان كان لم يستطع اخفاء يأسه وانكساره فقال لهما « أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة قد تسلمت هذه الحصون لاجل محافظتها اسكن الذين عهد إلي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة وعادوا ليطالبون سوى الامان فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابعثوا من يستلمها » فأمر فرديناند في الحال باعطائه مبلغا طائلا من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القدر فامتنع من أخذه منكرا ذاك انكارا شديدا وقال لهما أنالم آت لا بيع مالا يس ملكي بل لا سلم ما جعلته الاقدار الالهية ملكا لكما وايكن يقينا عند جلالتكما انه لو وجد من يسعفى كما يجب لكان الموت هو تمن هذه الحصون بدلا من الذهب الذي يعرض علي »

فأعجب الملكان باتقة هذا القائد وشهامته وأمانته وتمنيا أن يكون منتظما في جملتهم ويدخل في خدمتهم فأبى خدمة أعداء ملته وقومه ولما يتسامنه قالت له الملكة إيزابلا إذا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها مالك في جانبنا من الاعتبار، أجبها بلى حاجتي عندكم أنني تركت في المدن والحصون التي سلمتها كثيرا من نبي ملتي البائسين الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطانهم بذسائهم وأطلقهم فأرجوا أن تعطوني وعدا ملوكيا بحمايتهم وإطلاق الحرية لهم في دينهم وأملأهم، فوعدها بذلك ثم، قالت له الملكة وهلا تطلب شيئا لنفسك قال كلا سوى الاذن في الاجازة بخيلي ومتاعي فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتهما من المال مع الخليل الثمينه الـسـروج

لا يقصد المكافأة بل على سبيل الهدية فانكر أن يصيب هذه النعمة وذاك الوفير في زمن يؤس قومه وخراب وطنه ثم أخذ تذكرة الاجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وخدمه وامتعتة واسلحته والقي على بلاده نظرة الوداع كاسف البال باذي الكآبة لكن بدون أن تسقط له دمة ولا يترطب له جفن وركب جواده قاصداً البحر لاجل الاجازة الى افريقية

وقال في تفح الطيب بشأن بسطة وحصارها الطريل « وفي عام أربعة وتسعين خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب واستولى على ما هنالك من الحصون ثم نازل بسطة وكان صاحب وادي آش لما تبين العدو محالته بعث جميع جنده وقواده وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقمت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهر العدو عن قرب بسطة ولم يقدر على منع الداخل والخارج وبقي الامر كذلك رجب وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين زلة خارج البلد ثم ان العدو شد الحصار وجد في القتال وقرب المدافع والآلات من الاسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منع واشتت الحال في القعدة والحجة وقل الطعام وفي آخر الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا الا القليل وكانوا طامعين في اقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء واذا بالعدو بنى وعزم على الاقامة وقوي اليأس على المسلمين فكلوا في الصباح على ما فعل غيرهم من الاماكن وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء وأن ذلك هو المجيء لهم للكلام وفهموا عنه ذلك فاحتالوا في إظهار جميع أنواع

الطعام في الاسواق وابدوا للمد والقوة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس وعند تحققتهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الامان على انفسهم دون من أعانهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فازدفعوا هؤلاء عنهم صبح لهم الامان وإلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخاف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ففعلوا ذلك ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو وعلى شروط شرطوها وامور أظهروا بمضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالا وحصلت لهم فوائده. وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين ثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام وقالوا لهم من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة «

وكان الزغل قابلاً في كسر بيته من وادي آش يسمع كل يوم صرخات ويرن في اذنه كل ساعة صدى ويل، وبلاده تسلم الواحدة بعد الاخرى الى العدو، رافلا قد ارتد ما كسه اطراداً، والضربات تنهال عليه دراكا، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمه سيدي يحيى عدوا في ثياب صديق، وبميداف صفة قريب مشارك في الهم والدم، ولم يكن الزغل علم بتنصره اذ بقي ذلك سرا فارتاح جدا الى رؤية ابن عمه في ذلك الوقت الضيق ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضعه الى صدره وبثه همه فأخذ سيدي يحيى توطئة لما يترخى من خدمة الطاغية يبين له اليأس من الحالة وعقم الدفاع من الفائدة لما هو مقدر

من سقوط مملكة غرناطة بين أيدي النصارى، وان المنجمين لم يكذبوا فيما  
حكوه عن أبي عبد الله الشقي وان السقوط سيكون على يده وانه لما أسر  
في لشانة كان تبادر للظن انها هذه الواقعة التي أشار اليها المنجمون وان  
النحس قد انقضى فظهر الآن أن ليس المقصود واقعة مفردة بل وقوع  
المملكة بأسرها، فحيث كان أمر الله قدراً مقدوراً لزم التسليم لمشيئته تعالى  
واذ وقع القضاء، فليس الا التسليم والرضى. فاطرق الزغل ساعة وهو غريق  
في لجمع الهواجس والاشجان، ذاهب من التأمل والتأمل في بحران، ثم رفع رأسه  
وكبر وحوقل وقال ليس من القضاء مفرد. (لن نصيبنا الا ما كتب الله لنا)  
تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدراً لكان سناني وحساني زعيمين بحفظها  
فقال له سيدي يحيى وماذا استقر في عزمك الآن هل أجمعت تسليم  
المدن الباقية لك الى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى فلما سمع  
الزغل ذلك اضطرب كله وقال له كلا بل أفضل ان أرى رايات العدو  
خافقة فوق هذه الابراج من أن أسلمها لهذا الشقي فاغتني سيدي يحيى فيها  
الفرصة، وأخذ يرغبه في التسليم ويحثه له الانحياش الى الطاغية والدخول  
في ذمته، الى أن حصل أخيراً على موافقته، فانقلب الى الطاغية بما أراد  
وتقرر تسليم المرية ووادي آش وسائر البلاد التي في يد الزغل وأن يكون  
الزغل لقاء ذلك حليفاً للملكين ويقطع أرضاً واسعة في البشرات مع نصف  
الملاحه ويلقب بملك اندرش ويكون ألفاً مدجن رعية له، ويتمتع بدخل  
أربعة ملايين مراوید۔ هذا الى مواعد كثيرة

وتقرر بينهما على أن يكون التسليم في المرية في سبع عشرة خلت  
من ديسمبر تحرك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه وتبعته الملكة

بالقسم الآخر ماراً بالمدن والحصون التي دخلت في طاعته فلما صار على مقربة من المرية لقي السلطان ابا عبد الله الزغل خارجاً في ملاقاته مع الامير سيدى يحيى وجماعة من الخواص ولم تخف على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والاسف البالغ وكان ظاهراً على خضوعه التكلف وفي مقادته الصعوبة وكان لسان حاله يحدث بان خضوعه انما كان لا تقدر لا للعدو ولا للبشر

على انه لما اقترب الملك فرد بناند ترجل الزغل وتقدم اليه وهوى على يده كمن يريد استلامها فتجنى الملك عن ذلك حرمة للقب السلطنة وانحنى اليه فعانقه وأشار اليه باستئناف الركوب وأجل في مكالمته ولما تم له استلام البلاد لحق الزغل بارضه في جبل البشرات حيث انقطع يحشو على رأسه تراب الذل

وحيث توخينا نصحا بالناريخ واممانا في تمحيص الروايات مؤاخاة النقل الا فرنجى بالرواية العربية تتبع ما قاله بهذا المقام أيضاً صاحب النفح وهو، ثم ارتحل العدو للمرية واطاعته جميع تلك البلاد وتزل صاحب آش للمرية ليلقاء بها فلقيه واخذ الحصون والقلاع البروج وبايع له السلطان ابو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب فوعده بذلك وانصرف معه الى وادى آش ومكنه من قلعته أوائل صفر من العام المذكور واطاعته جميع البلاد ولم يبق غير غرناطة وقرهاها وجميع ما كان في حكم صاحب وادى آش صار للنصارى في طرفة عين وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالا من عند صاحب قشتالة اكراما منه لهم بزعمهم فتباً لعقولهم وما ذلك منه إلا توفير

لرجاله وعدته ودفع باتي هي أحسن ثم أخذ برج الملاحاة وشيره وبناءه  
وحصنه وشحن الجميع بالرجال والذخيرة وأظهر الصالح والصحبة مع صاحب  
وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرامته وخداعا  
ودهاء « انتهى

وأما صاحب غرناطة الشيقتو فلما وصل اليه خبر نزول عمه على حكم  
الطاغية طار فرحاً وظن انه بالغ امنيته وانه من الآن فصاعداً أمن النزاع  
واصبح بدون مناظر وتمكن ساطانه بتمكين ملك الاسبانيول الذي هو  
حليفه الى غير ذلك من الاماني الكواذب التي قلما تخطر الا في بال امثاله  
ممن يضيعون مئتما أضاع وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه لولا أن وزهره  
يوسف ابن ككاشة نبهه من غفلاته وأصحاه من نشوته وقال له أفق فان  
الزوبعة كانت في أفق واحد فسنتقل الى أفق آخر مع هذا لم يقنع لحماقته  
وسخفه وأمر فاسرج له جواده وخرج للأنزهة فسمع بأذنه كلام السوء  
في حقه وأيقن بغضب العامة منه اذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان  
المجاهد الم رابط الحامي ذمار الملة وانه ماسيق الى ماسيق اليه الا اضطراراً  
بظاهرة ابن أخيه للعدو عليه فأسرع ابو عبدالله الاوبة الى قصره وأرسل  
الى فرديناند يستدعي نجاته خوف الانتقاض فاجابه فرديناند يطلب  
النزول له عن غرناطة ويذكره بالعهد الذي عقده معه بمد أسره بأنه عند  
ما يتمكن من وادي آش رية بسطة يمكنه الجراء من وهوذا قد تمكن  
فيتقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاهدته إياه فاجابه ابو عبدالله ان ذلك قد كان  
منه ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعا لجالية المسلمين من جميع أقطار  
الانديلس وملجأ للشذاذ والمشردين من المداين التي دخلت في حوزة



الاسبانبول وقد غات في صدور الجميع مر اجل الاحنة واستوفزوا للاخذ  
بالثار فان داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن انتقضوا عليه واستهدف  
للخطر المحيى فهو يلتمس المهلة لاجل سكون ثائرم وانطفاء وقدتهم ومن  
نمة لا يبقى مانع من القيام بماعاهد عليه

فلم يقنع الطاغية من جواب أبى عبدالله وقلب له ظهر المجن وكشر  
له عن ناب المداوة وارسل الى أعيان غرناطة والقواد يعرض عليهم تسليم  
القلاع والنزول عن الحمراء وهو بى لهم في مقابلة ذلك بشروط الامان  
ويعاملهم بماعامل به أهل وادي آش والمرية والا فان حسدتهم انفسهم  
بالمقاومة وأصروا على الجفاء سار معهم سيرته مع اهل مالقة فمال جماعة  
التجار وارباب الاشغال الذين يدور نجاحهم على السكون الى رأي التسليم  
وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبة الحرب وعاقبة الخذلان ولكن كانت  
غرناطة لذلك العهد قد غصت بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من  
كل اوب قدملاً الضغن قلوبهم وغلا الثار في صدرهم ووطن اليأس نفوسهم  
على الاستماتة وقد شحنت بالمقاتلة واحلاس الحرب وانجساد الغارة ممن  
ولدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، وممن لا حرفة لهم سوي  
الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وان لم تكن الحرب حرفة لهم يرتزقون  
منها فان همهم العربية تأبى لهم وحميتهم الاسلامية تر بأبهم من أن يستسلموا  
للعدو صاغرين ويروا غرناطة الحمراء قبة الاسلام في الانداس العهد الاخير  
وحضرة العز ومتبوءاً المنعة مئين من السنين والمصر الذي يمجوع بجموع  
المؤمنين قد رطبها الطاغية بقديم استيلائه، وقادشهم بازماء استملائه

واتفقت توارىخ الافرنج على انه كان واسطة عقد هذه الطينة المجلى

في حلبة الفراسة الامير موسى ابن أبي الفسان من سلالة الملوك شاباً بعيد  
الهمة كريم السجية، أبي النفس باهر، القوة مستوفيكشروط التتوّم جاءه ما  
بين صباحة الوجه وضبارة الخلق غاية في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة حدّاً في  
عزة النفس وزكاء الطبع، كان لا يوجد أدرب منه في عصره بفنون الفروسية،  
ولا أحسن منه اعتماداً لصهوات الخيل، ولا ألبق ولا أرشق حركة بالاعاب  
السيف والترس، وتقليب السلاح بأنواعه، كان اذا برز في ميدان ترك أمره  
فتنة لحسان غرناطة ومداراً لحديث الاندلسيات واذا شهد الكريهة قذف  
مشهده الرعب في قلوب الاسبانيول وطالما انصر المسلمون باسمه

وكان موسى ناقماً على السلطان أبي عبد الله هوادته مع النصارى  
ولين جانبه لهم فمند ما وصل الى غرناطة رسل الطاغية رشاع ما طلبه من  
تسليم الحضرة والنزول عن الحمراء قام هو وتلك المئة المائلة الى الحرب  
مستنفرين انعاماً للجهاد مستبغين في حث الممّم وتذشيط العزائم وتحذير  
القرم عواقب الخضوع من فقد الامن على الاعراض والدماء والاموال،  
وأعمل موسى في الاحتشاد وبانغ في النفير فبادرت جمهرة المسلمين الى  
اجابة دأيه وطمعت في استئثار الجنة، ونفرت فتيان غرناطة تريد الموت  
في سبيل الذب عن دمار الدين، وتطيع من موسى سيداً كانت تغضب له  
ألفهم اذا غضب ولا يدره ن لم غضب فكيف وقد غضب للدين، ونهر  
لحماية عرض المؤمنين، فأرسلوا الجواب الي الطاغية قائلين له انهم بفضلون  
الموت على تسليم مدينتهم ويوعده انه ان شاء الاجلاب بما استطاعوا من قوة  
فلما أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه اطلق الغارات على الاطراف  
وجعل ذلك الى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيان، رشرع في التأهب

والاستمداد للحركة، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حفر به فتیان سراً غرناطة وتبايعوا على الموت تحت لوائه ونفرت فرسان المسلمين من كل أوب، وماجت أسواق غرناطة وساحتها بالحشود، وملاً الآفاق صهيل الخيول وموسى روح الجهاد ومحط الآمال رقبلة الخواطر وحياة نفوس المشاغلين، واسمه الرعب الحريق بأقاصي النفود

فلما أخذ الأسبانيون يشنون الغارات خرج الأمير موسى فرسانه فو إلى عليهم الهزائم، وصارت خيوله وسراياهم تعدد النشائم، وتدخل غرناطة دخول الظافر، مما أعاد إلى خراطم النجوم ذكر الأيام الماضية رحدثهم بعود عز الإسلام وأيام غلبته على تلك الاقطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع فقاتل الطاغية عابداً أن لنجاح هذه السنة كور غرناطة وفي التي بعدها انما جرم البلد بعد أن يكرن قن النوب وانقضاء المدد، فحضر بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماش وأخذ يكاتبهم مرج غرناطة البديع النصير المنقطع النظير معه من أمراء بلاده ذرق مدينة سيديونة ومر كيزقادس ومر كيزفيلنه والدون الونزو دواغيلار وغيرهم من رموس قوادهم فشمّل تلك المروج عينا وتخرىابو بمش النار في جميع أرجائها حتى غطى الدخان الأفق وأظلم جو غرناطة من دخان شجرها هذا وأبو عبد الله لا يجسر على الخروج من حرائه خوفاً من فتك العامة به، لقولهم أنه سبب هذه المصائب، لكن موسى قسم فرسانه إلى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من آحاد القادة وأطلق الغارات على أطراف معسكر الأسبانيين فأبغ فيهم الساية، وربما كثره حشودهم إلى الخدمة والمكيدة أحياناً، ففي إحدى المرات بينما كانت قطعة من الجيش الأسبانيولي سائرة في سفح جبل إذ لقت بجماعة من المغاربة

تقهقروا أمامهم فطمعت فيهم حتى نشبت بين صخور فاندفع عليهم المغاربة من وراء الجندل فاستلحم الاسبانيول وفر منهم جماعة وصبرت جماعة بقيت تقاتل في أرضها وإذا بجبل الاسلام قد أطلت منقضة انقضاض العقبان فخصمت في وسط الاسبانيول وحى الوطيس وكان مركيز فيله وأخوه الدون الونزو دوشيكو في بهرة المعمة فما غنم أن جرح المركيز وخر الدون الونزو صريعا وبجانبه اصطفان دوسوزون من صيابة القواد وضاق الخناق بالاسبانيول وشاهد الملك أن الوجه المغاربة وأن جماعته هالكون لا محالة فأمرهم بالرجوع فلم يترثوا في ثابية أمره وانكفوا خاسرين بعد دفاع شديد ولما رأى فرديناند أن مناجزة المغاربة خصوصاً في هذه المناوشات الخاصة تمود غالباً بالخسران على عسكريه أصدر أمره الصارم باجتناّب القتال معهم والاعتماد على العيث في بلادهم واكتساح أراضيهم واستئصال أسباب القوت ليأخذ غرناطة بالجماعة بدل الحرب

وكان على مسافة مرحلتين من غرناطة حصن يقال له حصن رومة من فوق هضبة مشرفة على المروج وكان في مكانه أعز من الابلق يقصده المتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وقل العساكر إذا نهزمت وهو شجراً في حلوق الاسبانيول فلما كان الطاغية نازلاً على مروج غرناطة ازدادت يقظة حراس الحصن وفي صبيحة يوم بينما كانوا ينظرون الى بعيد مراقبين حركات الطاغية اذ تراءى لهم عمائم عجراء واسنة مغربية ولم يكن غير قايل حتى وصل حذاء القصر نحو مائة وخمسين مغربياً معهم قطيع من المواشي مسرعين مهطئين وتقدم منهم عريف عليه سياء الشرف والنباهة فالتمس الدخول قائلاً انهم كانوا في غارة ببلاد النصارى وقد غنموا منهم

وقفوا لكن النبصارى تطاردهم فهم يخافون ان يدركوهم فى الطريق قبل  
أن يدركوا غرناطة ففى الحال أسرع الخفراء الى فتح الابواب ودخل  
هؤلاء المغاربة وأظهروا الاطمئنان وفرحوا بهم الا أنه ما كاد ينتشر حراس  
الحصن فى باحاته حتى علت صيحة بغتة فأسرع كل الى سلاحه مذعورا  
فوجدوا القصر فى يده هؤلاء الدخلاء فاستنموا الى الخضوع وعلم بعد ذلك  
أن سيدى يحيى السابق الذكر مع ولده قدما من الجبل بجماعة من المدجنين  
لخدمة الطاغية فاعملا الحيلة فى الاستيلاء على هذا الحصن استزادة من  
الزلفى لديه وبهذه الوسيلة تمكنا منه وبعثا بالخبر الى فرديناند فارسى  
وشحنه بالمقاتلة، واما حامية الحصن فان سيدى يحيى اتى عليهم واطلق سراحمهم  
فانصرفوا الى غرناطة ولم ينفعه عند الغرناطين ابقاؤه على حياتهم مع خيائته  
فى أمر الحصن فأمهالت على اسمه اللعنات كالطراى صيب كجانه من الجملة الثانية  
لم يحمل عمله كاه على الخلوص التام فقد قال الاب اغاييدا الاسبانىولى فى  
تاريخه : ان طلاق سراحمهم دليل على أن نصرانيته لم تكن كاملة بل لم  
يزل فى قلبه بعض ذرات من الاسلام « وهذه غاية المناقطين ان يخلصوا  
من كل فئة

ثم أوغر صدور الغرناطين حنق آخر ائمة من الاول وهو من عمل  
مولاي أبى عبدالله الزغل ملك اندرش الذى كان معتزلا فيها متسليا بهذا  
اللقب عن احزانه وأوجاعه وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون  
اليه نظرم الى رجل مظلوم مخذول وصل الى الحالة التى وصل اليها اضطرارا  
وتسييرا وزجه فيما هو فيه كنود ابن أخيه وقعود بني ملته عن نصره

فقي أحد الايام ساقط الزغل عمايته في بغض ابن أخيه الى النزول من اندرش بمثنى مقاتل والانضمام الى عسكر الاسبانيول فلما رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصرارى تحمقوا انحياشه للطاغية فألقوه بسيدي يحيى في المنزلة عندهم وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذ ونوذي باسمه في الاسواق وهتفت الاصوات بالدعاء له وعقدت به الآمال فنفعه عمل عمه ونشط السلطان ابو عبد الله للحركة واعمل في الجهاد بما رمى من اقبال قومه عليه

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملاً يبيت في مرج غرناطة حتى أخنى على نضارته قفل الى قرطبة من طريق الجبل فماتوا رى عن العين حتى نهض ابو عبد الله متقلداً سلاحه وامتنطى جواده ونفر واستنفر فالتفت عليه فرسان غرناطة وخفت اليه سكان جبال البشيرات الموصوفون بشدة البأس وماجت ساعات الحضرة بالحشود وتبايع الناس على الموت وتبارى الفرسان في ميدان النزال يقدمهم الامير موسى بن أبي الغسان وهو روح النهضة وسيف العزيمة والفجر الصائح بليل الملة

نخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودم حصن همدان على بعض مراحل من غرناطة وهو من أعز حصون النصرارى يحرسه مائتان وخمسون مقاتلاً من أبطالهم معتموداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندودو كويشاده فأناخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال يغاديه القتال ويرأو حه حتى هلك أكثر حاميته وسلم الباقون فدمر السلطان الحصن وجعله دكا وارسل الاسرى الى غرناطة

ثم استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة وحصن بلدة من خيصوص

النصارى وشاع بين المسلمين أن السلطان أنحن في النصارى وافتتح من معاقلم وأن الكرة مأمولة، فتويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الأمل وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية أبي عبدالله وأخذ خيالة غرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثرغجيان ويفنمون منهم إلا أنه مرة بينما كان بعضهم عائدين بغنيمة وافرة كمن لهم كونت تنديلة في أحد الأودية فذعروا وقتل منهم خمسة وثلاثون فارساً وأسروا من خمسين واستعاد الكونت الغنائم وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضاً فرأى السلطان أبو عبدالله أن بقاء الحال على هذا المنوال لا يزيد قوة وأنه بعد أن جرى ماجرى من حطم الزروع وقطع الأشجار ونسف العمران حول عاصمته لا بد أن يؤخذ بالجوع أن لم يؤخذ بالحرب ففكر في فتح طريق بينه وبين البحر والاستيلاء على فرصة بحرية يتسرب منها إليه المدد حيث كانت جميع موانئ الأندلس في أيدي النصارى فوجه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت ممدودة عند العرب من أحصن مدن الأرض وأصعبها مرتقى وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لنظر الدون فرنيسكو راميرز دو مدريد قائد المدفعية الأكبر لكنه كان عند زحف أبي عبدالله إليها غائباً في قرطبة ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه فانتهاز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبانية بجيش جرار وكان أهاليها من المدجنين فلما رأوا رايات الإسلام قد أقبلت انضروا تحتها وخلصوا طاعة العدو ورأت حامية البلدة من النصارى أنها لا تقدر على مدافعة أبي عبدالله فاعتصمت بالقلمة فدخل المدينة واستولى عليها وامتنت عليه القاية فنازلها وطمع في منع الماء عنها وامتد الصريح في الجوار بأن المسلمين

٤٠ - خلاصة تاريخ الأندلس

منزلون شلوبانية فامة ثلاث قلوب نصارى الساحل رعباً وكان الدون  
فرنسيسكو انريك قائداً بلش مائة فجمع جيشاً فيه فرناندو بيرز ولبلغار  
صاحب المنديل وحضر لا غانة قلعة شلوبانية فوجد المدينة في ايدي المسلمين  
نقيم تجاه القلعة فاشتد به ازر الحامية والنساب فرناندو سرا بسبعين من  
اشداء رجاله فاساقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكن العدو من الشعور  
بهم ولم يلشرا أن حضر الى الميناء اسطول فيه جنود ووثون لا غانة  
النصارى فنزلوا في مكان حصين على شاطئ البحر ولما نزل المسلمون القلعة  
صاروا بين عدوين فارتدوا عنها وعزل ابو عبد الله على أخذ ميناء حارة  
الذي كان سامه الى النصارى سيدي يحيى السابق الذكر فيما تراف به اليهم  
من الخمة لأنه بلغه كون الملك فرديناند زاحفاً به ساكره فهاجم القلعة  
الهجوم الاخير فلم يفر منها بطائل فاقطع عن شلوبانية عدداً الى غرناطة  
واشتفى في مسيره بالعيث في اذراضي المختصة لسيدي يحيى والانتقام من  
جماعته ورجائ عمه الزغل ودخل الحمراء بمغانم كثيرة تسلى بها عن فشله  
امام شلوبانية ولم يكدر يستقر في مقعده بالحمراء حتى وصل الطاغية بجيش  
مؤلف من سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل بقصد اغانة شلوبانية  
فلما بلغه اقلاع ملك غرناطة عنها مال الى المريج فالتقى جهاته تخريباً  
وتدميراً واستأصل أشجاره وافسد زرعها حتى قيل إنه لم يبق فيه غصنة اخضر  
ولا نعمة تسرح فبينما هو مريج اخضر اذ انقلب قفراً غبراً ودافع اهل  
غرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يجدوا دفاعهم لا انتشار العدو في بقاعهم  
والترامهم الا كماش في ينتهم بحفاظته على اسوارها  
وفي تلك الايام كشف النصارى مكيدة دبرها اهل وادي آش والمرية



وبسطة فأنهم راسلوا السلطان ابا عبد الله أن يزحف الى مدنهم وهم يفتكون بحامياتها ويفتحون له ابوابها فبلغ ذلك مريزده فيانه نخب الى وادي آش بقرة وافرة، بحجة انه يريد أن يمرض الاهالي في مكانه فسيخرجهم خارج الابواب ثم أغلق الابواب في وجوههم وأبلغهم أنه محظور عليهم سكنى المدن، نعم أذن لهم بالدخول متى متى أو ثلاث ثلاث لاجل أخذ نسائهم واولادهم وحيث صاروا بدون مأوى اتخذوا مضارب واكواخا في الارياض والبساتين وأوصلوا الشكر من هذه المعاملة فأجيبوا بازاء عليهم الانتظار الى أن تتحقق براءتهم يصدر أمر الملك بشأنهم فلما حضر الملك فرديناندوف واعليه وشكر الديه معاملة توادهم خلافا لالهود التي أعطاهم اياها فاجابهم بمعاملاه يا أصحابي بلغني ان كيداً هنا تدبر بان تقتلوا عمالي وجنودي وتشتركوا مع مملكات غريبة في قتلي وقد تحققت تدبير هذه المكيدة فيما بينكم فمن منكم تثبت برأته يعود الى منزله ومن دخل في هذه الدسيسة فاني لأسامحه لاني كما أحب الرحمة أحب العدل أيضاً، وها أنا ذا الآن أجمعكم في الخيار فاخترتوا الاخف عليكم إيماناً تقوون امن هنا جالين عن البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون سالمون في أنفسكم وتنفسكم واما أنت تسلموا الى رؤساء الفتنة الذين كادوا لي كيدهم قال المؤرخ غايدا وهو من النمصب والتعامل بالمقام الذي لا يخفى « ولم كان أكثر أهل وادي آش مشتركين بهذه الدسيسة آثروا الرحيل بنسائهم وأطفالهم »

ثم خير فردينانداف الى بسطة والمرية هذا التخير نفسه تخلصاً منهم ففضلوا الاجازة الى افريقية ومن بقي منهم لاذ ببعض القرى والساكنين لأبسين اثوب الذل ألوانا وأشكالاً

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آل إليها وتكآده الهم واشتدت عليه وطأة الاحزان مما جرى له من فقد الملك ، وانتشار السلك ، والنزول عن عرش سلطنة الى رتبة شيخ قرية بل كان أهل أندرش ابتداءً ينشرون عليه وبعد لحاقه الاخير بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتاً عند كل المسلمين ، وصار رديفاً للعنة اللاعنين ، فضافت مذاهبه وعول على الرحيل من الاندلس ، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الاجازة وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمان مئتين وخمسين وكانت نحو آمن ثلاث وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين فاعطى بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمرأويد ووهب حصّة في الملاحات وأماكن اخر لابن عمه سيدي يحيى وشد حقائبه وأجاز الى افريقية فلما وصل الى افريقية أخذه سلطان فاس والقاء في السجن وبعد ذلك سمل عينيه بدعوى إنه كان السبب في بلايا مسلمي الاندلس وذهب غرناطة من اليد استصفى أمواله واستبد بخزائنه ولعل هذا هو السبب في نكبته ثم خلى سبيله فروى مؤرخو الفرنجة أنه اتجأ الى أمير باش غمارة وكان صديقاً له فاشبعه من جوع وآواه من قفر ولطف مصيبته بقدر الاستطاعة حتى إذا مضى هذا سبيله لم يبق له مغيث ولا ناصر فهو في ثانية في وهدة الذل والفاقة ، وقيل إنه آل أمره أخيراً الى أن يستعطى في الاسواق ويطوف وعلى ثيابه رق غزال مكتوب عليه « هذا سلطان الاندلس العائر الجد » وهذا يخالف لرواية نفح الطيب كما ستري عند ذكره جواز الزغل

هذا وبعد أن عطل فرديناند مروج غرناطة من حلالها زحف في

حادي عشر فيسان من ذلك العام بأربعمين ألف راجل وعشرة آلاف فارس  
لحصار المدينة واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قواده مثل لنريق  
بونس دو ايون وركيز قانس وولم صانيتاغو وركيز فيلنه وكونت تنديله  
وكونت قبرة واورنيه والدون الوترودوا غيلار، وانعقدت المزايم على التضييق  
بالبلدة ومزاولة الحصار الى أن يتم تسليمها ولانه لا افراج عنها هذه المرة  
وكانت الملكة ايزابلا مع ولدها البرنس جويان وابنتيها جويانه ماريه وكاناليه  
في حصن كونت تنديله تبعث بالمدد والذخيرة الى المعسكر

فلما رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية  
مقبلة وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق عقد مجلساً مؤلفاً من أعيان غرناطة  
ورؤسائها فاجتمعوا كاسفي الببال نادبي سوء الحال وتخوف بعضهم عواقب  
الحرب من نزول المعرات في بيوتهم فأشاروا على أبي عبد الله بتسليم مقاييد  
أمره الى كرم فرديناند أملاً بأن ذلك يعود بشروط صالح مقبولة

وسئل الوزير أبو القاسم عبد الملك أن يبين مقدار الباقي من الطعام  
والذخيرة لاجل الحصار فأجاب أن الباقي يكفي، وونة بضعة أشهر ما عدا  
الذي في مخازن التجار ومنازل الاغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان  
حصار النصارى لا ينتهي، ثم سئل عن عدد المقاتلة فأجاب إنه عدد عظيم  
لكنه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون ويربدون في  
أماكنهم حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم

فلما سمع موسى بن أبي الغسان هذه الكلمات نهض قائلاً «أي باءث  
بنا الى اليأس فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري  
في عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوش معودة بحربة في الوقائع لا نرتاب

في إقدامها إذ لدينا عشرة من الف شاب يمكنهم أن يداخروا عن دورهم وأعمالهم  
أعظم قوة واكتشف جيش، فأما الطعام فلا نحتاج في أمره ولدينا عتبان من  
الحياد المسومة نظير بها إلى ديار المدجنين الذين استسلموا للصاري وإلى  
بلاد العدو فنمرود بالغنائم والانتقال »

فثبت كلام مرسى عزائم القوم وطعنهم على الدفاع وتوزعت القيادة  
فعهد إلى الوزير أبي الفاسم بتجنيد الجناد وتفريق الوثبة والسلاح  
والى الأمير موسى بقيادة الخيالة وحفظ أبواب المدينة والمهاجرة ومعه نعيم  
رضوان ومحمد بن زاهدة وإلى عبد الكريم الزغبى قادة آخرين بالمحافظة  
على الأسوار وإلى قواد القصة والأبراج الحمر بالدفاع عن الحصون

وأخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد فلم يكن يسمع إلا قرع طبول،  
وسليل أسنة وصهيل خيول وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب يتقدمها  
شهاب ثاقب، فكان أنجاد الغارة وإحلاس القتال يعجبون ببسالته وإقدامه  
وكانت العامة تحوم عليه ها تقين بالدعاء ملين، كاذ طائفة العجزة من الشيوخ  
والنساء يلهون عليه ويباركونه، متقدين أنه حاميمهم والجنة الواوية، ونهم،  
ولما قرب النصارى من المدينة أحكم المغاربة أقفل الأبواب وجعلوا  
وراءها السدود والسلاسل وأوثقوها بالأغلاق المتينة فجاء موسى وأمر  
برفعها كلها قائلاً : قد عهد إلى رالى خيالى حراسة هذه الأبواب وستكون  
أجسادنا سدوداً من دونها وجعل عند كل باب حرساً وافراً وكانت خيله  
دائماً حاضرة للنزال، ومقاتلته على أوفاز للحرب، فإذا دنا العدو وانقضت عليه  
كالصواعق والخشت فيه النكابة، فكان فى أفعال موسى فضلة على أقواله  
قال الكاتب الشهير واشنطون ارفن «فلو بد عند الغرناطيين عدة رجال

مثل موسى أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة  
غرناطة وبقي المسلمون مدة مديدة بعد ذلك متبوتين أبراج الحمراء  
هذا ونظر فرديناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جوع المسلمين  
المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي في صدرهم الاوتار غلي النار في  
المراجل وفيهم من ذو بازال بال وابطال التزل عند فوق الاحصاء فرأى  
أن أخذ البلد باليسيف من قبل الاحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر  
والتضييق كما أسند مدينة بسطة فقطع عنها المرد واجتاح جبال البشرات  
وصار يقبض على كل قافلة نارلة صوب غرناطة فكان موسى يشن الغارة في  
خياله على معسكره فيغنم ويفتك ويعود بالسلب فأمر الملك اتقاء غارات  
موسى بحفر خنادق واقامة اسداد حول الخيم وجعل الخيم أقساما أربعة  
على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين

وبعد أن تم ذلك على هذا المنوال استدعى امرأته الملكة ايزابلا فحضرت  
باولادها وأقاربها وذلك دهاء منه لقطع آمال الغرناطين من الرحيل  
عنهم حتي يمكوه من بلدتهم. وكان لقدمها في المعسكر ضجة فرح عظيمة  
أما المغاربة فلم ترتخ عزائمهم بذلك وقال لهم موسى « ان علينا الدفاع عن  
الارض التي تحت أقدامنا لانه إذالم تبقى لنا ذهب ملكنا رحمت اسمائونا »  
ولما رأى موسى أن الملك فرديناند لا يناوشهم القتال منتظرا تسليم البلد  
بالحصر والتضييق وقام الميرة أخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى  
قرنا لقرن فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين  
فرأى فرديناند أن هذه المصارعات الشخصية تعد أثارت جأش المغاربة  
وقويت عزائمهم وافقدته عدا من فرسانه فامر جيشه بعدم قبول البراز

وعيرهم المسلمون بذلك فلم يخالفوا أمر الملك، فقال المسلمون « أي فضل الملك يحاول أن يخضعنا بأضعاف أجسادنا ويفر من لقاء أرواحنا » ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحركون شبان الاسبانيول للانزال بما يمكن من الوسائل فكان بعضهم ينقض على معسكر فرديناند ويبدء حربه يثبتها في أقصى معسكرهم وعليها اسمه وربما كتب مع اسمه بعض الشتائم تحميسا للاسبانيول لكن هؤلاء كانوا يحتفلون بهذا الذل لإطاعة لأمر الملك الى انه في أحد الايام أغار فارس مغربي اسمه طرفة مشهور بقوة جسمه وثبات جنانه لكن شجاعته أميل الى التوحش وغاظ الكبد مما هي الى النخوة والحمية فاثبت رمح في الارض أمام فسطاط الملك والملكة ورجع كالبرق الخاطف فجدا الحرس في أثره فلم يدركوه ودخل المدينة فنظروا الى الرمح فوجدوا عليه رقما مكتوبا عليه بعض الشتائم عرفوا أن المقصود بها الملكة فمظمت نكابة هذا الفعل في قلوب الاسبانيول وكادت فتياهم تتميز من الغيظ من هذه الجرأة وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دابلغار نخبة من الشبان وسرى تحت الظلام الى أحد أبواب المدينة فوجد الحرس نائمين اعدم توقعهم مثل هذا الهجوم فدخل بجماعته وقام كل الى سلاحه فتمكن الاسبانيول من الباب وحفظوه ريثما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة راكضا جواده الذي يسابق الريح حتي وصل الى الجامع الاعظم فاثبت في بابه لوحا كان معه مكتوبا عليه اسم « مريم المذراء » ورجع مسرعا فوجد قومه ثابتين في مراكزهم نفخ جوا وافرين وما انتبه أهل غرناطة لهذه الضجة وجدت العساكر من كل نواحي البلد حتى كان الاسبانيول قد صاروا بقرب مضاجعهم

ويقال إن هذا الجامع بعد دخول الاسبانيول الى غرناطة تحول الى كنيسة باسم السيدة مريم وإن الامبراطور شاركان منح دابلغار هذا وذريته الحق في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة

وكان بعد معسكر الاسبانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتما العامة فارادت الملكة ايزابلا أن تشاهد تفاصيل البلد وقل صبرها عن ذلك فهيراً مركيز قانس بطانة كافرة واحراسا متعددين وسير قطعة من الجيش بين خيل ورجل وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء أسبانية بانغر الزينة وأنفس المراكب وقصدوا مزرعة يقال لها « الزينة » في حدود الجبل شمالي غرناطة مشرفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلما قاربوا المحل تقدم مركيز فيله وكونت أورينه والدون الوترودوا غيلار بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركيز قانس وكونت تنديله وكونت قبره والدون الوترود وفرناند بمجموعهم حذائهم ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أعد المسكان لجلوسهما وحف بهما الامراء والاساقفة ينظرون الى غرناطة الحمراء متأملين كيف تتحول قريسا مساجدها كنائس وما آذنها معالق للنواقيس

ولما رأى المغاربة إصطفاف جيش الاسبانيول كأنما يريدون القتال رأوا من الذل الاحجام عن مناجزتهم فامضت هنيئة حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالمدد الكاملة والاسنة الالامعة وعلم انها فرسان موسى بن أبي الغسان فصدر أمر الملكة لمركيز قانس باجتنب القتال لانها لا تريد أن يراق بمقدار غبة الطائر من الدم في سبيل نزهتها فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة الدب فيه أخذوا

يتعرشون بالاسبانيول ويدعونهم الى النزال والملك يمنع قومه من الاجابة  
 وألح بعض سرعان المسلمين حتى صاروا في مصاف النصاري يهزون أسنتهم  
 ويحركون حفاظ أعدائهم وهؤلاء ساكنون في مواطنهم وإذا بفارس زميت  
 الهيئة مفتول السواعد غريب الصولة عظيم البطشة قد تقدم ووراءه جماعة  
 فعرف بالقرينة انه هو طرفة الذي اهان الملكة حسبا تقدم ونظر الاسبانيول  
 فاذا به معلق بذيل جواده اللوح الذي كان دليلا قد ركزه في باب الجامع  
 الاعظم يافيه من الكتابة فلما رأى الاسبانيول هذه الاهانة غاب صوابهم  
 وصاع رشدهم واسرع أحد ابطالهم المدعو كارسيلاسو فاستأذن الملك  
 في النزول لمبارزة هذا الذي اهان السيدة مريم فاجابه الى ذلك اجلالا  
 لمقام الطلب فعاد كارسيلاسو وتقلد سيفه وتأتب بدرعه واعتقل سنامه  
 وامتطى حصانه ونزل لمبارزة الفارس المغربي فتساور القرنان بمشهد من  
 الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي بحسب رواية مؤرخي الفرنجة  
 اسد ساعد وأعظم خلقا وأوثق اضلاعا وأحسن ركوبا من خصمه ولذلك  
 كان النصاري خائفين على فارسهم وفي الصدمة الاولى ترحزح كارسيلاسو  
 عن صهوته وكاد يهوي لولا انه تمكن حالا من لجام حصانه وعاد مستويا  
 على ظهره فاخذ المغربي يدور حوله منوثبا به دوران الباز الاشهب حول  
 فريسته وكان جواده طائعا له وخيل للناظرين عند كل ضربة يضربها ان  
 رأس الاسبانيولي قد طار عن جشته اوفلق شطرين لكن كارسيلاسو  
 بسرعة حركته اتقى ضربات طرفة تارة بالنكوس بجواده وأخرى بالدرق  
 يحتمي بها ومع هذا فكانت كلوم البطالين قد غطتهما بالدم وخارت قوى  
 الاسبانيولي ولحظ ذلك طرفة منه فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولما



حصلا على الأرض صرعه على ظهره ثم ركم فوق صدره واختلط خنجره  
 بهم ان ينحدر به فصاح كارسيلاسو صيحة رج بها الفضاء ولم يكن الا  
 كالبرق حتى سقط المغربي قتيلًا وعلم أن خصمه وجاء في احشائه بـرية كانت  
 معه وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدة فرحهم بنجاة فارسهم  
 ونسبوا المدد جاءه من السيدة صريم العذراء التي انتصر لها، وقد روعيت في  
 هذا البراز قواعد الفروسية فلم يتعرض أحد من الفريقين لنجدة ابن جلدته لكن  
 المغاربة لما رأوا سقوط فارسهم هاجت احقادهم فامر موسى بقطعتين من  
 مدافعه فاخذتا ترميان النار على صفوف الاسبانيول فاقتتل مصافهم فقال  
 موسى لروساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا تضيعن الوقت في المبارزات الشخصية  
 ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل  
 الواحد على صفوف النصارى فشطروها وأوقعوا بها فلما رأى مركيز قادن  
 ذلك لم يجد محلا لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال واستحضر  
 الطعن والضرب من كل الجهات. قال مؤرخو الفرنج ان الملك والمملكة وجهيم  
 حاشيتهما من الاساقفة والامراء لما حى الوطيس جشوا على ركبتهم بمكانهم  
 من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بصريم العذراء وان استغاثتهم  
 قد صادفت القبول فان الشدة التي حمل بها المغاربة لم تلبث ان انحلت ووقع  
 الرعب في قلوب رجالهم فولوا الادبار واجتهد موسى كثيرًا مع خياله في  
 ضم شملهم فلم يفلح لان أكثرهم انهزموا الى الجبال وبلغ بحسب زعمهم  
 عدد من قتل وأسر وجرح من الغرناطيين نحو الالفين وهذه المعركة تسمى  
 بمناوشة الملكة ويقال انه بعد ان بردت البلاد للظاغة ابتذت ايزابلا ديرا في  
 قرية،، زبية،، باسم مار فرنسيسكو لم يزل الى الآن وفي حـ ديقة الدير

شجرة غار ( شجرة النصر ) مغروسة بيد الملكة نفسها  
وكان مرج غر ناطة لم يزل باقيا منه نطاق اخضر يحيط باسوار المدينة  
فاعتزم فرديناند ان لا يذع هناك غصنا أخضر ولا عذبة موزقة (١) واخذ  
يستمر لنقل محله صوب البلدة وبينما هو في ذلك اذ حصل حريق في خيمة  
الملكة وكانت من ابدع النسايط في النصرانية وامتد لسان النار في  
المسكر فلم يكن الا كلا ولا حتى أصبحت تلك المدينة المتحركة هباء منثورا  
ولكن لم يصب احد باذى وظن النصارى في البداية انها مكيدة من المغاربة  
بقصد أن يزحفوا اليهم اثناء اشتغالهم بالحريق فأعد مركيز قانس ثلاثة  
آلاف فارس وتقدم بها نحو المدينة صدى للغارة فلم يبرز أحد وانما شوهدت  
الرؤوس المعممة منتظلة من شرفات الاسوار نحو الحريق وظن المسلمون  
ايضا أن للنصارى مأربا في احراق معسكرهم وان في طي ذلك كيداً والصحيح  
أن الملكة كانت أمرت احدى جواربها بنقل المصباح من جانب سريرها  
الى جهة أخرى فوضعتة الجارية في مكان آخر بقرب الستار وهب عليه  
نسيم فاتصل اللهب بالنسيج وحدث ما حدث

وكان فرديناند عارفا بطباع المغاربة تخاف أن يحدث هذا الحريق  
في قلوبهم جرأة ويقوي لهم أملا فلم يصبح الصباح حتى عبا جيشه  
وزحف به نحو الاسوار محتاحا بقية البسائين التي كانت محيطة بالمدينة فبرز

(١) الذين يزورون اسبانية في هذه الايام يقولون ان جميع هذه المدن  
التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحطة قليلة السكان وان كل  
تلك الجنان لم يتجدد منها الا القليل مع انه مضى على خرابها نحواربمئة سنة  
وصدق بعض مؤرخي الافرنج في قولهم ان اسبانية بعد العرب صارت  
جسما بلا روح

السلطان أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذب عن حوضه ويذود عن روضه في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، واوشك الهيابة أن يلقي السباع، اذ كان بنو الاسلام هناك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم واوطانهم الاخيرة، ويناضلون عن أعز ما عندهم تحت أعين نسائهم واطفالهم وشيوخهم المظلين عليهم من مشارف الابراج والمنازل، ولم تكن هناك وافعة واحدة بل انتشرت الممارك بمدد الغياض بالبساتين ففي كل حديقة معترك، وعند كل غيضة مشتبك، ولم يبق من الارض قدم الا اريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشددة من عزائم المغاربة حتى لو كان منهم جريح معفر بالتراب وشاهد مرور موسى انتفض قائما وذمل عن جراحه وكمن من صريع انتفت صرير موسى فقرت به عينه ودعاه له وحياء وهو يفارق الحياة

ولمك الاسبانيول بعض الابراج بقرب البلد اسكن بعد أن اذيقوا مر الكفاح، وتساقوا كؤوس الحمام مساقاة لراح، والى أبو عبد الله في هذا المراك بلاء تحدث به الركبان، ولكن رجالته نكصت على الاعقاب وكاد يقع في أيدي الاعداء لولا انه نجا بفرسانه بخفة الحركة وظل قافلا الى المدينة تاركاً في وسط الممعة موسى الذي بذل جهد الاستطاعة في ضم شمل المشاة وكان يناديهم معنفاً ناهم، ويحرضهم على الجهاد في سبيل حرمهم ودمهم، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يجيبوا مناديا ولا ابوا داعياً، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة فثبت موسى وفرسانه وانتصب الميزان بينهم وبين العدو بأسره ولم يترهم فتور ولا ملال، ولكن قتل منهم جملة وافرة وأنخن البافون جراحاً، فاخذ موسى يتقهقر بهم مدافعاً إلى أن بلغ

المدينة فدخاها وأغلق الابواب وجعل وراءها الاثقال والسلاسل قائلا  
إنه عدم الثقة في المقالة المعينة لحراستها وأمر بان لا يخرج المشاة مرة  
أخرى من المدينة لملاقاة العدو

وكانت مدافع غرناطة النارية قد فغرت أفواهاها فرزأت طلائع  
الاسبانيول فأمر فرديناند برجوع الجيش بعد أن أحرق آخر ما أحرق  
بغرناطة من الخضره وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الوقعة  
الاخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الاسبانيول دفاعا عن مدينتهم الفيحاء،  
وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك من باهر شجاعتههم وإقدامهم واقتحامهم  
حياض المنايا ما ملأه عجبا . قال المؤرخ واشنطون ارفن الانكليزي  
« ان هذه الحرب حربة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر  
اثبات والاصرار فان النكبات توالى فيها على المغاربة مدة عشر سنوات  
بدون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الاخرى وفنيت رجالاتهم  
قتلا وأسرا وقتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة  
كانما هم ينتظرون الفتح ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ولا جدارا يمكنهم  
رمي السهام من وراءه الا واستصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب  
حتى اذا لم يبق لهم الا عاصمتهم مقطوعا عنها عن كل مدد غير طامعة في  
أدنى غوث نازلا على أسوارها أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها  
كانما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم » وقال غيره من المؤرخين  
القدماء « إن مقاومتهم الشديدة تدل على الالم الذي كانوا يشعرون به لفراق  
مرج غرناطة الذي كان لهم فردوسا ونعما فبذلوا أقصى ما عندهم من القوة  
محاماة عن أعناق الارضين بقلوبهم لا يفصلهم عنها الخذل ولا ادبار سعد ولا

اثخان جراح حتى ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محاب قلوبهم  
ومواضيع أشجانهم الى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم «  
وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الأفرنج قول شاعر ذلك العصر في  
المصر سيدي محمد العربي العقيلي عند ما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة ذلك

بالطبل في كل يوم وبالنفير نراع  
وليس من بعد هذا وذاك الا القراع  
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع  
لا تسلبني صبرا به لقلبي ادراع

وهو الذي قال فيمن تنصر من المسلمين :

فان يرتفع عند النصارى بالابتدا فكم عندنا من حرف حبل يحرقه  
هذا وبعد ان دارت الدائرة الاخيرة على جند غرناطة وخاب الامل  
وخان الجد لزم المسلمون البلد لا يأتون بحركة وانما انتظروا اقلاع  
الطاغية وتبرمه بالحصار بعد حريق الخيام فكان منه ان شرع ببناء  
معسكر من الحجر بدل الاطم والاخبية ولم يكن الا قليل حتى قامت  
هناك مدينة عامرة بأسواق وحوانيت مقسومة بإشراف عظيمين  
يقسمانها على شكل صليب فيتكون منها أربعة أحياء وفي الوسط رحبة  
فسيحة لاجتماع الجيش وللمدينة أربعة أبواب تناوح مهاب الرياح  
الأربع ولما تم بناؤها أطلق عليها اسم « صنتافي » أو مدينة الايمان المقدس  
ولم يكد يستقرها سكانها حتى دارت فيها الحركة التجارية فما كان يرى الا  
قوافل نازلة اليها وصاعدة منها بينما كانت غرناطة البائسة غريقة في لجة  
مقطوعة الامداد ثم لم تلبث أن فش فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة

والمرافق وكانت قافلة من الطعام وقطعان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قانس وهي نازلة من جبال البشرات الى غرناطة زاد الحال تقدم فصل الخريف وهجوم الشتاء فاشتد الخناق باهل غرناطة وأحسوا بالعبء عن المناصب وتذكروا جميع أقوال المجمعين عند ولادة ملكهم وما قيل بشأن سقوط غرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة وانقطع قرع الطبول وتفتح الابواب وسكنت جلبة الحرب في تلك المدينة وغلب على الجميع اليأس حينئذ عقد أبو عبد الله مجلسا في الحمراء حضره أكابر قواد الجند وحماة الحصون وأعيان المصر وفقهائه وسألهم عن رأيهم في اسلام البلد فقال أبو القاسم عبد الملك حافظ البلدة وبين لهم الحالة السيئة التي آلوا اليها فقال «إن اهرأنا قد خلت من المؤونة أو كادت ولا ننتظر الآن شيئا في الطريق بل الذي كان واردا لاجل الخيل صار قوتا للخيلة أنفسهم وربما أكلوا الخيل أنفسهم ناهيك انه من السبعة الآلاف من رؤوس الخيل التي كانت عندنا برسم الرباط لم يبق سوى ثمانمائة رأس وان في مدينتنا مائتي ألف نسمة كلها تطلب الخبز»

فقال اعيان البلد ان اهل غرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة ولاي شيء يجب استمرار المقاومة مادام العدو غير مقام عنا ولا راض إلا منا إلا يا حدى الخطتين اما التسليم وأما الموت فاشتدت كآبة أبي عبد الله مما سمع واطرق ساعة وتأمل في وجوه العمل وفكر في أنه لو وصل اليه على الاقل مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لامكنه الثبات ومع هذا فقلا يتمكن من الثبات الى أن توافيه النجدات من وراء البحر نظر ألا تقطاع الزاد ولذلك ارتخت عزائمهم ودان

عليه اليأس ورأى الجمهور منه ذلك فعولوا على التسليم واصفقوا على الدخول في ذمة الطاغية ، حينئذ قام موسى معارضا وحده اجماعهم قائلا «لقد عجلتم في الكلام في امر التسليم فان وسائلنا لم تنقطع ولم يزل عندنا بقية قوة عظيمة الفعل شديدة التأثير وطالما كانت سبب الفتح الا وهي الاستمانة فلنستنفرن العامة الى الجهاد ولنساعدهم ونقتحم صفوف العدو حتى نخالط اسنتهم وانني لحاضر ان مضى في هذا السبيل واتوغل في كثيف جمع الاعداء وخير لي مرارا ان أعد فيمن استأكلهم الدفاع عن غرناطة من أن أعد في الاحياء من بعدها»

فلما تحرك كلماته منهم ساكنا ولم تثر عزما ، لان اليأس كان قد استولى عليهم ، والاعتقاد بان المصير هو الى ما نبأ به المنجمون من السقوط ودات عليه الحوادث من البوار اصبحت عامكا عندهم ، فكانوا امرع الى طلب المواجهة من الماء الى الحدور ، ولما رأى أبو عبد الله ان هذا هو استعداد القوم جنح معهم الى التي يتفنونها وتقرر اشخاص الوزير أبي القاسم عبد الملك الى الطاغية لعقد شروط الصلح

فلما قدم أبو القاسم على الملك والمملكة رحب به واكرما موصله واحالاه في المذاكرة على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر كاتب أسرار الملك فبعد المراجعات الطويلة تقرر الامر على انه ان مضت سبعةون يوما ولم يرد في اثائها مسدد للمعاربة يتسلم الاسبانيول غرناطة وان جميع أسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فدية

وأن أباء عبد الله وخواص رجاله يملفون بين الامانة للملك والمملكة ويثبتون لهم في جبال البشرات اقطاعات معلومة لاجل معيشتهم وان سكان

غرناطة يصبحون رعية للملوك الاسبانيول لكنهم يحفظون اموالهم  
واسلحتهم وخبولهم ولا يسلمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرية التامة  
في أمور دينهم، ويتعين لهم قضاة من أنفسهم يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم  
تحت سلطة ولاية منصوبين من قبل ملوك الاسبانيول ويصير انقضاءهم  
من الضرائب مدة ثلاث سنين وفي ختامها يدفعون للملوك الاسبانيول  
الجزية التي كانوا يدفعونها للملوكهم بدون زيادة، ومن شاءوا منهم الاجازة  
الى بر افريقية في خلال هذه المدة تعطي لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم  
واموالهم بدون رسم مرور من أى ثغر شاءوا من ثغور البحر

واتفقوا على تسليم اربعمائة شخص من ابناء البيوتات المغربية تبقي  
رهائن عند الطاغية الى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة  
هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير ابو القاسم بمحضر الملا من  
اهل غرناطة وبين يدي سلطانه بعد عودته من معسكر النصارى، فلم يبق  
واحد ممن حضر الا جرش بالبكاء ولج بالعويل، ففاضت شؤون المآتي،  
وبلغت الارواح التراقي، وتصاعدت الزفرات من الجميع الا الايرموسى  
ابن ابي الفسان فانه بقي ثابت الجأش عصي الدمع، والتفت نحو الجمع وقال لهم  
« دعوا يا واولينا البكاء والنحيب لانساء والاولاد فنحن رجال ولنا قلوب  
لا لاجل ذرف الدموع بل لاجل سفك الدماء واتي لارى عزائم هذه  
الامة قد ارتخت وقطعوا امامهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا  
اشرف الخطتين وهي الموت — فامت اذا في سبيل استقلالنا والانتقام  
من عدو غرناطة فامنا الارض تتلقى ابناءها في أحشائها غير مقيدتين  
بسلاسل اليهودية ولا قدر الله أن يكون اشراف غرناطة صاروا يخافون



## الموت في الدقاع عنها

ثم سكت موسى وعات المجاس السكينة فالتفت ابو عبد الله نحو الحاضرين واخذ يحدق في وجه كل منهم فلم يقع نظره الا على وجوه علمتها الكآبة وظهرت عليها دلائل اليأس وأبصر الجميع مطرقين كأن على رؤسهم الطير، فصاح حينئذ «الله اكبر لا اله الا الله محمد رسول الله؛ باطل اجتماعنا في مما كسبه الارادة الالهية، فقد كتب في اللوح المحفوظ اننى اكون شقيا وان هذا الملك يذهب من يدي» فصاح الوزراء والفقهاء «والله اكبر لا حيلة في قضاء الله»، وارتفعت الجلبة بالتكبير والحوالة من كل جانب لكن وقع الاجماع على قبول الشروط ولما رأى موسى أن جميع الحضور متفقون على امضائها قام من بينهم غاضبا والتفت نحوهم قائلا «يا قوم لا تنفثوا انفسكم ولا تتسلوا بالحما ولا تظنوا أن ملوك النصارى وافون بما عيدهم لكم وانهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال؛ ذوالله إن الموت الاحمر هو أهون مما تتوقع، وانما نحن مستقبلون أهرا أيسره اكتساح الأوطان وفضيحة الميال وانتهاب الاموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والنطم والنفي من الارض والضي في اعماق الحبوس إلى غير ذلك مما نحن صائرون اليه

فمن المعجز أن تموت جباناً فاذا لم يكن من الموت بد  
أما أنا فوالله دون أن اشهد ذلك «(؟) قل هذه الكلمات وخرج محل الاجتماع واجما مطرقا ثم طاف بقاعة الاسود وسائر ابهاء الحمراء بدون أن يكلم أحداً من الحشم الواقفين في الابواب ودخل منزله وتقلد سلاحه الكامل وأمر فأسرج له جواده الكريم فركب وخرج من

من باب البيرة الى حيث لم يسمع لها بعدها خبر ولم يوقف له على أثر  
قال المؤرخ واشنطون أرفن هذه رواية مؤرخي العرب في شأن غيبة  
هذا البطل لكن اغايدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال « كان في أكثر  
المشيات يجتمع غصبة من فتية الفرسان الاسبانيول سائرین للنزهة حناني  
الشنيل في إحدى المرات أبصروا عند العشاء فارساً مغرباً أخذ يدنو منهم  
دارعاً مرخي القناع وحصانه مثله مغطي بالزرد ، كانوا دارعين مثله تحت  
المغافر لانهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون إلا ألحجة الدفاع فلما شاهدوا  
هذا الفارس المجهول متقدماً نحوهم بهيئة منكورة نادوه كي يقف عنده  
ويعرف بنفسه

أما هو فلم يجر جواباً بل ظل حاملاً عليهم ومن أول طعنة بسنانه شك  
فارساً منهم فرماه عن صهوة ، ثم دار حول الباقيين شاهراً السيف فاذرع  
الضرب ، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلا بحتف ، ولم يقم له حد إلا في  
مقتل ، وكان الظاهر عليه أنه مستميت مولع بالفتك يقاتل للاشتفاء لاللملاء ،  
وبرغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء الى أن كب نحو نصف  
الخيالة الذين التقوه صرعى على وجوههم بفياضل ضرباته ، وقواصم طعناته  
قبل أن يصاب بجراحة ذات خطر لشدة تلاحم زرده وسبوغ درعه لكنه  
أصيب في الآخر وخر جواده من تحته وخيل أنه وقع في اليد خاول فرسان  
النصاري أن بمسكوه مسك اليد ابقاء على حياته بما بهرهم من فتكه وادهشهم  
من اقدامه لكنه بقي يقاتل وهو على ركبته بخنجر من خناجر فاس كان في يده  
ولما رأى قواه قد خارت واصبح لا يستطيع اطالة الدفاع وخشى أن يؤخذ  
اسيراً ذهب الى النهر فرمى بنفسه في الماء حيث غاصت به درعه في الحال ،

وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي النعمان وقد عرف جواده  
بعض المتنصرة المغاربة ممن كانوا في مراكش الأسبانيول. قال ارفن ومع هذا  
فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة الى زيادة التأكيد



أما شروط تسليم غرناطة فقد سردھا المرحوم ضيا باشا في تاريخه  
للانلس وهي خمس وخمسون مادة تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق  
وفي طيها من عهد المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم  
وعقائدهم وديانهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفني به إلا نصه  
وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين  
ومساجدهم وأوقافهم وأموالهم المحفوظة، وعدم التعرض لأمورهم الشرعية  
بل إعادة ذلك إلى فقهاءهم والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملازمهم  
وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في الاعقاب وأعقاب الاعقاب .

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهم  
إلا الأسلحة النارية فتقرر أخذها

وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة بأمواله  
وامتنته وفيما بعدها أجازته على نفقة دولة قشتالة من أي مرسى أراد  
وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل ، وإذا لم يتبرأ البيع و وكل  
صاحب الملك وكيلا تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها  
إليه بمكانه وراء البحر

وورد في المادة الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى  
جانبا بدون رخصة الفقهاء

وورد في المادة الخامسة عشرة إعفا السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم وفقهائهم من الضرائب والرسوم وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا العهد ملوكهم وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعا وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين حتى ولا الملك والملكة ومن خالف ذلك من النصارى يجازى بشدة

وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن للأموري شرطة غرناطة أن يمسكوه لكن ذلك الامتياز مخصوص بعرب الاندلس لا يتناول أسرى المنرب

وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا تجوز معاملته الا بالحسنى ولا يرى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة

وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي

وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجا بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الاصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها

وفي الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئا مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم تسليم البلد وفي التي بعدها لا يعاتبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم

وفي الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحي  
وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع أسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من أي بلاد وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس وفي التي تليها ذكر إطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غوث سالف هرناندز وعثمان أسير كونت تنديله ورضوان أسير صاحب قبعة واعادة الفقيه ابن محي الدين ورفاقه الذين غابوا على اثر حادثة ابراهيم بن سراج ابنها وجدوا

وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة في مواني الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقل أسرى من النصارى

وفي الثانية والخسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين بل تكون شرطتهم من انفسهم

وفي آخر هذه المماهدة تعهد الملك فرديناند وامرأة صاحبا ممالك قشتالة واراغون وليون وصقلية ان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص وعام وكلي وجزئي بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكائهما وهيئتهما ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الابد، ولا يمكن احداً من خلفاء الملوك المشار اليهما ولا خلفاء خلفتهما ولا حفيدتهما ولا اولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا اقل حكم من احكامها او يبدلوا حركة من حركاتها واعطى الامر بها الى الامراء والوزراء والقواد والاجناد والرهبان والرعية من

حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير ، وأعلن أن من يجتري على  
خلال بشيء مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من أقدم على افساد  
البراءات الملوكية او تقليد الحجج والسندات بدون ادنى تأخير  
وانسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على  
دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة الميمنة وكتبت على رق غزال  
محلي ومطرز تحريراً في ثلاثين من كانون الاول سنة احدى وتسعين  
واربعمائة والف من الميلاد

وحررها فرناندو صفراء بأمز الملكين وأمضاها الملك فرديناندو  
الملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة وايزابلا الدونة حنة والدونة  
ماريانه والدونة كاتالينة ورئيس أساقفة أشبيلية الدون دياغو هرتادو رئيس  
أساقفة صانتياغو الدون الفونس و كبير فرسان صانتياغو المسمى بالدون  
الفونس أيضا والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين  
ماريوجنا والدون بيروغو ترالس كردينال إسبانية ورئيس أساقفة المملكة  
والدون هنري كبير حكومة أراغون ومن أبناء عم الملك والدون الفونس  
من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز  
وثيس جند قشتالة ويليهم نحو أربعين دونا كاهم من أبناء السلالة المالكة  
وأساقفة البلاد وامراءها واعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة ابي عبد الله بن ابي  
الحسن. تتضمنه اربع عشرة مادة فيها اعطى له الاقطاعات والاراضي والبلدان  
التي وهبها اياه الملاك كان ممينا كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر  
مليوناً وخمسمائة قطمة من السكة المعروفة بالمراديد عند دخولها قلعة الحمراء

واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث ، واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم  
واداء المكوس عما يجلب من الامتعة برسه ، وانه في اي وقت شاء يبيع هذه  
الاراضي والاملاك يشتريها المملكان كلها بقيمتها العادلة وان لم يشأ يبيعها واراد  
النقله الى المغرب فالو كيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها  
عليه في اي جهة كان مما وراء البحر وفي اي وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله  
وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولاً  
عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه وجميع  
هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضاً في حق والدته وشقيقاته  
وزوجته وزوجة مولاي ابي نصر والمهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ  
الاولى الا انني وجدت اكثر المؤرخين يؤرخون امضاء المعاهدات في  
٢٥ كانون الاول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

•

ولما كان الاسبانيول قد اعطوا المغاربة مهلة سبعين يوماً لاجل التسليم  
بنا على امل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً  
وسهرأ وجعل الجيوش محيطة بقرنطرة احاطة السوار بالمصم وجمع الاساطيل  
وبشها في راسي الاندلس وفي فرصة الحجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطـل  
احد وان أطال فلم يغن شيئاً لان سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين  
متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلاً عن أن الذي اصبح  
مقررأ في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة  
الاسلام فيما وراء البحر الى جهة المدة الاسبانية وان الجهاد في هذا  
السنين عيب وهذا الامر كائن لا محالة فتركوا الامور وشأنها وأهل

غرناطة يعملون أنفسهم بعمل وعسى ، ولكن ابتداء الجوع يعضهم بانيابه  
فرأى أبو عبدالله ان انتظار آخر المدة ممالا يكون له نتيجة سوى زيادة  
الضيق والمجاعة ، ولا رجاء في ورود اقل مدد ، ولو كان في حين الامكان  
لظهر ، أو كان في قيد الحياة تنفس ، فشاور الرؤساء فاشاروا بالتسليم قبل  
انقضاء الاجل المضر وب

وفي العشرين من كانون الاول أرسل وزيره يوسف ابن كاشة مع  
الرهائن الملك فرديناند وأصحابه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل  
الهدية فبثه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الامد . وفي  
اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الاسواق  
مناديا بالجهاد مستنفرًا العامة الى الدفاع قائلاً لهم إنه سيرد اليهم نجات من  
البشرات ومن بر العدو وان الامل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبدالله  
والرؤساء خائفون وكثر هذا القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على ابي  
عبد الله ورموه بالخيانة ويبيع الدين والوطن ، شأن كل أمة غلبت وشأن  
أمة اليونان اليوم بمدان قهرتها الدولة المثمانية وجاست عساكر مولانا  
السلطان الاعظم خلال بلادها فقام كثير منها ناقلين على الملك  
جورج وولي عهده ولولا صلاتهما النسبية مع ملوك أوروبا لطردهما  
اليونان أو فتكوا بهما (١)

فثار نحو عشرين الفاً من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا

(١) هذا كان في حرب اليونان الاترك أيام السلطان عبدالحميد ولكن في  
الحرب الاخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على اسرتهم الملوكية وطردوها  
كالماتموني مما حقق كلفنا هذه



الى الاسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمر وايونا كاملا وقسما من الليل بهذه الحركة وإذا بأعصار قد عصف بشدة فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف ،  
وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الحمراء محفرا فابروا له البلى وخاطب الامة قائلا لهم « لا ذنب الا لي ، انا الذي عقلت والدي وجلبت الاعداء على المملكة ، لكن الله قد أخذني بجرائري ، وانزل النعمة كاهرا على رأسي وها أنا ذا الآن قبأت بهذه المأهدة لاجلكم يا قومي ضنا بدمكم أن يراق وباطفالكم أن يموتوا جوعا وبنساءكم وذرائعكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظا لاموالكم وأملاككم وحريةكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك اسعد طالعا من أبي عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم ، واستاتت نومة خطابه ما خشن في صدورهم . فانفضوا إلى امكتهم وفي الحال ارسل ابو عبد الله الى المملوكين يمرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذرا من تجديد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا لدخول الحمراء كما ان اباعبد الله واسرته وحشمه احيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحيهم وزموا حقائقها بما فيها من الذخائر والاعلاق واحضروا لها البغال وقبل أن تبليج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الابواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة الذين لبثوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر وساروا من أحد الاحياء المتنزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية ، أما عائشة الحرة والدة أبي عبد الله فكانت تتجلدة وتجملة ، وأما أرائه وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء ما يقين وخدم

الدمع خدودهم، ولما وصل الموكب الى احدى القرى التي على طريق  
البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة  
من الخيالة والمشاة يصحبها هرناندو دوتالا فيرة مطران أفيلا ودخلت  
من أحد من أبواب المدينة حيا كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان  
أبو عبد الله، قال للمطران المذكور « امض واستلم هذه الحصون التي  
صيرها الله الى يديكم عقابا للمغاربة على أعمالهم » ثم تقدم للملاقة الملكين  
وتقدمت المساكن فدخلت الحمراء وكان فرديناندوايزابلا ينتظران رؤية  
اعلام اسبانية فوق أبراجها فمضت مدة وانظراهما شاخصة فلم يريا شيئا  
وخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفت راية  
الصليب فوق أبراج الحمراء « حيث لم تزل خافقة الى الآن » وبجانبيها  
راية ماري مقوب وعلا هتاف المساكن فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على  
ضفة الشنيل خرا جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الامراء والقواد  
والجند شكرا لله تعالى على ما من به وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير  
حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان  
أبي عبد الله الشقي فلما وقعت العين على العين اراد السلطان الترحل اجلالا  
للملكين فنعاء فهو على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه، فرديناند من ذلك وقيل  
أن الملكة أيضا أتت ان ترسل له يدها وانها احسنت عزاءه وسلمته ابنه  
الذي كان مرهونا فوضعه الى صدره واخذ يقبفه كأن الشقاء زاد من تعلق  
أحدهما بالآخر، ثم سلم ابو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا « هذه  
المفاتيح هي آخر ما بقي من سلاطان العرب في اسبانية خذها فقد اصبح  
لك ملكنا وبتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرافة

التي وعدت بها التي تنتظرها منك » فأجابه فرديناند « لاشك فيما وعدنا به وعسى ان يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عدائنا » ثم دفع فرديناند المقاتيح الى الملكة فدفعتهما الى ابنها البرنس جويان هذا اعطاها لكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولساثر مملكة غرناطة ثم انفصل ابو عبد الله عن المالكين قاصداً لقر الذي عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامرانه نحو المدينة واصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلها يوم تسليمها بل انتظروا ان تتبوها جميع المساكر اما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة رحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه اجل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في ابراجها وقلاعها ومنازلها الضاربة في السماء ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم يفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتاً قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم، ولما بالداخل قد ارتفع فوق القلعة ودري صرت المدافع ليذا نابان المدينة دخلت في حوزة الاسبانيل وانقطعت منها دلالة الاسلام، فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح « الله اكبر » وفسح مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، فجادت بالأساء ببب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك ان تبكي بكاء النساء، ماء جزت أن تدافع عنه دفاع لرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كاشة في تعزيته فلم يقبل قلبه المزاء، وبقيت مؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الاسبانيل تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبوب « بآخر

## تحسرات المغربي

ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خرف الغيلة الى أن تكون  
عساكره احتلت المواقع جميعها ارسل مركيز فيلانة وكنت، تنديلة بثلاثة  
آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالامير سيدي يحيى الذي سماه  
النصارى بمدتصره بالدون بدرو دو غرناطة وعين للنظر في أمور المغاربة  
وبابنه الذي أطلقوا عليه اسم الدون الونزوا دو غرناطة وكان أميراً الاسطول  
فتبوا جميع الابراج ونشروا فوقها الاعلام الاسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا في سادس كانون الثاني وكان الاحتفال  
بدخولهما باهراً وظلا سائرين الى مسجد غرناطة الاعظم فخلوا كنيسة  
وأقيمت الصلاة شكرياً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الامراء  
والنواد وعظماء الاسبانياول على الملكين يتقبلون ايديهما ويهنئونهم على هذه  
النعمة التي اختصها الله بها وكرمها باحرازها وبعد الخروج من الكنيسة  
سار الى الحمراء الموصوفة فالقيا معافوق، اكان يتصور انها من اتقان الصنعة ونخامة  
البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من  
الزخرفة التي تنقطع من دونها الايدي، والتألق البائع حده، سواء في الابهاء  
والمقاصير، أو النوافر والصهاريج، أو المداخل والتماثيل، إذ يتحير الناظر  
ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسواري كأنها مفرغة في أحسن  
انقواب، وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب، فاتخذ الملكان لها عرشا  
فيها وجلسا لتهنئة حيث جاء أهالي غرناطة والبشرات يقدمون لها  
واجب الاجلال ويقبلون ايديها صاغرين، ووجد في غرناطة يوم دخول  
الملكين اليها خمسمائة أسير من الاسبانياول

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشرين سنة لم تفتر فيها الوقائع، ولا نشفت الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم حبل الاسلام في بلاد الاندلس، بعد أن استتبت دولة فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة، والله وارث الارض ومن عليها

وهناك ما قال صاحب نفح الطيب عن الوقائع المتقدمة الى حين التسليم نقله ببعض اختصار تابعا لما تقدم من روايته

« ثم بعث ( أي الطاغية ) في السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الجراء كما يمكنه عمه من القلاع ويكون تحت إيلته ويعطيه مالا جزيا على ذلك وأي بلاد شاء من الاندلس يكون فيها تحت حكمه قالوا واطمعه صاحب غرناطة في ذلك فخرج العدو في محلاته لقبض الجراء والاستيلاء على غرناطة وهذا سر بين السلطانين فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والاجناد والفقهاء والخاصة والعامة واخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه وليس الا احدى خصائين الدخول في طاعته أو القتل فاتفق الرأي على الجهاد ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة وطلب من أهلها الدخول في طاعته والافساد زروعهم فاعلنوا بالخلافة فافسد الزرع وذلك في رجب سنة ٩٥ ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الاياس منهم ذلك الوقت وهدم بعض حصون واصلاح برج همدان والملاحاة وشحنها بما ينبغي ثم رجع الى بلاده وعند انجرافه نزل صاحب غرناطة الى بعض الحصون التي في يد النصاري

ففتحها عنوة وقتل من فيها من النصاري واسكنها المسلمين ورجع لغرناطة ثم أعمل الرحلة الى البشرات في رجب المذكور فاخذ بعض القرى وهرب منها من النصاري والمرادين أصحابهم ثم أتى حصن اندرش فتمكن منه واطاعته البشرات وقامت دعوة الاسلام بها وخرجوا عن ذمة النصاري وهناك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملته وافرة فقصدهم في شعبان من غرناطة واستقر عنده بالمرية وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات الى برجه ثم تحرك عمه مع النصاري الى اندرش فاخذوها لرمضان وخرج صاحب غرناطة اقريبة همدان وكان برجها العظيم مشحونا فحاصره وتقب أهل غرناطة البرج الأول والثاني والثالث ثم البرج الكبير وهو القلعة وأسروا من كان بها وهم ثمانون ومائة واحتوا على ما هنالك من عدة وآلات حرب وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب فلما وصل حصن شلوبانية اخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الامداد من مالقة بجرأ فلم تقدر على شيء وضيقوا بالقلعة فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحملته لمرج غرناطة فارتحل صاحب غرناطة عن شلوبانية وجاء غرناطة ثلاث شوال بوصول العدو الى المرج ومعه المرتدون والمدجنون وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج الملاحة وبرج آخر وتوجه الى وادي آش فاخرج المسلمين منها وهدم قلعة اندرش ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بادر بالجواز ابر العدو بجاز الى وهران ثم اتهمسان واستقر بها وبها نسله الى الان يعرفون ببني سلطان الاندلس

ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها واخذها واسر من

كان بها من النصارى . وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وافسد الزرع ، دوخ الارض وهدم القرى وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف المهمة الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة اشهر غير ان النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شابر الى آخره يمكن فصل الشتاء ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجلب وقل الطعام واشتد الغلاء والتولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب ضاق الحال وعظم الخطب وذلك أول عام ٨٩٧ وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دور الحرب فقر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من اشار اليه من أهل العلم وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة وتكلموا في هذا المعنى وان العدو يزداد دمه كل يوم ونحى لأمم دنا وكان ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء نخاب الظن وبني وأسس وأقام وقرب منا ، فانظروا لانفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب اخف الضررين وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشرطوا ارادوها وزادوا أشياء على ما كان في صالح وادي آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط ، وذكروا أن رؤساء اجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل ثم عقدت بينهم لوثائق

على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا  
 البيعة لصاحب قشتالة فبذلها منهم ونزل سلطان غرناطة بن الحمراء  
 « وفي ثاني ربيع الاول من سنة ٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها  
 بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مائة من الأعيان رهنا خوف الغدر  
 وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الدين والغير والكبير في النفس والاهل  
 والمال وابتداء الناس في اماكنهم ودورهم ورياعهم وعقارهم ومنعها إقامة شريعتهم  
 على ما كانت عليه ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم — وأن تبقى المساجد  
 كما كانت والاقواف كذلك وان لا يدخل النصارى دار مسلم ولا ينصبوا  
 احداً — وأن لا يولى على المسلمين نصراني ولا يهودي — وان يُفك جميع من  
 أسر في غرناطة من حيث كانوا خصوصا اعيانا نصرا عليهم ، ومن هرب  
 من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل ليه للملك ولا لسواه والسلطان  
 يدفع ثمنه للملكه ومن أراد الجوز لا بدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت  
 في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر  
 مالهم وكرام — وأن لا يخذ احد بدينب غيره — وأن لا يقهر من أسلم على  
 الرجوع فنصارى — وان من تنصر من المسلمين يوقف يأس وعرض له حاكم  
 من المسلمين آخر من النصارى فان ابي الرجوع الى الاسلام تمادى على  
 ما اراد ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ، لا يؤخذ ما سلب من  
 النصارى أيام العداوة ولا يكف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولا يسفر  
 لجهة من الجهات — ولا يزيدون على الثغرم المعادة وترفع عنهم جميع المظالم  
 المحيثة ولا يظلم نصراني للـ سور ، ولا يتطلم على دور المسلمين ، ولا يدخل  
 مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى — في نفسه وماله ولا يحمل



علامة كما يجعل اليهود (١)، أهل الدخن — ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومرضحات منهم يعاقب، ويتركون من المقام سنين معلومة وإن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خطيده. وامثال هذا مما تركنا ذكره. وبعد انبراه ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكما ومقدمين بالبلد. ولما سلم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلاح. شملهم حكمه على هذه شروط ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج اليه في الحمراء واصلاح سورها وصار يختلف اليها نهاراً ويبيت بمحلاته ليلاً الى أن اطمأن من خوف العدو فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يرومه انتهى

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الاسبانيول انقطع السلطان ابو عبد الله بن الأحمر في ارضه بوادي رشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذي لزم بابيه فاقام مدة هناك ذاق اثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط، لكن الامر لم يطر به حتى عاد يذكر ماضى ملكه وعائلته. ويحى الى غابر حمرائه، فتثور فيه الاشجار، تستشعر فؤاده الاحزان. في هائل تلك المدة لم يدع الملكان وسيلة الا استعملوها لاجل صباه عن دين آباءه وادخاله في النصرانية فاختفت مساعيهم، وبقي لهما مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاص مسلمي لاندلس تحت رايته والتمافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كماشة سراً في ابتياع اراضي مولاه بثمانية آلاف دوكان الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع (١) فمن الاصل: ولا يحمل علامة الخ. او. ولا يحمل له علامة كما يجعل لليهود ادهم مصححة

بدون علم الى عبدالله وبدون أن يمّتنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند  
الوكلة بن نقده المال فحمله البغال وسار الى الدشرات فلما وصل بين يدي  
مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له

« رأيت يا مولاي أن بقالك هذا معرض للخطر فان المغاربة أهل  
اقدام وثار، وحيلة أثار، ولا يبعد أن يشوروا صرة رافعين رايتك وتعزى  
ثورتهم اليك فتقع في المقيم المقعد، ومادمت في هذه البلاد يخطر في بالك  
انك كنز أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة، لذلك رأيت  
الانجح في حقك بيع اراضيك وهو ذا ثمنها اليك يمكن لك أن تتملك به  
اراضي واسعة جداً وراء البحر»

فلما سمع أبو عبدالله هذه الكلمات استشاط غضباً واختلط سيفه  
وكاد يضرب به رأس وزيره فاسرع هذا الى الفرار من حضرته وبقي أبو  
عبدالله وحده يتأمل في هذه المسئلة ويقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب  
مابه وعاد اليه سكونه واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة  
فرديناند في زياله هناك وان الحق قد يكون مع وزيره يوسف، فاجمع  
الرحلة وشده حقابه، وجمع أمواله وكنوزه وتحمل الى أحد الثغور حيث  
شيعه كثير من قومه الذين له بالتسهيل. فلما ركب السفين وغابت عن  
عينيه حبال غرناطة انهملت منها العبرات، تصاعدت من صدره الزفرات،  
وتزل بمليلة ومنها سار الى فاس نزلاً على سلطانها متلفها على ماسلف، وفي  
بعض تواريخ لا فرنج انه توفي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة  
١٥٣٦ اي بعد ٤٤ حولاً من فراقه اسبانية ولذلك قال فيه أحد المؤرخين انه قتل في  
سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد ان جبن عن ان يقتل في الدفاع عن سبيل مملكته

واما النفع فيقول في نهاية أمره ما يأتي « ثم احتال ( أي الطاغية ) في ارتحاله ( أي أبي عبد الله ) لبر العدو واطهر ان ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لاحد ان يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث اراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل طلب الجواز لناحية مراکش فلم يسف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء وبلاء »

ويقول بعد ذلك « والساطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحييت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الفتي بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، أو هو الخلع الوافد على الاصبغ المرينية بفاس ، العائد منها للملك وأرفع الصنائع لرحمانية العاطرة الانفاس . وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان اسمعيل قاتل سلطان النصاري دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصاري الخزرجي رحمه الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه ، متلفعا ، على ما خلفه وبني بفاس بعض قصور على طريق بنيان الاندلس رأيتها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء انصلي خارج باب الشريعة وخلف

ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعقب هذا السلطان إلى الآن بفاس وعهدي بذريته بفاس إلى الآن سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويمدون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم انتهى

وأما قوله في رسالته إلى سلطان فاس التي أشأها له أبو عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي وهو « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من أمانه المؤكد به خطه بإيمانه ما يقنع النفس ويكفيها، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة للصفر، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين الإيمان والكفر » إلى آخر السجع — فهو من قبيل التغالي والتعزز إذ لولا احتيال فرديناند عليه ما فارق أوطانه والله أعلم

( حاك مسلمي الاندلس فيها )

بعد ذهاب ملكهم

ولنذكر حالة بقية مسلمي الاندلس بعد ذهاب ملكهم فيها فنقول . ورد في تاريخ « الاسلام في اسبانية » تأليف ستانلي لانبول ما حصله « لأن آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة لم يكن بآخر حر أنفاس المسلمين في تلك الديار، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء، وإن أسقف غرناطة الأول هرناندو دوتلافيرم كان رجلا حليما عادلا أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور عليهم تعلم العربي وكان يصلي به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة إلى النصرانية. قيل إن ثلاثة آلاف تنصروا في يوم واحد إلا أن الكردينال كسيميناس الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال إلى العنف والاكراذ وأساء معاملة

المسلمين وحمل للملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهما في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وأكراههم على التنصر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كامنهم، وفي إحدى المرات حبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتخصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم ان يسيل بحمد الكردينال كسيميناس

إلا ان المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل راض البيازين بالسكينة والانس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم، ثقلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم وأعاد طائر الامن الى وكره وحجب الدماء يومئذ، على أن كسيمينيس المشهور لم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على إحدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بأهم كانوا يذكرون المسلمين بأهم سلالة النصراني في الاصل فأقلمت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبد الحقب وأذيق المسلمون العذاب اشكالا وألوانا ففضل عامتهم فراق دينهم على مراقب طائفتهم الا ان شعلة من الحمية الاسلامية بقيت تلمع في جبال البشترات حيث حتمهم أوعارهم من مضطهادهم

وأول جيش ارسل اليهم تحت قيادة الدون الونزو دو اغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت طنديلة على قوجار وهدم كونت سرين جاما على جماعة النجاوا اليه من المسلمين بنسائهم وبأطفالهم وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال

فمن بقي حيا من الثوار فر الى مراکش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة  
الاولى في الجبال

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون  
المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فإذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد  
ماء المعمودية وإذا تزوج أحد الموريسك (لقب المتنصرة من المغاربة) أجرى  
القسيس عقداً لا كليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية  
وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونوهم على اختطاف  
أولاد النصاري ويأتون غير ذلك فلو كانت تحت حكومة عاقلة قريمة ترعى  
عمومها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق  
والكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا عدل وكانوا يزدادون  
بتماذي الايام شراً، وثابت الاوامر ان صدرت باكره المغاربة على ترك  
ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانية وحظر  
عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداء بغالبيتهم في احتمال الاقدار، ثم منعوهم من  
التكلم بالعربية وصدر الامر بأن لا يتكلموا بغير الاسبانية، بأن يغيروا  
اسماءهم ويسيروا سيرداسبانية ويسموا أنفسهم اسبانية، وكان تصديق  
الامبراطور شر لكان هذا الامر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر  
من اعتماده اجراؤه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف اموال  
الموسرين من المغاربة وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجرب هذه المسألة ولما  
صار الامر الى فيايب الثاني شدد في انفاذ الاوامر بحق الموريسك وسنة  
١٥٦٧ عزز الامر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لاجل  
منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بأخذ يهدم حمامات الحمراء

للبيدعة فالطرائق التي أخذوا بها لتكثير أحوال تلك الامة هي اشد من ان  
يحتملها أى قبيل كان ، دع ساذن المنصور وعبد الرحمن وابناء سراج ،  
ولذلك لم يطل الزمن حتى استصار انشروا واشتعلت الفتنة وثار فرج ابن  
فرج من نسل بنى سراج بجماعة بن ذوى الحمية من غرناطة قاصداً الجبال  
قبل أن تتمكنت المامية من تمقيهم ونودت بهرندو دو فلور من نسل  
خلفاء قرطبة ، اسكا على الاندلس تحت اسم محمد بن أمية رعت الثورة في  
اسبوع واحد كل انحاء جبال البشراة ووقع ذلك سنة ١٥٦٨

ولما كانت هذه الجبال من أصعب نصارى الارض مرتقى وأوعرها  
مسلكا ، كان تدوين سكانها من أصعب ادسور منالا ، والفتنة فيها بعيدة  
المرمى ، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافل تاريخها بحوادث لا تحصى  
من القتل والنذر والتعذيب والاستباحة والاستيال من الجانبين ، لكنه  
ايضا حافل بوقائع يندر في تاريخ الفرومية وكتب الحماسة الظفر بامثالها  
وتبقى على صفحات السير نغمة للثروق واللامم وكانت المغاربة هناك في  
موطنهم الاخير والموقف الذي يحولون فيه ادراك انشأ على نحو مئة سنة  
قضوها في البلاء العظيم ، والهون الذي ليس له نظير ، فهبوا جميعا منادين  
باخذ انشاروا اقتضاء الاوتار قرية بعد قرية . وهدموا كنائس وأهانوا ما فيها  
وفتكوا بالنسيدين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم ، واعتصم  
الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعا شديدا . ولازم كيز مونتيجارة  
قائداً في غرناطة فعمد الى المسالة وأخذ بالملاية . كادت لوعة تنطفيء لولا  
ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في يدس البيازين من المغاربة  
قبل انذبهم وقع بغير علم المريكز ، لكن الموريسس لم يبلوا العذر ونشروا

لواء اشورة، وصار ابن امية ميراً بالفعل على جميع جهات البشرات، الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن ابوه

فارسلت دولة اسبانية لتدوينخ الثوار الدون جون الاوستري اخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ واتى من الفظائع ما بخلت بانداده كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عيذه، وأحرق المساكن ودمر البلاد، وكانت علامته « لاهوادة » وانتهى الامر باذعان المورييسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبدالله بن ابوه الكرة، فاحتال الاسبانيول حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوباً فوق احد ابواب غرناطة ثلاثين سنة. وأخس الاسبانيول في قمم الثورة بما افدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب هناك خلفاً كثيراً، وخنق الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا مماليك وعبداناً ونفي جملة منهم، فاخذ عددهم يتناقص. ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين البائسين الذين أخذوا منهم في معمة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والباقون أخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً فمنهم من أجاز إلى بر العدو وطافوا هناك سائين لاجل قوتهم الضروري ومنهم من لجأ إلى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم براً وترحيباً واحتاج اليهم هنري الرابع لاجل دسائسه في مملكة اسبانية ولم ينته اخراجهم تماماً إلى سنة ١٦١٠ إذ وقع الجلاء الاخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الاسلام ثمانية



قرون. ويقال إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة إلى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا لآخر مرة نحو نصف مليون .

واما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم ، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة مع أن اسبانية ، كانت مركز المدنية ومبعث اشعة العلم قرنتا ، وقلما استفادت بقعة أوروبية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد ، فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلبت نخسها ، وان فضل مسلمي الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الامة في سلم الاجتماع ، بعد أن خلت ديارها من الاسلام انتهى كلامه ملخصا

واستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل يش لك درجة هذه الحقيقة وهو أن لملك حول مدينة غرناطة ضياعا واسعة ومزارع التزموا بيعها سنة ١٥٩١ بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلتها ، مع أن هذه البقاع كانت امهد العرب حداثق ، غناء وغياضا ، ذات افياء وموارد ثروة ورخاء وقال واشنطون ارفن في تاريخه لفتح غرناطة مامعناه ملخصا : انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليك في حمل المسلمين هناك على النصرانية ما أياس مغاربة الجبال المتشدين في دينهم فثاروا برؤساء الدين وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدعاة في مدينة دارين وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والاولاد قتلوهما قيصا بالعصي وشدخا بالحجارة وإلهم أحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى

من هذه القعدة بان اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس وساروا الى عمري المغاربة  
يخربون ويميثون ، واعتصموا غاربة بالجلال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها  
لكن وسطها كان في جبل بر يجه المصاقب للبحر ، فلما اتصل الخبر بالملك  
فرديناند أصدر أوامره بنقل الغاربة الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة  
وأعطى الامر سرا بان من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى  
تلك الامة بالاثام الشديدة ، وزودوا بغلار معه جيش وهو الذي قضى  
معظم شبابه في قتال الغاربة ، فالتربى ن بلادهم حتى هرع جملة وافرة  
منهم الى رندة للدخول في النصرانية وجر الباقون منهم تحت قيادة فارس  
اسمه المهري سائقين نساءهم ، أطاعهم الى حيث يمتد السلوك من تلك  
الاوعار ورابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فالتقى  
الجمعان أمام بلدة مونارد وانتشب القتال فيقال ان الدرن الوزو مع ابنه  
الدون بطرو وثلاثة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فازاحوهم  
وتلاحقوا في الحزينة باتباعهم الجبل ينسحبون وينهبون ولما اتلأت أيديهم  
بالغنائم كر عليهم المهري بمائة من أبطاله دعوات الصرخة فارتجت لها  
جوانب الاودية ، دعر الاسبانيول فتداعروا للفرار وثبت الوزو في  
مكانه يحرقهم ويضرم من شدة شام فحبر دمه جنة ولى الاكثرون  
ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره ابن  
الوزو فامره أبوه بالرجوع فاصر على البقاء بجانب أبيه فأمر اتباعه بجمعه  
الى معسكر كونت أورينه فاحتلوه مشددا جراحا ولبث الدون بامثتين  
من رجاله يناضلون حتى فتوا عن آخرهم  
وتحصن الدون بين صخرين يتقي بهما فبحر به المهري فقصده

واستحر الصراع وألح الفهري وطعم في قرنه وكانا متمائلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الوزو بخصمه « لا تحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الوزو دواغيلار » فاجابه المغربي « انت كنت انت الدون الوزو فاعلم اننى أنا الفهري » ثم كوره حريعا ومات بموته مثال الفراسة الاسبانيولية وانموذج الغشمشمية في الاندلس واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفوا حتى لاح الصباح فاجلى المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دوراميز المدريدى الذى كان قائد المدفعية الاكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الوزو دواغيلار انسى الاحزان جميعها وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بمضى المغاربة ارواحهم بخازوا الى افريقية، واحتتمى آخرون بالضرانية، وأما أهل البلد الذى قتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة المبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتي جثة من الاسبانيول فيها أجساد عدد من الامراء والكبراء فحملوها الى قرطبة في مشهد حافل، بين مدام كالسحاب الهواطل، ردفن في كنيسة مار هيبوليتو، وندبه الاسبانيول دهرأ طويلا » انتهى كلامه بمجمل

• • •

وذكر المؤرخ الفرنسي الشهير فيكتور دروى في تاريخه ما يأتى ملخصا « ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب وكان لذلك العميد سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعمل فرديناند علي

توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزى إلى الدولة فانشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المنتصرين ظاهراً الباقيين في الباطن أمراء الحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كالبدع الدينية أيضاً

وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد ان سلبوهم أموالهم وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لملك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ ألف (قلت منهم جماعة وافرة بأزمير وأقوام بالاستانة هاجروا اليهما في تلك الكائنة ومنذ خمس سنين انفقوا بعيد مضي الاربعمئة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية أكثر وافيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين) والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذب به أحد من العالمين، وسنة ١٤٩٩ صدر أمر بسلب المغاربة حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي في سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدةها الدينية لكنها خسرت صناعاتها وتجارتها اللتين كانت العرب واليهود أهم عمالها

وذكر مرة عند كلامه على شر لكان انه أكل مقصد فرديناند فأكره مغاربة بلنسية على التنصر وأعمل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم وقال بمناسبة فيليب الثاني انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اتزموا الثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذاناً بالخروج وكان يمكنهم بما أمسكوه من مخائق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد

معمونة من اخوانهم أهل افريقية ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعته ولم  
تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم أرقاء

\*

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة كلام المقرري في هذه الوقائع الاخيرة  
وهو ببعض تصرف « ثم ان النصارى نكثوا اليهود ونقضوا الشروط  
عروة عروة بان ان آل الحال لهم المسلمين على النصر سنة أربع وتسعمائة  
بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القيسيين كتبوا  
على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للنصرانية ففعلوا ذلك  
وتكلم الناس ولا قوة لهم ثم تددوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك  
كان نصرانيا فأسلم فلترجع نصرانيا، ولما خش هذا الامر قام أهل البيازين  
على الحكم وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر قالوا ان الحكم خرج بن السلطان  
ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان يتنصر وبالجمل فأنهم تنصروا عن  
آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم  
ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلقيق واندرش وغيرها فجمع لهم  
العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم بتهلا وسبيا، الا ما كان من جبل بلانقة فان  
الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة  
( هو النوزو دواغيلار ) وأخرجوا على الامان إلى فاس بميالههم وما خف من  
أموالهم دون الذخائر

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في  
خفية ويصلي فساد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم  
كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها

من الحديد و قافوا في بعض الجبال على النصاري مراراً ولم يقبض الله تعالى لهم  
ناصر آلى ان كان اخراج النصاري اياهم بهذا المصير القريب أعوام (١) سبعة  
عشر و ألف فخرجت ألوف بفارس و ألوف آخر بتلمسان من وهران و جمهورهم  
خرج بتونس فتسلط عليهم الاعداب و من لا يخشى الله تعالى في الطرقات  
و نهبوا أموالهم و هذا ببلاد تلمسان و فاس و نجا القليل من هذه المصرة

و أما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم و هم لهذا العهد عمروا  
قراها الحالية و بلادها و كذلك بتطاون و سلا و فيجة الجزائر و لما استخدم  
سلطان المغرب الاقصى منهم مسكر أجرا و سكر و اسلا كان منهم من الجهاد  
في البحر ما هو مشهور الآن و حصنوا قلعة سلا و بنوا بها القصور و الحمامات  
و هم الآن بهذا الحال و وصل منهم جماعة الى القسطنطينية العظمى و الى مصر  
و الشام و غيرها من بلاد الاسلام و هم لهذا العهد على ما وصف ، والله و ارث  
الارض و من عليها و هو خير الوارثين » انتهى

قلت و أشهر الائمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة و رحلوا  
فيمن رحل الى الشرق قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الازرق  
صاحب التآليف الجليلة منها (بدائم السلك في طبائع الملك) حذا فيهما حذو ابن  
خلدون و قد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه و استأجره عزائم السلطان  
قايتباي لاسترجاع الاندلس قال المقرئ فكان كمن يطلب بيض الانوق ثم  
حجج و رجع الى مصر و جدد الكلام في غرضه فدافع و دعه عن مصر بقضاء القضاة  
في بيت المقدس فتولاه بنزاهة و صيانة وله نظم بديع فنه قوله

تأملت من حسن الربيع نصارة      و قد غردت فرق الغصون البابل  
حكمت في غصون الدوح قسا فصاحة      لتعلم ان النبت في الروض باقل

## وقوله

تعجبت من يانم الورد في سنى وجنة نبتها بارض  
ولم لا يرى وردها يانما وقد سال من فوقها العارض  
ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غرناطة

مشوق بخيمات الاحبة مولع تذكرك نبرد وتغريه لعل  
مواضعكم يالا ثمين على الهوى فلم يبق للسلواز في القلب موضع  
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة و من لي بجفن تنهمي منه أدمع  
رويدك قارب للطائف موضعا وخل الذي من شره يتوقع  
وصبراً فان الصبر خير غنيمة ويا فوز من قد كان للصبر يرجع  
وبت واثقا باللطف من خير راحم فالطافه من لمحة العين أسرع  
وان جاء خطب فانتظر فرجاله فسوف تراه في غد عندك يرفع  
وكن راجعاً لله في كل حالة فليس لنا الا الى الله مرجع  
أما لرجوع الى الله فهو أحق الحقائق وأما انه لا بد من انكشاف الخطوب  
فهذا خطب الاندلس لم ينكشف إلا بتقلص ظل الاسلام من تلك الديار،  
وطالما ارتقب أهلها اللطائف فلم تطل عليهم إلا البلياً الكبار، حتى آل  
أمرهم الى الحريق بالنار ذلك بقدر من الله (١) إنا لله وانا اليه راجعون

(١) تكرر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فان القدر  
والمقدار أن تكون الوقائم بقدر اسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله  
المطرودة في الخلق - وأما ما تقدم من الاعتذار عن الخضوع للاعداء بالقدر  
وكونه خضوعاً له لا لهم فانما يصح في حال المعجز التام عن كل عمل في جهادهم  
ولم يكن كل اولئك المعتذرين بالقدر كذلك، ولا سيما ذلك السلطان الافين الظالم  
القياس فيجب ان يعلم المسلم ان بدعة الاعتذار بالقدر عن المعاصي وعن القيام =

ثم ان الاندلسيين المطرودين النازلين ببر العدوة انتقموا من الاسبانيول  
ومن طوائف الفرنج عما اذيقوه من العذاب بمجهاد البحر الذي أشار اليه  
المقري حيث انهم انتظموا في سلاك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد  
المغرب أيام كان أهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول اوروبا بأسرها  
تدفع لهم الجزية وتواصل الى والي الجزائر الهدايا دفعا لئلا السفن المغربية  
عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصا الاندلسيين منهم السبل البحرية  
على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث الذي أتوه على  
شواطئ اوروبا لاسيما اسبانية ما ألف له الاوروبيون تواريخ خاصة به  
وهو يدل على استحكام الاحن في صدورهم وفي الواقع لانرى عداوة طال  
أمرها وتوقدت جمرها كالعداوة التي بين المغاربة والاسبانيول



وقد اتفق الكتاب على أن الاندلسيين الجائين عن بلادهم الى بر العدوة  
احتملوا معهم على أيديهم صناعة الانداس وفي صدرهم هم أهلها، ونقلوا  
ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث ألغوا عصا تسيارهم، فاخذت

= بما يجب من حقوق الامة العامة كالجهاد وعن الاستسلام للأمراض والمصائب  
وعدم الاهتمام بدفعها بالادوية مثلا - هي اقتل البدع لهذه الامة وقد توسل  
بها بعض المستعمرين لاقتناع الشعوب الاسلامية الجاهلية بالرضا بسلطة الاجنبي  
بحجة أنها بقدر الله ، وانما الواجب مقاومة الاقدار بالاقدار كما قال الخليفة  
الثاني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين امر بعدم دخول الشام لوجود  
الوباء فيها فقيل له أتقر من قدر الله ؟ ( قال ) نعم من قدر الله الى قدر الله . وقد  
كان للذي سأله سؤال الانكار أبو عبيدة (رض) فقال له : لو غيرك قالها ؟  
وكتبه مصحح الطبع .



عنهم فنوني، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فواش، وكانوا مع  
رثاءة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الأيدي إلا من زهيد المتاع يمثلون  
حيثما حلوا قطعة من الأندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معاشهم وسائر  
شؤونهم وما أخذهم مسحة أندلسية تمتاز بالذوق، وتدل على الإصالة في  
التمدن، حتى أن الكاتب فليكس دوبوا الأفرنسي الذي ساح إلى أواسط  
أفريقية في العام المنصرم عثر على قبيل في جوار تنبكتو يقال لهم الأندلوز  
حقق بما أخذه من أخبار أصول تلك القبائل أنهم من جالية الأندلس كما  
يدل عليهم اسمهم، وذكر أنهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة في  
المدنية من القبائل المجاورة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة  
والنقش — إلى غير ذلك، والظاهر أنهم مترامون إلى السودان عن  
مراكش وسبجان من بيده تصاريف الأمور

## خاتمة

لا تزال آثار العرب حية في إسبانية تشهد بفضل هذه الأمة وتنطق  
بامتزاج الإسلام مع الحضارة، وإن كثيراً من الأماكن في تلك البلاد  
خصوصاً غرناطة وقرطبة وإشبيلية بل بالنسبة وطليغلة قد يظن الداخل  
إليها أن المسلمين لم يغادروها إلا منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من  
الأوضاع العربية في البناء بالهندسة الإسبانية كما اختلط اللسان  
الإسباني، لي بالعربي وتولدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية سرمد منها  
الفاضل المحقق أحمد أفندي زكي (١) جمهوراً في رحلته إلى الأندلس المنشورة

---

(١) هو الآن الأستاذ العلامة أحمد زكي باشا المصري

## في جريدة الاهرام

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن اسبانية كانت مجاز العلم من الشرق الى الغرب ومبعث أشعه العرفان أفاضها العرب فاستنارت بها اوروبا واهتدت بها طويلا وقد تركوا هنالك آثارا في الصناعة والزراعة والبناء رانخم ما بقي عنهم منها مبانئهم التي لا تزال الى الآن بهجة السياح ودهشة الناظرين ، على انهم في أيامهم لم يتركوا فرعا من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدن الا ضربوا فيها بسهم وكانوا فيها القدوة لغيرهم فاشئت من طب وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة ورصد وحساب وجغرافية .

ومن أشبونة خرج الاخوة المغرورون هائمين في بحر الظلمات طمعا في الوصول الى بروراءه يعدون اليه على ما ذكر الشريف الادريسي في كتابه ( نزهة المشتاق ، الى اختراق الآفاق ) ونشره هذا العاجز في الجرائد اجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا ، وكانت عندهم مباديء في الفنون العسكرية والملاحة وعناية جزيلة بخزائن الكتب وحمل العلم وتأليف الاندية العلمية واختراع الآلات وهم الذين أدخلوا الى اوربا الكاغد والبارود من الصناعة ، على ما أدخلوه من النبات والشجر الجديد في الزراعة ، وبالأجمال فكانوا حملة العلم وانموذج الامم المتمدنة في القرون الوسطى ، وكانت اسبانية لهمدم الجنة الله في أرضه ، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه ، وغابت شمسها من بعدهم ، وأوحشت لفقدهم

وقد ذكر لافاله على وجه الاجمال مدينة الاسلام باسبانية وأتى على

بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والفراس والبناء، ووصف قصر اشبيلية  
وجراء غرناطة وجامع قرطبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية  
والزخرف الشرقي، ثم تكلم على أسلحة الاندلسيين وقرر أن العرب هم  
أول من استعمل المدافع النارية في اوربا وانهم هم الذين هدوا الاوروبيين  
الى صناعة البارود وعرفوهم بصنعة اخرى أشد تأثيراً على الاجتماع  
الانساني وهي عمل الورق، قال وانهم في جميع الفنون فاو المسيحيين وبلغوا  
الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان اقرانهم منافسين في حنادس  
الجهالة والبربرية، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في  
المجالس، أشداء في المآزق، فان قيل فان كانت الحال على ما وصفت فلماذا  
سقطوا...؟ قلنا انهم ظلوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشقاق  
الذي كان يمزقهم كل ممزق، وانه أعوزهم روح الوثام والاتحاد الذي به  
قوة الامم وفلاحها

ولا أتعرض الآن لتفصيل ما انطوي تحت هذه التضاعيف مما  
يستغرق المجلدات الكبار لا سيما وإن ذيل هذه الرواية قد طال طولا  
أخاف عليه انتقاد القراء، والسبب فيه اني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل  
طبعه وانما كنت أوله وأنشره متتابعا، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء  
أعتقد مهمما مما وصلت الى الاطلاع عليه يندى القاصرة اياتي كتابا مستوفي  
في بابه، ويكون قد نفع الغليل في هذا السبيل، وجمعت أكثر اعتمادي في  
متأخر المدة على الكاتب الانكليزي اللغة واشنطون ارفن مع المقابلة بينه  
وبين غيره ومزاوجة النقل الا فرنجي دائما مع الرواية العربية من نفع الطيب  
إلي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا

يُبعدني ان حقت أشياء فوق ما كتبت بهذا الذيل مما يتعلق بأخبار  
غردانة أضفت الى هذا الكتاب في الطبعة التالية

ولا ينس القاريء اللبيب اني نيهته الى غرضي في مقدمة الذيل وهو  
التنقيب عن أخبار الحقبة لآخرة من نزول المسلمين بملك البلاد لان  
هذه القطعة هي أشد الأقسام احتياجا الى هذا المعزز من تأريخهم، واني  
لا أستحسن مذهب الكتابة فيما طال تعاور الأقلام اياه بلغة قوم، وصار  
التأليف فيه زيادة أعداد، وإضاعة مداد

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلا عن ندوره بالعربي لمن أجدر  
المطالعات بالوع لما جاء فيه من سير الأبطال، وأوصاف مرآطن النزال، وما  
تبطنه من غريب الوقائم الحاكية لموضوع القصص ومولود الخيال، مما  
لا يمتري قارئه الملل،

ولا أكنم القاريء الذي هو خليف بان لا يخفى عليه ذلك بشفوف  
بصره ولطف حسه أن الأمر غير خال في هذا الاملاء أيضا من ترعة  
جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، مما  
تستشعر فيه مرساة هذه النفس العظيمة لسر، البعده، هوي الغرض،  
الغريبة شكل الهم، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي السائح  
في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الاقرب فالاقرب، وقد  
طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جذبه والميل للاتصال بابناء أبيه  
فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع لما يحس من  
أن اقرب أنواع الدم الى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحن اليهم،  
ويحنو عليهم، ويتألم لآلمهم، ويمتد بزهم، وتراد اذا غابت أشخاصهم استأنس

بآثارهم بعد الاعيان، وارتاح الى مواطنهم ورغب في الدوس على مواطنيهم  
أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذي يصاب بعزير أو بذى قرابة  
يختلف الى قبره ، يشفي بالبكاء عنده حرارة صدره ، واذظفر بقطعة من  
ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى في قيمتها ،  
وجعلها - دار أذه - في خلوات نفسه ، وروح حياته ، في منتبذ مناجاته ،  
وبناء على هذه القاعدة أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين ، وتطلعوا بغريزة  
فيهم الى معرفة سير السالفين ، ووقفوا على الاطلال الدوارس ، وبكوا على  
الدمن البوالي ، كأنما يجدون عندها همودهم مع آبائهم ، ويشدون لديها  
معهم عروة وفائهم .

ومن هذا المأخذ انبعث الشعور بالميل الى احتذائهم ومحاكاةهم  
في سيرهم ، واقتصاص الخافي والباقي من أثرهم ، تصديقا لقول نبينا  
صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى  
لو دخلوا حجرة ضب لدخلتموه» (١) فياليتنا تتبع الآن سنن من  
قبلنا ونقتدي بسلفنا ونبني بناء اوائدا ، ونعتبر بحمراء غرناطينا ، وخضرنا

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتتمته أن الصحابة (رض) سألوه (ص)  
عن قبلهم فقالوا يا رسول الله والنصارى ؟ قال « فن ؟ » وفي رواية أنهم  
فارس والروم وكلتاها بمعنى والمراد أنهم بعد الاهتداء بالاسلام والاعتصام به  
سيبتدعون في دينهم ويتفرقون شيئا بعد اتحادهم كما فعل من قبلهم من الامم  
المجاورة لهم فيحل بهم من عقاب الله ما حل بأولئك ، وكذلك وقع ، وما حل  
بهم في الاندلس من الشراهد عليه . ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من  
طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم فتمنى لو اتبعوا سنن سلفهم الصالح فيما  
أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم . وكتبه مصحح الطبع

دمنا ، ونأمل في سالف عزها وسابق أمرها ونجتنب الفرقة التي آلت إلى  
فقدائها ، ونسأل رسومها عمامضى من نعيمها ، فهي رسوم ان لم تجبك حواراً ،  
اجابتك اعتباراً ، فلا يكون دائماً من شأننا ان نقبأهى بمجد الاوائل  
ونفاخر بالعظم الرميم ، دون أن تقتص اثر الآباء ونحبي ذكر القديم ، ولا  
يبقى من نصيبنا في المجد إلا حديث سمر ، ومجرد ذكر ، وما أحسن ما قال  
شوقي شاعر مصر

و ذات دلال من بني الروم حولها	إذا ما تبدت أخوة سبعة مرد
عنيت بها حتى التقينا فجزها	فتى عربي ملء بردنه مجد
ف قالت أ طيب بعد عسر وشدة	ف قلت نعم مسك الاحاديث والند
عطلنا من النعمى وطوق غيرنا	تداوات الايام وانتقل العقد
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها	ولكن عن أغصانه رحل الورد

هذا و كان انقراغ من كتابة هذا التاريخ ليلة السبت الواقع في

السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة

وثمائة بعد الألف الموافق ٢٦ من حزيران

سنة ١٨٩٧ والمرجو ممن ينظرون فيه أن

يرحموه بعين الرضا والحلم . ويرخوا

ذيل الستر على ما يمترون فيه من

الوهم ، والله سبحانه المسدد

الى الحق انه تعالى

من وراء العلم

# كتاب

أخبار مصر

في انقضاء دولة بني نصر

أعني آخر دول الاسلام في الاندلس وهو تكملة لكتاب

مختصر تاريخ الاندلس

أو ذيل الذيل لرواية

آخر بني سراج

( تنبيه ) طبع عن النسخة الوحيدة المطبوعة في أوربة ولم يعرف اسم مؤلفه

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدىء المعيد، المذنب المبيد، الفعال لما يريد، الذى جرت  
أحكامه بمشيئته السابقة فى جميع العبيد، من اعزاز واذلال، وإدبار واقبال،  
واكثار وإقلال، وهداية واضلال «كل ميسر لما خلق له» وجار على ما كتب  
له، سبحانه وتعالى (لا يستل عما يفعل وهم يسئلون) نحمده سبحانه وتعالى  
على كل حال، ونشكره على جميع نعمه التى لا تحصى شكراً كثيراً دائماً لا  
ينقطع بانقطاع الايام والليال ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك  
له المنفرد بالعزة والجلال ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمد عبده ورسوله  
خاتم النبيين والارسال (١) صلى الله عليه وعلى آله والصحب والآل (٢)  
صلاة دائمة لا تقاد لها ولا زوال

(أما بعد) فهذا كتاب اذكر فيه نبذة من بعض تاريخ ما وقع  
فى مدة الامير أبى الحسن علي بن نصر بن سعد بن السلطان أبى عبد الله محمد  
ابن السلطان أبى الحسن بن الملوك النصريين ومدة ابنه محمد وأخيه محمد  
ايضاً رحمهما الله، وكيف استولى العدو على جميع الاندلس فى تلك المدة،

«١» لانعلم الارسال تأتي جمعا لرسول وانما يجمع رسول على رسل وارسل  
ورسلاء ويمكن ان تكون بالكسر مصدراً لارسل اي ارسال الرسل وأن  
تكون جمعا لرسل محركة وهى الجماعة من كل شيء وأصلها القطيع من  
الابل والغنم يرسل الى المرعى ثم محمونه فى الاستعمال ففقه معنى الرسالة والارسال  
وفى الاساس : وجهت رسلي ارسالاً متتابعة : رسلاً بعد رسل

«٢» لعل كلمة آله كانت سبق قلم لانها هى التى يسبق اليها الدهن  
ليكثر استعمالها فلما كتب الآل لاجل السجع لم يظن لها فريجهما



وعولت في ذلك على الاختصار والاقتصار، وتركت التطويل والاكتثار،  
لان باعي في التأليف قصير، وبضاغتي في الفصاحة مزجاة، وسميته بكتاب  
( أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ) والله الموفق للصواب وهو  
حسيننا ونعم الوكيل،

قال المؤرخ عفا الله عنه لما استقام ملك الاندلس الامير ابي الحسن  
علي بن سعد ودانت له جميع الاندلس ولم يبق له معاند وذلك بعد خطوب  
واحداث وكوائن جرت له مع أبيه ومع قواده بعد موت أبيه في أخبار  
وكوائن يطول ذكرها وذلك أنه كان محجورا للقواد لم يكن له من الملك  
الا اسمه فاراد أن يقوم بنفسه ويزيل عنها الحجر فانفرد بنفسه عن قواده  
وانفرد معه بعضهم ووقعت بينهم حروب واحداث، وذلك أن قواده  
لما اعتزل عنهم أخذوا أخاه محمد بن سعد وكان أصغر منه سنًا فبايعوه  
واشتعلت نار الفتنة بينهم فظهر الامير أبو الحسن التوبة للناس ووعدهم  
ان قاموا بدعوته أن يصلح شأنهم وأن يظهر الاحكام وأن ينظر في مصالح  
الوطن ويقيم الشريعة، فمالت اليه الرعية وأعانوه على ما نوا من مراده  
وغيرهم، الى أن أظفروا الله بهم وذلك بعد حروب كثيرة وقمت بينهم وذلك  
ان أخاه محمدًا نقلت من أيدي القواد الذين بايعوه وسار الى أخيه ابي الحسن  
واجتمع القواد كلهم في مدينة مالقة فحاصروهم فيها حتى أطاعوه فاخذهم  
 وقتلهم كلهم وانقضت الفتنة ونجحت نازها ودانت له جميع الاندلس  
 ولم يبق له فيها معاند، وهو مع ذلك يغزو بلاد الرم المرة بعد المرة حتى  
 غزا غزوات كثيرة وأظهر الاحكام ونظر في مصالح الحصون ونهى الجيش  
 بفهابنه النصاري وصالحته برا وبحرا وكثر الخير وانبسطت الارزاق

ورخصت الاسعار وانتشر الامن في جميع الاندلس وشملتهم العافية في تلك المدة وضرب سكة جديدة طيبة

ثم أنه أراد أن يميز (١) الجيش وأن يظهر للناس مامعه من الفرسان ليزيدهم في المغارم فهيأ موضع الميز بمدينة الحمراء من غرناطة بالموضع المعروف بالطبلة عند باب العد فبنى مكاناً للجلوسه وأصلح الطريق والرحبة لجمال الخيل وندب الفرسان

ثم ابتداء يوم الثلاثاء التاسع عشر لذي حجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة فكان أهل غرناطة يخرجون كل يوم الرجال والنساء والصبيان للسبيكة وما حول الحمراء يتنزهون وأقبلت فرسان الاندلس بأجمعهم من شرفيتها وغريتها فكان يميز كل يوم عليه طائفة منهم الي يوم الثاني والعشرين بمحرم فاتح عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بموافقة السادس والعشرين لشهر ابريل الهجري فكان من قضاء الله عز وجل وقدره في ذلك اليوم المهرجان الكبير والنزهة العظمى، واحتفلت الناس وخرج جل أهل البلد من رجال ونساء وصبيان وشيوخ وكهول وجاء كثير من أهل القرى من حوز غرناطة للنزهة فاجتمعوا في السبيكة من الحمراء وما حولها واستلأت تلك المواضع من خلق كثير وأقبلت الفرسان وساروا يتألفون في السبيكة وذلك في وقت الضحى فبينما الناس كذلك وإذا بسحابة عظيمة قد انشأها الله في السماء فارعدت وابتقت وانتشرت من ساعتها بقدره مكون الاشياء على السبيكة وما قرب منها وعلى غرناطة وما حولها وعلى وادي هدارة وجاءت بمطر عظيم ولم يزل المطر يزداد ويعظم ويكثر حتى صار كالأنهار العظام وجاءت

السيول من كل ناحية وعظم امرها رعاين الناس المهلاك من عظم ما رأوا من شدة  
المطر وكثرة السيول واحتمل السيل الطرق وما حوله من ان تدفع الناس وحال  
الليل بينهم وبينه فلا تسمع إلا بكاء الصبيان وضجيج نسوان وأصوات  
الرجال بالدعاء الى الله تعالى والابتهال الى أن ارتفع المطر وجاء في وادي  
هداره الذي يشق غرناطة سيل عظيم احتمل ما على شفتيه من الاشجار  
المظام من الميس والدردار والجوز واللوز وغير ذلك من الشجر المظام  
الثابتة في الارض ودخل البلد واستعمل ما على شفتيه من الزور والخوانيت  
والمساجد والفنادق ودخل الاسواق وهدم الياء المشيد ولم يبق من  
القناطير الا الاقواس ذهب بما كان عليها من البنيان وجاء السيل تلك  
الاشجار المظام التي امتلأ فتركت في البلد في آخر قنطرة منه فسدت  
محاري الوادي فتراكم السيل والشجر في قباب البلد وعان أهل البلد المهلاك  
ودخل السيل تياراً القيسارية حتى دخل بعض سوانيتها ووصل الى  
رحبة الجامع لأعظم والى القرافير والساعة والحدادين وغير ذلك من  
الاسواق والدور فلفظ الله تعالى بالبلد وأهلها فنهض السيل بقوة تراكمه  
بالقنطرة والسور وخرج ذلك كله خارج البلد وكان ههنا ثبوم من أعظم  
الايام شاهد فيه كل من رآه قدرة القاهرة بها الملوك العظام سبحانه وتعالى  
ولم يسمع المعمرون بمثله

(قال المؤرخ عفا الله عنه) ومن وقت هذه السيل العظيم بدأ ملك الامير

أبي الحسن علي في الانتكار والانتقاص وذلك انه اشتغل بالذات  
والأنهمالك بالنساء والمطربات وركن الى الراحة والشهوات وضع الجند  
وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان وثقل المغارم ومكس الاسواق ونهب

الاموال وشع بالمطاء الى غير ذلك من الامور التي لا يثبت معها الملك. وكان له وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفة وهو بعكس ذلك وكان الامير أبو الحسن علي المذكو متزجا ابنة عمه الامير الايسر وكان له منها ولدان محمد ويوسف فمن جملة انهما كه انه اصطفي عليهم ارمية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه واولادها منه فادرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على أزواجهن ووقع بينهما نزاع كثير ومال الاولاد محمد يوسف مع امهم وغلظت العداوة بينهم. وكان الامير أبو الحسن شديد الغضب والسطوة فكانت الام تخاف على اولادها منه فبقوا كذلك مدة وهو مشغول بالذمة منهمك في شهورته ووزيره يضبط المغارم ويثقلها، ويجمع الاموال ويأتيها بها، ويعطيها من لا يستحقها ويمنعها مستحقها، ويهمل كل من فيه نجوة وشجاعة من الفرسان، وقطع عنهم المروءة والاحسان، حتى باعوا ثيابهم وخيولهم وآلات حربهم وأكرا ثمنها، وقتل كثيرا من أهل التدبير والرأي والرؤساء والشجعان من أهل مدن الاندلس وحصونها

فلم يزل مستمرا على حاله راجل في نقص والمملك في ضعف، الى أن انقضى الصلح الذي بينه وبين النصارى فلم يشعر أحد حتى دخلوا مدينة الحمة وذلك انهم طرعوها ليلا على حين غفلة من أهلها فدخلوا قصبها وكانت خالية فلم يكن بها الا عيل قائدها فلكوا القصبه والناس نيام مطمئنون فلم يشعر أحد الا والنصارى قد هبطوا من القصبه على البلد بالسيف والقتل والسبي الشديد حتى نزل من نذ أجله وهرب وفر من قدر على الفرار واستولى النصارى على البلد وجميع ما كان فيه من الرجال والنساء والصبيان والاموال وكان ذلك في التاسع من شهر المحرم عام سبع مائة

وثمانين وثمانمائة فبلغ أهل غرناطة ما فلت النصراري باخوانهم المسلمين فاجت الرعية وقالوا لا صبر لنا على عيش بعد هذه المصيبة العظمى لما أن تفك اخواننا أو نموت دونهم، فاجتمعوا مع الأمير أبي الحسن ووزيره فجعل الأمير والوزير يعجزانهم عن المسير ويتربصان ويقولان نأخذ أهبتنا ونعمل على حال الحرب فلم تزل بهما العامة حتى أخرجوهما فتقدم صدر الجيش فوجدوا النصراري قد أخرجوا من البلد ما سبوا من الرجال والنساء والصبيان والاموال وهم قد أوقروا الدواب بذلك وهم عازمون على المسير إلى بلادهم فلما رأوا خيل المسلمين قد أقبلت عليهم حطوا الاحمال ودخلوا البلد وتحصنوا بالاسوار ثم أقبل المسلمون بمحلتهم وقربوا منهم فقاتلوهم قتالا شديداً بجذوعهم وقلوب محترقة حتى دخلوا بعض الابواب من البلد وكسروا حرقره وتعلقوا بالاسوار وطعموا في الدخول اليه فبينما هم كذلك اذا بالامر من الأمير أبي الحسن والوزير بالرجوع عن القتال فأبى الناس عن الرجوع (١) فقالا لهم اذا كان غداً ندخل عليهم أول النهار لان الليل قد دخل علينا فترك الناس القتال ورجعوا الى محلتهم وبات النصراري يصلحون شأنهم ويمنعون أسوارهم ويتلقون نقابهم (٢) فلما أصبح نظر المسلمون الى البلد فاذا هو على صفة اخرى من المنعة والتحصين والاستعداد فصعب عند ذلك على المسلمين الدخول والدنو منه

ثم انهم عزموا على حصاره والاقامة عايه واقبلت وفود المسلمين من

(١) أبى يتعدى بنفسه وقد عداه بمن بتضمينه معنى امتنم

(٢) «المقب هو الثقب والجمع انقاب ونقاب

كل أرض الانداس واجتمع على ذلك البلد محلة عظيمة وفتحوا الاسواق  
للبيع والشراء وجابروا اسواقهم كل ما يحتاجون اليه من الاطعمة والعلف  
والزاد وغير ذلك وحاصروهم حصاراً شديداً ومنعوا لهم الماء والخطب  
والداخل والخارج والعامّة بعزم وجدوا اجتهدا نية صادقة وقلوب محترقة  
والوزير يعد الناس بالدخول والقتال وعداً بعد وعد ويقول عن قريب  
نأخذهم عطشاً وهانحن نعمل الحيلة في الدخول عليهم ، والتقصير والتفريط  
والغش يبدو منه شيئاً بعد شيء ، حتى تبين لعمامة الناس وخاصتهم ولاح  
لهم كالشمس وظنوا بهم ظنون السوء وكثر الكلام القبيح بينهم فعند  
ذلك هاج شيطان الفتنة بينهم وتحدث الناس بعضهم مع بعض في  
مسائل غشهما للمسلمين

فبينما الناس كذلك في إساءة ظنهم وأميرهم ووزيرهما فاذا بهما استعمال  
حيلة وكتبوا مزورة أتهما عن بعض من نذعهما من ناحية المسلمين  
المجاورين بلاد السكنة دمرهم الله يمامهما أن الطاغية ملك الانصارى جمع  
جمعا عظيما وحشد حشودا كثيرة وعزم على نصرة أصحابه المحصورين في  
بلد الحامة وهو قادم عن قريب ولا طاقة لهما بملاقاته فحين أعلمهم الوزير  
بما ذكر وخوفهم .. تبط في أيدي الناس وأمرهم بالرحيل والاقلاع عن دار  
الحرب فرحل الناس كرها باكين متأسفين بحسرة وندامة فجعة يالها من  
حسرة ، وانصرف كل واحد الى وطنه ثم أنهم أقاموا بعد ذلك أشهراً  
قليل وأمر الأمير ابو الحسن بالمسير الى بلد الحمة مرة ثانية فصار الناس  
اليها ، وأقبلوا من كل أرض بالانداس ونزلوها بمحلتهم مرة ثانية  
وحاصروها فلم يقدروا على شيء فانصرفوا عنها وتركوها

فلما رأى العدو دمره الله أن المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحمة ونصرة  
من فيها من الأسارى وقع له الطمع في بلاد الأندلس فأخذ في الاستعداد  
والخروج اليها فلما كان شهر جمادى الأولى من عام الناريخ المذكور قبل هذا  
خرج صاحب قشتالة بمحلة عظيمة وتصدد مدينة لوشة فنزل عليها بمحلته  
وكان قد اجتمع فيها جملة من نجدة رجال غرناطين سمعوا بخروجه  
اليها فلما قرب من البلد خرج اليه الرجال والفرسان فقاتلوه قتالا شديداً  
وردوه على عقبه وقتلوا كثيراً من النصاري وأخذوا لهم من تلك المدة  
التي قربوا بها اتفاقاً وغير ذلك من عدة الحرب ثم أن الأمير أبا الحسن  
أمدم بقائده من غرناطة يقود جيشاً من الفرسان في تلك الليلة فاشتد عند  
ذلك عصبية المسلمين وقويت قلوبهم فلما أصبح ورأى النصارى الزيادة في  
المسلمين مع ما نالهم في أول الليل من الهزيمة والقتل وأخذ المدة داخلهم  
الرعب واشتد خوفهم وأخذوا في الارتحال عنهم، فخرج اليهم المسلمون  
فقاتلوهم قتالاً شديداً فانهمز النصارى وتركوا كثيراً من أخبيتهم وأمتعتهم  
واطعمتهم وآلة حربهم وتركوا من التدقيق شيئاً كثيراً فاحتوى المسلمون  
على ذلك كله وانصرف العدو مفلولاً مهزوماً الى بلده وكان ذلك في السابع  
والعشرين لجمادى الأولى عام سبعة وثمانين وثمانمائة

وفي هذا اليوم بلغ الخبر لمن كان في لوشة أن ابنى الأمير أبى الحسن  
محمد ويوسف هربا من القصة خوفاً من أبيهما وذلك أن شياطين الأنا  
صاروا يوسوسون لأمهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما ويفعونها مع  
ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الريمية ثريا من الشحنة فلم يزاوا يفوونها  
حتى سمحت لهم بهما فاحتالت عليهما بالليل وأخرجتهما اليهم وساروا بهما

الى وادي آش فقام اهل وادي آش بدعوتها ثم قامت غرناطة أيضا بدعوتها واشتعلت نار الفتنة ببلاد الاندلس ووقعت بينهم حرب وكواثن اعرضنا عن ذكرها لقيحها لان الامر آل بينهم الى ان قتل الوالد ولده ولم تزل نار الفتنة مشتتة وعلاماتها قائمة في بلاد الاندلس والعدو دمره الله مع ذلك مشتت بل بجملة في أخذ الاندلس الى أن ساعده الزمان ووافقه الاقدار ، فلما كان شهر صفر عام ثمانية وثمانين وثمانمائة اجتمع من زعماء النصارى واقنادهم (١) جمع عظيم ولم يكن معهم ملكهم وقصدوا قرى بلش وشرقية مالقة يريدون أخذ أهاليها وفسادها فلما وصلوا تصالح أهل تلك الجهات واجتمعوا دون فرسان وصاروا يعرضون للنصارى في المضائق والمخائق والاعوار ويقاثلونهم فيها حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا فلما رأى النصارى ذلك جعل الله الرعب في قلوبهم ووقع فيهم الخذلان فانهزموا في تلك القرى والمخائق والاعوار وصاروا يتهاقون فيها تهافت الذين والمسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ولم تغن عنهم كثرتهم ولا عدتهم شيئا باذن الله ، وكان في وقت هذه الكائنة الامير محمد بن سعد بمدينة مالقة فلقبهم فقتل وأسر منهم خلقا كثيرا ولوا مدبرين ، وأسر منهم ما يذيف على أني اسير فيهم جماعة من قوادهم واقنادهم ، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورجالهم واعتصموا فاحتوى على ذلك كله المسلمون

---

(١) العرب في ايام الحرب الصليبية وحروب الاندلس حصلت لهم اللغة بالفاظ افرنجية عربوها على هوى نطقهم من جملتها لفظة كونت وهو من القاب الشرف عند الافرنج دون البرنس فنطق بها العرب كند بضم الكاف وسكون النون وفند بالقاف وجموها على أقناد كما ترى



وحملوه الى مدينة مالقة فجمعوه بها على أن يقتسموه على كل من حصر  
 الوقعة (١) المذكورة فحصل كله بأيدي الظلمة فلم يظهروا فيه حقاً لاحد  
 من حضر الوقعة المذكورة فلم ينتج لهم منه شيء وكان عليهم وبالا ،  
 وكانت هذه الكائنة في الحادي عشر لصفر عام التاريخ المذكور قبل هذا  
 وفي شهر ربيع الاول من عام التاريخ خرج الامير أبو عبدالله محمد  
 ابن علي بأهل غرناطة ومن حولها من الحصون والقرى الى بلاد الروم  
 فينبأهم في أرض اللسانة راجعون بالغنيمة إذ خرج عليهم جمع من  
 النصارى ليس بالكثير فانهزم المسلمون أمامهم واتبعهم النصارى يقتلونهم  
 ويأسرونهم حتى لحقوا الامير محمداً فدخل في غمار الناس واختفى بينهم  
 وجعل يقاتل مع المقاتلين حتى أسر مع من أسر من المسلمين ولم يعرفه  
 النصارى وكانت هزيمة شنيعة قتل فيها ناس كثير وأسرا آخرون واستولى  
 النصارى فيها على كثير من الخيل والسلاح والدواب والمتاع ، وأشنع  
 ما كان فيها أسر الامير أبي عبدالله محمد لانه كان سبباً هلاك الوطن فجمع  
 النصارى كل ما أخذوا للمسلمين من أسارى وأمتعة وحملوه الى حصن  
 اللسانة ولم يعرفوا الامير حتى عرفوا به فاخرجوه من بين الأسرى  
 وعظموه وأكرموه وحملوه الى حصن اللسانة الى صاحب قشتالة فمظمه  
 وأكرمه وعلم أن به يصل الى ما يؤمله من اخذ بلاد الاندلس ، ثم عاد  
 ملك غرناطة الى الامير أبي الحسن علي بن سعد وإلا فان الفتنة لم تنقطع  
 ولم تحمد نازها وكان الامير أبو الحسن قد أصابه مرض شبه الصرع  
 وأصيب في بصره وأصابه خدر في جسده وعاقبه الله بأنواع من البلاء

وعزل عن الملك رحل إلى مدينة المنكب فاقام فيها حتى مات واستولى على الملك بعده أخوه محمد بن سعد ومع ذلك قد استطال العدو على الاندلس وقوي طمعه فيها

فلما كان شهر ربيع الآخر من عام تسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلة الى غربية الاندلس فقصده حصن قرطمة وحصن دكوين فقاتلها حتى استولى عليهما، وفي السنة التي كانت قبل هذه كان ايضاً استولى على حصن المره وحصن الشيطنين، وفي العشر الاول من جمادى الاولى عام التاريخ المذكور قبل هذا خرج العدو أيضاً فقصده مدينة رندة فقاتلها قتالاً شديداً وقرب اليها عدته وانفاطه حتى هدم بعض اسوارها فلما رأوا مالا طاقة لهم به طالبوا الامان وخرجوا مؤمنين (١) بما معهم فلما استولى العدو على مدينة رندة دخلت تلك الجهات كلها في ذمته غير قتال من

وفي التاسع عشر من شهر شعبان عام التاريخ المذكور قبل خروج الامير محمد بن سعد (٢) باهل غرناطة إلى حصن السكاين لبنا بعض سورده لانه بلغه أن العدو خارج اليه فخرج بجيشه وعامة أهل غرناطة ليصالحوا من شأنه ما تهدم فبينما هم في الحصن بلغهم أن العدو خارج يريد الحصن وهو متوجه نحوه وظهر آخر النهار للمسلمين غبار محلة انصارى

(١) بفتح الميم مع شدها من التأمين

(٢) هو الملقب بالزغل بحركة ومعناه بلعة عامة الاندلس الصغير ولا يافى

الزغل بمعنى الصغير فيما أعرف وإنما أخذوه فيما يقاوم من زغل الصبي امه رضعها وهو فصيح وأزغلت الام ولدها أرضعته وأزغل للطائر فرخه زقه والزغول أيضاً بمعنى للطفل هو من هذه المادة ويجوز أن يكون أصل الزغل الزاغل اسم فاعل أو الزغل بكسر وسطه للمبالغة

في أرض القلعة فلم يلتفت الأمير ولا وزيره لذلك ولم يعملوا حساب الحرب ولم يحملوا بيّاتهم على البعد فباتوا ثلاثة أيام اثنين وهي الليلة الثانية والعشرين لآلعبان فلم يشعر أحد من المسلمين إلا والنصارى قد اختلطوا معهم عند الفجر وكذلك النصارى لم يشعروا بالمسلمين حتى اختلطوا معهم وإنما أدلجوا ليسبحوا إلى الحصن فلما التقى الجمعان أعلنت الأصوات بالصياح والضجيج وضربت النصارى أطبالهم والبوقات ونصبوا الانفاط ووقع القتال بين الفريقين واشتد القتال حتى وصل النصارى إلى مضرب الأمير وارادوا أخذه فثبت الله تعالى المسلمين وصبروا صبراً جليلاً ووقعوا على مضرب أميرهم محتسبين لله تعالى فلم تكن الاهنية حتى هزمت النصارى وولوا الادبار فاتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤوا حتى قتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم قصروا في الطلب مخافة أن يدرهم جيش العدو لانهم كانوا مقبلين نحو المنكبين يريدون قتله وأخذه وكان ذلك صدر المحلة قد قبل بالعدة والانفاط والبارود والفؤس وغير ذلك فاحتوى المسلمون على جميع ذلك وأرسلوا بنية يومهم راجعين إلى غرناطة فرحين بنصر الله تعالى حامدين شاكرين فدخلوا غرناطة بقية النهار وكانت هذه الغزوة من الغزوات المشهورات (قل المؤلف عفا الله عنه) فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء من أهل الشجاعة والاقدام في ذلك اليوم ونحن في الطريق راجعون إلى غرناطة قال كنت في أول الفرسان ونحن نتبع النصارى فكنت استبق إلى بعض الموانع فاجد النصارى مقتولين ولم نر احداً سبقتي ولا ندري من قتلهم ، فلما خيب الله سعد العدو وكسر حدة عدل عن المسير إلى حصن المنكبين فاقام إلى شهر رمضان من العام

المذكور وتوجه بمحاة نحو حصن قنبيل فنزل عليه بمحلته وأنصب انقاطه وقاتله قتلا شديداً حتى هدم بعض اسواره فلما رأى المسلمون مالا طاقة لهم به خافوا أن يدخل عليهم عنوة فطلبوا منه الامان . وخرجوا . ومنين بما كان معهم وأعطوه الحصن فلما استولى العدو على الحصن المذكور أخلى المسلمون حصن ارنية وحصن مئافر وحصن اللوز وصارت كلها للنصارى وفى هذا الشهر ايضا استولى العدو على حصن صالحه من حصون باش ثم ان العدو دمره الله مروح الامير محمد بن على فخرج الى بعض حصون الشرقية ووعدده بالصلح ان أطاعوه فقامت بدعوته تلك الحصون طمعا فى الصلح ثم ان شياطين الانس صاروا يغوون الناس ويزينون لهم ويعدونهم ويطمعونهم فى صلح النصارى الى أن مالت الى كلامهم طائفة من اهل ربض البيازين من ارباض غرناطة ورافقههم جل اهل الربض طمعا فى الصلح لانهم كانوا سياارة وبادية فقاموا بدعوة الامير محمد بن على فعند ذلك اشتعلت الفتنة بين ربض البيازين وبين غرناطة واميرها محمد بن سعد ووقع بينهم القتال والحرب ونصبوا على البيازين الانقاط ورجعهم بالحجارة من سور القصبة القديمة ورموا عليهم بالمنجنيق واهل ربض البيازين يدافعون ويقاتلون (١) وينتظرون قدوم الامير محمد بن على عليهم وهو مع ذلك يرسل اليهم من الشرقية ويمدهم بالتدوم عليهم وهم فى قتال وحصار وشدة مدة من ثالث شهر ربيع الاول عام احدى وتسعين وثمانمائة الى

«١» هذا يؤيد الروايات التي أوردناها في ذيل آخر بنى سراج نقلا عن تواريخ الاوربيين وعن فتح الطيب من كون أولئك الناس لبثوا الى آخر ساعة من ملكهم والعدو محقق بهم يقاتل بعضهم بعضا وكيف يكون الانقراض الا هكذا

اليوم الخامس عشر لجمادى الاولى عام التاريخ المذكور فبينما أهل البيازين ينتظرون قدوم الامير محمد بن علي عليهم اذا به سار إلى مدينة لوشة ووقع الصلح بينه وبين عمه الامير محمد بن سيد أمير غرناطة في حبه على أن يسلم لعمه المذكور في المعركة ويكون هو من تحت يده وأرسل إلى البيازين بذلك وأدخلهم في الصلح فبينما هم كذلك إذا بصاحب قشتالة دمره الله أقبل بمحلاته على مدينة لوشة فنزلها لأمير محمد بن علي وومه جماعة من أهل نجدة البيازين حين سمعوا بقدوم النصارى عليها فمحصنوا بها مع أميرهم محمد بن علي المذكور فحاصرها العدو حصاراً شديداً ونصب عليها انقاطه وعدته وقرب اليها بجيشه وآلة حربه حتى دخلوا ربضها وهدموا بعض أسوارها بالأساط وقتل كثير من نجدة الرجال واشتد عليهم الحصار فلما رأى أهل لوشة ما لا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جوع النصارى وتأخير أهل غرناطة عن نصرتهم طلبوا الأمان واتفقوا أن يخرجوا مؤمنين بأموالهم وأولادهم وخيائهم وسلاحهم ودوابهم رجميع ما يقدرون على حمله فاجابهم إلى ما طلبوا ووفي لهم به فأخلوا البلد ورحلوا إلى غرناطة بما معهم واستولى العدو على مدينة لوشة في السادس والعشرين من جمادى الاولى عام احدى وتسعين (١) وثمانمائة ولم يسرح صاحب قشتالة الامير محمد بن علي بل حبسه عنده ليستأصل به بقية الاندلس

فلما كان النصف الأول من جمادى الآخرة عام التاريخ المذكور خرج ملك الروم بمحلاته دمره الله فقصده حصن البيرة فنزل عليه ونصب أنقاطه وعدته فلما رأوا ما لا طاقة لهم به من شدته اتالوا الحصار طلبوا منه الأمان

«١» أنت المدد هتأوفي مواضع تأتي وذكره في مواضع سبقت والتقاء عدة مروفة ولعل الاختلاف من تصرف النسخ أو الطبع. وكنته مصحح الطبع

على أنفسهم وخيالهم ودوابهم واسلحتهم وجميع ما يقدرون عليه من أمتعتهم  
فاجابهم الى ما طلبوه . . . وفي لهم به نخرجوا وأخلوا له الحصن وصاروا  
الى غرناطة

ثم انتقل الى و الى حصن مكابن فنزل عليه بمجنته وقرب منها بعدته  
وانقاطه وقاتلهم قتالا شديدا وعدم بعض الاسوار بالانقاط وكان له  
انقاط يرمي بها صخوراً من نار فتصمد في الهواء وتنزل على الموضع وهي  
تشتمل نارا فتهلك كل من نزلت عليه وتجرقه (١) فكان تلك من جملة ما  
كان يخذل في أهل الموضع التي كان ينزل عليها

فلما رأى أهل حصن مكابن ما نزل به من البلاء وأن لا طاقة لهم  
به طلبوا الامان كما فعل أهل حصن البيرة وخرجوا مؤمنين بأسوالهم وفي  
لهم بما طلبوه . . .

فلما سمع أهل حصون قلنبيرة ما حل بمن جاورهم من الحصون  
خافوا على أنفسهم فطلبوا من أعدو ديرة الله الا ان على أنفسهم وأولادهم  
وأن يعطوه الحصن من غير قتال ففعل لهم ذلك وأعطوه الحصن ثم رحلوا  
الى غرناطة بأسوالهم وأمتعتهم وأولادهم

وتوجه أعدو الى منتفرية فنصب عليه عدته وانقاطه وقاتله قتالا  
شديدا فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لم تنس منة الحصن شيئا فذعنوا وطلبوا  
الامان مثل طلب أهل الحصون المتقدمة فأجابهم الى ما طلبوا وخرجوا  
مؤمنين بما معهم من الامتعة قاصدين مدينة غرناطة أيضا

وكذلك اتفق بحصن الضحة أيضا واستولى في هذا الشهر المذكور على  
جميع هذه الحصون وصارت بيدهم رقة بها غرناطة وأخذ في بناء هذه الحصون

وتغنيها وتحصينها واصلاح شأنها وإشعاعها بجميع ما تحتاج اليه من طعام  
وعدة ورجال وغير ذلك ليضيق على اغرناطة

ثم إن العدو دمره الله تعالى ارتحل الى بلاده فبقى فيها بعض أشهر  
وسرح الأمير محمد بن علي وأمره بالخروج الى حصون الشرقية كيدا منه  
ومكرا ليعمل الحيلة على تلك الجهة فخرج الأمير محمد الى حصن بلش من  
حصون شرقية الاندلس فقام بدعوته ودخل ثم جعل يكتب الى المواضع  
ويرسل الكتب ويعدم بالصالح مع النصارى ان أطاعوه فلم يقبل منه  
ولم يقم بدعوته أحد، فلم تزل شياطين الفتنة يوسوسون ويعدون الى أن  
وجدوا في ربض البيازين من غرناطة طائفة من أهل الشر والفساد فقبلوا  
قولهم ووعدوهم أن يقوموا بدعوته ان كان له صالح مع النصارى بأخفوا  
حديثهم ولم يظهروه، ثم ان حصون الشرقية قامت بدعوته طمعا في الصالح  
مع النصارى وبقي الأمير محمد بن علي يكتب الى المواضع والقرى ويخبرهم  
ان معه صلحا مع النصارى صحيحا فلم يقبل منه أحد ذلك فلما راي أهل  
البلد لم يقبلوا منه اتفق رايه ان يسير بخاصته الى ربض البيازين فأخذ من  
خاصته ومن (?) يثق به وخرج عن حصون الشرقية قاصداً ربض البيازين  
من غرناطة فدخل ربض البيازين على حين غفلة من عمه محمد بن سعد أمير  
غرناطة ولم يشعر به أحد حتى دخل واجتمعت معه تلك الطائفة المذكورة  
قبل وانضاف اليه آخرون فاشتدت عصابته وغالطت شوكته وأمر مناديه  
ان له صلحا مع النصارى صحيحا فقام أهل البيازين بدعوته ولم يقبل منه  
أهل غرناطة ما ذكر من الصالح وانه ليس بصحيح، فاشتعلت نار الفتنة بين

أهل ربض البيازين وبين أهل غرناطة واشتد ضراؤها وبلغ العدو ما أماله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً

وكان دخول الأمير محمد بن علي ربض البيازين في السادس عشر لشوال عام إحدى وتسعين وثمانمائة فتعصب أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن سعد علي أهل البيازين وتعصب أهل البيازين مع أميرهم محمد بن علي ووقع الحرب والقتال بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً ثم إن العدو دمره الله أمد أمير البيازين بالرجال والآنفاط والبارود والقمح والعلف والبهاثم والذهب والفضة وغير ذلك ليشد بذلك عضد الفتنة ويقويها ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين فلما كان اليوم السابع والعشرون من المحرم عزم أمير غرناطة فتح ربض البيازين عنوة بالسيف فغلب أهل غرناطة وغيرها من أحوازها وقال لهم إن هؤلاء القوم قد حلت دماؤهم وأموالهم لنصرتهم بالنصارى فهاهم إلا السيف وندب أهل بسطة وأهل وادي آش ومن حولهم وأمرهم بالهبوط على طريق الفرغ والدخول على باب فجج اللبوة في ذلك اليوم وفتح أهل غرناطة باب الحديد وباب انيدر ونقبة باب قشتر ونقبة باب البنود وباب البنود ونقبة ربض البيضاء وباب الدفاف فخرجت عليه طائفة وطامت على الوادي فدخلت على باب الشمس ودخلت كل طائفة على جهتها وذلك كله في ساعة واحدة فلما ظف الله تعالى بأهل البيازين فخرج لكل جهة من هذه الجهات طائفة منهم فدافعوا عنهم وقتلواهم وردوهم على أعقابهم منهمزمين فخلوا بلدهم وسدوا أبوابهم وبنوا نقيهم ولم تزل الحرب متصلة بين الفريقين والعدو دمره الله يدبر الحيلة عليهم فلما كان النصف من شهر ربيع الثاني (١) عام اثنين وثمانين وثمانمائة خرج الطاغية



بمحلته الى أرض المسلمين فقصد الى مدينة باش مالقة وكانت على ذمة أمير  
غرناطة فنزلها فلما سمع أمير غرناطة بنزوله على مدينة باش ندب أهل  
غرناطة ومن أطاعه من أهل الجهات وترك طائفة تقاتل أهل البيازين  
وخرج يريد نصرة أهل باش وذلك يوم السبت الرابع والعشرون  
لربيع الثاني (١) من عام التاريخ المذكور قبل فلما صار قريبا منها وجد العدو  
سبقة بالنزول عليها وداربها من كل الجهات فقصد الامير حصن متميس  
فنزله بمحلته وأقام به بمض ايام فطلبه الناس ان يسير بهم نحو العدو  
للقائه فتوجه بهم نحوه فرتبهم وكان ذلك عشية النهار فدخل عليهم الليل  
بالطريق فينامهم سائرون إذ قامت كرة ودهشة فانهزموا في ظلام الليل من  
غير لقاء العدو ولا قتال فرجعوا مهزومين مفلولين الى محلتهم فباتوا ليلتهم  
تلك فن غدا تأم الخبر ان العدو استخلص مدينة باش فسطع في أيديهم  
وانهزموا من غير قتال ورجع كل أحد الى وطنه

وقصد الامير محمد بن سعد غرناطة فأخبر في طريقه ان غرناطة قامت  
بدعوة ابن أخيه محمد بن علي ودخل البلد وماكه وقتل القواد الذين كانوا  
بالبلد يقائلونه فلما سمع عمه الامير محمد بن سعد ذلك رجع الى عقبه (٢)  
يريد البشرية فسار بمن هنالك الى وادي آش فدخلها بمن معه وكان قيام أهل  
غرناطة بدعوة أمير البيازين محمد بن علي يوم الاحد الخامس من جمادى  
الاولى عام التاريخ المذكور قبل فدخل البلد ونزل في القصبة القديمة واستولى  
العدو دمره الله على باش يوم الجمعة العاشر من جمادى الاولى عام اثنين وتسعين  
(١) تكرر هذا في قوله والمنقول ربيع الآخر ويظهر ان قول المولدين ربيع الثاني من  
عصر المؤلف أو ما قبله «٢» انها يقال رجع أو نكص على عقبه وكتبه مصحح الطبع

وتمامائة ولما استولى العدو دمره الله على بلش دخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل متميس وحصن قارش وخرج أهل بلش من بلادهم مؤمنين وحملوا ما قدروا على حمله من اموالهم وذلك بعد قتال شديد وحرب عظيم فمنهم من جوزة العدو الى أرض العدو ومنهم من اقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى ارض المسلمين التي بقيت بالانديلس

فلما استخلص العدو بلش وما حولها سار بمحلتة نحو مدينة مالقة فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا وحصرها وأحاط بها من كل جانب ومكان برا وبحرا فتحصن أهل مالقة ببلدهم وظهروا ما كان معهم من السلاح والعدة والانفاط وكان جملة من نجدة الرجال فقاتلوا الروم قتالا شديدا وقتلوا منهم خلقا كثيرا والعدو يفتح عليهم ابوابا من الحرب والحيل والمسلمون يحرسون بلادهم ويغلبون عدوهم ويقتلون من قرب اليهم وهم صابرون محتسبون مدة طويلة حتى ضيق عليهم ودور على المدينة سورامن تراب وسورا من خشب وحفيرا مانعا ومنع عليهم الداخل والخارج في البر ومنع أيضا في البحر بالمراكب الداخل والخارج وشد عليهم القتال والحصار وهم مع ذلك صابرون محتسبون ويقاتلون اشد القتال ويمنعون ولا يظهرون جزعا ولا هلعاً ولا يطمعون العدو في شيء مما يرويه منهم حتى تفد ما عندهم من الاطعمة والزاد وأكلوا ما كان معهم من المواشي من خيل وبغال وحبر وكلاب والجلود وورق الشجر وغير ذلك من الاشياء التي يمكن أكلها حتى فني ذلك كله وأثر فيهم الجوع أثرا عظيما ومات كثير من نجدة (١)

« ١ » أي من أنجاد رجالهم وجم نجدة على نجدة لم أجده وانما جمع نجدة بمعنى شجاع على أنجاد وان كان المفرد هو النجيد فتجمع على نجدة بضم تين ونجدة ولعله أراد بنجدة جمع ناجد فأجراها مجرى فاعل وفعله

رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقنال فحينئذ اذعنوا وطلبوا الامان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة وأسره وسبي نساءهم وأولادهم واحتوي على جميع أهوالهم وفرقهم على أهل دخلته وقواده وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس وتبكي لمصابهم العيون فان الله وانا لله راجعون

وكان استيلاء العدو على مدينة مالقة في أواخر شعبان عام اثنين وتسعين وثمانمائة فحين خاضت للعدو دمره الله مدينة مالقة وبلش وجيم الغربية ولم يبق للمسلمين في تلك الناحية موضع واحد ارتحل الى بلاده من قشتالة وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها غدرًا ومكرًا من غير قتال ولا حصار ولا تعب وصارت جميع حصون الشرقية في قبضته وتحت إيلته ثم رجع الى بلاده من قشتالة

وفي شهر رجب سنة اربع وتسعين وثمانمائة خرج العدو دمره الله بمجده وعدته وقصد نحو حصن موجر فحاصره وقتله قتالا شديداً أياماً قلائل فاستولى عليه واستولى أيضا على الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة وقصد مدينة بسطة فنزل قريبا منها فوجد بلدا مقيما بالخييل والرجال والعدة والطعام فكلما قرب من البلد وأراد قتال المسلمين رجع خائبا خاسرا وقتل خلق منه كثير ولم يقدر يمنع داخلها وخارجها كما فعل بغيرها من المدن وكان يدخلها كل من جاءها من نجدة الرجال فبقي محاذيا لها شهر رجب وشعبان ورمضان والمسلمون قائلون ببلدهم غالبون لعدوهم فكلما أراد الدنو من البلد قعوه ووردوه على عقبه خائبا خاسرا لم يقدر على نصب نبط ولا عدة من آلة

خزيه فلما كان شهر شوال شد عليهم الحصار وعمل على البلد سودا من خشب وحفير اعظيما وجعل على ذلك الرجال والحراس لئلا يدخل داخل من انجاد الرجال الذين يأتون لنصرتهم واعانتهم على عدوهم ولا من يجلب لهم الطعام ولم يمدبأ المسلمون بما صنع بخرجون من النقب ويهبطون من على الاسوار ويقتلونهم في محلتهم في مسلك يسلكونه حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا ويحملون المسلمين الواردين بخيلهم واسلحتهم وأمتعتهم كما شرط عليه قواد البلد فصاروا الى مدينة وادي آش وأخلوا البلد للنصارى وخرجوا الى الاراض بما معهم من أموالهم وأمتعتهم مؤمنين ولم يتركوا شيئا الا شقف (١) البلد خاصة ثم أن ملك الروم دبره الله جعل في البلد قائدا من قواده وحاكما ورتبه وأشعنه بما يحتاج اليه من أطعمة وزاد وآلة حرب وارتحل من بسطة يريد مدينة المرية فلم يمر على حصن ولا قرية إلا ودخل في ذمته وتحت طاعته من غير قتال ولا حصار

ثم خرج الامير محمد بن سعد من مدينة وادي آش تابعا لصاحب قشتالة فلما لحته بايمه وأدخل في ذمته وتحت طاعته على أن يعطيه مدينة وادي آش وكل مدينة وحصن وقرية كانت تحت طاعته وحكمه فاجابه الى مطلبه ورجع معه الى وادي آش وهو فرح مسرورا فدخلها العدو وقبض قصبتها واستولى عليها في العشر الاول من شهر صفر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ودخل في ذمته جميع فرسان الامير محمد بن سعد وجميع قواده وصاروا له عوناً على المسلمين وطردوا جميع البلاد والقرى والحصون التي كانت تحت طاعته من مدينة المرية الى مدينة المنكب الى قرية البذول

فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تمب ولا نصب فاننا لله رأنا اليه راجعون وجمعنا في كل قصبة قائداً نصرانياً مع جماعة من النصاري بحكم أهل ذلك الموضع وفي هذا الشهر المذكور خلاصت جميع بلاد الأندلس لصاحب قشتالة ودخلت تحت طاعته وتدخلت (١) جميع أهلها ولم يبق للمسلمين في الأندلس غير مدينة غرناطة وما حولها من القرى خاصة وزعم كثير من الناس أن الأمير محمد بن سعد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه البلاد والقرى التي كانت تحت طاعتهم وقبضوا منه ثمنها وذلك على وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه محمد بن علي وقواده لأنهم كانوا في غرناطة ولم يكن تحت طاعتهم غير غرناطة وكان في صالح العدو فاراد بذلك قطع علائق غرناطة عنهم كما هلك غيرها

فلما صارت هذه البلاد كلها تحت ذمة العدو ولم يبق لصاحب قشتالة سوى غرناطة التي هي في صلاحه ورأى أن الإسلام دثر من جميع بلاد الأندلس وقع طاعته ونقض ما كان بينه وبين صاحب غرناطة محمد بن علي من الصلح (٢) فاخذ برج ملاحية غرناطة وبرج قرية همدان وكانا برجين كبيرين حصينين فزادهما تحصناً وتمنيماً وأشحنهما بالرجال وما يحتاج اليه من آلة الحرب ليضيق على أهل غرناطة لأنهم ما كانوا قريبين منها فضيق بذلك عليها أشد الضيق

« ١ » معلوم أن المدجنين هم المسلمون الذين دخلوا تحت حكم النصاري في الأندلس وقد اشتق المؤلف منه فعل تدجن  
« ٢ » ما أشبهه الليلة بالبارحة وما أقرب هذه الأفعال من سياسة الدول المستعمرة اليوم في اغرائها أحد أمراء الإسلام بقتال جاره حتى إذا قضت وطرها من جاره قلبت مظهر المجن لهذا الذي كان يظن أنها حالفته

وفي هذه السنة وهي سنة خمس وتسعين وثمانمائة بعث ملك  
النصارى الى صاحب غرناطة محمد بن علي يسأله أن يعطيه مدينة الحمراء  
من غرناطة ويترك للأمير محمد المذكور سائر البلد والدخول في ذمته كما  
دخل فيها سائر الاندلس وظن أن ذلك يتم له فاطمعه الأمير محمد بن علي  
في ذلك فخرج صاحب قشتالة مسروراً بمحلته لقبض مدينة الحمراء غرناطة  
وللنزهة فيها وخرج معه النساء والصبيان بقصد النزهة ولم يظن أن في  
مدينة غرناطة مدافعاً له ولا مقاتلاً ولا ممانداً

حين وصل خبر خروج صاحب قشتالة وأنه قادم على غرناطة حسبما  
ذكر جمع أمير غرناطة خاصته وعامته وأخبرهم برأيه وما طلب منه وإنما  
خروجه ليدخل البلد على الصفة المذكورة واستشارهم في ذلك فاجتمعوا على قتاله  
ومدافعتهم عنهم بما أمكنهم حتى يفتح الله عليهم أي يهلكوا عن آخرهم وتعاهدوا  
مع أميرهم أن يكونوا أبدأوا واحدة على قتال عدوهم فبلغ ملك النصارى مقالتهم  
وهما اتفقوا عليه فساء ذلك وغمه جمع جميع جيوشه ونزل بمحلاته صريح غرناطة  
وجعل يقطع الطرق ويفسد الزرع وغيره فخرج اليه فرسان المسلمين من أهل  
غرناطة يقدمهم القواد برز الأمير مع الرجال قريباً من البلد لولوبهم واثقة بالله  
يسألون من الله سبحانه النصر والمعونة على عدوهم وخرج مع ملك الروم في محلاته  
جماعة من المرتدين الداخلين في ذمته من أهل الحصون والقري والمدن (١)  
يدلون على عورات المسلمين ويحرضونه على قتالهم وكان خروج الروم في أول  
رجب من سنة التاريخ فكما أرادوا الدخول من البلد وفتحوا للكرب باباً ردهم الله

«١» قد ورد فيما نقلناه عن تواريخ النمر نجة وعن المقرئ طرف من خبر هؤلاء

المرتدين

على أدبارهم مهزومين . فلولين بنصر الله ومعونته وفرسان المسلمين صابرون  
 محاسبون حتى قتلوا من الروم خلقا كثيرا فلما عين ملك الروم انه لا طاقة له بالدنو  
 من غرناطة وان بها حماة من الفرسان والرجال منعوها من كل جهة ومكان  
 وايدهم الله بمنزلة نصره ولم يتركوه يجذفيها فرصة ارتحل عنها بعض ابناءه من  
 الغيظ وذلك في النصف من شهر رجب عام تاريخه رهدم برج غويو وزاد  
 اشحانا للبرج من المرتدين أهل القرية وشرذمة أخرى من النصاري وشيا  
 كثيرا من الطعام والعدة وآلة الحرب وعمر أيضا برج الملاحة وشحنه  
 بمثل ذلك ورحل إلى بلاده من قشتالة فبعد ارتحاله بأيام قلائل خرج أهل  
 غرناطة مع أميرهم محمد بن علي إلى قرية البذول وقاتلوا من بهام النصاري  
 والمرتدين حتى فتحها الله تعالى ودخلوها عنوة وفتح الله ذلك الالميم  
 كله ودخل في ذمة المسلمين فرجم أهل غرناطة إلى بلادهم فرحين  
 مستبشرين بنصر الله تعالى (١) فبعد وصولهم وردت عليهم ارسال من  
 قبل قرى البشارة يطلبون من الامير محمد أن يقدم عليهم بجيش المسلمين  
 ليدخلوا في ذمته فخرج اليهم من غرناطة في بقية رجب المذكور بجماعة  
 المسلمين من أهل غرناطة فتصد قرية الانجرون من قرى البشارة  
 قتل هنالك وانجلي من كان هنالك من النصاري والمرتدين

فلما كان شهر شعبان من سنة التاريخ بعث من بالبشارة إلى الامير  
 بغرناطة يعلمه ان هذه الجهات التي بقيت مع النصاري بعثوا أن يقدم الامير

(١) وترك الامير وزيره بجماعة انجاد الفرسان يقاقل من بقي . . . من

النصاري والمرتدين . اهـ من حاشية الاصل المطبوع

محمد بن علي عليهم ليدخلوا في ذمته فبرح (١) الامير على أهل نهمدة فرسان  
غرناطة وخرج بهم في العشر الاول من عام التاريخ يريد البشرية فقصده حصن  
اندرش وكان به الامير محمد بن سعد وجماعة المرتدين فلما سمع بقدم  
الامير محمد بن علي بجيش أهل غرناطة خرج بمن معه من المرتدين هاربا  
مهمزوما الى مدينة المرية ورجع كثير ممن كان معه الى المسلمين ودخل أمير  
غرناطة بمجملته حصن اندرش واسترجعت تلك الجهات كلها الى الاسلام كما  
كانت أولا من غير حرب ولا قتال وسمع من كان ببرجة ودليل بذلك  
فهربوا ورجعت ايضا تلك الجهات كلها الى المسلمين فرتب الامير محمد بن  
على هناك قوادا وفرسانا وارتحل نحو غرناطة فدخلها في نصف من شعبان  
عام خمسة وتسعين وثمانمائة بمن معه من جيوش المسلمين وعاليتهم فرحين  
مستبشرين بنصر الله تعالى وتأيدده

فلما كان العشر الاول من شهر رمضان عام التاريخ أتت طائفة من  
المرتدين والنصارى فغلبوا على حصن اندرش فهاكوه وفر منه من كان به  
من فرسان المسلمين لانهم كانوا شرذمة قليلة واتاهم مالا طائفة لهم به وفي  
السادس من شهر رمضان عام التاريخ خرج ملك غرناطة بمجملته نحو قرية  
همدان يريد فتحها وأمر باخراج العدة وآلة الحرب وكان بالقرية المذكورة  
جماعة من فرسان النصارى دمرهم الله والمرتدين من أهل القرية وكان  
ملك النصارى بنى حول برجها بنيانا عظيما منيعا بأنواع من بناء الحرب  
وخندقته وحصن برجها تحصينا منيعا وأشحنه بكثير من الطعام وآلة

(١) أهل المغرب يستعملون رح عليه بمعنى نادى وهو من البراح بمعنى

الامر البين والجهير



الحرب والمنعة يظهر لمن رآه أن لا طاقة لاحد بأخذه لما يراه من تشييد  
بنائه وتحصينه وتشعب أسواره وظن أهل غرناطة أنهم لا طاقة لهم  
بأخذ ذلك ولا فتحه فحين نزل أهل غرناطة معاً يرمهم بقرية همدان فتحصن (١)  
من بها من الصاري والمرتين بحصنهم ودارت بهم جيوش المسلمين من  
كل جانب بالقتال الشديد حتى قربوا من السور الاول فجعلت كل طائفة  
من المسلمين نقبا حتى دخلوا معهم في الحزام الاول ثم في الثاني ثم في الحزام  
الثالث حتى الجثوم الى داخل البرج وذلك بعد محاربة و قتال شديد  
واستشهد فيه جماعة من المسلمين رحمهم الله تعالى فحين وصل المسلمون الى  
أصل البرج أخذوا في نقبه فجعلوا ينقبون ويدعمون بالخشب الى أن انقبوا  
فيه نقبا كثيرا فلما رأى من في البرج أن النقب قد كثر خافوا من اهدام (٢)  
البرج عليهم ويهلكوا (٣) فاعطوا البرج واذعنوا للأسر فأسروا عن آخرهم  
ومن معهم من المرتدين واحتوى المسلمون على ما كان في البرج من الطعام  
والعدة والاموال ونحو مائة وثمانين أسيراً

ثم أقبل الأمير بمحلاته راجعاً الى غرناطة في اليوم الحادي عشر  
لرمضان المعظم عام التاريخ وفرح المسلمون بما منحهم الله وفتح عليهم فرحاً  
شديداً فأقام الأمير بها الى الثامن عشر من رمضان المذكور عام التاريخ  
ثم نادى مناديه في كافة أهل غرناطة من خاص وعام وكبيرهم وصغيرهم

« ١٥ » كذا ولعل أصله تحصن لانه متعاق حين وما بعد ان ولا يمل فيما قلها ، اه  
مصحح الطبع

(٢) يقال هدم البناء وهدمه بالنشديد ولم ينقل وأهدمه فلعله تحريف (٣) وفي  
نسخة ويهلكون

أمرهم بالاستعداد والخروج الى مدينة المنكب يريد فتحها فخرج بعد صلاة الجمعة من ذلك اليوم بمحله فجاز على قرية البذول فأمر بهدم برجها ثم سار نحو الساحل فاجتاز حصن شلوبانية فتحصن من بها من النصاري والمرتدين بمحصنهم وقاتلوا المسلمين فزحفت اليهم جموع المسلمين وقاتلهم قتلا شديداً حتى دخلوا الحصن والجثثهم الى القسبة فتحصنوا بها ودار بهم المسلمون من كل جانب ومنعوا لهم (١) الماء وضيقوا عليهم في الحصار حتى نفدت الخيل والدواب من شدة ما لحقهم من العطش فأقام عليهم المسلمون بقية رمضان وهم طامعون في فتح الحصن واذا بخبر جاء الامير أن طاغية الروم خارج بمحله نحوهم يريد غرناطة في ثالث شوال عام تاريخه فأقاموا بها نحو ثلاثة أيام أو أربعة واذا بملك النصاري أقبل بمحله ونزل مرج غرناطة ومعه طائفة من المرتدين والمدجنين يدلونه على عورات المسلمين ويعينونه عليهم فجعلوا يقطعون الذرة والكرمات ويفسدون والمسلمون على قلتهم وضعفهم صابرون على القتال محتسبون لله تعالى ويقتلون من الكفار خلقا كثيراً حتى منعوهم عن فساد كثير من الذرة والكرمات التي بالفحص (٢) فأقام نازلاً عليهم نحو ثمانية أيام وأمر باخلاء برج الملاحة وبرج رومة وهدمهما وارتمل يريد بلاد قشتالة فر في سيره على برج اللوزات فأمر بهدمه ثم انطلق الى مدينة وادي آش فأخرج من كان بها من المدجنين ولم يترك بها ولا في ارباضها أحداً منهم فخرجوا من مدينتهم

«١» لعل أصله ومنعواهم فانه يقال منعه الشيء ومنعه منه وعنه . اهـ مصحح الطبع

(٢) الفحص الرض

أذلة صاغرين فتفرقوا على القرى وأمر بهدم قصبة أندرش وثقل (١)  
أولئك المرتدون الذين كانوا بها وأميرهم محمد بن سعد ولم يبق لهم عند  
صاحب قشالة جاه ولا حظوة فمنهم من جاز مع الأمير محمد بن سعد لعدوة  
وهران ومنهم من رجع إلى المسلمين ومنهم من أقام مع النصارى

ثم ارتحل ملك الروم إلى داخل بلاده لأمر مهم حدث له هنالك وفي  
أواخر شوال تغلب المسلمون على أندرش وما يليها ودخلت في ذمة المسلمين  
ثم صار المسلمون إلى حصن مرشانة فحاصروا من كان بها من النصارى وقتلوه  
حتى نزلوا للأسر واسترجعت تلك المواضع والجمعات للمسلمين فلما رأى  
أهل قرية فنيالة استرجاع من جاورهم الإسلام أرادوا القيام على من في  
قصبتها من النصارى فخادهم النصارى بالكلام وبعثوا إلى صاحب وادي  
آش فقدم عليهم بمن معه من النصارى فأحاط بقريتهم من كل جانب  
ومكان وقتلوه قتالا شديدا ودخلوا عليهم القرية وهبط من كان في  
القصبة من النصارى وقتلوا كثيرا من رجال المسلمين واستولى النصارى  
على جميع ما كان بالقرية من الرجال والنساء والصبيان والأموال وساروا  
بهم إلى داخل بلادهم مأسورين

فلما رأى أهل قرى سند وادي آش ما اتفق لأهل قرية فنيانة خافوا  
أن يتفق لهم كذلك فبعثوا لأمير غرناطة يستنصرون ويطلبون . أنه أن يسير  
اليهم بأهل غرناطة ودراهم فبرفعون ما معهم من الامتعة والأوال والزرع  
وغير ذلك فخرج اليهم أمير غرناطة بأهل البلد في الثالث عشر لذي القعدة

(١) ثقل القوم انكسروا وفي لغة العامة بالشام تفرقوا . وفي اللسان  
وفيل القوم يفلقهم فلا همهم فانتقلوا وتقللوا ، وهم قوم قل : منهزمون

عام التاريخ يريد نصرتهم ورفعهم من قراهم فنزل بقربة ونجر فاقام بعض أيام  
ثم ارتحل من قرية ونجر إلى قرية شريش من قرى وادي آش فنزل  
هنالك وأقام بها نحو ثمانية أيام وبعث لدواب غرناطة وما يليها من القرى  
وصاروا ينقلون الزرع من قرى وادي آش ويحملونه إلى غرناطة فحملوا  
منه زرعاً كثيراً إلى غرناطة وونجر وأمر الأمير محمد بن علي باخلاء تلك  
القرى وأرناهم عن آخرهم بأهالهم ونسائهم وصبيانهم وما قدروا على حمله  
من أموالهم وزرعهم ومواشيهم وكان في تلك القرى من القمح والشعير  
والذرة شيء كثير لا يطاق على وصفه فبلغ الأمير محمد بن علي أن النصاري  
دمرهم الله قد جمعوا له فارتحل من قرية شريش راجعاً إلى قرية ونجر  
ثم دخل غرناطة آخر النهار في الثالث والعشرين لذي القعدة عام تاريخه  
ثم إن النصاري دمرهم الله لما رأوا أهل تلك القرى قد فروا بأنفسهم إلى  
أرض المسلمين واخلوا قراهم (أظهروا لهم الأمان من رجوع إلى قريته أمن  
فرجم كثير إلى قراهم) وركنوا إلى قول النصاري ودخلوا في ذمتهم ولم  
يزالوا يرجعون إلى مواضعهم حتى لم يبق منهم في أرض المسلمين إلا القليل  
وفي الثاني عشر لجمادى الآخرة عام ستة وتسعين وثمانمائة خرج ملك  
قشتالة بمحلاته إلى خص غرناطة وكان ذلك بموافقة العشر الآخر من شهر  
أبريل المجي والزرع أخضر فافسدوا زرعها ودوخوا أرضها وهدموا  
قراها ثم سار إلى قرى الأقليم فافسد زرعها وهدم قراها وقتل ناساً وأسرى  
آخرين وعاد إلى خص غرناطة ونزل بمحلاته بقربة عتقة ثم شرع في البناء  
هنالك مسوراً (١) كبيراً في أيام فلاث وسماء شنتي وصار يهدم القرى ويأخذ  
(١) ضبط بفتح الميم مشددة ولعله مفعول لفعل سقط من النسخ أي فبنى مسوراً

ما فيها من آلة البناء ويجعله على العجل (١) ويجعله الى ذلك البلد الذي بني ويعني به وهو مع ذلك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالاً شديداً وحارب ملك الروم أبراج القرى الدائرة بغرناطة وأخذها ولم يبق عليه الا قرية الفخار فلم يزل يلح عليها ويحارب عليها بخيله ورجله ويطمع أن يجذبها فرصة فلم يقدر على شيء حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى لان المسلمين كانوا ياحون على حمايتها خوفاً أن يملكها الروم فتكون سبباً لخلاء قرى الجبل واحصار البلد فلم يزالوا يدافعون عنها ويقاتلون من قصدها حتى قصر عنها العدو لكثرة ما قتل له عليها من خيل ورجال

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم تارة في أرض الفخار وتارة في أرض بليانة وتارة في أرض رसानة وتارة في أرض طفير وتارة في أرض يسمور وتارة في أرض الجدوي وتارة في أرض رملة أفلوم وتارة في أرض الربيط وتارة في وادي مننتيل وغير ذلك من المواضع التي على غرناطة وفي كل ماحمة من هذه الملاحم أئمن ناس كثير من انجاد المسلمين بالجراحات ويستشهد آخرون ومن النصارى أضعاف ذلك والمسلمون في ذلك صابرون محتسبون واثقون بنصر الله تعالى يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلوب صافية ويمشي منهم لرجال في ظلام الليل لمحسلة النصارى ويتعرضون لهم في الطرقات فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقروغنم ورجال وغير ذلك حتى صار اللحم بالبلد ن كثرته رطل بدرهم ومع هذا لم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين بسبعة أشهر

انى أن فنت خيل المسلمين بالقتل ولم يبق منها الا القليل وفي أيضا كثير من نجد الرجال بالقتل والجراحات وفي هذه المدة المذكورة انجلى كثير من الناس الى بلاد البصرة لما نالهم من الجوع والخوف وكان الطريق للبصرة على جبل شلير وكان يأتي للبلد من البصرة على ذلك الطريق خير كثير من القمح والشعير والذرة والزيت والزبيب وغير ذلك من الفواكه والسلم وما زال حال البلدي ضعف ويقل من الطعام والرجال الى أن دخل شهر المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ودخل فصل الشتاء والتلج نازل بالجبل وقطع الطريق من البصرة فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرا من الناس وكثر السؤال والسدوساكن في بلده ومحلاته وقدم منع النجاص كله ومنع المسلمين من الحرث والزراعة وقطع الحرب في هذه المدة بين الفريقين فلما دخل شهر صفر من عام التاريخ اشتد الحال على الناس بالجوع وقلة الطعام وأدرك الجوع كثيرا من الناس المؤسرين فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والامناء والاشياخ والعرفاء ومن بقي من انجاد الفرسان ومن له نظر بغرناطة وساروا الى أميرهم محمد بن على فاسأموه بحال الناس وما هم عليه من ضعف وشدة الجوع وقلة الطعام وان يمد لهم يد كبير لا يقوم به طعام مجلوب فكيف ولم يجلب اليه شيء وان الطريق الذي كان يأتيهم عليه الطعام والفواكه من البصرة انقطع وان انجاد فرسانهم هلكوا وفنوا ومن بقي اتخن بالجراحات وقد امتنع عنهم الطعام والزرع والحرث وان رجاءهم هلكوا في تلك الملاحم واخوانا المسلمون من أهل عدوة الغرب لم يأتوا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا واغاثتنا وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا وهو يزداد قوة ونحن

تزداد ضعفها والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا وهذا فصل الشتاء قد دخل ومحنة عدونا قد تفرقت وضمفت وهو قد قطع عنا الحرب وان تكلمنا معه الآن قبل منا واعطانا كل ما نطلب منه وان بقينا حتي يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع ما بالحققنا نحن من الضعف والقلة فلان يقبل منا ما نطلبه منه ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا فانه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عوراتنا ويستعين بهم علينا. فقال الامير محمد انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم، فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم، وزعم كثير من الناس ان أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم بينهم وبين ملك الروم النازل عليهم الكلام في اعطاء البلد الا انهم خافوا من العامة وكانوا يحتالون عليهم بلاطفونهم فحين أؤوهم بما أضروا عليه أعزؤهم من حينهم ولا جل ذلك فطم الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكا مع العامة فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغبا فيه فأنعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم: يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرّمون الا الزكاة والعشر لمن اراد الإقامة ببلدة غرناطة، ومن اراد الخروج منها يبيع اصله بما يرضاه من الثمن لمن يريد من النصراري والمسلمين من غير غبن، ومن اراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع اصله ويحمل امتعته ويحمله في مراكبه الى اي ارض اراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين، ومن اراد الإقامة من

المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ما ذكر. وكتب لهم بذلك كتابا وأخذوا عليه عهودا ومواثيق في دينه منازعة على ان يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على اهل غرناطة فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته وكتبوا بيعتهم وارسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسمحو له في الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك امر امير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخابت دورها وقصورها ومنازلها واقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة اقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء واقام ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من اهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من اهل البلد ليطمئن بذلك فاعطوا خمسمائة رجل منهم واقعدهم بمحلته حينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من اهل البلد ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائدا من قواده وانصرف راجعا الى محله وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه وقدم في البلد قوادا وحكاما وبوابين وما يحتاج اليه من الامور وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولما سمع اهل البشارة ان اهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالاندياس فاما الله وانا اليه راجعون



ثم إن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين واقبل في جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة الحراء في بضع خواصه وبقي الجند خارج البلد وبقي يتنزه في الحراء في القصور والمنازه المشيدة إلى آخر النهار ثم خرج بجوده وصار إلى محله فن غدا أخذ في بناء الحراء وتشبيدها وتحصينها وإصلاح شأنها وفتح طرقها وهو مع ذلك يتردد إلى الحراء بالنهار ويرجع بالليل لمحله فلم يزل كذلك إلى أن أطمأت نفسه من غدر المسلمين حينئذ دخل البلد ودار فيه في نصر من قومه وحشمه فلما أطمأن في البلد سرح لهم الجواز واتامهم بالمراب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنته وأرض حرثه وكرمه وفدائه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة وأمرهم بالمسير إلى الساحل بما معهم فبرفهم النصارى في البحر محترمين مكرمين ومؤمنين وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقهرهم بذلك وليثبتهم عن الجواز، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشترؤا أموالاً رخيصة وامتعة وعزموا على الجلوس مع النصارى ثم إن ملك الروم أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة إلى بقرية اندرش من قرى البشارة فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله

وابتاعه فنزل قرية اندرش وأقام بها ينتظر ما يؤثر به ، ثم ان الطاغية ظهر له أن يصرف الامير محمدا الى العدو فامر به بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمربي عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة العرب ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله ، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الامير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ولم يجوز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمنعم وعشر الممال

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا ( ١ ) الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطم لهم الاذان من الصوامع وامرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى فخرجوا اذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصروا كرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، ( ١ ) وهذه أيضا من الامور التي لها نظائر كثيرة في تاريخ الاستعمار .

وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمذورين، لم يقدرُوا على الهجرة والاحق باخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتت ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون اولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للاوثان، وياكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أتم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرُونَ على منهم، ولا على نهيم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، وعذب بأشد العذاب، فيألفها من فجعة ما أمرها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً أنه على كل شيء قدير

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش ربانيق فجمع عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم، ونصرهم واستعبدتهم، الآن ناساً في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل وعز منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سميه وردّه على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد.

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طالب منهم أن يعطيهم الامان بجوزهم لعدوة الغرب مؤمنين فانعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من

أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا  
عليه ، ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع  
القرى والبلدان ، وانطفي من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا  
قلبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك  
في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لامره ، ولا  
قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه  
وسلم تسليماً الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين

نجز كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة

بني نصر يوم الثلاثاء الرابع

والعشرين من جمادي

الثانية من

عام ٩٤٧



# اثارة تاريخية

في

أربعة مراسيم سلطانية



صادرة

عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر

الى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم

بين سنتي ١٤٧٠ و ١٤٧٥



طبعت عن نسخة مطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣

## المرسوم الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً من عبد الله أمير  
المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير  
المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله  
ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيده الله  
بنصره، وأأمده بيسره، إلى الفارسين المكرمين الزعيين الحسينيين المشكورين  
الوفيين ذون دياقه هراس المرشكال ومرتين الهنشة ذي منت ميون  
صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهداه، سلام يراجع سلامكم  
كثيراً أثيراً، كتبنا اليكم من حراثنا المليمة بفراطة حرسها الله عن الخير  
والعافية والحمد لله

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان أنه وصل كتابكم وفهمنا جميع  
ما ذكرتم فيه فشكرنا تعريفتكم وقصدكم وأتينا على محبتكم وودتكم وشكرناكم  
على وصولكم للقبذيق وعلى إظهار المحبة التي لاشك فيها فأنتم - علم الله - عندنا  
من أحبائنا الأوفياء، وأصدقائنا الأصفياء، وبسبب أنه وصلنا التعريف  
أن ذون الهنشة والفارسان جازوا على توجه وزيره قاءنا الجهة وادي آش ولاجل  
أنه توجه سرعاً ولم يصح عندنا من الأخبار شيء بصحيح ما عرفكم بشيء  
فتريدكم أن لا تزالوا تعرفونا بما يزيد عندكم وكذلك نحن نعرفكم بما يزيد  
عندنا، وجميع حوائجكم عندنا مقضية والله يعمل كرامتكم بتقواه  
كتب في (الناسم) عشر لربيع الأول عام خمسة وسبعين وثمانى ما (يه) صبح هذا

## بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ليعلم من يقف على هذا  
المكتوب الكريم أو يسمعه أننا عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا  
أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين  
أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن  
أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيدنا الله بنصره... وأمدنا يدره...

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى ذون  
دياقه هرندس ذي قرطبة قندقبره بن قند حصن اشرو صاحب بيانه وقائد القلعة  
والفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور مرتين الهنشه ذي منت ميور  
صاحب القبزيق والفارس المكرم الحسيب الزعيم المشكور ينفش بنيفش  
صاحب لك والبندين اكرهم الله بتقواه صالح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة  
خالصة، منعقدة لا مدم معلوم، ولا جل أن هذه المحبة التي بين مقامنا وبين  
الفرسان المذكورين هي تزداد في كل يوم وفي كل حين ونحن نريد أن تزيد أكثر  
من ذلك وأنا نجددها الآن، وإن ندخل في الصلاح والمحبة الفرسان المكرمين  
ييفش بنيفش صاحب لك والبندين وذون دياقه هرندس المرشكال بقشالة  
والوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قند دور استبه اولاً القند ذي قبره  
فلاجل ذلك تعلمون أيها الفرسان المكرمون والاحباب المشكورون ذون  
دياقه هرندس ذي قرطبة قندقبره وبن قند حصن اشرو صاحب بيانه وقائد

القلمة ومرتين الهنشه ذي بنت بيور صاحب القبذيق ويغش بنيغش صاحب لك والبندين وذون دياقه هر نندس المرشكال بقشتالة الوزير الكبير بقرطية وذون مرتين قند دور استبة اكرمكم الله بتقوا ان مقامنا الكريم يعقد ويحدد معكم صلحا صحيحا ر محبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة اعوام اعجمية متواليه يكون اولها اول يوم من شهر ينير الاعجمي مفتتح عام اثنين وسبعين واربعمئة والى لتاريخ المسيح ويكون ثامها آخر يوم من شهر ذجنسهر الاعجمي عام احد وثمانين واربعمئة والى لتاريخ المسيح المذكور على ان نكون احباب احبابكم واعدا اعدائكم وان ندينكم في جميع الامور التي تحتاجون اليها في وطنكم بقدر جهدنا على جميع اعدائكم من اى صنف كانوا للعدة التي تريدونها وفي الوقت الذي تعرفونا بحاجتكم في الاغاثة او توجروا رسواكم في طلب ذلك نعينكم بقدر جهدنا، وكذلك نعرفكم ايها الفرسان المكرمون بجميع ما نلزمه او نتعرفه من سر أو غيره مما لا يكمل لحرمتكم نعرفكم بذلك سريعا مع رسول صادق معروف لاجل ان تجعلوا خلاصا في ارضكم قبل وقوع الفساد، واذا نيز ضررا لجهتكم نجتهد في تبعيده عنكم، وان ميزنا فائدة أو مصلحة لجهتكم نجتهد في تنزيها لكم، ونحفظ المودة والصحة المنعقدة بيننا وبينكم في الاقول والافعال،

واعلموا ايها الفرسان المكرمون المذكورون ان اولادنا الامراء اسعدهم الله يحفظون لكم هذا الصالح وهذه المحبة والصحة، ثلما نحفظهم نحن بخاصة مقامنا الكريم فانكم من أجل احبابنا الاوفياء، وأصدقائنا الاصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء، فجانبكم عندنا محفوظ ومحبتكم صعبة ثابتة، لا نشك في صدق محبتكم ولا في خلوص مودتكم، ونحن نعهدكم على صحة جميع ما ذكرنا



لكم ونحلف لكم بالله الواحد الحق على أن كل ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه ونحرمه بالقدر والوفاء في كل وقت من غير غدر ومن غير خداع . ولاجل أن يكون هذا العقد صحيحا وثابتا ختمناه بعلامتنا السعيدة الصادرة من يدنا الكريمة وجعلنا عليها طابعنا العزيز المهرود عن مقامنا الكريم . في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمانمائة عرف الله بحكمته . صبح هذا

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر ، أيده الله بنصره ، وأمدده بإسره ، إلى الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأول في دون دياقه هرندس ذي قرطبة قند قبره بن قند حصن أشرف صاحب بيانه وقائد البلمة أكرمه الله بتقواه وأسعده بهداه

سلام راجع سلامكم كثيرا أثيرا كتبناه اليكم من الجراء العلية بفرناطة حرسه الله عن الخير والمافة ولحمد لله وإلى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرم والقند المرفع . وصلنا كتابكم صحيفة القائد جوان يناذه واسنوفينا ما ذكرتم فيه وأمرنا وزير مقامنا الكريم أسعده الله أن يتحدث معه ويقرر

له قصد مقامنا العلي أعلاه الله حسبا يخبركم به وما ذكرتموه عن وجهتكم  
وسفركم لسلطان قشتالة صديقنا أكرمهم الله بتقواه فاذا صاحبتكم في ذلك  
فتوجهوا ان شاء (الله) بالسلامة واعلموا أيها القند المرفع أن حبيينا ولدكم  
المرشكال أكرمهم الله بتقواه وأرضكم تكون منا ببال وما يعاملهم الا ما يرضيهم  
والذي وقع ما وقع الا بأسباب يقررها لكم المذكور ولا نشك ان فرساننا  
اخطأوا في بعض ما نضر ولا كن محبتكم عندنا معلومة فلا تشكوا في ذلك  
ولا تمتدوا خلافة ، ويريد منكم ان توصوا اهل القلعة ان لا يخرجوا  
عن الواجب وكل مالكم من الخواشيج نعمل فيها ما يرضيكم ، والله يعمل  
كرامتكم بتقواه

كتب في الرابع والشرين من الربيع الاول عام ثمانين وثمان مائة ،  
صبح هذا

Adresse au verso :

الفارس المكرم الزعيم الحسيب الاوفى  
ذوق دياقه هرندس ذى قرطاية قند قبره  
بن قند حصن أشرسا صاحب بيانه وقائد القلعة  
أكرمهم الله بتقواه



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله  
امير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا امير المسلمين ابي النصر ابن الامير  
المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي عبد الله  
ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيدى  
الله بنصره وأمدده بيسره الى النارسين المكرمين الزعيمين المشكورين  
الوفيين الاحبين ذوق دياقه هرندس المرشكال بقشتالة ومرتین الهنشيه  
ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه، ووفقهما بهداه سلام  
يراجع سلامكم كثيرا أثيرا كتبنا اليكم من الخراء العلية بفرناطة حرسها  
الله عن الخير والعافية والحمد لله والى هذا فاعلموا أيها الفرسان المكرمون  
انه وصلنا كتابكم واستوفينا ما ذكرتم فيه فشكرنا قصدكم ومحبتكم  
والامان الذي طالبتكم به يعماكم كرامة لكم وقد أمرنا وزير مقامنا العلي  
أسمعه الله يكتب لكم بالغا حسبما يعملكم فاعلموا هذا وكل ما لكم من  
الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم والله يعمل كرامتكم بتقواه وكتب في  
الرابع عشر لجمادى الآخرة عام ثمانين وثمان مائة، صح هذا ما

adresse au verso :

الفارسان المكرمان الزعيمان

ذوق دياقه هرندس المرشكال ومرتین الهنشيه

ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه

## النحري في كتاب

أخبار العصر في انقضاء دالة في نصر

والمراسيم الاربعة التي تليه

بينما نحن في تجديد طبعم هذا الكتاب « آخر بني سراج » مع ذيله في أخبار  
الانداس لاسيما حادثة سقوط غرناطة اذ ظفرتنا بنسخة من كتاب « أخبار  
العصر في أخبار دولة بني نصر » مطبوعة في مدينة منبج عاصمة باقارية سنة ١٨٦٢  
وقد عني بطبعها وتعليق بعض حواش عليها ونشر ترجمة ألمانية للاصل العربي  
في آخرها مستشرق يقال له « مارك يوس من الر » ولم يرد في هذه النسخة اسم  
مؤلف الكتاب . فأثرنا ضم هذا التأليف أبصاً الى آخر بني سراج وذلك لما رأينا في  
أولاً لان جل غايتنا من البداية هو التتقيب والاحفاء في قص آثار العرب  
الاخيرة في ديار الانداس

ثانياً لكون الكتب العربية المصنفة في هذا الموضوع نزرأ جداً كما أشرف  
اليه في مقدمة القليل وكما قال المستشرق مولر المار الدار في المقدمة الوجيزة  
الالمانية التي صدر بها طبعة « أخبار العصر في انقضاء دالة بني نصر » المذكورة  
فانه قال : انه في العربية لا يوجد الا منابم قليلة جداً لا خمار مصيبة مسلمي  
غرناطة وان خلاصة المقرئ ( صاحب نفح الطيب ) في هذا الصدد واضحة  
المقص والآن عندنا خلاصة اخرى مخطوطة وجدت في قصر الاسكوريال  
( الشهير الواقع على مسافة ٥٠ يلوامترا من مجريط أو مدريد ) ولم يرد ذكرها  
في فهرست « كزيري »

ثالثاً لان صاحب هذا التاريخ كان معاصراً لكثيرة الاندلسية الالية فقد  
جاء في آخر الكتاب انه نجح يوم انشرته ٢٤ من جمادى الثانية من عام ١٤٧  
ويظهر من روح الكتابة انها كتابة رجل معاصر ويلوح لي أن المقرئ أخذنا  
وقد أشار المستشرق مولر في صدر ناطة الى انه مع كل ما هو عليه هذا  
المخطوط من الوجازة فلا تخو مقالاته من انفاثه لانه نص شاهد عيان كان  
في الحادثة بنفسه وروى أخبار بسلامة بني حلالته وسياسة الخيانة والغدر التي  
سار عليها ملوك الاسنان رواية صريحة محترقة انقواد

ولا ككل الفائدة ألحقنا « أخبار العصر في نقضه دولة بني نصر » بمجنونه  
صغيرة تحتوي على أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي  
النصر بن أبي الأحمر إلى بعض مرسلات الأسبانية وعمره ثوبان . هذه قد بقيت  
لنا مطبوعة بإي سنة ١٨٠٣ بمصرية المسمى هـ نويغ : « ذوق » . عنوانها  
( أربعة كتب مرسلات من أبي الحسن . . . . . ) . آخر ملوك غرناطة ( محررة  
بين سنتي ١٤٧٠ و ١٤٧٥ ولف . . . . . ) . . . . .  
المذكور مع مقدمة قيمة وحوش . . . . .  
مواضع بالمستشرة ، إلا في . . . . .  
طبعة بمصنوع سنة ١٨٦٥ . . . . .  
سنة ١٧٥٨ من الأسبانية ، . . . . .  
( ١٤٩١ ) في وصف الحانة إلى آل . . . . .  
تحقيقه أن الأمير محمد بن . . . . .

ومنها قوله أن ملوك غرناطة كانوا يلقونهم بـ « أمير المسلمين »  
قتله لاثر يوسف بن ناصر الذي كان يلقب بـ « بامع الله » . . . . .  
أمير المؤمنين ) لدى . . . . .  
علياً بن الأحمر كان يلقب بـ « بامع الله » . . . . .  
كما هو مكتوب على جدران الحمراء إلى . . . . .  
إلا الله » وأنه يوجد في مخدع المسكوكات بمرساة قطعة كبيرة من الفضة على  
شكل دائرة في وسطها مربع مكتوب فيه « بامع الله » . . . . .  
ابن سعد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر أيده الله  
ونصره وفي أحد جوانب الدائرة مكتوب ( لا غالب إلا الله ) ومن الوجه الآخر  
دائرة أيضاً فيها مربع في ضلعه آية من القرآن وعلى جوانب الدائرة ( طبع بمدينة  
غرناطة حرسها الله )

سكيب اسسونه

تمت الرواية ونهاها والله

## فهرس رواية اخربني سراج

صفحة	مقدمة المترجم	صفحة	ميل الدون كارلوس الى تزويج أخته
٢	جلاء عرب الاندلس الى افريقية	٣٩	من لوترك
٤	بنو سراج في تونس	٣٩	إصرار ادماء على الزواج بابن حامد
٨	ذهاب ابن حامد السراجي الى	٤٠	ان تنصر
٩	الاندلس يقتص آثار آياته	٤٠	مبارزة الدون كارلوس وابن حامد
١٣	وصوله الى غرناطة ووصفها	٤٦	وتغلب هذا على قرنه وابقاؤه عليه
١٦	تلاقي ابن حامد بحسنة اسبانيا معها	٤٨	حيا بشقيقةته
١٧	ادماء وهيامه بها	٥٢	انادية التي اجتمع فيها الفرسان الثلاثة
١٨	سماعه إياها تنشد أناشيد فيها ذكر	٥٣	وادماء
١٩	حروب المغاربة وآل سراج	٥٤	الاناشيد التي تغنوا بها وهم يعزفون
٢٢	ظهور ان هذه الغادة الحسنة هي	٥٦	بآلات العارب
٢٣	سلالة آل بيفار الذين منهم السيد	٥٧	معرفة السراجي من نشيد الدون
٢٤	بطل رواية الشاعر الفرنسي كورنايل	٥٨	كارلوس انه سلالة السيد العدو الأكبر
٢٧	والد الأميرة الحسنة الدوق لذريق	٥٩	لآل سراج
٢٨	أخوها الدون كارلوس أحد الأبطال	٥٩	معرفة الدون كارلوس وأخته
٢٩	تمشق ادماء البيفسارية لابن حامد	٥٩	والفارس لوترك ان ابن حامد هو آخر
٣١	تنزه الحببين في قصر الحمراء	٥٩	بني سراج
٣٢	وصف الحمراء	٥٩	عدول ابن حامد عن أخذ ادماء بسبب
٣٣	عزم ادماء على الزواج بابن حامد	٥٩	تذكاره مقتل السيد لا جداد وناكده
٣٤	على شرط ان يتنصر	٥٩	للو ترك نه مع غرامه بادماء لا يزاحمه عليها
٣٥	عزم ابن حامد على الزواج بادماء	٥٩	وأكد الفارس الفرنسي للفارس العربي
٣٦	لولا شرطها تركه الاسلام	٥٩	انه لا يزاحمه على حبيبته مادام يهواها
٣٧	ورود كتاب من تونس الى ابن حامد	٥٩	سهر ابن حامد قافلا الى افريقية
٣٨	بأن والدته على شفا الموت تريد أن	٥٩	واقطاع خبره
٣٩	تقبله قبلة الوداع	٥٩	بقاء الأميرة ادماء بدون زواج متيمة
٤٠	وداع ابن حامد لمحجوبته ادماء وسفره	٥٩	بحبيبها العربي هانمة أكثر الأحيان في
٤١	رجوعه الى الاندلس ونزوله بمالقة	٥٩	جبال مالقة تنظر الى البحر الذي كان
٤٢	حيث كانت الأميرة في انتظاره	٥٩	يطلع منه
٤٣	الفارس لوترك الفرنسي الشهير	٥٩	قبر آخر بني سراج في اطلال قرطاجنة

فهرس ملخص تاريخ الاندلس

صفحة	صفحة
١٢٠	٦٠ قصود التواريخ العربية عن الوفاء بشرح كائنة الاندلس الاخيرة
١٢٥	٦٣ ذكر بني سراج
١٢٦	٦٩ ذكر مملكة غرناطة
١٣٦	٧٢ ذكر أجل قواعد الاندلس
١٤١	٧٧ ذكر فتح الاندلس
١٤٢	٧٨ عبدالرحمن الداخل وبنو أمية
١٤٣	٧٨ المنصور بن أبي عامر
١٤٤	٨٢ بنو حمود الحسنيون
١٤٥	٨٣ بنو عباد اللخميون وبنو ذي النون
١٤٦	٨٦ بنو هود وبنو الافطس وبنو صمادح
١٤٧	٩٢ واقعة الزلاقة الشهيرة
١٤٨	٩٥ استيلاء يوسف بن تاشفين على الاندلس ونكبة المعتمد بن عباد
١٤٩	٩٦ ظهور الموحدين
١٥٠	٩٩ واقعة الارك الشهيرة والسلطان يعقوب من بني عبدالؤمن الذي استجاشه صلاح الدين الايوبي على الافرنج
١٥١	١٠١ واقعة العقاب الشهيرة التي محص بها المسلمون ودولة بني مرين
١٥٢	١٠٣ ملوك غرناطة بنو نصر الذين يقال لهم بنو الاحمر من الخزرج
١٥٣	١٠٤ اصهارم بنو اشقيلولة
١٥٤	١٠٥ استشعار المسلمين قرب سقوط الاندلس
١٥٥	١٠٨ - ١١٩ قصائد الاستغاثة
١٥٦	١٠٨ سينية ابن الابار الفضاغى
١٥٧	١١٦ نونية أبي البقاء الرندي
١٥٨	
١٥٩	
١٦٠	
١٦١	
١٦٢	
١٦٣	
١٦٤	
١٦٥	
١٦٦	
١٦٧	
١٦٨	
١٦٩	
١٧٠	
١٧١	
١٧٢	
١٧٣	
١٧٤	
١٧٥	
١٧٦	
١٧٧	
١٧٨	
١٧٩	
١٨٠	
١٨١	
١٨٢	
١٨٣	
١٨٤	
١٨٥	
١٨٦	
١٨٧	
١٨٨	
١٨٩	
١٩٠	
١٩١	
١٩٢	
١٩٣	
١٩٤	
١٩٥	
١٩٦	
١٩٧	
١٩٨	
١٩٩	
٢٠٠	
٢٠١	
٢٠٢	
٢٠٣	
٢٠٤	
٢٠٥	
٢٠٦	
٢٠٧	
٢٠٨	
٢٠٩	
٢١٠	
٢١١	
٢١٢	
٢١٣	
٢١٤	
٢١٥	
٢١٦	
٢١٧	
٢١٨	
٢١٩	
٢٢٠	
٢٢١	
٢٢٢	
٢٢٣	
٢٢٤	
٢٢٥	
٢٢٦	
٢٢٧	
٢٢٨	
٢٢٩	
٢٣٠	
٢٣١	
٢٣٢	
٢٣٣	
٢٣٤	
٢٣٥	
٢٣٦	
٢٣٧	
٢٣٨	
٢٣٩	
٢٤٠	
٢٤١	
٢٤٢	
٢٤٣	
٢٤٤	
٢٤٥	
٢٤٦	
٢٤٧	
٢٤٨	
٢٤٩	
٢٥٠	
٢٥١	
٢٥٢	
٢٥٣	
٢٥٤	
٢٥٥	
٢٥٦	
٢٥٧	
٢٥٨	
٢٥٩	
٢٦٠	
٢٦١	
٢٦٢	
٢٦٣	
٢٦٤	
٢٦٥	
٢٦٦	
٢٦٧	
٢٦٨	
٢٦٩	
٢٧٠	
٢٧١	
٢٧٢	
٢٧٣	
٢٧٤	
٢٧٥	
٢٧٦	
٢٧٧	
٢٧٨	
٢٧٩	
٢٨٠	
٢٨١	
٢٨٢	
٢٨٣	
٢٨٤	
٢٨٥	
٢٨٦	
٢٨٧	
٢٨٨	
٢٨٩	
٢٩٠	
٢٩١	
٢٩٢	
٢٩٣	
٢٩٤	
٢٩٥	
٢٩٦	
٢٩٧	
٢٩٨	
٢٩٩	
٣٠٠	
٣٠١	
٣٠٢	
٣٠٣	
٣٠٤	
٣٠٥	
٣٠٦	
٣٠٧	
٣٠٨	
٣٠٩	
٣١٠	
٣١١	
٣١٢	
٣١٣	
٣١٤	
٣١٥	
٣١٦	
٣١٧	
٣١٨	
٣١٩	
٣٢٠	
٣٢١	
٣٢٢	
٣٢٣	
٣٢٤	
٣٢٥	
٣٢٦	
٣٢٧	
٣٢٨	
٣٢٩	
٣٣٠	
٣٣١	
٣٣٢	
٣٣٣	
٣٣٤	
٣٣٥	
٣٣٦	
٣٣٧	
٣٣٨	
٣٣٩	
٣٤٠	
٣٤١	
٣٤٢	
٣٤٣	
٣٤٤	
٣٤٥	
٣٤٦	
٣٤٧	
٣٤٨	
٣٤٩	
٣٥٠	
٣٥١	
٣٥٢	
٣٥٣	
٣٥٤	
٣٥٥	
٣٥٦	
٣٥٧	
٣٥٨	
٣٥٩	
٣٦٠	
٣٦١	
٣٦٢	
٣٦٣	
٣٦٤	
٣٦٥	
٣٦٦	
٣٦٧	
٣٦٨	
٣٦٩	
٣٧٠	
٣٧١	
٣٧٢	
٣٧٣	
٣٧٤	
٣٧٥	
٣٧٦	
٣٧٧	
٣٧٨	
٣٧٩	
٣٨٠	
٣٨١	
٣٨٢	
٣٨٣	
٣٨٤	
٣٨٥	
٣٨٦	
٣٨٧	
٣٨٨	
٣٨٩	
٣٩٠	
٣٩١	
٣٩٢	
٣٩٣	
٣٩٤	
٣٩٥	
٣٩٦	
٣٩٧	
٣٩٨	
٣٩٩	
٤٠٠	
٤٠١	
٤٠٢	
٤٠٣	
٤٠٤	
٤٠٥	
٤٠٦	
٤٠٧	
٤٠٨	
٤٠٩	
٤١٠	
٤١١	
٤١٢	
٤١٣	
٤١٤	
٤١٥	
٤١٦	
٤١٧	
٤١٨	
٤١٩	
٤٢٠	
٤٢١	
٤٢٢	
٤٢٣	
٤٢٤	
٤٢٥	
٤٢٦	
٤٢٧	
٤٢٨	
٤٢٩	
٤٣٠	
٤٣١	
٤٣٢	
٤٣٣	
٤٣٤	
٤٣٥	
٤٣٦	
٤٣٧	
٤٣٨	
٤٣٩	
٤٤٠	
٤٤١	
٤٤٢	
٤٤٣	
٤٤٤	
٤٤٥	
٤٤٦	
٤٤٧	
٤٤٨	
٤٤٩	
٤٥٠	
٤٥١	
٤٥٢	
٤٥٣	
٤٥٤	
٤٥٥	
٤٥٦	
٤٥٧	
٤٥٨	
٤٥٩	
٤٦٠	
٤٦١	
٤٦٢	
٤٦٣	
٤٦٤	
٤٦٥	
٤٦٦	
٤٦٧	
٤٦٨	
٤٦٩	
٤٧٠	
٤٧١	
٤٧٢	
٤٧٣	
٤٧٤	
٤٧٥	
٤٧٦	
٤٧٧	
٤٧٨	
٤٧٩	
٤٨٠	
٤٨١	
٤٨٢	
٤٨٣	
٤٨٤	
٤٨٥	
٤٨٦	
٤٨٧	
٤٨٨	
٤٨٩	
٤٩٠	
٤٩١	
٤٩٢	
٤٩٣	
٤٩٤	
٤٩٥	
٤٩٦	
٤٩٧	
٤٩٨	
٤٩٩	
٥٠٠	
٥٠١	
٥٠٢	
٥٠٣	
٥٠٤	
٥٠٥	
٥٠٦	
٥٠٧	
٥٠٨	
٥٠٩	
٥١٠	
٥١١	
٥١٢	
٥١٣	
٥١٤	
٥١٥	
٥١٦	
٥١٧	
٥١٨	
٥١٩	
٥٢٠	
٥٢١	
٥٢٢	
٥٢٣	
٥٢٤	
٥٢٥	
٥٢٦	
٥٢٧	
٥٢٨	
٥٢٩	
٥٣٠	
٥٣١	
٥٣٢	
٥٣٣	
٥٣٤	
٥٣٥	
٥٣٦	
٥٣٧	
٥٣٨	
٥٣٩	
٥٤٠	
٥٤١	
٥٤٢	
٥٤٣	
٥٤٤	
٥٤٥	
٥٤٦	
٥٤٧	
٥٤٨	
٥٤٩	
٥٥٠	
٥٥١	
٥٥٢	
٥٥٣	
٥٥٤	
٥٥٥	
٥٥٦	
٥٥٧	
٥٥٨	
٥٥٩	
٥٦٠	
٥٦١	
٥٦٢	
٥٦٣	
٥٦٤	
٥٦٥	
٥٦٦	
٥٦٧	
٥٦٨	
٥٦٩	
٥٧٠	
٥٧١	
٥٧٢	
٥٧٣	
٥٧٤	
٥٧٥	
٥٧٦	
٥٧٧	
٥٧٨	
٥٧٩	
٥٨٠	
٥٨١	
٥٨٢	
٥٨٣	
٥٨٤	
٥٨٥	
٥٨٦	
٥٨٧	
٥٨٨	
٥٨٩	
٥٩٠	
٥٩١	
٥٩٢	
٥٩٣	
٥٩٤	
٥٩٥	
٥٩٦	
٥٩٧	
٥٩٨	
٥٩٩	
٦٠٠	
٦٠١	
٦٠٢	
٦٠٣	
٦٠٤	
٦٠٥	
٦٠٦	
٦٠٧	
٦٠٨	
٦٠٩	
٦١٠	
٦١١	
٦١٢	
٦١٣	
٦١٤	
٦١٥	
٦١٦	
٦١٧	
٦١٨	
٦١٩	
٦٢٠	
٦٢١	
٦٢٢	
٦٢٣	
٦٢٤	
٦٢٥	
٦٢٦	
٦٢٧	
٦٢٨	
٦٢٩	
٦٣٠	
٦٣١	
٦٣٢	
٦٣٣	
٦٣٤	
٦٣٥	
٦٣٦	
٦٣٧	
٦٣٨	
٦٣٩	
٦٤٠	
٦٤١	
٦٤٢	
٦٤٣	
٦٤٤	
٦٤٥	
٦٤٦	
٦٤٧	
٦٤٨	
٦٤٩	
٦٥٠	
٦٥١	
٦٥٢	
٦٥٣	
٦٥٤	
٦٥٥	
٦٥٦	
٦٥٧	
٦٥٨	
٦٥٩	
٦٦٠	
٦٦١	
٦٦٢	
٦٦٣	
٦٦٤	
٦٦٥	
٦٦٦	
٦٦٧	
٦٦٨	
٦٦٩	
٦٧٠	
٦٧١	
٦٧٢	
٦٧٣	
٦٧٤	
٦٧٥	
٦٧٦	
٦٧٧	
٦٧٨	
٦٧٩	
٦٨٠	
٦٨١	
٦٨٢	
٦٨٣	
٦٨٤	
٦٨٥	
٦٨٦	
٦٨٧	
٦٨٨	
٦٨٩	
٦٩٠	
٦٩١	
٦٩٢	
٦٩٣	
٦٩٤	
٦٩٥	
٦٩٦	
٦٩٧	
٦٩٨	
٦٩٩	
٧٠٠	

صفحة	صفحة
٢٢٠	ذكر عامر بن ادريس والاديب اص من
٢٢١	بنى مرين
٢٢١	عثمان بن ابي العلاء شيخ الغزاة
٢٢٥	ترسل اسان الدين بن الخطيب
٢٣٤	رهبا نيات النصرارى المرصدة
	لجاهدة المسلمين
٢٣٦	الحروب التي انتهت بسقوط غرناطة
٢٣٧	السلطان ابو الحسن علي بن الاحمر
	والحرب بينه وبين فرديناند وايزابلا
٢٣٨	سلطنة غرناطة نحو ٣٠ مصرأ ٨٠
	مدينة صغيرة
٢٣٨	مسلمو الاندلس يومئذ اربعة ملايين
٢٤٠	زوجتا السلطان ابي الحسن ابنة عمه
	عائشة الحرة وثريا الاسبانية
	ومتافستهما وهي من عوامل السقوط
٢٤١	نكبة الحامة
٢٤٤	الحرب على لوشة
٢٤٧	انتفاض ابي عبدالله محمد علي ابيه
	السلطان ابي الحسن ومبايعة غرناطة
	له وتحويل السلطان الى مالقة
٢٤٨	غزوات ابي الحسن في طريف
٢٤٩	الامير ابو عبد الله الزغل أخو
	السلطان ابي الحسن ووقائع
٢٥٠	هزيمة مركز قادس والكونت
	دوسية نتاز ورفاقهما
٢٥٢	وقوع السلطان ابي عبدالله بن السلطان
	ابي الحسن اسيراً ورجوع والده الى
	غرناطة
٢٥٤	اعادة ملوك الاسبانيول السلطان
	ابا عبدالله الى غرناطة لتأريث الفتنة
	بينه وبين ابيه
٢٥٤	الحرب الاهلية في وسط غرناطة
٢٥٥	وقائع رندة والصخرة
٢٥٧	نزول السلطان ابي الحسن عن الملك
	لاخيه الزغل
٢٥٨	فرار السلطان ابي عبدالله بن اخيه
	الملك الاسبانيول مستغيثا
٢٥٩	انتصار الزغل على الاسبانيول
٢٦٠	انتصار ر بضع البيازين من غرناطة
	لاى عبدالله بن اخي الزغل
٢٦٤	الحرب بين العم وابن اخيه
٢٦٧	وصول خير الاندلس الى المشرق
٢٦٧	مهادنة السلطان بايزيد العثماني
	لصاحب مصر واتفاقهما على اغائة
	الاندلس
٢٦٧	خيف فرديناند وايزابلا من مجيء
	اساطيل اسلامية لنجدة مسلمي
	الاندلس ومراقبتها للسواحل
٢٦٧	حصار مالقة
٢٦٩	سقوط بلش
٢٧٩	سقوط مالقة بعد وقائع شديدة
٢٨١	ككرة أبي عبد الله الزغل
٢٨٢	ككرة أهالي المرية وطبرنة وبرشنة
	وعارات المسلمين في بلاد الاسبانيول
٢٨٣	حصار فرديناند لبسطة
٢٨٤	تضييق فرديناند على بسطة وعجز
	الزغل عن امدادها خوفا من زحف
	ابن أخيه ابي عبدالله من غرناطة عليه
٢٩٢	حضور راهبين من بيت المقدس
	بأمر من سلطان مصر ومعهما كتب
	منه الى ملوك الاسبانيول وكتب من
	البابا ومن ملك نابولي بشأن الافراج



صفحة	صفحة
٣٢٧	عن مسلمي الاندلس اثلا يؤدي هذا التماذي في قهرهم الى الانتقام من مسيحي الشرق
٣٢٨	ارسال فرديناند وايزابلا انورخ بطرهم مارتير بسفارة الى سلطان مصر واعمال الخيلة في صرف الدولة المصرية عن الاهتمام بأمر الاندلس تسليم سطة بمد حصار ٦ أشهر ٢٠ يوما
٣٢٩	٣٠٠ تنصر سيدي يحيى قائد بسطة سراً ودخوله في خدمة الطاغية واقناعه السلطان ابا عبدالله الزغالي بدخول في طاعة ملوك الاسبانيول
٣٢٩	٣٠٥ دخول الزغل في طاعة الطاغية وتسليمه ما كان بيده من البلاد
٣٢٩	٣٠٦ فرح ابن أخيه السلطان ابي عبدالله الملقب بالشقيو بخبر تسليم عمه
٣٢٩	٣٠٦ ارسال فرديناند الى اشنتيتو النذير بوجوب تسليم غرناطة
٣٣١	٣٠٨ نشوب الحرب بين غرناطة والطاغية موسى بن ابي الغيسان روح الجهاد
٣٣٧	٣١٢ استيلاء السلطان ابي عبدالله على حصن همدان وحصن مارشنة
٣٣٨	٣١٣ حصار ابي عبدالله لمدينة شلو باية
٣٣٨	٣١٥ اخراج الطاغية اهالي وادي آش وبسطة والمرية من مساكنهم وجلاء اكثرهم الى افريقية
٣٣٨	٣١٦ زحف الطاغية على غرناطة وتخريبه وعينه في مروجها الخصبية
٣٣٨	٣١٨ وقائم بطل الابطال الامير موسى بن ابي الغيسان وهي من انظم العبر
٣٣٨	٣٢٤ احتراق معسكر الاسبانيول
٣٢٧	يتاء معسكر من الحجر صار مدينة اسمها «صنتافي» اي الايمان المقدس
٣٢٨	اشتداد الجوع بأهل غرناطة وخيبة آمالهم بوصول مدد من جهة ملوك الاسلام وعقد ابي عبد الله مجلسا حضره اعيان البلد واجماعهم على التسليم بسبب الجوع وخذلان المسلمين لهم
٣٢٩	٣٢٩ يأس الغرناطيين الا موسى بن ابي الغيسان
٣٢٩	٣٢٩ ارسال نوزير ابي القاسم عبد المالك الى فرديناند واير الابطال الصلح شروط الصلح وما فيها من الاعتدال في اول الامر خداع المسلمين
٣٢٩	٣٢٩ امهات الاسبانيول أمل غرناطة سيعين وما على أن يسلموا ان لم يرد لهم في خلالها مدد من وراء البحر
٣٣١	٣٣١ ما يقال عن نهاية امر موسى بن ابي الغيسان بعد ان يش من حمل الغرناطيين على متابذة الجهاد
٣٣٧	٣٣٧ بش الطاغية جميع أساطيله وجيوشه على السواحل منع الوصول أو مدد
٣٣٨	٣٣٨ قيام مرابط اسمه حامد بن زاره بالانتقار أهل غرناطة للدفاع حتى تأتيهم الامداد من جبال البشرات ومن بر العروة
٣٣٨	٣٣٨ ثورة عشر بن الفامن أهل غرناطة للدفاع وروز ان السلطان ابي عبدالله للملا واقناعه اياهم بالتسليم لشية الله
٣٣٨	٣٣٨ امضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الأول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

صفحة	صفحة
الاميراطور شرلكان	٣٣٩ خروج ابي عبدالله وحرمة وحواشيه
الثور النارية في جبال البشرات وقيام	٣٤٠ من الحمراء واعترافه بذنوبه
هرناندو دوفلور من سلائل خلفاء	٣٤١ تلاقية مع فرديناند وايرابلا في
قرطبة تحت اسم محمد بن امية سنة	الطريق وتسليمه مفاتيح البلد اليهما
١٥٦٨	٣٤١ الذروة المسماة بآخر حشرات المغربي
قتل محمد بن امية وقيام عبدالله بن	التي منها نظر ابو عبدالله الى غرناطة
ابوه خلفاه وانتهاء الثورة سنة ١٥٧٠	نظرة الأخيرة
الجللاء الاخير الذي لم يبق بعده مسلم	٣٤١ اجهاشه بالبكاء عند ماسمع دوي
واحد بالاندلس سنة ١٦١٠	المدافع ورأى دخان البارود ايذاها
٣٥٤ شدة الحروب بين الموريسك اي	يدخل الطاغية الى الحمراء وكلمة امه له
المسلمين المنصر بن كرها وبين	٣٤٢ تحويل مسجد غرناطة الأعظم الى
الجيوش الاسبانية	كنيسة واستقرار فرديناند وامرأه في
٣٥٤ قمع الثورة بأقصى الشدة واجلاء قسم	في الحمراء ورؤيتها اياها فوق ما كانا
كبير من المسلمين	يتصوران
٣٥٨ انشاء ديوان جديد لتفتيش ومماقره	٢٤٧ اقامة ابي عبدالله باقطاعه في وداي
طرد اليهود من اسبانية وسلب اموالهم	برشانة ومحاولة فرديناند وايرابلا
واكمال شرلكان مقصود فرديناند	بكل وسيلة حمله على النصرانية
باكره المسلمين على التنصر	٣٤٨ مداخلة الطاغية يوسف بن كاشة
٣٥٩ كلام المقرئ في نهاية الاندلس	وزيرا ابي عبدالله في حمله على الرحيل
٣٦١ الاعتذار بالفدر والاستسلام له	الى بر العدو وشرائه اراضيه
( خاتمة الكتاب ) في حضارة العرب	٣٤٩ اجازة ابي عبدالله ونزوله بعلية واقامته
وأثارهم بالاندلس	بناس حيث توفي سنة ٩٤٠
﴿ فهرس كتاب اخبار المصير ﴾	٣٥٠ نقض الاسبانية بول معاهدة غرناطة
٣٧١ استواء الامير ابي الحسن علي بن سعد	عروة عريه واكرامهم المسلمين على
على الاندلس وحسن سيرته اولا	التنصرا والجللاء
٣٧٢ عرضه الجيش في مدينة الحمراء بظمة	٣٥١ الثورة في جبال البشرات وهزيمة
نادرة ومعارضه اثناثة من السيل	الدون الونزو اغيلار البطل الشهير
الحارف الذي خرب غرناطة	٣٥٢ اكرام المسلمين على التزني
٣٧٣ انتكاس ملكه وانتهائه من ذلك	بالزى الاسبانية ولي ومنهم من
التاريخ بانهاكه في الشهوات وفساده	التكلم بالعربي وهدمهم الحمايت
امرا الجنود ووضعه المغاريم والمظالم على	لنهم من الفصل سنة ١٥٢٦ بأمر

صفحة	صفحة
٤٠٢	الناس ومساعدة وزيره على ذلك
٣٧٤	طمع النصاري في مكة وشروعهم في فتح البلاد وأخذ الحصون
٣٧٨	مركة عظيمة نصر فيها المسلمون
٣٧٩	رد الكرة للنصاري عليهم
٣٨١	ظهور المسلمين عليهم كرة أخرى
٣٨٢	استمرارهم على أخذ الحصون عنوة
٤٠٠	وصالحا لاجل الاحاطة بقرناطة
٤٠٠	ضمف قرناطة وقلة الطعام والرجال فيها شتاء سنة (٩٨٧) وشكوى الاهالي لامرهم محمد بن علي ذلك مع انقطاع المدد عنهم ورغبتهم في الملح وهو ما كان يتمناه ويحاوله
٤٠١	مخاطبته للملك الروم بالصالح ومبال
٤٠٨	هذا الجيع شروطهم الحسنة خذ
٤١٤	التعريف بكتاب اخبار العصر وبالمراسيم الاربعة التي تليه
٤٠٢	اخلاء مدينة الحمراء وتريث ملك الروم بدخولها حذراً من الكيد له، ودخول أهل البصرة في ذمة النصاري تبعاً لقرناطة وبذلك لم يبق للمسلمين شيء من ملك الاندلس
٤٠٣	وفاء ملك الروم للمسلمين واحسانه معاملتهم عقب الصلح
٤٠٤	شروعه في نقض الشروط فصلاً فصلاً الى آخرها وارهاقه للمسلمين بالظلم والمغارم والا كراه على التنصر الخ
٤٠٥	قتاله للذين امتنعوا من التنصر واجلاؤه من عجز عنهم امدوة المغرب بشياهم فقط وزوال الاسلام من الاندلس
٤٠٨	المراسيم الاربعة

### جدول اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٩	سجرا	سجرا	٦٨	٦	بم	به
٧	٩	لامثيل	لامثيل له	٦٨	٧	به	به
١٠	١١	إن	أن	٧٦	٢٠	بواسل	بسل (او) بسلاء
١٨	٤	بسيده	بسيد	٨٥	١٢	مقلات	مقلات
٣٣	٤	حول	نحو	٨٦	١٣	الافسط	الافطس
٤١	١	لحاء	لحاء	٩٨	٢٠	فقل الى	خصوصا لما
٤٥	١٢	للتفتيش على	للتفتيش عن			المغرب	بلغه من
٥٥	٧	قوم	آخر قوم			خصوصا لما	ثورة ابن
٥٥	٩	نجدى	نجرى			بلغه من ثورة	غانية الذي
٦٨	٤	التميم	القاسم			ابن غانية الذي	كان واليا في

الخطأ والصواب

ز

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
		كان واليا في	ميورقة	٣٣٠	١٦	إصالة	أصالة
		ميورقة فلم	فقفل الى	٢٤٠	٢١	دريا	دربا
		تكداخ	المغرب فلم	٢٤٥	١٨	إمامهم	أمامهم
			تكداخ	٢٤٩	٥	الكر والفر	الكر والفر
١٠٨	١٩	وجال	و حال	٢٥٣	٧	وصل	و وصل
١٠٨	٢٠	الدبا	الدبي	٢٥٥	٥	اخيز	اخيراً
١٠٩	١٨	لا نبيه	لا نبيه	٢٥٦	١	فتازوا	فتاروا
١٢٣	٢١	من	الى	٢٥٦	٤	الآخرة	الآخر
١٢٥	١٣	عزائمهم	عزائمهم	٢٥٧	١٦	الزغل	للزغل
١٢٥	»»	جمته	جميته	٢٦٤	٣	وتحصين	وتحسين
١٣٤	١١	ونقل	ونقل	٢٦٨	١٨	اعداء	اعداد
١٤٥	»»	وتقى مع	وبقى امر	٢٧٦	٢	آخر	آخرأ
١٤٨	١٥	الرجا	الرجال	٢٧٩	١	ابا	ايام
١٥١	٥	والاصفاق	والاصفاق	٢٨٣	١٦	رعد	وعدد
»»	٨	بيتما	مبيتنا	٢٩٦	١٥	اختطاط	اختطاط
١٦٠	١٠	طايطة	طايطيه	»»»	١٨	الهلاك	الهلاك
١٨٣	١	الى	الى فرد ياتد	٣٠١	٧	يستلمها	يتسلمها
»»	٩	النصرانية	تمالك	٣٠٦	١٨	الحجرا من	من الحجرا
		النصرانية		٣٠٩	٨	وحدثهم	وحدثهم
»»	١٢	البحر مملكة	مملكة	٣١٠	٥	فاعةم	فاعةم
٢٠١	٣	آلى	آلا	٣١٤	١٢	لسيدي	يسيدي
٢٠٥	١٦	وتفحه	وتفحه	٣١٦	١٣	استصفى	واستصفى
٢٠٧	٢٠	فقد	فقد	٣١٨	٢	نحار	نحار
٢١١	٢	نهاره	نهاه	٣٢٧	١	حتى ولا	ولا
٢١٢	١٧	فاستلم	فتسلم	»»»	٤	المصر	ذلك المهر
٢١٦	١٤	ابيه	ابنه	»»»	٤	غرناطة ذلك	غرناطة
٢٢٢	١٦	الارضى البطل	البطل	٣٢٨	٨	وفقهائه	وفقهائه
		الارضى		٣٢٩	٩	فلما	فلم
٢٢٦	٤	ويستنيب	ويستنيب	٣٣١	١٧	فن العجزان	فاذا لم يكن
٢٢٩	١٩	جامع	غير جامع			تموت جبانا	من الموت بد

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٥٥	١٨	محل	من محل	٣٧٣	١٧	يسع	يسمع
٣٣٢	١	لها	له	٣٧٤	٣	المذكور	المذكور
٣٤٠	٥	واستلم	وتسلم	»»»	١٩	نقل من نقد	قتل من نقد
٣٤١	١	التي	والتي	٣٧٨	٨	يردون	يريدون
٣٤٢	١٣	كان	كانا	٣٧٨	١٨	اللغة	ألفة
٣٥٢	٧	ويعاونونهم	ويعاونونهم	٣٧٩	١٣	هلاك	في هلاك
٣٩٤	١٨	وما بعد أن و	وما بعد الفاء	٣٨٠	١١	غير قتال من	من غير قتال
٣٧٥	١٩	الرم	الروم	٣٨٥	٢	اغراطه	غرناطة
٣٧٢	٥	العد	العد	٣٨٧	١٩	بلش	مدينة بلش
٣٧٣	١٣	الرافير	القرافير				

( وليعلم ان في كتاب أخبار مصر والمراسيم التي تليه اغلاطا بعضها من الاصل وبعضها من الطبعة الاولى ركت على حالها )

### تقديم

انه لما كان هذا الكتاب قد انطبع بطبعة المبار بمصر ، وكنا نحن بمكان والطبعة بمكان ، رجونا حضرة الاستاذ العلامة صاحب المبار أن يشرف على طبع الكتاب وية الى تصحيح مسوداته — ودل يفتى ومالك في المدينة — فعلق الاستاذ أثناء تصحيح المسردات بعض ملاحظات عننت له ، ومنها ما هو شبه استراض على المن ولم ان بعض هذه الملا فحات غير معلم عليها بامضائه فحشية ان يختلط الحالى بالنابل وحب التسمية على الحواشي التي علقها الاستاذ فهي الواردة في صفحات ٨ و ٢٧ و ٦٣ و ٦٥ و ١١٣ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٩٠ و ٣٤٧ والحاشية الثانية من ص ٣٧٠ الاولى من ص ٣٧٥ وسائر حواشيد معز وة الى مصحح الطبع وما بقي من الحواشي فهو من قلم مؤلف الكتاب شكيب ارسلان

اعذار : اننا لم نتمكن من الاعتراض بما ذكر على امير البيان بل جري به القلم كما دته لزياد المائدة كتابع سينية ابي تمام ذكرنا بس الديوان المطبوع ولا نجزم أنه الصواب لكثرة غلط الديوان ولا استدراك في مسألة الجوهرى والبرامكة في المتن لا ينافيه وكذلك حاشية القدر في ص ٣٦١ وأما حاشية ص ٣٦٧ ففيها حمل كلام المتن على اصل بليغ مع مخالفة ظاهره ولو ردا حديث